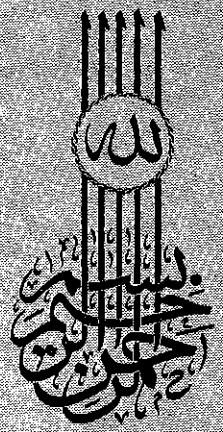

الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة
الادارة: البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون: ٦٤٢٤٠٤٣ - ٦٤٢٤٢٥٥
تلكس: 602687 FONOON SJ
فاكس: ٦٤٣٢٨٢١
ص.ب.: ٢٠٤٣/ ٢١٤٥١، برقيا: نشردار

المستودعات: طريق مكة المكرمة، شرق المطار القديم
المكتبات: ١ - شارع الملك عبد العزيز، تليفون: ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين، مركز الزومان، تليفون: ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام
الادارة: تليفون: ٨٣٤٧٧٦٩ - ٨٣٤٧٨٣٧
المكتبة: شارع الظهران (بجوار امارة المنطقة الشرقية)
تليفون: ٨٢٣٤١٥٨ - ٨٣٢٣٥١٥
قسم توزيع الجملة:
تليفون: ٨٣٤٨٣٨٢ - ٨٣٤٦٣٩٨
فاكس: ٨٣٣٥٥٢٠ برقيا: نشردار
ص.ب.: ٨٩٩ الدمام ٣١٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وآله ومن والاه.

أما بعد. فهذه مقالات وأبحاث نشرت في بعض الصحف والمجلات مثل صحيفة المدينة (جدة) والشرق الأوسط (لندن) ومجلة المجتمع (الكويت) ومجلة الأمان (بيروت) ومجلة الدعوة (القاهرة) ومجلة الفيصل الطبية (الدمام) ومجلة الفيصل (الرياض) والمجلة العربية (الرياض). . وبعضها أبحاث ألقيت في مؤتمرات الطب الإسلامي أو مؤتمرات الإعجاز العلمي أو المجامع الفقهية المنعقدة في إسلام أباد والقاهرة وجدة وعمان وكراتشي.

ويجمع هذه المقالات والأبحاث التي نشرت أو ألقيت أبحاثاً في المؤتمرات أنها تتحدث عن جوانب من الطب الإسلامي بمعناه الشمولي. . وتخص بالذات جوانب من الطب النبوي بعدة أبحاث ومقالات تبلغ نصف الكتاب تقريباً. .

وقد كنت أزمع أن أصدر كتاباً أو كتباً في الطب النبوي، ولكن حال دون ذلك كثرة المشاغل، وسعة الموضوع وتشعبه وهو يحتاج إلى تفرغ كامل لمدة سنتين على الأقل. . وذلك أمر لم استطع إدراكه. .

واستخرت الله وقلت ما لا يدرك كله فلا يترك جله، وبدأت بجمع المقالات والأبحاث التي نشرتها في هذا الباب في مقالات أو في أبحاث ألقيت في بعض المؤتمرات وجمعتها في هذا الكتاب.

وسأنشر بإذن الله تعالى كشفاً (ببلوغرافيا) بالكتب المخطوطة والمطبوعة في الطب النبوي وقد نشرت تباعاً في ملحق التراث بصحيفة المدينة تحت

عنوان «المخطوط والمطبوع من كتب الطب النبوي». . وقد كتبنا ملخصاً له في أول بحث من أبحاث هذا الكتاب كما أزمع بإذن الله أن أنشر في القريب كتاباً يعتبر من كنوز التراث الطبي الإسلامي وهو رسالة الإمام علي الرضا المعروفة باسم الرسالة الذهبية. . وهي في حفظ الصحة. . ورغم أن الرسالة قد طبعت في بغداد عدة مرات إلاّ أن نسخها قد نفذت من الأسواق منذ أمد. . ولم يطلع عليها كثير من المثقفين والمهتمين بهذا الموضوع. وقد وضعتُ لها مقدمة ضافية وتعليقات وهوامش. . وميزة هذه الرسالة أنها أول كتاب في الطب يكتبه عربي مسلم. إذ لم يسبق الإمام الرضا في الكتابة باللغة العربية في الطب إلا بعض السريان مثل بختيشوع ويوحنا بن ماسويه. . وقد كتبها الرضا قبل سنة ١٥٠هـ وذلك عند قدومه إلى المأمون في مرو من المدينة المنورة وبناء على طلب المأمون وإلحاحه.

ولعلي بهذه الطريقة أخفف من الاحساس بالذنب والتقصير تجاه الطب النبوي، واحقق بذلك، ولو بصورة مبتسرة، ما أصبو إليه من تعريف المثقف العام والطبيب بأهمية الطب النبوي، والكنوز المخبوءة فيه.

ويشمل النصف الثاني من الكتاب مقالات حول منع الحمل وحكمه في الإسلام وأضرار الحبوب المستخدمة لمنع الحمل وخطورة استخدامها دون إرشاد طبي. . كما تتحدث عن مدة الحمل أقله وأكثره في الطب والشرع والقانون وهو بحث تم إلقاؤه في المؤتمر الطبي الإسلامي الرابع المنعقد بباكستان (نوفمبر ١٩٨٦) بمدينة كراتشي.

وهناك مجموعة من المقالات الطويلة والقصيرة حول التدخين واستخدام الشمة (المضغة أو السعوط) والتدخين في العالم الثالث. . والتدخين في المملكة العربية السعودية. . وهي مقالات وأبحاث تضاف إلى كتابي «التدخين وأثره على الصحة».

وتضم المقالات الأخرى إجابات على بعض الأسئلة الطبية الإسلامية مثل متى تنفخ الروح؟ وهل للمرأة دور في جنس الجنين؟ وما هي الحكمة من تحريم الجماع أثناء الحيض. . والروح التي بها حياة البدن.

وفي مقال «بلى إن هناك حكمة» رد على الأستاذ أنيس منصور الذي زعم أن لا حكمة من وجود الخلق. . وأن الكون كله عبث في عبث. أما مقال تطور العقيدة عند العقاد ومصطفى محمود فهو رد على ما زعمه الأستاذ العقاد رحمه اللّه والدكتور مصطفى محمود من أن العقيدة تطورت من عبادة الطوطم إلى عبادة الأوثان إلى عبادة إله القبيلة عند بني إسرائيل إلى الأقانيم الثلاثة: اللّه (الأب) والابن(عيسى) والروح القدس والمجتمعة في واحد، عند النصارى إلى الوحدانية الخالصة التي تمثل قمة التطور في العقيدة والتي جاء بها محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم. . . وفي مقال كتب تزعم أن لحم الهر يشفي من السل وملعقة سبرتو علاج السكر رد على كتاب كوبلي «أسرار الطب العربي القديم والحديث» وهو كتاب لقي رواجاً كبيراً وطبعت منه عشر طبعات. . وخطورته أنه يدعو إلى استخدام السبرتو ودهن الخنزير ولحم الهر لمعالجة كثير من الأمراض. . وللأسف فإن كوبلي هذا لم يكن سوى خوري في كنيسة صغيرة في لبنان ولم يدرس الطب في حياته. ومع هذا فقد عمل كطبيب وقتل مئات الأشخاص بوصفاته الطبية الرهيبة. . وكتابه هذا ينشر هذه السموم على نطاق واسع. . وهي مخالفة تماماً للطب والدين معاً. وللأسف تنتشر هذه الكتب في مختلف المكتبات وتباع حتى على أبواب الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وطالبنا في مقال الترجمة في عصر المأمون والترجمة في العصر الحديث، بالتركيز على ترجمة العلوم والطب والتكنولوجيا وإهمال ترجمة الآداب والميتولوجيا (الأساطير) والفلسفات اليونانية والغربية المصادمة لعقيدتنا وتراثنا. . وأن سبب تقدم اليابان وتخلفنا أن اليابان ركزت أثناء بناء نهضتها الحديثة على ترجمة العلوم ووسائل التكنولوجيا إلى اللغة اليابانية وأن البلاد العربية ركزت على نقل وترجمة الفنون والأدب والمسرحيات والفلسفات وأهملت ترجمة العلوم والطب. . وركزنا في مقال حوار حول تدريس الطب باللغة العربية على أهمية تدريس الطب باللغة العربية ووجوب ذلك. . ودعونا إلى استخدام الألفاظ السهلة وخاصة تلك الموجودة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وكلام العلماء والمتعلقة بخلق الإنسان ومراحل خلقه وأعضاء جسمه

وكـل ما تعلق بـالطب، والبعـد عن التقعر والاشتقـاقات السقيمـة. . لأن ذلـك يسهل عملية العودة إلى اللغة العربية.

وكان من نصيب القضايا الفقهية الطبية بعض المقالات مثل مقال: التلقيح الصناعي مباح شرعاً بشروط، وهو مقال كتبته منذ عشر سنوات تقريباً للرد على الأستاذ سعد حسن لـطفي الذي هـاجم وشتم فضيلة مفتي تونس وفضيلة مفتي مصر لأنهما أبـاحا التلقيح الاصطناعي بين الـزوجين. . وقد اهتم الإعــلام والمجتمـع بأسـره بهذه المشكلة ونـوقش مـوضـوع أطفـال الأنـابيب والتلقيـح الاصـطناعي في المجـامع الفقهيـة العديـدة (مكة وجـدة وعمان وغيـرهـا). . وشاركت في هذه الاجتماعات والمؤتمرات وأصدرت كتابين في هذا الموضوع أحدهما: طفل الأنبوب والتلقيح الاصطناعي ونشرته دار العلم، بجدة، والثاني بعنوان: «أخلاقيات التلقيح الاصـطناعي. . نـظرة إلى الجذور» ونشـرته الـدار السعودية للنشـر بجدة أيضـاً. . والأول بحث قدم إلى مجمـع الفقه الإسـلامي بجدة وعمان والثاني بحث قدم إلى الأكـاديمية الملكيـة المغربيـة المنعقدة في أغادير ١٩٨٧.

ومن المواضيع الفقهيـة الطبيـة مقال المشـروبات الغـازية والكحـول. . وموضوع موت الدماغ. وقد كـان الموضـوع الأخير مثـار أبحاث طبيـة، وفقهية كثيرة نوقشت في ندوات الطب الإسـلامي بالكـويت والقاهـرة كما نـوقشت في المجامع الفقهية بمكة المكـرمة وجـدة وعمان. . والمقـال الأخير ضمن بحث طويل عن موت القلب أو موت الدماغ وهـو مقدم لمجمـع الفقه الإسـلامي في جدة وعمان. وقد نشر الكتـاب بعنوان «مـوت القلب أو موت الـدماغ» بـواسطة الدار السعودية بجدة، ولم يكن هذا المقال ضمن الكتاب.

هذه نظرة موجزة على أبحاث الكتاب ومقـالاته. . أرجـو من اللّه الكريم أن ينفع بها. . وهي في ظني مـواضيع لا تـزال تلح على مجتمعاتنـا الإسلاميـة وربمـا احتاج بعضهـا إلى مزيـد من البحث والتفكير. وحسبي أنهـا تفتح آفـاقاً للدراسة ومجالاً للمناقشة. واللّه ولي التوفيق لا ربّ سواه ولا هادي غيره.

هل هناك طب نبوي ؟ [١]

قد يبدو طرح هذا السؤال مثيراً وخاصة للشباب المتمسك بدينه والحامل للواء العودة لتطبيق الشريعة الإسلامية واتباع سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ونحن لم نطرح هذا السؤال عبثاً . . ذلك لأن مجموعة من علماء المسلمين ، وخاصة في مجالات الفلسفة والفكر والتاريخ بل وعلوم الحديث ، قد طرحوا هذا السؤال ، منذ أزمنة قديمة . . ولا يزالون يطرحونه إلى اليوم .

والسبب في ذلك أنه قد صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في قضية تأبير النخل : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم . . وذلك عندما أتى إلى المدينة ورأى الأنصار ، رضوان الله عليهم ، يؤبرون (يلقحون) النخل فقال : لو تركوه لأثمر ، فلما تركوه لم يثمر إلا شيصاً فلما أخبروه بذلك قال : أنتم أعلم بشؤون دنياكم» .

وقد صح عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه اختار موقعاً معيناً في موقعة بدر ، فجاءه الحباب بن المنذر وسأله هل اختار هذا المكان بوحي من السماء ، وأن ليس للمسلمين أن يحيدوا عنه . فلما أجابه أنَّ ذلك ليس بوحي وإنما هي الحرب والمكيدة قال الحباب بن المنذر ليس هذا بمنزل وأشار عليه بمنزل آخر حتى يشرب المسلمون ويكونون قريبين من القليب ويغوِّرون ما وراءه، فنفذ الرسول الكريم مشورته.

وقد اتجه كثير من المعتزلة والمفكرين من أمثال ابن خلدون(*) وبعض المتأخرين إلى أن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الطب ، إنما هو من العاديات التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم برأيه وليس للوحي فيها أي مدخل ، وبالتالي تكون قابلة للخطأ .

ومما حدا ببعض هؤلاء إلى إنكار أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في الطب أن بعضها يبدو في ظاهره التناقض ، مثل أحاديث العدوى والجذام التي سيأتي ذكرها . . وتفصيل ما فيها من تناقض ظاهري سببه عدم فهمهم وعلمهم بأسباب المرض المعدي وكيفية تفاعل الجسم معه والأحاديث في ذلك قمة من الإعجاز العلمي الباهر .

كذلك بدا لبعض هؤلاء الأشخاص أن الأحاديث الواردة في معالجة المبطون (أي المصاب بالإسهال) بالعسل أمرٌ منافٍ للطب المعروف في زمنهم ، ومن هؤلاء ابن خلدون الذي كان وقحاً في مقدمته حينما وصف طب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من طب العجائز !! وأنكر ابن خلدون بجهله الفاضح أن يكون في العسل شفاء للإسهال . . والأبحاث الطبية الحديثة الكثيرة تنقض ما يقول وتوضح أن العسل شفاء وعلاج جيد للإسهال وخاصة الإسهال الناتج عن عدوى بكترية(١-٣) .

وكذلك ظهر لبعض المفكرين القدماء وبعض الأطباء أن ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في علاج الحمى بالماء البارد أمر مخالف للطب . .

(*) نقلنا نص عبارة ابن خلدون من المقدمة ص ١١٥ ـ ١١٦ من هذا الكتاب وهي عبارة وقحة حيث تذكر أن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم هو من طب العجائز، والغريب أنه استدل على ذلك بمداواة النبي المبطون (المصاب بالإسهال) بالعسل، مما يدل على جهل ابن خلدون الفاضح في هذا الباب.

(١) د. سالم نجم وزملاؤه : علاج الإسهال المزمن بعسل النحل ، المؤتمر الثاني للطب الإسلامي ، الكويت، ١٩٨٢ (ج ٢/ ٥٧٥) .

(٢) Haffegee I.E, Moosa: Honey in the treatment of Infantile Gastero enteritis BMJ. 290 / 1866- 1867, 1985.

(٣) د. محمد نزار الدقر : العسل فيه شفاء للناس ، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ .

والطب الحديث يدحض ما قالوه ويوضح مدى جهلهم[٤-٥] .

وقد كان الأطباء وكثير من أهل العلم يزعمون أن في الخمر غذاء وشفاء للكثير من الأسقام . . ومن هؤلاء الطبيب المشهور الرازي في كتابه الأشربة[٦]، حيث يمتدح شرب الخمر باعتدال ويؤكد على فوائدها الطبية المتعددة . . وكذلك فعل ابن سينا وغيره من الأطباء . بل إن الأمر قد وصل إلى ما هو أبعد من ذلك حيث ذكر ابن كثير في تفسيره أن في الخمر منافع كثيرة للصحة ، ولكن ضررها في الدين[٧] . . وتابعه في ذلك بعض الفقهاء المحدثين الذين سمحوا بشرب الخمر للتداوي من أمراض القلب مثل الذبحة الصدرية وجلطة القلب ، وللتداوي من البرد القارس[٨] .

وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم تهدم ما قالوه إذ تعتبر أن الخمر داء وأنها ليست بشفاء . . وها هو الطب الحديث يؤكد ما جاء في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدحض ما ذهب إليه الأطباء ومن تابعهم من العلماء من أن الخمر دواء وشفاء[٩] .

ورغم كل هذه الضجة المفتعلة التي أقامها المنكرون للطب النبوي ، والتي أوضح الطب الحديث فيها زيف ما قالوه . . وإعجاز أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك إعجازاً تتقاصر دونه الأعناق . . وتبدو فيه هذه الأحاديث نوراً وهاجاً ينير السبيل للبشرية على مدى القرون وتطاول الأيام .

أقول ورغم كل هذه الضجة، إلّا أن آلاف العلماء الأجلاء، منذ قرون طويلة ، كتبوا يذبّون عن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يقل

---

(٤) د. محمد سالم حضرامي ، الزنداني : معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في علاج الحمى ، مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن الكريم ـ القاهرة ١٩٨٥ .

(٥) د. يحيى خواجي ـ عبد الوهاب نور ولي : السهر والحمى وعلاقتها بمادة الاندورفين لتسكين الشفاء المبكر ، مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن الكريم ـ القاهرة ١٩٨٥ .

(٦) ابو بكر الرازي : الأشربة من كتاب منافع الأغذية ، بيروت .

(٧) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، سورة البقرة آية ٢١٩ . بيروت ١٩٧٠ .

(٨) سيد سابق : فقه السنة ، ج ٢ ، الخمر .

(٩) د. محمد علي البار : الخمر بين الطب والفقه الطبعة السابعة الدار السعودية جدة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ .

في هزل ولا جد إلا حقاً ، وأن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الطب هو حق لا مرية فيه وإن بدا في بعض هذه الأحاديث تناقض ظاهري مرده إلى عدم معرفة الأسرار الكامنة وراء هذه الأحاديث ، والتي جاء الطب الحديث يوضح شيئاً كثيراً من هذه الأسرار.

وقد كتب أعلام الحديث كتباً ضمن موسوعاتهم الحديثية تتضمن أحاديث الطب ، وإن كان مفهوم الطب لدينا أوسع بكثير مما هو لديهم . .

وقد شمل كتاب صحيح البخاري وصحيح مسلم والسنن الأربعة والمسانيد أبواباً أو كتباً مستقلة باسم الطب . . كما قام كثير من العلماء ، على مدى العصور ، بكتابة كتب مستقلة باسم الطب النبوي .

ومن أشهر هذه الكتب كتاب الطب النبوي لابن القيم ، وكتاب الطب النبوي للذهبي . . ولكن هناك عشرات الكتب المخطوطة التي ألّفها العلماء الأجلاء ومن بينهم عدد من الأطباء الفقهاء المحدثين مثل عبد اللطيف البغدادي والكحّال بن طرخان ، والتي لا تزال مجهولة بالنسبة لأغلب المثقفين والعلماء .

وقد قمنا في هذا البحث بذكر ما استطعنا العثور عليه من كتب الطب النبوي المطبوعة والمخطوطة ، وذكرنا اين توجد هذه المخطوطات . . وقد اعتمدنا في ذلك على عدة مصادر أهمها :

١) فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا إصدار مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٢) الطب النبوي والعلم الحديث للدكتور ناظم نسيمي ، الشركة المتحدة للتوزيع ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ ، دمشق .

٣) مقدمة رسالة ماجستير تحقيق كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي للإمام السيوطي ، للدكتور حسن محمد مقبولي المدينة المنورة ، الجامعة الإسلامية ، ١٤٠١هـ .

الرسائل والكتب القديمة المؤلفة في الطب النبوي

لا تـزال بحمد الله مجمـوعة من الكتب والرسائـل المؤلفة في الـطب النبوي موجودة في مختلف مكتبات العالم ، رغم أن ما ضاع منها واندثر كثير ، وسنشير إلى بعض الموجود وأين يوجد ، وإذا كان قد طبع مؤخـراً فأين طبـع ومتى ؟

١) أبو نعيم الأصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠هـ) (٩٤٨ ـ ١٠٣٨م)

هو الإمام أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني ، من أعلام الحديث وأحد الحفاظ المشهود لهم في علم الحديث . له عدة كتب منها كتاب الطب النبوي . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً وتـوجد منـه نسخ في مكتبـات تركيـا (مكتبـة آق سكي ومكتبـة أدنـه ومكتبـة يكن محمـد بـاشـا) ، وفي مكتبـة الأسكوريال بمدريد ، وفي معهد المخطوطات العربية ، بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق[1] .

٢) الموفق عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (٥٥٥ ـ ٦٢٩هـ)

المـوفق عبد اللطيف بن يـوسف البغدادي الـطبيب المحـدث اللغـوي النحوي الفقيه . . له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم منها غريب الحديث ، والجـامـع الكبيـر في المنـطق ، والـطبيعي والإلهي في الفلسفـة في عشـرة مجلدات .

وله كتاب الأربعين الطبية ، اختار فيها أربعين حديثاً في الطب من سنن ابن ماجه فقـام بشرحهـا وتوضيـح أغراضهـا الطبيـة، بناء على سؤال قـدمه لـه تلميذه محمد بن يوسف البرزالي .

وقد قام العلامة عبد الله كنون بالمغرب بطبع الكتاب بعد تحقيقه وطبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب سنة ١٩٧٩ ، ثم أعيد طبع الكتاب بعد ذلك .

---

(١) وقد قام أحمد بن يوسف التيفـاش (٥٨٠ ـ ٦٥١هـ) بحذف أسـانيد أبي نعيم وأسقط الأحـاديث المكررة، وأبقى تراجمه وفصوله.

٣) الكحال بن طرخان (٦٥٠ ـ ٧٢٠هـ)

هو أبو الحسن علي بن عبد الكريم بن طرخان الحموي ثم الصفدي ، أحد الأعلام في طب العيون بصورة خاصة . . وكان مع ذلك أديباً واسع الاطلاع ، ملماً بفنون المعرفة ، عارفاً بالحديث .

جمع ابن طرخان أربعين حديثاً في الطب من الصحيحين البخاري ومسلم ثم شرحها شرحاً وافياً .

ويوجد الكتاب مخطوطاً في المكتبة الأحمدية بحلب ، وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وفي مكتبات تركيا (مكتبة بايزيد ومكتبة عزيز محمود هدائي ، ومكتبة فيض الله أفندي ، ومكتبة راغب باشا ، ومكتبة ولي الدين أفندي ومكتبة تيره) .

وقد طبع الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٥ بتحقيق عبد السلام هاشم حافظ ، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ، وقد نفذت جميع نسخ الكتاب . . وإلى الآن لم يعد طبعه .

٤) ضياء الدين المقدسي (٥٦٩ ـ ٦٤٣ هـ) (١١٧٤ ـ ١٢٤٥م) .

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي . أحد علماء الحديث . له كتاب الطب النبوي ، لا يزال مخطوطاً ، وتوجد نسخ من المخطوط في دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ومكتبة اسطمبول ، ومكتبة جور ليلى علي باشا بتركيا .

وتوجد رسالة صغيرة في الطب النبوي بمعهد المخطوطات العربية باسم المقدسي الحنبلي . ولم يوضح الدكتور حسن مقبولي الأهدل في مقدمة رسالة الماجستير التي وضعها عن كتاب المنهج السوي والمنهل الروي للسيوطي ، اسم المقدسي هذا ، وهل يختلف عن ضياء الدين المقدسي السابق ذكره .

٥) أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي القيسي (٥٨٠ ـ ٦٥١هـ) (١١٨٤ ـ ١٢٥٣م)

ينسب التيفاشي إلى تيفاش من قرى قفصة بتونس . تتلمذ على يد الطبيب المحدث الفيلسوف عبد اللطيف البغدادي الذي تقدم ذكره .

وقد وضع التيفاشي مؤلفاً في الطب النبوي بعنوان : « الشفا في الطب

المسند عن السيد المصطفى» ويوجد المخطوط في معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية بالقاهرة . ويوجد أيضاً في مكتبات تركيا (مكتبة مغنيسا ومكتبة بلديه) ، كما توجد منه نسخ باللغة التركية بترجمة أحمد بن إبراهيم المعروف الداعي .

٦) شمس الدين البعلي (٦٤٥ - ٧٠٩هـ) (١٢٤٧ - ١٣٠٩م)

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي نسبة إلى بعلبك (في لبنان) . . الفقيه الحنبلي ، المحدث اللغوي . جمع أربعين حديثاً في الطب ، أختارها من الصحاح والحسان .

ويوجد المخطوط في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وفي مكتبة استانبول بتركيا وطبع حديثاً (عام ١٩٨٥) بتحقيق أحمد البزرة وعلي رضا عبد الله ، والناشر دار ابن كثير (دمشق - بيروت)

٧) ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ) (١١١٤ - ١٢٠١م)

هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي التيمي (نسبة إلي تيم بطن من قريش) وينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه . . مؤرخ وعالم بالحديث والفقه . . مكثر في التأليف .

وله في الطب ثلاثة كتب :

أ) **طب الأشياخ** : والغريب حقاً أن الأطباء لم يهتموا بطب الأشياخ إلا حديثاً جداً ، حيث كثرت المؤلفات الطبية في هذا الفرع من الطب . ويعتبر ابن الجوزي من السابقين الذين أفردوا طب الأشياخ Gériatric Medicine بكتاب . ويوجد المخطوط في مكتبات تركيا مثل مكتبة أياصوفيا ، ومكتبة أسعد أفندي .

ب) **مختار اللفظ في الطب** : ويوجد المخطوط في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ومكتبة أياصوفيا باستانبول بتركيا ، ومكتبة شيخ الإسلام أسعد أفندي ، ومكتبة مدرسة سي ، ومكتبة حاجي محمد وجميعها في تركيا .

جـ) **لقط المنافع في الطب** : ويوجد المخطوط في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ومكتبة بايزيد ، ومكتبة ازمير ملي ، ومكتبة حاجي بشير آغا ، ومكتبة مغنيسا ، وجميعها في تركيا .

وقد نسب الدكتور ناظم نسيمي والدكتور حسن محمد مقبولي هذه الكتب إلى كتب الطب النبوي ولم تتح لي فرصة الاطلاع على أي من هذه المخطوطات للتأكد من ذلك .

٨) ابن ساعد السنجاري المشهور بابن الأكفاني المتوفى سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

هو محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري ، أبو عبد الله ، المشهور بابن الكنفاني . طبيب وباحث وعالم بالحكمة والرياضيات . ولد ونشأ في سنجار بالعراق ، وانتقل إلى القاهرة وزاول الصناعة الطبية فيها .

له تآليف كثيرة في العلوم والجواهر والحساب . وله في الطب المخطوطات التالية :

- **الطب النبوي** : وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢ طب تيمور .
- **رسالة في حفظ الصحة** : وتوجد منه نسخ في مكتبة شيخ الإسلام أسعد أفندي ومكتبة علي أميري وكلاهما في تركيا .
- **رسالة في صناعة الكحل (طب العيون)** وتشريح العين ، وتوجد منه نسخة في مكتبة راغب باشا بتركيا .
- **غنية اللبيب فيما يستعمل عند غيبة الطبيب** : وتوجد منه نسخة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا .
- **تجريد كشف الرين** : ويوجد في مكتبة نور عثمانية بتركيا .
- **نهاية الحصد في صناعة الفصد** : ويوجد أيضاً في مكتبة نور عثمانية .
- **روضة الالبَّاء في أخبار الأطباء** : وهو مختصر لكتاب ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» وقد أضاف إليه ذكر الأطباء بعد عصر ابن أبي أصيبعة .

٩) المستغفري (٣٥٠ - ٤٣٢هـ) (٩٦١ - ١٠٤١م)

هو أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفري النسفي . كان

خطيب نسف وعالمها . ونسف من بلاد ما وراء النهر (والمقصود نهر جيحون المعروف باسم آموداريا) . وهي تقع جنوب بخارى فيما يسمى اليوم جمهورية أوزبكستان في الاتحاد السوفييتي ، (وقد ذكرنا نسف ومن أنجبته من العلماء في كتابنا المسلمون في الاتحاد السوفييتي ج ٢/٥٤٧ ـ ٥٥٢) .

والنسفي المستغفري من أشهر خطباء نسف وله مصنفات كثيرة . . وما يهمنا ها هنا كتابه « الطب النبوي» . ويوجد المخطوط في كثير من مكتبات تركيا مثل مكتبة فيض الله أفندي ، ومكتبة سمسون ، ومكتبة جامعة استانبول (القسم العربي) ، ومكتبة ملي كتبخانه (القسم العربي) ، ومكتبة كتبخانه سي .

ويعتبر المستغفري من أوائل من كتبوا في الطب النبوي رسائل وكتباً مستقلة ، ولم يسبقه فيما نعلم إلا الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم (١٥٣ ـ ٢٠٣هـ) ، وكتابه موجود في مكتبات تركيا وسيأتي ذكره ، وابن السني المتوفى سنة ٣٦٤ ، وكتابه موجود في مكتبات تركيا وسيأتي ذكره . ومن الكتب المفقودة كتاب الطب النبوي لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (١٧٤ ـ ٢٣٨هـ) ، وابن ابي عاصم (٢٠٦ ـ ٢٨٧) ، وكتابه في الطب النبوي مفقود أيضاً ، وأبو نعيم الأصبهاني المعاصر للمستغفري وقد تقدمت ترجمة أبو نعيم الاصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠هـ) .

١٠) البدر بن جماعة (٦٣٩ ـ ٧٣٣هـ) (١٢٤١ ـ ١٣٣٣م)

هو بدر الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة الكناني الشافعي ، الحموي فقيه محدث ، تولى القضاء بالقدس ومصر والشام .

له كتب عدة وما يهمنا ها هنا كتاب « الطب النبوي» ، وتوجد منه نسخة في مكتبة أدنه بتركيا بعنوان « تذكرة في الطب النبوي» . وقد ذكر الدكتور رمضان ششن في كتابه نوادر المخطوطات العربية ، كما ينقله عنه فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا (ص ٢٦٦)، أن هذا الكتاب هو للإمام الذهبي وأن نسبة الكتاب إلى البدر بن جماعة لا تصح . . والأمر بعد ذلك يحتاج إلى تحقيق .

١١) الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم (١٥٣ ـ ٢٠٣هـ) (٧٧٠ ـ ٨١٨م)

هو الإمام أبو الحسن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين السبط ابن فاطمة الزهراء بنت خير البرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أحد أئمة آل البيت الأطهار المشهود لهم بالعلم والفضل والكرم والنجابة وحسن الخلق .

وضع رسالة في الطب للخليفة المأمون العباسي ، الذي أحبه كل الحب ، والذي زوّجه ابنته وهمَّ بجعله خليفة له إلا أن المنية عاجلت الإمام علي الرضا .

وهذه الرسالة أقدم ما كتب في الطب النبوي، وهي موجودة في مكتبات تركيا نذكر منها مكتبة رئيسي الكتاب ، ومكتبة بغداد لي وهبي ، ومكتبة أسعد أفندي ، ومكتبة علي أميري القسم العربي[1].

وتوجد ترجمة « الرسالة المذهبة » إلى اللغة الفارسية لأبي علي الحسن ابن إبراهيم السلماسي الورّاق وتوجد منها نسخ في مكتبة الفاتح بخط يد المترجم سنة ٦٢٤ ومكتبة بغداد لي وهبي .

١٢) الإمام ابن القيم (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) (١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م)

هو الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية ، العلامة الفقيه المحدث المجاهد الورع ذو التصانيف الكثيرة . .

وكتابه « الطب النبوي » من أشهر ما كتب باسم الطب النبوي وأكثرها ذيوعاً . . وقد طبع في العصر الحديث أكثر من عشر طبعات محققة وغير

---

(١) تعتبر هذه الرسالة أقدم رسالة في الطب وحفظ الصحة ألّفها مسلم. . ولم يسبقه بالكتابة باللغة العربية في حفظ الصحة أحد قبله. . وهي تمزج الطب اليوناني وما وصل إلى الإمام الرضا من آبائه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وليس فيها نصوص الأحاديث وإن كانت مشتملة عليها. وقد طبعت هذه الرسالة في بغداد، مكتبة ملتقى العصرين ١٩٥٣ مع تعليقات الدكتور صاحب زيني، ونشرها أيضاً مرتضى العسكري في بغداد، ١٩٥٤ . والمطبعة الحيدرية بالنجف في العراق سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٦٧م. وبلغني أنها طبعت سنة ١٩٨٧م في طهران. . وسنعيد نشرها بإذن اللّه قريباً مع مقدمة ضافية وتعليقات عدة.

محققة . وأول من طبع الكتاب الشيخ محمد راغب الطباخ من سوريا ، وطبعته دار التراث بتحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، والمكتبة الأدبية بتعليق عبد الغني عبد الخالق ، ود . عادل الأزهري والشيخ محمود فرج . وقد أعيد طبع الكتاب مرات عديدة وشهد إقبالاً كبيراً من جمهور المثقفين وخاصة من الشباب الإسلامي .

والكتاب جزء من كتاب ابن القيم « زاد المعاد في هدى خير العباد » أفرد مستقلاً ، ويوجد الكتاب مخطوطاً في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة ، ومكتبات تركيا (مكتبة مغنيسا ، ومكتبة حميدية ، ومكتبة جراح باشا ، ومكتبة جامعة استانبول القسم العربي ، ومكتبة رئيسي الكتاب ، ومكتبة آيا صوفيا) .

وأهم مصدر لكتاب ابن القيم هو كتاب الموفق عبد اللطيف البغدادي وكتاب الكحال علي ابن طرخان الحموي « الأحكام النبوية في الصناعة الطبية . . » وإن كان ابن القيم لا يشير إليهما .

١٣) الإمام الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ) (١٢٧٤ ـ ١٣٤٨م)

هو الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز الذهبي . . الحافظ الثقة المحدث المؤرخ الدمشقي مولداً ووفاة . صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة . وما يهمنا ها هنا كتابه الطب النبوي . ويوجد المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ومكتبات تركيا (مكتبة كوبريللي ، القسم الثالث ، ومكتبة أدنه ، ومكتبة حسيب أفندي ، ومكتبة رشيد أفندي ، ومكتبة بايزيد عمومي)[1] .

١٤) محمد الدمياطي (غير معروف سنة المولد والوفاة) (القرن الثامن الهجري)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي المصري الدمياطي الشافعي الأنصاري . توجد نسخة من كتابه الطب النبوي بخط المؤلف سنة

---

(١) وقد طبع الكتاب بمصر ١٩٦١ (مصطفى البابي الحلبي)، وطبعته المكتبة الشعبية، بيروت (بدون تاريخ الطبع)، وصوّرته دار الكتب العلمية عدة مرات آخرها سنة ١٩٨٣م . كما طبع الكتاب بهامش كتاب تسهيل المنافع في الطب والحكمة لابن الأزرق.

٧٨٩هـ بمكتبة رئيس الكتاب بتركيا . وقد ذكر المؤلف إنه كتبه في دمشق سنة ٧٨٩هـ .

١٥) محمد السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م

هو أبو عبد الله ، محمد بن يوسف بن عمر السنوسي ، له كتاب الطب النبوي بعنوان « تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غوامض الصناعة الطبية » . والكتاب لا يزال مخطوطاً في مكتبات تركيا مثل مكتبة لا له لي ، ومكتبة عاطف أفندي ، ومكتبة بغداد لي وهبه ، ومكتبة رئيس الكتاب ، ومكتبة بايزيد عمومي .

١٦) داود بن فرج الحنبلي (غير معروف سنة المولد والوفاة)

له كتاب بعنوان مختصر في الطب النبوي . وتوجد من المخطوط نسخة في مكتبة بايزيد عمومي بتركيا، وكتبت المخطوطة سنة ٩٧٢هـ.

١٧) الحسين بن محمد النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦هـ / ١١٠٥م

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن حبيب النيسابوري . والكتاب موجود مخطوطاً في مكتبات تركيا ، كما توجد له ترجمة أيضاً إلى اللغة التركية . . وقد ذكره الدكتور ناظم نسيمي في الكتب المفقودة في الطب النبوي ، وكذلك فعل الدكتور حسن مقبولي الأهدل والكتاب موجود في المكتبات التالية بتركيا : مكتبة متحف الآثار ومكتبة بايزيد عمومي ، ومكتبة أدنه ، ومكتبة كتبخانة ، ومكتبة محمد عارف ، ومكتبة محمد مراد ، ومكتبة يوسف أغا ، ومكتبة بغدادلي وهبه ، ومكتبة مغنيسا ، ومكتبة سليم أغا ، ومكتبة لا له لي ، ومكتبة كمانكش ، ومكتبة صفرا نبولي .

وتوجد ترجمة للكتاب باللغة التركية والمترجم مجهول في مكتبة قسطموني ومكتبة أدنه .

١٨) الإمام النووي (٦٣١ - ٦٧٦هـ) (١٢٣٣ - ١٢٧٧م)

هو الإمام محي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شرف بن مري النووي الشافعي . وينسب إلى قرية نوى من أعمال دمشق . . المحدث الفقيه الثبت الورع ذو التصانيف الكثيرة والتآليف المشهورة . أحد أعلام الأمة المحمدية الذين نفع اللّه بعلمهم على مدى الأزمان وتطاول الأيام. وما يهمنا من كتبه

ها هنا «كتاب الطب النبوي» . والغريب أن تلميذ الإمام النووي ابن العطار لم يذكره حين عدد كتبه (انظر الأعلام للزركلي ج ٨/ ١٥٠) .

والكتاب موجود في مكتبات تركيا (مكتبة بايزيد عمومي برقم ١٦٣٦٦ ، كتبه درويش القونوي سنة ١١٠٤هـ)

١٩) ابن السني المتوفى سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م

هو الإمام أبو بكر ، أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط الدنيوري المعروف باسم ابن السني صاحب الإمام المحدث النسائي (مؤلف سنن النسائي) وراوي السنن الصغرى له ، حافظ ثقة له مؤلفات عدة منها كتابه « الطب النبوي» الذي يعتبر من أقدم ما كتب في الطب النبوي مفرداً ، ولم يسبقه في ذلك ، حسبما وصل إلينا ، إلا الإمام على الرضا بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق (١٥٣ ـ ٢٠٣هـ) . وأما كتاب عبد الملك بن حبيب وكتاب ابن أبي عاصم فمن المفقودات .

وهو من أهم مصادر من كتب بعده في الطب النبوي مثل الكحال بن طرخان وابن القيم والسيوطي . . .

وقد ذكر الدكتور ناظم نسيمي أن هذا الكتاب مفقود ، والكتاب موجود كاملاً في مكتبة الفاتح بتركيا برقم ٣٥٨٥ في ٧٢ ورقة بخط إبراهيم بن علي سنة ٧٧٥هـ .

٢٠) الإمام السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥م)

هو الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الأسيوطي . . صاحب التآليف الكثيرة المتنوعة التي بلغ عددها قرابة ستمائة مؤلف في مختلف فنون المعرفة المعلومة في زمنه .

وله في الطب النبوي الكتب التالية :

أ) المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي : ويوجد الكتاب مخطوطاً في المكتبة الظاهرية بدمشق وخزائن كتب الأوقاف ببغداد ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة والمكتبة الأحمدية بتونس ، ومكتبة برلين ، ومكتبة أكسفورد . ويوجد في مكتبات تركيا : مكتبة فيض الله أفندي ، ومكتبة ملي كتبخانة ، ومكتبة طلعت باشا ، ومكتبة جراح باشا ، ومكتبة متحف مولانا ،

ومكتبة سمسون ، ومكتبة جامعة استانبول القسم العربي ، ومكتبة خراججي أوغلي ، وقد حققه في رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية السيد حسن محمد مقبولي الأهدل . . وطبعها في دمشق بتحقيق ضاف ومقدمة مسهبة (سنة ١٤٠٧هـ)، كما ذكر ملحق التراث (صحيفة المدينة) انه سينشر قريباً في المدينة المنورة.

ب) كتاب الطب النبوي .

ج) كتاب ما رواه الواعون في اخبار الطاعون .

وينسب إليه كتاب الرحمة في الطب والحكمة ومؤلفه مهدي بن علي المهجمي الصبيري اليمني . موجود في مكتبات تركيا .

٢١) القليوبي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩

هو شهاب الدين ، أبو العباس ، أحمد بن أحمد بن سلامة من قليوب في مصر. له كتاب « المصابيح السنية في طب خير البرية » ، وتوجد منه نسخ في مكتبات تركيا مثل مكتبة قره جلبي ، ومكتبة بايزيد عمومي ومكتبة علي أميري ، ومكتبة نور عثمانية ، وتوجد منه نسخ في مكتبات تركيا مثل مكتبة قره جلبي ، ومكتبة بايزيد عمومي ومكتبة علي أميري ، ومكتبة نور عثمانية ، وتوجد نسخة في معهد التراث العلمي العربي بسوريا.

٢٢) المارديني (القرن الثاني عشر الهجري)

هو السيد صالح بن عبد العزيز المارديني له كتاب « الهدايا النبوية في الطب » وتوجد منه نسخة في مكتبة روان كوشكي ، ونسخة في مكتبة كمانكش وكلاهما في تركيا .

٢٣) عبد الرزاق بن مصطفى الأنطاكي (غير معروف تاريخ المولد والوفاة)

له مخطوط بعنوان « طب نبوي في منافع المأكولات» موجود في المكتبة الوقفية بحلب .

٢٤) محمد الصفتي الزيني (غير معروف تاريخ المولد والوفاة)

له مخطوط باسم الطب النبوي في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١٣١ طب تيمور ، ويقع في مائة ورقة .

وهناك العديد من الكتب التي حوت فيما حوت أبواباً من الطب النبوي ،

مثل كتب الحديث المشهورة ، الأمهات الست والمسانيد ، وكتاب المواهب اللدنية للقسطلاني . هذا بالإضافة إلى كتب الطب النبوي المفقودة والتي جاء ذكرها في الكتب الأخرى مثل كشف الظنون لحاجي خليفة . ومن هذه الكتب المفقودة كتاب الطب النبوي لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (١٧٤ - ٢٣٨هـ) وهو من أقدم ما أفرد باسم الطب النبوي ، ومنها كتاب الطب النبوي لمحمد بن عبد الله بن فتوح الحميدي (٤٢٠ - ٤٨٨هـ) ، والطب النبوي لعبد الحق الأشبيلي (٥١٠ - ٥٨٠هـ) ، والطب النبوي للحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١ - ٩٠٢هـ) ، وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم له كتاب بعنوان « الطب والأمراض » نقل عنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (ج ١٠ / ١٣٥) وذكره السيد الكتاني في الرسالة المستطرقة في الحديث .

وهناك مجموعة من الكتب موجودة في مكتبات تركيا (مخطوطة) باسم الطب النبوي مجهولة المؤلف كما أن هناك مجموعة أخرى من الرسائل والكتب المخطوطة التي تناولت موضوعاً واحداً (Monographe) من مواضيع الطب النبوي ، مثل كتاب ما رواه الواعون في أخبار الطاعون للسيوطي ، وابن كمال باشا رسالة في الطاعون ، وابن المبرد له كتاب فنون المنون في الوباء والطاعون . والإمام زكريا الأنصاري له كتاب تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين . . الخ .

وسنفرد لمؤلفات الطب النبوي الموجودة والمفقودة والمطبوعة والمخطوطة والقديمة والحديثة سفراً بها إن شاء الله تعالى إذا أمد الله في العمر وبارك في الوقت .

العدوى وحديث المصطفى (صلى اللّه عليه وسلم)[١]:

اختلفت آراء المسلمين في هذا الموضوع اختلافاً شديداً . . فأجمع أهل الحديث وأغلب علماء الأصول والفقه على أن هناك طباً نبوياً . . وخالفهم في ذلك من اتجهوا اتجاهاً عقلياً في تفسير الأمور كالفلاسفة وبعض الفقهاء . وقد وقع الخلاف في بداية الأمر حول الأحاديث الواردة في العدوى . . فقد ثبت أن أبا هريرة كان يحدث بحديث (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) ، ثم حدث بحديث (لا يورد ممرض على مصح) فقال الحارث بن أبي ذئاب وهو ابن عم لأبي هريرة : قد كنت أسمعك تحدثنا يا أبا هريرة حديثاً قد سكت عنه . كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى . فأبى أبو هريرة أن يحدث إلا بحديث (لا يورد ممرض على مصح) . فيقول الراوي : فما أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين القول الآخر .

وسبب الخلاف أن حديث (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) ينفي العدوى ، وقد روي الحديث بروايات متعددة منها حديث (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة فقال أعرابي : يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها !! قال : فمن أعدى الأول) . اما حديث (لا يورد ممرض على مصح) فيثبت العدوى ويمنع

---

(١) نشر هذا البحث بصورة أكثر تفصيلاً في كتابنا «العدوى بين الطب وحديث المصطفى»، الدار السعودية، جدة، ونشرته صحيفة المدينة المنورة، العدد ٥٠٧٦ في ٢٨ محرم ١٤٠١هـ، ص ٧، والعدد ٥٠٧٧ في ٢٩ محرم ١٤٠١ هـ.

اختلاط المريض بالصحيح . . وكذلك حديث (فر من المجذوم فرارك من الأسد) أو (كما تفر من الأسد) ورفضه مبايعة المجذوم الذي كان في وفد ثقيف فقال له : إنا قد بايعناك ، دون أن يصافحه . يثبت العدوى وأسبابها . . ومع هذا فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال له : كل . . ثقة بالله وتوكلاً عليه .

وهكذا تبدو الأحاديث متعارضة متناقضة في ظاهرها . . حتى قال بعضهم كما يرويه عنهم ابن القيم : إن أهل الحديث يوردون الأحاديث المتعارضة . . والأحاديث التي ينقض بعضها بعضاً ثم يصححونها . . والأحاديث التي تخالف العقل فانتدب لهم أنصار السنة للرد عليهم ونفي التعارض عن الأحاديث الصحيحة وبيان موافقتها للعقل .

وقال أهل السنة وأنصار الحديث : أن لا عدوى بذاتها . . كما كان يعتقد أهل الجاهلية بأن العدوى هي السبب في العاهة والمرض . . وكما كانوا يعتقدون في النجوم فيقولون : (رزقنا بنوء كذا) وهو شرك بالله سبحانه وتعالى ، وجعل المخلوقات أياً كانت قادرة بذاتها على فعل الأشياء . . واعتقاد فاعليتها فيتجه إليها العبد بالخضوع والعبودية . . وهو لا شك اعتقاد ينافي التوحيد من أساسه .

وسبب الالتباس أن حديث (لا عدوى) ينفي العدوى ، وحديث (لا يورد ممرض على مصح) يثبتها . . فوقع في الغلط فئام من الناس ، وتوهموا أن هناك تعارضاً . . ولكن أهل العلم وضحوا الأمور وأبانوا ما استغلق ، فقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم تعليقاً على هذا ما يلي :

(قال جمهور العلماء : يجب الجمع بين هذين الحديثين وهما صحيحان . قالوا وطريق الجمع أن حديث (لا عدوى) المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده من أن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى . وأما حديث (لا يورد ممرض على مصح) فأرشد فيه إلى مجانبة ما يحصل به الضرر عنده في العادة بفعل الله وقدره. فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها ، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله وفعله . . وأرشد في الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته وقدره . فهذا

الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء ويتعين المصير إليه) أ هـ.

يقول ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) تعليقاً على الآراء المختلفة في الحديثين (لا عدوى) . . و(لا يورد ممرض على مصح) ما يلي :

(وعندي في الحديث مسلك آخر يتضمن إثبات الأسباب والحكم . . ونفي ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل . . ووقوع النفي والاثبات على وجهه (أي لا عدوى) و (لا يورد ممرض على مصح) فإن العوام كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل ، كما يقوله المنجمون من تأثير الكواكب في هذا العالم سعودها ونحوسها . ولو قالوا إنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته ، وإنها مسخرة بأمره لما خلقت له وإنها في ذلك بمنزلة سائر الأسباب التي ربط مسبباتها وجعل لها أسباباً أخرى تعارضها وتمانعها (المقاومة) وتمنع اقتضاءها لما حصلت أسباباً له . . وإنها لا تقضي مسبباتها إلا باذنه ومشيئته وإرادته . . وليس لها من ذاتها ضر ولا نفع ولا تأثير البتة . . إن هي إلا خلق مسخر مربوب لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته . . وغايتها أنها جزء سبب وليست سبباً تاماً ، فسببيتها من جنس سبب وطء الوالد في حصول الولد فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التي خلق الله بها الجنسين . . وكسببية شق الأرض وإلقاء البذر فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التي يكوّن الله بها النبات . .

وهكذا جملة أسباب العالم من الغذاء والرواء والعافية والسقم وغير ذلك، وإن اللّه جعل من ذلك سبباً لما يشاء ، ويبطل السببية عما يشاء . . ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه . . فهم لو أثبتوا العدوى على هذا الوجه لما أنكر عليهم . . كما أن ذلك ثابت في الداء والدواء وقد تداوى النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بالتداوي وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم . . فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء والدواء المعارضة المقاومة لها . . وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب) .

والطب الحديث يبين ذلك ويوضحه . . فالأمراض تقسم قسمين :

معدية وغير معدية . والمعدية نتيجة مخلوقات تدق في الصغر حتى لا يمكن رؤيتها إلا بتكبيرها عشرات آلاف من المرات !! وتكبر حجماً حتى ترى بالعين المجردة . . وهي تشمل طوائف عديدة من المخلوقات أولها في سلم الحياة : الفيروسات . . والفيروسات كائنات تدق فلا ترى إلا بالمجهر الألكتروني الذي يكبرها عشرات الآلاف من المرات . . والعلماء محتارون فيها حيرة شديدة : أكائن حي هي أم جماد ؟ فهي مخلوقات متناهية في الصغر لا تنمو ولا تتنفس ولا تتحرك ولا تتغذى ولا تتكاثر بذاتها . . وإنما لها طريقة غاية في العجب في تكاثرها ونموها . . تدخل إلى الخلية الحية تتعرف على سر النواة ، وهو الحامض الذي به سر الحياة وعن طريقه يتم النمو والتكاثر وكل وظائف الحياة الأساسية ، فهو القائد والمنظم والحاكم للخلية . . يوجهها إلى الوجهة التي فطر عليها . . تقوم هذه الفيروسات بالتحكم في سر النواة فتجعله ينقسم لصالحها هي ، بدلاً من الانقسام العادي الذي تتكاثر به الخلية . . وتصبح الخلية ذاتها فيروسات جديدة . . فتهجم على خلايا أخرى وتستعبدها وتحولها لمصلحتها . . وهو استعباد ليس له نظير في عالم الأحياء قاطبة . . إذ لا يوجد من يستطيع أن ينزع جميع صفات ذلك الكائن ويحوله إلى كائن من نوعه سوى الفيروسات . . وتستمر تلك المعركة بين الخلايا وبين الفيروسات حتى تتمكن الخلايا من التعرف على سر (الفيروس) فتصنع ما يضاده ويحاربه ، وعندئذٍ فقط تنتهي المعركة لصالح الجسم . .

والأمراض التي تسببها الفيروسات عديدة وأشهرها الحميات الراشحة : مثل الأنفلونزا والزكام ومنها الحصبة والجدري والجديري وشلل الأطفال والتهاب الكبد الفيروسي والحمى الصفراء . . والعديد من الأمراض والأوبئة . .

ومع هذا فإن دخول الفيروس إلى الجسم الإنساني ليس معناه المرض ، ففي كثير من الأحيان تتغلب مقاومة الجسم على هذا الميكروب (الكائن الدقيق) الذي غزا الجسم دون أن تبدو على الشخص أي أعراض . .

وفيروس (شلل الأطفال) خير مثال ، فقد كان الفيروس شديد الانتشار في البلاد النامية (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية) . . ونتيجة لانتشاره الشديد

يصاب به أغلب الأطفال فتتكون لديهم المناعة والوقاية ضد ذلك الفيروس . . وتكـون النتيجة أن الإصـابة بشلل الأطفـال قليلة . . عكس البلاد المتقـدمـة (أوربا وأمريكا) حيث مستوى النظافة عال ـ فإن انتشـار الفيروس محـدود ، ولذا فإن الأطفال لا يتعرضون للميكروب في سن مبكرة ، وعندما يهجم عليهم الفيروس وهم في سن متقدمة تكون الإصابة شديدة . . وتكون النتيجة الغريبة أن شلل الأطفال أكثر انتشاراً في البلاد المتقدمة عنه في البلاد النامية !! فلماذا يا ترى ؟؟

لمـاذا يصيب شلل الأطفـال أبنـاء البـلاد المتقــدمـة أكثــر من البلدان النامية ؟

لأن الفيـروس يهجم على الجسم الإنسـاني في الـطفـولــة المبكـرة في البلاد النامية فتتكون لدى الطفل المناعة . . ويهجم الفيروس في سن متأخرة نسبيـاً في البلاد المتقـدمة فـلا يستطيـع الجسم أن يكـوّن منـاعـة لمحـاربـة الفيروس . .

أمر عجيب إذا هجم الفيروس في سن مبكرة كانت لدى الجسم قدرات على المقاومة فإذا هجم في سن متأخرة فقد الجسم تلك القدرة !!

ومع هذا فإن هذه ليست قاعدة مضطردة . . فهناك العديد من الأطفـال الذين يصابون بشلل الأطفال مـع أن أقرانهم في السن لم يصـابوا بـه ومع أن الجميع قد تعرضوا للميكروب !!

فليس الميكروب أو الفيروس وحده يساوي المـرض والعدوى ، ولكن هناك أسباباً أخرى تمانعه وتعارضه . . وليست هذه الأسباب بأيدينا وإنما هي مربوبة بيد خالقها وبارئها . . وهكذا يكون الفيروس (أحد أسبـاب العدوى) وبالاً على شخص ما ونعمـة على آخر . . فـالأول مريض مشلول والآخـر قد تكونت لديه المنعة والمناعة لمحاربة ذلك الميكروب طوال حياته . .

وقد أدى اكتشاف هذا السر إلى محاولة إدخال الميكروبات والفيروسات مضعفـة إلى الجسم الإنساني . وأول من فعـل ذلـك هـو (جينيـر) الـطبيب الانجليزي الذي أدخل فيروس (جدري البقر) إلى الجسم الإنساني لتتكون

لديه مناعة ضد الجدري[1] . . وقد نجحت هذه الفكرة نجاحاً منقطع النظير . . حتى أمكن للإنسانية أن تعلن في العام الماضي أنها استطاعت أن تجتث الجدري من العالم أجمع . . بوسائل متنوعة وكلها تعتمد على فكرة ادخال الميكروب مضعفاً أو ميتاً إلى الجسم الإنساني حتى يتعرف عليه الجسم فتقوم أجهزة الدفاع التي وهبها الله للإنسان بصنع القذائف الموجهة والصواريخ والعتاد الحربي المخصص للقضاء على ذلك الميكورب عند تعرضه له مرة أخرى . وقد نجحت كثير من الأمصال واللقاحات وأهمها الجدري وشلل الأطفال والحمى الصفراء والكزاز والدفتريا والسعال الديكي والحصبة . . والكوليرا والحمى الشوكية . . كما فشلت كثير من الأمصال مثل الأنفلونزا والإيدز وذلك لتعدد أنواع الفيروس المسبب للأنفلونزا، وتغيّر غلاف فيروس الإيدز باستمرار.

وننطلق في سلم الحياة من الفيروسات الدقيقة التي لا ترى إلا بتكبيرها عشرات الآلاف من المرات بل ومئات الآلاف من المرات إلى البكتريا التي يمكن رؤيتها بالمجهر العادي أي بتكبير يبلغ مئات أو آلاف المرات فقط . .

والبكتريا مملكة كاملة . . والعلماء محتارون ؟ أيضعونها في مملكة النبات أم مملكة الحيوان ؟ أم يضعونها في مرتبة أدنى من الحيوان والنبات ؟ ويبدو أنهم اتفقوا أخيراً على جعلها في مرتبة خاصة هي أدنى من الحيوان والنبات . . وميزة البكتريا عن الفيروس أنها يمكن وصفها بأنها كائن حي بكل ثقة . . فهي تنمو وتتنفس ، وتتحرك وتتزاوج وتتكاثر . . وتتغذى . . أي أن فيها صفات الكائن الحي كاملة . . وبها أيضاً صفة يهتم بها العلماء كثيراً في تقسيم الأحياء . . فهي تحوي الحامضين النووين ، وجميع أنواع البكتريا قاطبة تحتوي على هذين الحامضين بينما الفيروسات جميعها لا تتكون إلا من

---

(١) نقل جينير هذه الفكرة من الأطباء المسلمين الذين قاموا بنقل جدري البقر الأقل خطورة من الجدري الانساني إلى الأطفال . . وكان هذا الإجراء منتشراً في الدولة العثمانية فجاء جينير ونقله عن الأطباء الأتراك في الدولة العثمانية . . وكالمعتاد قام الغرب بالادعاء بأنه هو الذي اكتشف ذلك.

أحد هذين الحامضين فقط ولا تجمع بينهما قط . . وهكذا تشبه البكتريا جميع الأحياء في هذه الصفة الأساسية . . التي تختلف بها عن الفيروسات . .

ومن فصائل هذه البكتريا أنواع مُرّدت على العتو والعدوان والتطفل على الجسم الإنساني وأشهرها :

البكتريا المسببة للكوليرا والحمى الشوكية والتفويد والبارتيفود والطاعون والزحار الباسيلي . . والسل والجذام . . والالتهابات الرئوية وكثير من التهابات المجاري البولية . . والتهاب اللوزتين والتهابات الجيوب الأنفية . . الخ .

ومع هذا فإن اصابة المرء بالبكتريا لا يعني الإصابة بالمرض . . فكم من حامل للميكروب دون أن يصاب بأي أذى ومع هذا فهو ينقل الميكروب إلى غيره من الأصحاء فيمرضون . . ولقد وجد أن العديد من الأشخاص يحملون ميكروب الحمى الشوكية دون أن يصابوا بها ، وخاصة أثناء انتشار الوباء بل إن المصابين بالحمى الشوكية أثناء الوباء لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة من مجموع السكان الذين يحملون الميكروب في حلوقهم وأفواههم دون أن يصابوا بأي أذى . . ومثل ذلك في التيفود وفي غيره من الأمراض والأوبئة . .

وطرق انتقال العدوى عديدة : فمن الميكروبات ما لا ينتقل إلا بواسطة التنفس (الرذاذ) ، ومنها ما ينتقل بواسطة الفم (عن طريق الأكل أو المياه الملوثة) ومنها ما ينتقل باللمس ، ومنها ما ينتقل فقط بالاتصال الجنسي (اللواط والزنا) ، وما ينتقل بوسيلة ما لا ينتقل في أغلب الأحيان إلا بتلك الوسيلة . .

فالسل والالتهابات الرئوية مثلاً تنتقل بواسطة (الرذاذ) عن طريق الجهاز التنفسي ، بينما الكوليرا والزحار الباسيلي والأميبي ينتقل بواسطة الجهاز الهضمي . . وينتقل الجذام بالملامسة الطويلة . . أما الزهري والسيلان فلا تنتقل إلا بواسطة الاتصال الجنسي في الغالب الأعم .

ثم ننتقل في سلم الحياة الى وحيدات الخلية . . فنجد مثلاً أن الأميبا وهي أشهر وحيدات الخلية ، ويكاد يعرفهاكل من درس المرحلة الثانوية . نجد أن الأميبا منها ما يعيش حراً طليقاً في المستنقعات والبرك ، تتغذى وتنمو على ما تجده من بكتيريا ومخلوقات أدنى . . وتتكاثر بواسطة الانقسام . . فإذا

بلغت أرذل عمرها انقسمت الخلية إلى خليتين فأعادت بذلك دورة حياتها . . ومن الأميبا أنواع لا يهنأ لها عيش إلا في أمعاء الانسان . . ومع هذا فسلوكها يختلف من نوع إلى آخر في معي الإنسان . .

فمنها نوع يدعى أنتميباكولاي أي أميبا الأمعاء ، وهي تعيش على البكتريا الموجودة في أمعائنا دون أن تسبب لنا أي أذى .

ومنها نوع آخر يدعى أنتميبا هيستوليتكا ، أي أميبا الأنسجة لأنها لا يحلو لها العيش إلا عندما تهجم على جدار المعي وتنهش ما يسيل منه من دماء . . وهذه هي الأميبا المشهورة المسببة للدوسنتاريا أو الزحار الأميبي .

وحتى هذه الأميبا الخبيثة تتحول لدى أغلبية الناس إلى المهادنة والموادعة لفترة قد تطول وقد تقصر . . ثم فجأة تنقلب إلى العتو والعدوان بدون سابق إنذار ، وقد وجد أن كثيراً من المناطق في العالم ، وخاصة في البلاد النامية ، يحمل أغلب سكانها (تصل النسبة في كثير من هذه البلدان إلى سبعين في المائة من السكان) ، هذا الحيوان البدائي في أمعائهم دون أن يسبب لهم أي أذى لفترة قد تطول وقد تقصر . . ويتعرض جزء يسير من هؤلاء فقط لنوبات الدوسنتاريا من حين لآخر دون أن يكون هناك سبب معلوم لهجومها . . ولا لموادعتها وسكونها . .

وقل مثل ذلك في كثير من وحيدات الخلية التي تعيش متطفلة حيناً ، موادعة مسالمة حيناً آخر . . نذكر منها على سبيل المثال : الجياردیا والتراكومونس .

بل إن كثيراً من البكتريا تعيش في أمعائنا وأفواهنا وحلوقنا وعلى جلودنا دون أن تسبب لنا أي ضرر ، بل إن بعضها ذو فائدة عظيمة مثل البكتريا الموجودة في المهبل (الجهاز التناسلي للمرأة) ولها أهمية خاصة في حفظ الحموضة التي بواسطتها يتم قتل الميكروبات العدوانية الخبيثة . .

ومع هذا قد تنقلب هذه (الكائنات الدقيقة) في طبيعتها من الموادعة والمسالمة إلى الحرب والعدوان دون سبب ظاهر . . وتتنكر فجأة للعهود الطويلة من العشرة الحسنة والمودة إلى الضراوة والختل والعدوان !! وواقع الحال أن (البكتريا) ذاتها لا تعلم من أمرها شيئاً . . كما أننا نحن الذين كنا

نستضيفها لا نعلم حتى باستضافتنا لها . . فهي قد شاركتنا العيش دون أن ندري فليس لنا ولا لها من الأمر شيء . . وإنما الأمر لمن بيده الأمر كله يصرفه كيف يشاء . . فيجعل ما هو سبب للصحة سبباً للمرض . .

وهكذا يتضح أن لا عدوى بذاتها . . فالميكروب لا يستطيع بذاته أن يسبب المرض ، ولكن هناك أسباباً أخرى تجعله كذلك . . فإذا توافرت الأسباب كلها كان المرض ، وإذا تعارضت الأسباب فشل الميكروب في هجومه أيما فشل . .

وبهذا تتضح بجلاء معاني الأحاديث النبوية الشريفة التي تقول : (لا عدوى) ، والأحاديث التي تثبت العدوى (فر من المجذوم كما تفر من الأسد) و (لا يورد ممرض على مصح) .

فالحديث الأول يرد الأسباب إلى خالقها . . والأحاديث التالية تقرر الأسباب في عالم الأسباب حتى يتخذها المؤمن وهو يعلم أنها مربوبة مقهورة بين خالقها فلا يتجه إلا إلى خالقه وخالقها بالتوكل والخضوع والعبودية . . ويتحرر بذلك من كل شائبة من شوائب الشرك الظاهر منه والخفي . . ونعوذ بالله أن نشرك به شيئاً نعلمه ونستغفره لما لا نعلمه .

هل هناك طب نبوي؟ [٣]

ذكرنا في الحلقة الأولى منشأ الخلاف وسببه . . وذكرنا في الحلقة الثانية رأي ابن خلدون ومن وافقه من المتقدمين والمتأخرين . . وإنكاره لكل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الطب . . وإرجاعه ذلك إلى أنه من الأمور العادية التي تحدُث للنبي صلى الله عليه وسلم والتي يقول فيها بدون وحي . . وأنه بناء على ذلك قابل للخطأ . . بل إن أكثر أهل زمانه أعلم منه بهذه الأمور لأنها من أمور الدنيا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » . . وهذا من شؤون الدنيا . . وليس من شؤون الوحي والتشريع في شيء . .

وقد بدأنا في الرد عليه ، واخترنا أمثلة ثلاثة ، كان الأطباء يعتقدون فيها أن ما ورد من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هي خطأ محض . . وذكرنا من بين هذه الأمثلة العسل الذي أورده ابن خلدون . . كدليل على خطأ النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة المبطون . . وقد أوردنا باختصار قول الطب الحديث فيه ، وفي الخمر ، في علاج الحمى . . وكلها من الأمور التي كان يبدو للناس عندئذ خطأ ما جاءت به الأحاديث النبوية . . وأنها بناء على ذلك لا بد أن تكون مندرجة في أمور الدنيا التي هم أعلم بها منه صلى الله عليه وسلم . . ثم تقدم الطب وأثبت بما لا يقبل الشك خطأ الأطباء والفلاسفة في الأزمنة الغابرة وصدق الأحاديث النبوية الشريفة . .

ومن عجب أننا نحتاج إلى إثبات صدق أحاديث المصطفى صلوات الله عليه إلى ما يقوله الطب الحديث . . لأننا نواجه أقواماً قد اعتقدوا ابتداء خطأ نبيّهم فيما أورده في هذا المجال . . ولو كان إيمانهم عميقاً لما احتجنا إلى

إثبات صدق هذه الأحاديث الصحيحة وإصابتها كبد الحقيقة الى ذكر الاكتشافات العلمية . . ولكان ذكر الحديث النبوي الصحيح دليلاً في ذاته على صدق الاكتشافات العلمية الحديثة لا العكس . . إذ أن نور النبوة الوضّاء لا يحتاج إلى من يكشف له المجاهيل . . وإنما المجاهيل والظلمات المحيطة بها محتاجة إلى وهج نور النبوة لكي تضاء ويمكن السير فيها على هدى .

وأخطر ما في قول ابن خلدون ، ومن نحا نحوه ، تركيزه على قوله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » ، فقد اتخذها حجة لنفي كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في العاديات ومنها الطب . .

وجاء أقوام من بعد فأنكروا بها الشرائع كلها لأنها من أمور الدنيا . .

ما للدين وللطب ؟ ثم قالوا : ما للدين وللاقتصاد ؟ ثم قالوا : ما للدين والمعاملات التجارية وتوسعوا في الدائرة حتى حصروا الدين في الصلاة والصيام والزكاة والحج . . وحتى هذه ابتدأوا ينكرونها . . وينسلخون منها . . باعتبارها أموراً فردية من شاء أن يتزمت ويحافظ على الصلاة والصيام فليفعل . . ومن شاء أن يتحرر وينطلق فيترك الصلاة والصيام والزكاة والحج فلا غبار عليه . . فهو قد لحق بركب التقدم . . وخاصة إذا أثبت جدارته وقدرته على شرب الخمر وارتياد الملاهي والمراقص . . وكانت له خليلات يعاشرهن فإنه يكون عندئذٍ قد أخذ حظاً وافراً من التقدم والحضارة !!

وقد ابتدأت هذه الحملة بكتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» في أوائل هذا القرن ، وتبعه قاسم أمين في الدعوة إلى تبرج المرأة ، وتبعهما جمع غفير على رأسهم طه حسين حيث دعا صراحة إلى أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها . . صغيرها وكبيرها . . وتقليدها تقليداً أعمى في كل شأن من شؤون الحياة[1] ولا تزال الحملات الاعلامية المركزة لاخراج الدين عن الدنيا . . وجعله في صومعة لمن يريد أن يتعبد مستمرة إلى يومنا هذا .

والاسلام في شموله لم يترك مجالاً من مجالات الحياة ولا باباً من أبوابها إلا وقال فيه قولاً : افتح كتاب الله ، أو افتح كتاب حديث لرسول الله ، تجده

---

(١) راجع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» .

يحدثك عن كل شأن من شؤون حياتك ، حتى الأمور التي تبدو تافهة يحدثك عنها : كيف تدخل الخلاء ، وكيت تقدم شمالك على يمينك . . فإذا دخلت ماذا تقول وكيف تجلس ؟ . هل تواجه القبلة أم تستدبرها ؟ أم تتقي ذلك . . ثم كيف وأين تتبرّز ولماذا تتقي الملاعن الثلاث : الظل والماء وقارعة الطريق ؟ ولماذا تتجنب موارد المياه والشجرة المثمرة وضفاف الأنهار ؟ أخرج أبو داود قوله صلى اللّه عليه وسلم : «اتقوا الملاعن الثلاثة البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل» وقوله عليه الصلاة والسلام : «اتقوا الملاعن الثلاث : أن يقعد أحدكم في ظل يستظل ؛ أو في طريق أو نقع ماء » أخرجه أحمد وأبو داود .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال : «نهى رسول الله عن قضاء الحاجة تحت الأشجار المثمرة وضفة النهر الجاري» .

حتى ليقول الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه : « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم **كل شيء حتى الخراءة** . فأمرنا أن لا نستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول . . » ويقول الصحابي سراقة بن مالك ، الذي ساخت به قوائم فرسه وهو يطارد النبي أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فآمن ووعده النبي بلبس أسورة كسرى فارس فلبسها في خلافة عمر ، يقول : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخلاء أن نقعد على اليسرى وننصب اليمنى (أخرجه البيهقي والطبراني) . . بل إن الأمر أكبر من ذلك . . ينزل قرآن من السماء يثني على أهل قباء لأنهم يحسنون الاستنجاء فقال الله فيهم : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين** ﴾ ويسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أهل قباء : « ما هذه الطهارة التي أثنى الله بها عليكم ؟ قالوا : كنا نجمع بين الماء والحجر » . .

لم يكتفِ الاسلام بذلك بل علمهم رسول الله أن لا يستنجوا باليد اليمنى وإنما الاستنجاء باليسرى ، لأن اليمنى للمصافحة والأكل وغيرها من الأغراض الشريفة . . فإذا استنجى بها حمل الأقذار والميكروبات وبلعها مع أكله وشرابه أو نقلها إلى غيره . .

وعلمهم كيفية الوضوء . . وحثهم على نظافة الأسنان والفم ، وقال لهم: «ما لي أراكم قلحاً لا تستاكون». . وقال لهم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء ، وفي رواية عند كل صلاة » ، أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأحمد والنسائي . .

وقد ذكر العلماء في السواك ما يزيد على مائة حديث . . كلها تحث عليه وترغب فيه . . وقالوا إنه أشد ما يكون استحباباً : عند الصلاة وعند الوضوء وعند الاستيقاظ من النوم وعند تغير الفم وعند قراءة القرآن . . فإذا لازم المرء السواك في ليله ونهاره فأنّى يصاب بتلوث الأسنان ونخرها ؟. وكيف ومتى يصاب بالتهابات اللثة وتقرحاتها . ؟.

وما يتبعها من التهابات في الجهاز الهضمي والتنفسي . . وغيره من الأجهزة مما سنعرض له في بابه إن شاء الله .

وعلمهم متى يجب عليهم أن يغتسلوا ومتى يسنّ . . ولم يكتفِ بذلك بل علمهم الكيفية التي يغتسلون بها . . فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر ثم يفعل بشق رأسه الأيسر مثل ذلك ثم حفن على رأسه ثلاث حفنات ثم أفاض الماء على سائر جسده ثم غسل رجليه » . .

ويقول لهم معلماً ومرشداً : « اذا جلس بين شعبها الأربع فقد وجب الغسل » أخرجه البخاري ومسلم .

ويقول لهم: «الماء من الماء» (مسلم) ويعرفون بذلك أن عليهم الغسل كلما قاربوا نساءهم أو عند خروج المني ولو بغير مجامعة . . وعند الطهر من الحيض والنفاس وبعد الولادة وعند الوفاة .

وحثهم أيما حث على غسل الجمعة والعيدين وبعد غسل الميت وإسلام الكافر وإفاقة المغمى عليه أو المجنون . . ولدخول المسجد . . ولكل ليلة من رمضان . . وللخسوف والكسوف . .

لم يكتفِ الإسلام ولا نبي الإسلام بذلك بل علمهم كيف يأتون نساءهم . . وماذا يقولون وماذا يفعلون وماذا يتقون ؟. . وندبهم الى الملاعبة

قبل الوقاع وأمرهم أن يتقوا الدبر والحيضة . . ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم** ﴾ .

﴿ **يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض** ﴾ .

« ملعون من أتى امرأة في دبرها » أخرجه أبو داود والنسائي .

« لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله . اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان » (أخرجه البخاري ومسلم) .

وإذا أراد العود إلى الجماع مرة أخرى ، فيوجهه المصطفى صلوات الله عليه إلى أن يتوضأ فهو أنشط للعود : « إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ بينهما وضوءه للصلاة » رواه مسلم وزاد الحاكم : « فإنه أنشط للعود » . فإذا انتهى من ذلك فعليه الغسل . .

وأمرهم أن يستنزهوا من البول فقال : « استنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه » . . وأخبرهم عن اللذين يعذبان وما يعذبان في كبير : فإن أحدهما لم يكن يستبرىء من البول وأما الآخر فكان يغتاب الناس . .

كل هذه أمور دنيوية بحتة لو سألت كثيراً من المثقفين ثقافة غربية لأخبرك أنه لا يعرف عنها شيئاً . . وقد رأينا مئات من المسلمين في بلاد الاسلام وخارجها لا يستنزهون من البول بل ولا يستنجون تقليداً للأوربيين في قذارتهم . . كما أن كثيراً منهم لا يغتسل عندما يجنب إمعاناً في تقليد اليهود والنصارى حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلوا وراءهم مهرولين . .

إن الأحاديث النبوية الشريفة تشرح لنا أموراً لا تخطر لنا على بال لأنها من صميم أعمال الدنيا وشؤونها . . بل إننا لنظن أنها من الأمور التافهة التي لا ينبغي حتى أن نفكر فيها .

إذا نزل المني على الثوب ماذا نفعل ؟ قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغسل المني ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر الى أثر الغسل فيه . وفي رواية لمسلم : لقد كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فركاً فيصلي فيه . . وفي لفظ لمسلم أيضاً : لقد كنت أحكه يابساً بظفري من ثوبه .

وإذا اشتكى رجل المذي وهو السائل الرقيق الذي يخرج عند الملاعبة وقبل الوقاع ماذا يفعل ؟ لقد اشتكى ذلك الإمام علي عليه السلام فطلب من المقداد أن يسأل النبي لأنه يستحي أن يسأله مباشرة لمكان ابنته فاطمة رضي الله عنها فأمره بغسل الفرج والوضوء . أخرجه البخاري ومسلم .

وتشرح لنا الأحاديث النبوية الشريفة كيف تدخل البيت وكيف تخرج منه . . وماذا تقول عند الدخول وعند الخروج . . بل إنها تشرح لنا الطريقة التي ينبغي على المسلم أن يخلع بها ثيابه وكيف يلبسها . . بل إن لبس نعله له طريقة لا ينبغي أن يحيد عنها المسلم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيمن في تنعله وأمره كله .

كيف تأكل . . كيف تشرب؟ كلها أمور دنيوية بحتة وإذا أخذنا المفهوم الأوروبي للدين فإنها أمور لا دخل للدين بها ألبتة . . تأكل كما تريد باليمين أو بالشمال . . تأكل دفعة واحدة أو دفعات . . تأكل مما يليك أم مما يلي غيرك ! تتنفس في الإناء أو لا تتنفس . . . تأكل قائماً أو قاعداً؟ . . تغسل يديك قبل الأكل أو لا تغسلهما ؟ تنظفك يديك وفمك بعد الطعام أو لا تنظفه . كلها أمور لا دخل للدين فيها مطلقاً حسب المفهوم الغربي للدين . . أما في الإسلام فالأمر خلاف ذلك .

لا يكتفي الإسلام بأن يبين لك ما تأكل وما لا تأكل ! ما تشرب وما لا تشرب ، فلا يكتفي بتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به . . ولا بتحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلّا ما ذكي . . وما ذبح على النصب ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم . . وما ذبح على النصب** ﴾ [المائدة] . . ولا يكتفي بتحريم الخمر ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ . وإنما يوضح لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم أن الخمر ما خامر العقل وأن كل مسكر خمر، ويحرم عليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم كل ذي ظفر وناب «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام» أخرجه مسلم وزاد ابن عباس في روايته «وكل ذي مخلب من الطير» . كما أخرج البخاري ومسلم نهيه عن

أكل الحمر الأهلية يوم خيبر. . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي نهيه عن قتل الضفدع وأكلها. .

ولا يكتفي الإسلام بذلك ، بل يوضح لهم الأواني والأدوات التي يجوز استخدامها والأواني التي لا يجوز . . وأخبرهم أن استعمال آنية الذهب والفضة حرام . . فقد أخرج البخاري ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم: « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافهما . . فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » . . كما أخرجا قوله : « الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » . . كما نهى صلى الله عليه وسلم استخدام آنية الكفار إلا إذا لم نجد غيرها فنغسلها ونأكل فيها :

عن أبي ثعلبة الخشني قال : قلت : يا رسول الله إنّا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم ؟ قال : « لا تأكلوا فيها إلا أن لا تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها » أخرجه البخاري ومسلم .

وذلك لما يبقى في آنيتهم وصحافهم من أثر الخمور ولحوم الخنازير . . حتى أن السكين التي يقطع بها لحم الخنزير تحمل آلاف الديدان المتحوصلة من طائفة الترايكنيلا التي كثيراً ما تصاب بها الخنازير . . ولا تزول منها إلا بعد غسلها جيداً[1] . .

لا يكتفي الإسلام ونبي الإسلام بذلك ، بل يوجهنا إلى آداب الطعام ، وآداب الشراب ، ويعلمنا كيف نأكل ومتى نأكل . . وماذا نقول حين نأكل أو نشرب . . وكيف نجلس للطعام ، وكيف نقوم عنه . . : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » أخرجه مسلم . . وقد قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي كان يأكل بشماله : كل بيمينك وكل مما يليك . فقال : لا أستطيع (وهو يستطيع) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لا استطعت» . . فشلّت يمينه في الحال .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: الأحكام الفقهية والأسرار الطبية في تحريم الخنزير، الدار السعودية للنشر، جدة.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حضر الطعام يعلم أصحابه أن يقولوا باسم الله . . اللهم بارك لنا فيما رزقتنا . . ويعلمهم أن يجلسوا جلسة متواضعة ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ويأكل بيمينه . . ويأكل مما يليه . . ويأكل بأصابعه الثلاث ويتمهل في مضغ الطعام ولا يزدرده ازدراداً . .

وكان يشرب في ثلاث دفعات . . وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات (أخرجه الطبراني في الأوسط) . . وكان لا يتنفس في الإناء وينهى عن ذلك ويقول : لا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ، ولكن إذا أراد التنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس » . . وبذلك يتجنب أن يعدي غيره بما ينقله من ميكروبات في تنفسه . . فإذا فرغ من طعامه حمد اللّه وقال :«الحمد للّه الذي كفانا وآوانا غير مكفي ولا مكفور» . أخرجه البخاري .

وأمرهم أن يأكلوا ويشربوا في غير سرف ولا مخيلة : « كل واشرب والبس وتصدّق في غير سرف ولا مخيلة» أخرجه أحمد وأبو داود . . ونهاهم أيما نهي عن البِطنة وإدخال الطعام على الطعام من غير ما حاجة . . عن المقداد بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » أخرجه الترمذي وابن حبان وابن ماجه . . وتمام الحديث عند ابن حبان « فحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه . فإن كان فاعلاً لا محالة فثلثاً لطعامه وثلثاً لشرابه وثلثاً لنفسه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أكثرهم شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة » أخرجه البزار . وأخرج الطبراني باسناد حسن: «أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع في الآخرة » . .

ورأى صلى اللّه عليه وسلم رجلاً عظيم البطن فقال بأصبعه: «لو كان في غير هذا لكان خيراً لك» (الطبراني) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من الاسراف أن تأكل كل ما تشتهيه »

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة عندما أكلت في يوم واحد مرتين: «يا عائشة أما تحبين أن لا يكون لك شغل إلا جوفك ! الأكل في اليوم مرتين من الإسراف، واللّه لا يحب المسرفين» . أخرجه البيهقي .

هكذا يوضح لنا النبي صلى الله عليه وسلم ما نأكل وما لا نأكل . . وما نشرب وما لا نشرب . . وكيف نأكل أو نشرب وماذا نقول في بداية الأكل أو الشراب وعند الانتهاء منه . . كيف نجلس للطعام وعلى أي هيئة . . أيحسن أن نأكل بمفردنا أم أن نأكل مجتمعين :

« أحب الطعام الى الله ما كثرت عليه الأيدي » أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل. . كم نأكل ومتى نأكل إلى آخر آداب الطعام والشراب . . وهي كلها أمور دنيوية بحتة لا دخل للدين فيها حسب المفهوم الأوربي لأنها من صميم أمور الدنيا وشؤونها .

إذا استطردنا فإنك لن تجد مجالاً من مجالات الحياة إلا وقد وضحها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قولاً وفعلاً . . كيف تنام وعلى أي شق تنام أمر دنيوي بحت لا دخل للدين فيه ، حسب المفهوم الأوروبي . ولكن رسول الهدى ينهاك أن تنام على بطنك . . وينصحك بالنوم على الشق الأيمن[1] . . ويعلمك أدعية تقولها عند نومك: باسمك اللهم وضعت جنبي وباسمك أرفعه. إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وليضطجع على شقه الأيمن. رواه البخاري ومسلم.

فإذا استيقظت من نومك فقل كما يعلمك المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : « الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره » . .

ورسول الهدى معك يعلمك كيف تنام وكيف تستعد للنوم بالسواك والوضوء وما تقوله من أدعية ، وهو معك حينما تستيقظ من السحر في آخر الليل لكي تتأسى به وتتهجد . . يعلمك ماذا تقول ، وكيف تدخل الخلاء . . ويأمرك أن لا تدخل يدك في الإناء فإنك لا تعلم أين باتت ، بل صبّ عليها الماء أولاً ثم ادخلها بعد ذلك في الإناء . .

وهو معك بعد ذاك وأنت تلبس ثيابك . . يعلمك ماذا تلبس ، وماذا

---

(١) سنوضح الفوائد الطبية لذلك الإجراء إن شاء الله في كتاب مستقل عن الطب النبوي إذا أمدّ الله في العمر وبارك في الوقت.

تترك ، ينهاك أيها الرجل عن لبس الحرير والمعصفر والديباج ، بل إنه ينهاك عن لبس الأحمر إذا لم يكن مخططاً . . ويحبب اليك لبس البياض . . .

كما أن لباسك لا بد أن يكون ساتراً للعورة . . وعورة الرجل ما بين السرة والركبة ، وعورة المرأة جسمها كله ما عدا الوجه والكفين على خلاف بين الفقهاء في ذلك .

أخرج البخاري عن حذيفة رضي اللّه عنه قال: «نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها . . وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه».

وقال : « لا تلبسوا الحرير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « حرام على ذكور أمتي » .

وأخرج البخاري ومسلم أنه نهى صلى الله عليه وسلم عن لبس الحرير . . وأنه لم يرخص فيه إلا في حالة المرض ، كما رخص عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في قميص الحرير عندما أصابتهما حكة شديدة . . (متفق عليه) . .

وأخرج أحمد والنسائي قوله صلى الله عليه وسلم : « أحلّ الذهب والحرير لإناث أمتي وحرّم على ذكورها » . .

وأخرج مسلم نهيه صلى الله عليه وسلم عن لبس القسي (ثياب من الحرير) والمعصفر (وهو المصبوغ بالعصفر) ونهى صلى الله عليه وسلم عن المياثر الحمر (البخاري ومسلم) . .

ورأى النبي على عبد الله بن عمرو ثوبين معصفرين فقال صلى الله عليه وسلم : « أمك أمرتك بهذا » ؟ قال عبد الله بن عمرو : أغسلهما يا رسول الله . قال : بل احرقهما . وفي رواية إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسهما . أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي . .

ويأمرك أن لا تجر ثوبك خيلاء وينهاك عن تلك اللبسة أشد النهي ويزجرك أيما زجر . .

كل هذه أمور دنيوية بحتة في نظر الثقافة الغربية الأوربية . . ومع هذا فأنت ترى أن نبي الإسلام لم يتركك هملاً . . بل وجّهك وعلمك وهذبك . .

وأبان لك كل صغيرة وكبيرة . . حتى تسير على هدى . . من لحظة قيامك من نومك حتى تدخل الخلاء . . ثم كيف تتوضأ أو تغتسل إن كنت جنباً ، ثم كيف تخرج من الخلاء وماذا تقول ، ثم كيف تلبس ثيابك : ابدأ بيمينك واحمد الله . وإذا لبست جديداً فقل : الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة. رواه ابن السني . . فإذا خلعت ثيابك فقل: بسم اللّه الذي لا إلّه إلا هو . . فإذا خرجت من بيتك فقدّم يمينك وقل : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة الا بالله .

فإذا قلت ذلك كُفيت ووقيت وتنحى عنك الشيطان . رواه أبو داود والترمذي والنسائي . . فإذا خرجت من بيتك إلى الطريق علّمك آداب الطريق وآداب السلام . . فإذا أتيت المسجد علّمك كيف تدخل بيمينك وتصلي وتسلّم على نبي الهدى والرحمة ثم تقول اللهم افتح لي أبواب رحمتك . فإذا خرجت فقل اللهم إني أسألك من فضلك . . رواه مسلم وأبو داود والنسائي . .

فإذا خرجت إلى السوق ماذا تقول وماذا تفعل . . ماذا تشتري وكيف تشتري ؟ ماذا تبيع وكيف تبيع . . أبواب واسعة مفصلة في كتب الفقه الإسلامي وكتب الحديث . .

كيف تصنع في تجارتك إن كنت من أهل التجارة ؟ ما هو الحلال وما هو الحرام؟ وما هي آداب التجارة وما هي كيفية المعاملة وكيفية البيع والشراء ؟ كل ذلك يوضحه لك كتاب الله وسنّة رسوله أيما توضيح حتى يتركك على المحجة البيضاء ليلها كنهارها . .

وإن كنت من أهل الصنائع والحرف كيف تصنع في حرفتك وصنعتك . . فإن كنت مزارعاً أرشدك هدى نبيك إلى ما يجب عليك في الزراعة من مزارعة ومحاقلة ومساقاة . . وغيرها . . فإذا تجمع لك مال عن طريق تجارتك وحرفتك وزراعتك فكيف تنفقه ، وفي أي وجه تنفقه . . وماذا يجب لنفسك ولأهلك وولدك . . وماذا يجب للمسلمين فيه ؟ كل هذا يوضحه لك ويفصله تفصيلاً . . بل إنه يأمرك أن لا تأكل من ثمار ما زرعت حتى تخرج زكاته كاملة غير منقوصة . . فإن كنت من أهل الرعي ولديك إبل أو بقر أو

غنم ، فقد أوضح لك مقدار ما عليك في كل صنف من هذه الأصناف ومتى يجب عليك إخراجها . . وما هو النصاب لكل فئة منها . .

إذا لزمتك حاجة فأردت أن تستقرض ماذا تفعل ؟ وكيف يقرضك أخوك المسلم . . هل له أن يأخذ فائدة على هذا القرض ؟

إنها أمور دنيوية بحتة لا دخل للدين فيها حسب المفهوم الأوربي . . ولكنها من صميم الدين في الإسلام :

إن ما يسمى بالفائدة هو الربا في الاسلام . . الذي قال الله فيه ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ وقال فيه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون . .** ﴾ .

فإذا تداينتم فإنه يأمركم بالكتابة والإشهاد . . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أَمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم** ﴾ . .

ويعلمك الرسول بعد ذلك أن تكون حسن الأداء ، حسن الاقتضاء ، سهل البيع ، سهل الشراء . . ويقول لك خالقك وربك: ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ .

وهكذا ترى الإسلام ينظم لك أمور معاشك ومعادك . . أمور نومك ويقظتك . . أمور بيعك وشرائك . . أكلك وشربك . . لبسك وثيابك . . خروجك من بيتك ومشيك في الطريق . . قضاء حاجتك . . وإخراج فضلات جسمك لا يتركك فيها هملاً . تفعل ما تريد . . ولكنه ينظم لك ذلك ويعلمك إياه . . حياتك الجنسية لا يتركها لك تتصرف فيها كيف تشاء . . إنه ينظمها لك . . أحل الله لك الزواج وحرم عليك الزنا . . وحرم ما يؤدي إلى الزنا من التبرج والاختلاط وكشف العورات . . والنظرات المتتاليات . . بل أنه نظم لك حياتك الزوجية تنظيماً كاملاً . . من لحظة الخطبة . . كيف تخطب زوجتك « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » . . فإذا أردت الزواج فكيف يكون . . من هو الولي ؟ هل تنكح المرأة نفسها كما هو شائع في أوروبا ؟ . . وكما يريدنا دعاة التقليد أن نفعل ؛ أم أنه لا بد للمرأة من ولي . . ولا بد من شهود . . ولا بد من مهر . . ولا بد من صيغة إيجاب وقبول . . ماذا تقول لزوجتك عندما تدخل عليها . . ماذا يقول لك المهنئون ؟ كيف تنام مع زوجتك ومتى ؟ كيف تولم للزواج ومتى ؟ أمور كلها تبدو دنيوية وعادية ولا دخل للدين فيها ، حسب المفهوم الأوربي ، ومع ذلك فقد اعتنى الإسلام بها أيما اعتناء . .

كيف تتطيب أيها الرجل وكيف تتزينين أيتها المرأة ؟ إن الأمر ليس متروكاً على الغارب تفعلان فيه ما تشاءان وتريدان . . كلا ، فقد نظم الإسلام ونبي الإسلام لكم ذلك فقال رسول الله : «طيب الرجل ما ظهر ريحه وخفي لونه . . وطيب المرأة ما خفي ريحه وظهر لونه» . . فإذا تزينت المرأة فلمن تبدي زينتها : ألكل رائح وغادي ؟ أم أن الله عز وجل قد حدّد بنفسه الأشخاص الذين يسمح لهم برؤية هذه الزينة : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن**

أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ .

كيف تدخل بيتاً غير بيتك وكيف تستأذن ؟ أمر تافه في نظر الأوروبيين ومن يقلدهم من ذراري المسلمين . . ولكنه في ميزان الله يحتاج إلى أن ينزل فيه قرآن من السماء : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾** .

فإذا حصل بينك وبين زوجتك خلاف فكيف يتم التغلب على هذا الخلاف . . وكيف يتم التصالح . . وكيف تحضر حكماً من أهلك وحكماً من أهلها . . فإذا لم يكن حل إلا الطلاق . . وهو أبغض الحلال إلى الله فكيف يتم ؟ أفي أي وقت تشاء . . وبمجرد أن تغضب ؟ لقد نهاك رسول الله أن تفعل ذلك . . وأمرك أن يكون الطلاق في طهر لم تجامع فيه زوجتك . . حتى لا تطول عليها العدة بحملها فيه . وطلقها طلقة واحدة . . فإن الثلاث في مجلس واحد مكروهة . . يبغضها الله ورسوله . .

﴿ إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، **﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾** ، **﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم﴾** . .

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينَة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا

يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ .

سورة كاملة تنزل من السماء تبين لك حدود الطلاق وكيفيته وعدته . . كم تعتد اللاتي يئسن من المحيض واللاتي لم يحضن (ثلاثة أشهر) ؟ كم تعتد ذات الحيض . . (ثلاثة قروء) كم تعتد الحامل . ﴿**واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن واولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾**

ولا بد من النفقة اثناء العدة ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له اخرى﴾** .

والمولود في الإسلام لا يتركه هكذا لك تربيه كيف تشاء . . لا . إن الإسلام ونبي الإسلام يعتني به من اللحظة التي يولد فيها . . بل يعتني به قبل أن يكون نطفة . . فهو يأمرك بالتسمية عند الوقاع حتى لا يضره الشيطان . . وفي أثناء الحمل تتوالى التوجيهات ويطمئن على حالة الحامل الجسدية والنفسية . . حتى لو تم طلاق في الحمل فهو يرعاها ويضمن لها السكن اللائق والنفقة اللازمة دون إضرار ولا إجحاف بأحد الوالدين . . فإذا خرج إلى الدنيا وأهلّ صارخاً . . أمرك بانتقاء أحسن الأسماء له لأن لذلك تأثيراً نفسياً على الطفل حين يكبر . . وينصحك بأن تسمعه من أول لحظة كلمة التوحيد فتؤذّن في أذنه اليمنى وتقيم في اليسرى . . وتحنكه . . وتقطع سرته . . وتختنه . . بل إن عليك أولاً أن تترك عادة الجاهلية بالضيق بولادة الأنثى ولا تكن كالذي ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون** . . ﴾[النحل] . . بل عليك أن تفرح بالأنثى فرحك بالذكر . . وربما أكثر ، ، لأن ما ورد في تربية الأنثى من الفضل العظيم قمين بأن يفرحك ويشرح صدرك بولادة الأنثى . . « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة». اخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

« من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتاه كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » . أخرجه الترمذي .

وعلى الوالد أن يعق عن ولده بعقيقة : عن الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة . . ولا بأس بالشاة ذكراً كان أو أنثى ، فقد عقّ النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسن أو الحسين بشاة . .

وللمولود حق الرضاعة من أمه . . حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . . وللمرضع الحق في التفرغ للرضاعة فتأخذ أُجرتها كاملة مقابل الإرضاع . . سواء كانت أم الطفل أم غيرها . . وسنتحدث عن فوائد الرضاعة في بابها ، إن شاء الله ، وأضرار الرضاعة الاصطناعية التي تلجأ إليها الأمهات هذه الأيام . .

لم يكتف الإسلام بكل ذلك وهو يعتني بالمولود منذ كان نطفة فعلقة فمضغة . . فحملاً ثقيلاً . . فساعة الولادة . . فالتسمية والأذان والتحنيك فالعقيقة فالختان فالإرضاع . . وإنما أمرك بملاطفة الأم والطفل . . وتقبيله ومداعبته ، كما سن لك ذلك نبي الهدى ورسول الرحمة الذي كان يقبل أبناءه الحسن والحسين ويحملهما على ظهره . . ويقول عن أحدهما لمّا قال أحد الصحابة للغلام : نعم المركب ركبت يا غلام . . قال المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو . . . بل إنه ليطيل سجوده حتى يملّ ابنه من ركوب ظهره ، والمسلمون قلقون لهذه الإطالة لا يدرون لها سبباً فيسألون نبيهم حين تقضى صلاتهم عن سبب هذه الإطالة . . فيقول : إن أحد ابني ركب ظهري وكرهت أن أنزله حتى ينزل . .

نعم ، إنها أمور دنيوية بحتة ، لا دخل للدين فيها ، حسب المفهوم الجاهلي الكافر ، ولكن الإسلام لا يفرق بين دين ودنيا . . بل إن مداعبتك لطفلك وتقبيلك إياه هو من صميم شؤون الدين ، حيث تقتدي برسولك ونبيك علم الهدى وإمام الرحمة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . .

نعم ، إن نبي الرحمة ورسول الهدى لا يتركك وطفلك تربيه كيف تشاء ، ولكن يعلمك ويرشدك إلى الكيفية التي تربي بها طفلك ، فإذا ألثغ علمته كلمة التوحيد : الله الله لا إله إلا الله . . فإذا ميَّز علمته آداب الإسلام

وفرائضه شيئاً فشيئاً ، فإذا بلغ السابعة أمرته بالصلاة ، فإذا بلغ العاشرة ضربته على تركها . . وهو معك ومعه من طور إلى طور ، ومن مرحلة إلى مرحلة حتى إذا طرّ شاربه ونبت شعر ذقنه أمره بإحفاء الشارب وإعفاء اللحية . .

بل إن الأمر أبعد من ذلك . . هل تترك شعر العانة والإبط دون نتف وحلق ؟ أم أن الإسلام ونبي الإسلام قد وقّت لك وقتاً لا بد فيه من إزالة هذه الأقذار وما يتراكم فيها وما يؤدي إليها من نمو الحشرات مثل القمل والبراغيت والحلمات والقراد ؟ . وما تنقله بعد ذلك من أمراض وأوبئة مثل التيفوس والحمى الراجعة والجرب وغيره مما سنعرض له في بابه إن شاء الله . . ؟

أتترك أظافرك تطول كما تشاء أم أن نبي الإسلام قد أمرك بتقليم الأظافر وتنظيف الرواجب (وهو ما يتجمع من قذر تحت الأظافر) ، ومعاهدة البراجم (وهي ثنايا الأصابع وما يتجمع فيها من قذر ودهن) ، ودلك الأعضاء والاهتمام بالمعاطف عند الغسل والتنظيف ؟ .

نعم ، إنها أمور دنيوية بحتة لا تخطر على بال أحد ممن لا يعرف الإسلام أنها من الدين . . لأنها أبعد شيء عن مفهوم الدين عند الغربيين ومن اقتدى بهم وسار على هديهم ونهجهم . .

نعم ، إنها أمور دنيوية بحتة . . ولكن الإسلام ونبي الإسلام قد أوضح لك فيها كل صغيرة وكبيرة . . ورسم لك إطاراً وحدوداً ، وسمح لك أن تتحرك داخل ذلك الاطار ، وضمن تلك الحدود ، كيف تشاء . . ولكنه لم يترك لك الحرية كي تفعل ما تريد دون رقيب أو حسيب . . لا ، لم يترك لك الأمر كما تريد ويريد دعاة الحضارة ممن يقلدون اليهود والنصارى الذين يلجون وراءهم كل ملجأ . . ويدخلون خلفهم كل مدخل حتى لو دخلوا جحر ضب هرولوا ليدخلوا وراءهم وبأثرهم . .

أمور دنيوية بحتة يحدثك عنها القرآن الكريم، وتحدثك عنها السنة النبوية المطهرة . . وأهل الزيغ والإلحاد يقولون لك : ما للدين وللدنيا ؟ ألم يقل لكم رسول الله أنتم أعلم بشؤون دنياكم ؟

نعم ، قد قال ذلك وصدق ولكن ما هي شؤون الدنيا التي أخبر عنها المصطفى صلوات الله عليه : إنها الأمور التفصيلية داخل الإطار الذي رسمه

وحدده . . مثلاً في النكاح والوقاع : اجتنب الحيضة والدبر وبعد ذلك فأنت وزوجك أحرار في اختيار الوضع الذي يناسبكما . . في الاستنجاء أنت مخير بين كل قالع طاهر وبين الماء والجمع بينهما أفضل ، ولم يقل لك أن القالع الطاهر هو الحجر فقط ، وكيفية استعمال الماء بحنفية أو قربة أو إداوة أو إناء ، أمر متروك لك . . والخلاء نفسه ما دام ساتراً فلا بأس أن يكون في كنف (حمام) أو على أي هيئة تريد . .

والثياب ما دامت ساترة للعورة طاهرة ليست حريراً ولا معصفرة (بالنسبة للرجال) فلا بأس بأي لبس تلبس . . وهكذا في كل شأن من شؤون الدنيا . . في التجارة والصناعة . . في الحرف والزراعة . . لك أن تختار الوسائل وتطورها كيف شئت طالما كانت داخل الإطار الذي وضعه لك الإسلام ونبي الإسلام . . تمشي راجلاً أو تركب دابة ، أو تركب سيارة أو طيارة كل ذلك أمر متروك لك ولظروفك . . ولا يتدخل فيه الإسلام بل يترك لك مطلق الحرية في تطوير أدواتك وأفكارك ، طالما كانت ضمن الحدود التي حدّها . . وفي ظل المنهج الذي أوصاك به . . وداخل الإطار الذي رسمه لك . .

هذه هي باختصار أمور الدنيا التي تركها لك . كيف تزرع وماذا تزرع ؟ أتستعمل المحراث القديم والبقرة ، أم تستعمل المحراث الحديث والآلات الحديثة ؟ أمر متروك لك . . بل إن الإسلام يشجعك على تطوير أدواتك وتحسينها . . ويعدك بالأجر الجزيل والثواب العميم على تحسين صنعتك . . إن الله كتب الاحسان على كل شيء . . «فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . . وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» . رواه مسلم . «إن اللّه يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ ، ﴿ **والله يحب المحسنين**﴾ ، ﴿ **ما على المحسنين من سبيل**﴾ .

وما ورد في الإحسان كثير لا نستطيع إيراده ها هنا : وإنما تكفينا هذه اللمحة . . لتبيّن لنا كيف أن الإسلام قد دعانا إلى إحسان العمل في كل شيء . . في التجارة والصناعة . . في الطب وفي الزراعة . . في التعليم والحرف والصنائع . . بل أنه قد حثنا على الإحسان في القتل والذبح . . وترك

لنا أن نطوِّر أدواتنا وطرقنا بل وحثنا على ذلك . .

هـذه هي أمور الـدنيا التي قـال عنها المصـطفى : « أنتم أعلم بشؤون دنيـاكم » ، إما أن يتخـذ الحديث حجـة لعزل الـدين عن الـدنيـا وجعله في صومعة . . وعزله عن أمـور الناس ومعـاشهم فهو كمـا قد رأيت إنكـار للدين بكامله . . ولا يقول ذلك إلا جاهل أحمق أو عالم بـالدين عـدو له بـاع نفسه للشيطان والهوى . . فخسر وخاب . .

ولا نريد الإطالة أكثر من هذا . . فالغرض هـو الرد على من أراد عـزل الأحاديث النبوية الواردة في العاديات والـطب . . وردها إلى أمـور الدنيـا . . وأمور الدنيا لم يتركها الإسلام ولا نبي الإسلام ، وإنما وضع لها المعالم وحدّ لها الحدود . . ووضع لها الأطر التي ينبغي أن تكون فيه . . وترك لنا بعد ذلك حرية الحركة وحرية التصرف داخل ذلك الإطار وضمن تلك الحدود . .

وكذلك في الطب ، فقد أرشد فيه المصطفى ، صلوات الله عليه ، إلى كثير من الأصول التي تبنى عليها صحة الأبدان والقلوب . . وصحة الأجسـام والنفوس . . وترك بعد ذلك للأطباء حرية الحركة والعمل داخل ذلـك الإطار الواسع الكبير . . وترك للتجربة الإنسانية والفكر الإنساني أن يصلا إلى الكثير الكثير مما قد أرشد إليه أو أشار بكلمة أو كلمات . .

وإلى الفصول القادمـة نبيّن فيها بعض ما قد أشرقت به أنـوار النبوة في مجال الطب . . وإنني لأعترف بالعجز عن استيفائها . . وإنما يكفيني ويكفي القراء منها لمحات تضيء لنا الـطريق وتـوضح لنـا المعالم . . وتبيّن لنـا أن لمشكاة النبوة أسراراً تحتاج إلى آماد طويلة وفيض من الكشوفات العلمية حتى تظهر تلك الأسرار وتبدو للعيان . .

العلم الحديث يكشف عن حكمة صيام الأيام البيض[١]

الأحاديث الواردة في صيام البيض :

أخرج أبو داود والنسائي عن ابن ملحان ، رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يأمرنا أن نصوم البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال (هو كهيئة الدهر) .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : أوصاني خليلي بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام . . .

وجاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري : أن المراد بالبيض الليالي التي يكون القمر فيها من أول الليل إلى آخره .

وأخرج النسائي والترمذي وابن حبان عن أبي ذر الغفاري ، رضي الله عنه ، قال : (أمرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن نصوم من الشهر ثلاثة أيام : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة) . وفي سبل السلام شرح بلوغ المرام للأمير الصنعاني قال : الحديث ورد من طرق عديدة من حديث أبي هريرة بلفظ : فإن كنت صائماً فصم الغر . . أي البيض (أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان) . . وفي بعض ألفاظه عند النسائي : (فإن كنت صائماً فصم البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة) . الحديث وإسناده صحيح . .

وقد دلت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه ، صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) نشر هذا المقال في المجلة العربية (الرياض) ومجلة المجتمع (الكويت).

كان كثيراً ما يصوم هذه الأيام البيض وندب إلى صيامها . . وأمره للصحابة ، المذكورين في الأحاديث ، بالصوم محمول على الندب لا على الوجوب . . فقد كان يعرض له ، صلى الله عليه وسلم ، عارض فلا يصومها مما يدل على عدم الوجوب . . وهذا أمر متفق عليه عند أهل العلم .

وسميت بالبيض لأن لياليها بيضاء من شدّة ضوء القمر عند اكتماله . . ولأنها أُشبهت بالنهار لشدة ضوئها واكتماله . . وانسحب الاسم إلى اليوم لأن اليوم يشمل بياض النهار وسواد الليل .

وقد كان القدماء يعرفون أن الدم يزداد هياجه في الأيام البيض ، ولذا كانوا ينصحون بالحجامة في وسط الشهر لا في أوله ولا آخره . .

قال ابن سينا في القانون : (ويأمر باستعمال الحجامة لا في أول الشهر لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت ، ولا في آخره لأنها تكون قد نقصت ، بل في وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها ، لتزايد النور في جرم القمر) .

ويقول الإمام ابن القيم في الطب النبوي : (وتستحب ، أي الحجامة ، في وسط الشهر لأن الدم في أول الشهر لم يكن بعد قد هاج وتبيَّغ . . وفي آخره يكون قد سكن . . أما في وسطه فيكون في نهاية التزايد . .)

العلم الحديث يكشف السر :

وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة أبحاث علمية كثيرة مفادها أن القمر عندما يكون بدراً ، أي في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، يزداد التهيج العصبي والتوتر النفسي إلى درجة بالغة . . ويقول الدكتور ليبر عالم النفس بميامي في الولايات المتحدة : (إن هناك علاقة قوية بين العدوان البشري والدورة القمرية وخاصة بينه وبين مدمني الكحول ، والميالين إلى الحوادث وذوي النزعات الإجرامية ، وأولئك الذين يعانون من عدم الاستقرار العقلي والعاطفي) . .

ويشرح (ليبر) نظريته قائلاً : «بأن جسم الإنسان مثل سطح الأرض يتكون من ٨٠ بالمئة من الماء والباقي هو من المواد الصلبة » . ومن ثم فهو

يعتقد بأن قوة الجاذبية القمرية التي تسبب المد والجزر في البحار والمحيطات تسبب أيضاً هذا المد في أجسامنا عندما يبلغ القمر أوج اكتماله في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

والحياة كما يعتقد (ليبر) لها نوبات مد بيوليجي عالية ، ونوبات جزر بيوليجي منخفضة ، ويبلغ تأثير المد أقصاه في البحار والمحيطات عندما يكون القمر بدراً ، وكذلك يبلغ مداه في السلوك الإنساني عند اكتمال القمر (في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد وجدت استنتاجات الدكتور ليبر ما يؤيدها في الحوادث التي وقعت عندما التقت الأرض والشمس على خط مستقيم واحد عام ١٩٧٠ . . فقد اقترب القمر من الأرض اقتراباً كبيراً وزادت بذلك جاذبيته وارتفعت حينئذ نسبة الجرائم في ميامي ارتفاعاً شديداً . .

ويقول الدكتور (ليبر) في كتابه « التأثير القمري» إنه نبَّه شرطة ميامي والصحف المحلية ، كما طلب وضع أخصائي التحليل النفسي في مستشفى جاكسون التذكاري في حالة طوارىء تحسباً للأحداث التي ستقع نتيجة الاضطرابات في السلوك الإنساني ، والمتأثرة بزيادة جاذبية القمر . . ويقول الدكتور ليبر « إن ما حدث كان جحيماً انفتح ، فقد تضاعفت الجريمة في الأسابيع الثلاثة الأولى من يناير ١٩٧٣ ، كما وردت أنباء عن جرائم أخرى غريبة وجرائم ليس لها أي دافع» . . وأصبح من المعروف أن للقمر في دورته تأثيراً على السلوك الإنساني وعلى الحالة المزاجية ، وهناك حالات تسمى (الجنون القمري) حيث يبلغ الاضطراب في السلوك الإنساني أقصى مداه في الأيام التي يكون القمر فيها بدراً (أي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) .

ويورد الدكتور ليبر الاحصائيات التالية عن تأثير القمر في السلوك الإنساني . .

١ ـ تتلقى مطافىء أريزونا بفيونكس مكالمات تزيد عن المعتاد بـ ٢٥ إلى ٣٠ مكالمة عن حدوث حرائق في الليالي المقمرة (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) عن غيرها من الليالي والأيام .

٢ ـ يزداد السلوك الخاطىء والمضطرب في عنابر مرضى الأمراض النفسية عندما يكون القمر بدراً . . ويعتقد الدكتور ليبر أن الجلد موصل جيد ، ويسمح بانتقال القوى الكهروليفية العصبية في اتجاهين بحيث يؤدي إلى المحافظة على التوازن الديناميكي داخل الجسم . . وأن للأجرام السماوية ، وخاصة القمر ، تأثيراً على الخلايا العصبية ، وبالتالي يؤثر على الحالة العقلية والمزاجية للشخص . .

ومما تقدم يبدو واضحاً أن للقمر عند اكتماله تأثيراً على السلوك الإنساني ، وجعله أكثر اضطراباً وميلاً إلى العنف . . وربما كان السبب في ذلك ما يلي .

١ ـ حالة المد ، وزيادة الدم التي ذكرها الأقدمون ، والتي يشهد لها وجود حالة المد في أعلى مستواها عند اكتمال القمر . . وبما أن الجسم الإنساني مكون من الماء أساساً (أربعة أخماس الجسم الإنساني ماء)فإن وجود المد وارتفاع هذه المياه داخل أجسامنا تدفع إلى هذا الهيجان ، وهذا مشاهد ومعروف عند النساء إذ تبلغ زيادة السوائل في الجسم مداها قبيل العادة مما يسبب نوعاً من الاضطراب في السلوك ، ويسمى ذلك (توتر ما قبل العادة) ثم يخفّ التوتر عند نزول الدم . .

٢ ـ تأثير القوى الكهرومغناطيسية وقوى الجاذبية القمرية عند اشتدادها في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري على الجهاز العصبي . . ولهذا فإن تأثير القمر عند اكتماله على السلوك الإنساني يصبح مفهوماً . وبما أن الصيام يكسر من حدة هذا الهيجان فإن الصيام أفضل وسيلة لمقاومة هذه الاتجاهات السلوكية الخاطئة والميالة إلى العنف .

وقد سبق أن ذكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فائدة الصيام بالنسبة للشباب الذين لا يستطيعون الزواج . . فقال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء . . » ، والوجاء رضّ خصية الفحل حتى تذهب فحولته فكنّى ،

صلى الله عليه وسلم ، بما يفعله الصيام في الغريزة الجنسية الهائجة وكأنه لها وجاء ورضٌ للخصية .

ومعلوم أن هياج الغريزة الجنسية لدى الشباب لا يمكن إسكاته إلا بالزواج فإن لم يتيسر فليس هناك علاج كالصوم . .

وكذلك الهياج الذي يحدث في الأيام البيض فإنه ليس له من علاج كالصيام . .

وما أصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأحكمه وأعلمه بأسرار النفس وأسرار تكوينها وتكوين أخلاطها وهرموناتها ، فصلى الله عليه وسلم أفضل وأكمل ما صلى على أحد من العالمين . .

الإعجاز الطبي في أحاديث العدوى(*)

تمهيد :

لقد وردت في أحاديث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والتي صحّت عنه ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في كتاب الطب في كل منهما ، أحاديث يبدو في ظاهرها التعارض والتناقض مما حدا بأعداء السنة إلى إنكارها والتشنيع عليها قديماً وحديثاً .

وأهم هذه الأحاديث التي وردت في باب العدوى هي قوله صلى الله عليه وسلم :

(١) لا عدوى ولا طيرة ولا هامة . فقال أعرابي يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها ، فيجربها كلها . قال : فمن أعدى الأول ؟ » أخرجه البخاري ومسلم[١-٤] .

(٢) «لا يورد ممرض على مصح» أخرجه البخاري ومسلم[١-٤] .

(٣) «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفر من المجذوم فرارك من الأسد» . أخرجه البخاري[١-٢] .

(٤) عن عمرو بن الشريد قال : كان في وفد ثقيف رجل فأرسل إليه النبي ، صلى الله عليه وسلم : « إنا قد بايعناك » أخرجه مسلم[٣] .

(٥) عن جابر ، رضي الله عنه ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أكل مع المجذوم في قصعة واحدة . وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه» . أخرجه الترمذي[٦] .

(*) ألقى هذا البحث في المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ـ إسلام أباد (٢٣ ـ ٢٦ صفر ١٤٠٨ هـ الموافق ١٧ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٨٧) .

ومن ظاهر هذه الأحاديث يبدو التناقض الظاهري في قوله ، صلى الله عليه وسلم ، «لا عدوى» ، وفي قوله : «لا يورد ممرض على مصح» ، كما يبدو التناقض الظاهري في عدم مصافحته للمجذوم من وفد ثقيف وقوله له : « إنا قد بايعناك» . . وفي أكله مع مجذوم في قصعة واحدة قائلاً : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه» .

ويجمع حديث البخاري « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد» ، تناقضاً ظاهراً حيث ينفي العدوى ، ثم يأمر في نفس الحديث بالفرار من المجذوم كما تفر من الأسد .

وقد أورد العلماء ، رضي الله عنهم ، ردوداً حسنة جيدة لتوضيح ما التبس على الأذهان في هذا الباب . . ولكن ردودهم كانت تفتقر ، بطبيعة الحال ، إلى علم الميكروبات وعلم الأمراض ، وهذان من العلوم التي فتح الله فيها على البشر في العصور الحديثة ، وخاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا .

وقد قمنا في هذا البحث بدراسة أحاديث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، على ضوء ما لدينا من معلومات في علم الميكروبيولجي وعلم الأمراض وعلم المناعة ، ووجدنا أن أحاديث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، ليست بعيدة عن التناقض فحسب ، ولكنها تمثل إعجازاً علمياً لم يكن من الممكن تصور أبعاده إلا بعد أن منَّ الله على البشرية باكتشاف هذه العلوم الحديثة في مجال الطب والعلوم المذكورة آنفاً .

وبما أن هذا البحث يخاطب الأطباء وغيرهم فقد بدأنا البحث بنبذة عن أسباب الأمراض ، وخاصة الأمراض المعدية ، التي يمكن تقسيمها على حسب نوع الميكروب أو الطفيلي المسبب للعدوى مثل الفيروسات ، البكتريا ، وحيدات الخلية ، الطفيليات ، أو يمكن تقسيمها حسب الجهاز الذي تصيبه مثل أمراض الجهاز التنفسي ، أمراض الجهاز الهضمي ، أمراض الجهاز العصبي . . الخ . وقد اعتمدنا التقسيم البيوليجي في سلم الحياة لأسباب العدوى أي الفيروسات ، البكتريا ، وحيدات الخلية ، الفطريات ، الطفيليات .

وتحدثنا بعد ذلك عن جهاز المناعة بإيجاز ، ثم تفاعل الميكروبات

الغازية مع هذا الجهاز ، وما يظهره بعد ذلك من مرض أو صحة نتيجة مجموعة كبيرة من العوامل التي لا يزال الطب يجهل كثيراً منها . .

وفي نهاية البحث أظهرنا أن ما ورد عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في موضوع العدوى هو ، إعجاز علمي لم تعرفه البشرية إلا في العصور الحديثة ، وأن ما كان يبدو تناقضاً ليس إلا تعبيراً علمياً دقيقاً عن الحقائق الواقعية في ميدان الحياة .

بحث أسباب العدوى والمرض

أقسام وأسباب المرض في الإنسان

تنقسم الأمراض التي تصيب الإنسان إلى قسمين كبيرين :

١) الأمراض المعدية .

٢) الأمراض غير المعدية .

وتشمل **الأمراض غير المعدية** مجموعة كبيرة من الأمراض ، التي قد تكون وراثية مثل أمراض الدم، كالناعور (الهيموفيليا) والمنجلية Sickle Cell anaemia ، أو غذائية نتيجة نقص البروتينات أو الفيتامينات مثل مرض البربري الناتج عن نقص فيتامين الثيامين (ب١) ، أو هورمونية نتيجة زيادة ، أو قلة ، إفراز إحدى الغدد الصماء مثل الغدة النخامية أو الغدة الكظرية أو الغدة الدرقية أو الغدة التناسلية أو البنكرياس ، أو أورام قد تصيب الإنسان سواء كانت هذه الأورام خبيثة أم حميدة .

وكثيراً ما تتفاعل عوامل البيئة والوراثة والغذاء لتسبيب مرض معين مثل ضغط الدم (التوتر الشرياني) أو أمراض شرايين القلب . . أو شرايين الدماغ .

وأما الأمراض المعدية فهي التي تنتقل من مريض إلى آخر بأحد طرق العدوى العديدة . وهي إما بواسطة التنفس ، كما في أمراض الجهاز التنفسي مثل الأنفلوينزا والسل الرئوي، أو بطريق الفم مثل أمراض الجهاز الهضمي مثل الزحار الأميبي والباسيلي (Dysentry)والكوليرا والتيفوئيد ، أو عن طريق الجهاز التناسلي كالزهري والسيلان ومرض فقدان المناعة المكتسب (الإيدز)

والهـربس الجنسي ، أو عن طـريق المـلامسـة مثـل الجـذام والجـدري والجديري ، أو بواسطة الزرق في الوريد والحقن مثل التهاب الكبد الفيروسي ومرض فقدان المناعة المكتسب الإيدز ، أو بواسطة وخز الحشرات كالبعوضة التي تنقل الملاريـا وداء الفيل والحمى الصفـراء ، أو ذبابـة التسي تسي التي تنقل مرض النوم ، أو القمل الذي ينقل حمى التيفـوس ، أو البرغـوت الذي ينقل مرض الطاعون .

وأهم أسباب الأمراض المعدية هي مخلوقات متناهية في الصغر والدقة بحيث لا تـراها العين المجـردة ، وإنما نحتـاج لتكبيرهـا عشرات الآلاف من المرات لرؤيتها كما في الفيروسات ، وآلاف المرات كما في البكتريا ، ومئات المرات كما في الطفيليات من وحيدات الخلية والفطريات .

الفيروسات (الحمات الراشحة)

وأشهر الأمراض التي تسببها الفيروسات هي الأنفلوينزا ونزلات البرد ، وشلل الأطفـال والحصبة والجـدري والجـديـري والتهـاب الكبـد الفيـروسي والحمى الصفراء والحمى النكفية (النكاف) والهربس ومرض فقدان المناعة المكتسب (الإيدز) .

ورغم أن هذه الأمراض معـدية بـل شديـدة العدوى إلا أن دخـول هذه الفيروسات إلى الجسم لا يعني المرض .

فرغم أن الجدري مرض معدي إلا أنه قد يصيب شخصاً فيميته ويصيب آخر فتبدو عليه أعراض مرض خفيف وكأنه نزلة برد . . ويصيب ثالثاً فلا يبدو عليه أعراض أي مرض .

وكذلك فيروس شلل الأطفال ، حيث كـان يصيب الأطفال قبل تعميم التطعيم . . وكان الفيروس يدخل إلى جسم الطفل فيصيبه بالشلل ، ويدخـل إلى جسم طفل آخر فتظهر عليه أعراض أنفلوينـزا خفيفة ويصيب آخـرين فلا تبدو عليهم أي أعراض . .

وكـانت النسبة بصـورة عامـة هكذا : من كـل مائـة طفـل يـدخـل إلى أجسامهم فيروس شلل الأطفال ، لا يعاني ٩٠ منهم من أي مرض بينما يعاني

٩ من مرض مثل الأنفلوينـزا أو نزلات البـرد . . ويعاني واحـد فقط من شلل الأطفال[٧] .

وفي حالات الوباء كانت نسبة الإصابة بالمرض تتراوح ما بين واحد من كل خمسين في حالات الأوبئـة الشديـدة (Virulent Strains) وواحد من كـل خمسمائة في الأوبئة الأقل شدة[٧] .

وكانت الإصابة في الأطفال اليافعين والبالغين أشـد وأعتى من الأطفال الصغار[٧] ، على عكس ما هـو متوقـع حيث أن الإصابـة تكون في الأطفـال الصغار أشد وأعتى من الكبار في كثير من الأمراض.

والتهاب الكبد الفيْروسي من نوع «A» شديد الانتشار ، وخاصة في دول العالم الثالث ، ولكن نسبة ضئيلة من الذين دخـل الميكروب إلى أجسـامهم يصابون بمرض خفيف مثل الأنفلوينـزا ، ونسبة أقـل مـن هـؤلاء تبـدو عليهم أعراض اليرقان. . ويشفى ٩٥ بالمئة من المصابين باليرقان دون أن يسبب لهم أي أعراض جانبية[٨-١٣] .

وأما التهاب الكبد الفيروسي من نوع «B» فهو أشد خطورة ، ومع ذلك فإن أغلبية الأشخاص الذين دخـل الفيروس إلى أجسـامهم لا يبدو عليهم أي مرض ، وإن كانـوا ينبغي أن يمنعوا من التبـرع بدمـائهم ، ويبدو على نسبـة محـدودة مرض خفيف مثـل الأنفلوينزا . . وفي عـدد أقل يبـدو عليهم مرض التهاب الكبد بأعراضه المختلفة ودرجاته المتبـاينة في الشـدة . . والتي تنتهي لدى بعضهم بتليُّف الكبد وسرطان الكبد ، بينما يبقى آخـرون دون زيادة في المرض مهما طال الزمن[٨-١٣] .

وبصورة عامة فإن ما يحدث في شلل الأطفال ، هو مـا يحدث بـالنسبة للفيـروسات ، بحيث أن ٩٥ بـالمئـة ممن دخـل الفيـروس إلى أجسـامهم لا يشتكون من أي مرض ، وأن ٥ إلى ٩,٥ بالمئة يشكون من مرض خفيف مثل أعراض الأنفلوينزا ، وأن ٠,٥ إلى ١ بالمئة فقط هم من يعانون من الإصـابة الكاملة بالمرض مثل شلل الأطفال .

ويستثنى من هذه القاعدة العامة الفيروسات التي تسبب الأمراض الجنسية :

ففي مرض الهربس التناسلي مثلاً نجد أن ٥٠ بالمئة ممن دخل الفيروس إلى أجسامهم يصابون بأعراض المرض . . وأن المرض لا يزول من الجسم بعد ذلك ، بل يبقى في فترات كمون وظهور لعشرات السنين ، حتى يحطم حياة المريض . . وتبلغ نسبة تكرر هجوم الهربس ٧٠ بالمئة ممن ظهرت عليهم الأعراض[١٤] .

وفي مرض فقدان المناعة المكتسب (الإيدز) يذكر ونج ـ ستاد وجالو[١٥] أن ٨ ـ ١٠ بالمئة ممن دخل فيروس (الإيدز) (HIV) إلى أجسامهم ستظهر عليهم أعراض مرض الإيدز خلال عام ، ونسبة أكبر ستظهر عليها مجموعة الأعراض المرتبطة بالإيدز (Aids Related Complex) وآخرين ستظهر عليهم أعراض مرض الغدد اللمفاوية المنتشر المستمر Persistent Generalised Lymphadenopathy .

وقد ذكرت منظمة الصحة العالمية في اجتماعها المنعقد في باريس في يونيه ١٩٨٦ أن عدد حالات الإيدز الموجودة تقدر بمائة ألف حالة ، وأن حاملي فيروس الإيدز يقدرون ما بين خمسة إلى عشرة ملايين ، وأن عدد حالات الإيدز سيصلون إلى أكثر من مليون حالة في غضون خمس سنوات[١٦] .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الميكروبات إذا دخلت الإنسان وتغلب عليها هذا الجسم بعد ظهور أعراض المرض، فإن الجسم تتكون لديه في الغالب مناعة ضد الإصابة بهذا الميكروب ، ولكن هذه القاعدة مستثناة بصورة خاصة في حالات الأمراض الجنسية ، فإن الشخص إذا شُفي من المرض الجنسي فإن هذا المرض يمكن أن يعود مرة أخرى بنفس الضراوة والقوة إذا تعرض مثل هذا الشخص للعدوى مرة أخرى . ويحدث ذلك في مرض الهربس ، وفي مرض السيلان ، وفي مرض الزهري وفي غيرها من الأمراض الجنسية .

باختصار لا تتكون لدى الإنسان مناعة ضد الأمراض الجنسية . . وليس هناك حتى الآن تطعيم أو تلقيح يقي ضد الأمراض الجنسية المختلفة سواء كانت فيروسية أم بكترية أم طفيلية أم فطرية .

مراحل الميكروب في الجسم

إن ميكروب أي مرض عندما يدخل إلى جسم الإنسان يمر بالمراحل التالية :

١ ـ أن تكون الكمية من الميكروب (الفيروس أو البكتريا) أو الطفيلي أو الفطر قليلة العدد فيقضي عليها الجسم بسهولة ، ما عدا في حالات خاصة يكون فيها جهاز المناعة ضعيفاً جداً .

٢ ـ أن تكون الكمية من الميكروب كبيرة نسبياً ، ويختفي الميكروب في الجسم لفترة معينة ، تسمى فترة الحضانة . . وفي هذه الفترة يتكاثر الميكروب في الجسم بصورة كبيرة ، ولكن دون أن تظهر على الشخص المصاب أي آثار للمرض . . وتعتبر هذه الفترة ، عادة ، من أكثر الفترات التي يمكن أن تعدي الآخرين .

وتختلف فترة الحضانة من مرض لآخر ؛ فهي بضعة أيام في الأنفلوينزا ونزلات البرد والحمى الشوكية ، بينما تصل إلى ستة أشهر في فيروس الكبد من نوع «B» ، وتبلغ المدة بضع سنوات في فيروس الإيدز وعصويات الجذام والسل (الدرن)، وقد تصل في الجذام إلى ٣٠ سنة .

٣ ـ عند انتهاء فترة الحضانة تظهر آثار المرض ، ويسمى الشخص في هذه الحالة مريضاً . وآنذاك إما أن :

٤ ـ يتغلب الجسم على الميكروب ويشفى المريض ولا توجد بعد ذلك أي ميكروبات في جسم المريض ، بل على العكس من ذلك تزداد لديه المناعة ضد هذا الميكروب ، أو :

٥ ـ يتغلب الميكروب على الجسم بحيث ينتشر الميكروب انتشاراً كبيراً جداً ، وبحيث يقضي على حياة المريض .

٦ ـ في بعض الحالات يشفى المريض من المرض الذي أصابه ولكن الميكروبات تظل مختفية في جسمه ، أو بعض أعضاء جسمه ، وتفرز هذه الميكروبات مع بعض إفرازات هذا الشحص . ومثال ذلك مرض التيفود ، حيث يختفي الميكروب في مرارة الشخص المصاب ، ويفرز في الصفراء ويخرج الميكروب مع البراز ، ويكون بذلك معدياً للآخرين ، رغم عدم

وجـود أي أعراض مـرضية على الشخص . ويسمى مثـل هـذا الشخص حاملاً للميكروب .

٧ ـ في بعض الحالات ، يدخل الميكروب إلى الجسم ويتكاثر فيـه ، ولكن دون أن يحدث مرضاً ؛ ذلك لأن وسائل المقاومة تدافعه وتمانعه ، فلا هو انتصـر عليهـا ، ولا هي انتصـرت عليه . . وإنمـا تبقى الحـرب سجـالاً بينهمـا . . وفي هـذه الحـالـة قـد يبقى الشخص سنينـاً طـوالاً حـامـلاً للميكروب ، معدياً لغيره دون أن تظهر عليه أعراض أي مرض . .

ويمر فيروس الإيدز بمعظم هذه المراحل . . ولا بد من دخول ما يقارب مائة ميكـرولتر(*) من الـدم الملوث بفيروس الإيـدز لحدوث العـدوى . . ويحتوي كل ميليلتر من دم مريـض الإيدز على كمية من الفيروس تتراوح ما بين ١٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ وحدة فيروس فعالة . . وهذا يعني أن مـا بين ألف وعشرة آلاف وحدة فيروس فعالة تكفي لحدوث العدوى(١٧) .

البكتريا

تعتبر البكتريا مملكة كاملة ، وهي مخلوقات لا يمكن أن يقال عنها أنها وحيـدة الخلية ، ولكنهـا تملك مقـومـات الحيـاة فهي تنمـو وتتغـذى وتتنفس وتتكـاثر ، وتحتـوي كل واحـدة منها على الحـامضين النـوويين DNA, RNA (الحامض النووي الريبي ، والحامض النووي منزوع الـريبي) مثلما تتكـون كل خلية حية .

والبكتريا أنواع عديدة وتقسم إلى فصائل ومجموعات حسب خصائصها وعاداتها وطرق تكوينها ، ومنها ما هو نافع للإنسان مثـل البكتريـا التي تحول اللبن (الحليب) إلى لبن رائب وذلـك بتحويـل سكـر الـلاكتـوز (اللبن) إلى حامض اللبنيك (Lactic acid) ، ومنها البكتريا التي تثبِّتُ النتروجين الجوي في التربة فتزيدها غناء فتمتصها النباتات البقولية فتخرج لنا ما بهـا من بروتين . . ومنها ما يعيش في أمعاء الإنسان ويساعد على تكوين فيتامين (ب) المركب

(*) الميكرولتر: $\frac{١}{\text{مليون}}$ من الليتر.

كما يساعد على هضم بعض المواد . . ويتعايش كثير منها مع الإنسان فيفيد ويستفيد ، ويوجد منها البلايين على سطح الجلد ، فتأكل هذه القشور (الخلايا الميتة) التي يطردها الجلد في كل لحظة وآونة ، فتأكل كل هذه القشور وتدع المجال مفتوحاً للخلايا الجديدة الحية لتحل محل هذه القشور الميتة .

وتعيش البلايين من هذه البكتريا في فم الإنسان وأنفه وعلى سطح جلده وفي أمعائه دون أن تحدث له أي ضرر ، بل إن كثيراً منها ذو نفع وفائدة كما أسلفنا . ولكن العجيب حقاً أن هذه البكتريا المفيدة والتي تعيش معنا في وئام وسلام قد تتحول فجأة ، وبدون سابق انذار ، إلى طبيعة عدوانية وحشية ماكرة فتهجم علينا وتستغل ضعفنا وتجعلنا فريسة لها ما بين عشية وضحاها . .

وكل ذلك يعتمد على درجة المقاومة والمناعة في جسم الإنسان ، وعوامل المناعة كثيرة ، وهبها الله للانسان . ويمكن أن تقسم إلى نوعين سنذكرهما بإيجاز شديد جداً ، لأن هذا المجال لا يسمح بالتفصيل :

١) المناعة الطبيعية Natural Immunity

وهي وسائل الدفاع الطبيعية التي وهبها الله للجسم لمقاومة الأمراض المعدية ، وتشمل الجلد ، والأغشية المخاطية والإفرازات الخاصة في الجهاز البولي والهضمي (المعدة) والجهاز التنفسي والجهاز التناسلي وخاصة المهبل . . وهناك جهاز خاص لمقاومة الأجسام الغريبة والأمراض المعدية في الدم والجسم ويتكون من الخلايا البالعة الكبيرة Macrophages ، والخلايا البيضاء متعددة اشكال الأنوية Leucocytes Polymorphs ، والخلايا ذات النواة الواحدة Monocytes وجميعها تعرف باسم الخلايا الآكلة Phagocytes . وهناك الخلايا اللمفاوية ، وهي الجهاز المناعي المتخصص وتنقسم إلى نوعين من الخلايا :

أ) **خلايا T** : ومصدرها نقي العظام وتنمو في الغدة السعترية (الثيموسية) ، ووظيفتها الالتحام بالمواد الغريبة والميكروبات فتسبب تحللها وقتلها وهذا ما يعرف باسم المناعة بواسطة الخلايا Cell Mediated Immunity .

ب) **خلايا «B» ومصدرها نقي العظام** : ووظيفتها أن تصنع القذائف

المضادة للأجسام الغريبة والميكروبات ، وتعرف باسم الآلية الخلائطية Humoral Immunity . ولهذه الخلايا خاصية إيجاد مجموعة منها لها ذاكرة تتعرف على الميكروب أو الجسم الغريب، فإذا عاود الهجوم مرة أخرى كانت له بالمرصاد وأرسلت قذائفها عليه حتى تبيده .

٢) المناعة المكتسبة Acquired Immunity

وهي وسائل الدفاع التي تكتسب صفة النوعية لنوع معين من العناصر الغريبة ، وهي على نوعين أيضاً :

أ) المناعة المكتسبة النشطة :

(١) نتيجة دخول الميكروب ، أو الجسم الغريب ، إلى الجسم بصورة طبيعية ، كما يحدث في مختلف الأمراض المعدية ، فيتعرف جهاز المناعة وخاصة الخلايا اللمفاوية من نوع «B» على هذا الجسم ويختزن ذلك في الذاكرة لهذه الخلايا العجيبة ، فإذا ما تم هجوم آخر وجد المضادات لها بالمرصاد .

(٢) يتم إدخال الميكروب ميتاً أو مضعفاً أو جزء من غلاف الميكروب إلى الجسم بواسطة التطعيم . . وبهذه الطريقة تتنبه الخلايا اللمفاوية وتتكون لديها الذاكرة لمعرفة هذا الميكروب المعيّن فإذا هجم الميكروب على الجسم وجد أجهزة المناعة له بالمرصاد .

ب) المناعة المكتسبة السلبية

وهي وسيلة دفاع مستعجلة بحيث يعطى المصاب ، أو المتوقع إصابته بمرض معين ، مضادات الأجسام Antibodies ضد هذا الميكروب ، والتي تجمع في العادة من الناقهين من هذا المرض المعيّن . . وقد تجمع هذه المضادات للأجسام من أمصال الخيول التي تحقن بالمادة المؤرجة Allergin ، سواء كانت ميكروباً أو سماً ، ثم يؤخذ المصل من الخيل بعد تكوّن المضادات لهذه الأجسام الغريبة . .

عوامل إضعاف المناعة في جسم الإنسان

إن عـوامل إضعـاف جهاز المنـاعـة في الإنسـان كثيـرة جـداً وتكتنفهـا المجاهيل . وهي كالتالي :

١) **العـوامل الـوراثية** : وخـاصة تلك المـرتبطة بنقص في تكـوين الخـلايـا اللمفاوية من نوع «B» أو نوع «T» .

٢) **العوامل الطبيعية** : مثل الطفولة والشيخوخة والحمل . . فالبـداية ضعف والنهاية ضعف والحمل وهن من بعد وهن .

٣) **عوامل التغذية** : وخاصة نقص البروتينات والفيتامينات التي يؤدي نقصها إلى إضعاف جهاز المناعة .

٤) **أمراض غير معـدية أو معـدية تضعف المقـاومة** : هنـاك أمراض عـديدة تضعف جهـاز المقاومـة من أهمها البـول السكـري ، وأنـواع السـرطـان والأمراض الخبيثة . ومن الأمراض المعديـة التي تضعف جهاز المقـاومة مرض فقدان المناعة المكتسب (الإيدز)، وهو يمثل الإضعاف التام لجهاز المناعة . كما أن هناك أمراضاً معدية أخرى تضعف جهاز المناعة بصورة أقل ، نذكر منها مرض السل (الدرن) .

٥) **عوامل خارجية** وهي عوامل كثيرة نذكر منها ما يلي :

التدخين : يضعف المقاومة وخاصة في الجهاز التنفسي .

الخمور : تضعف المناعة بصورة عـامة وفي الجهـاز التنفسي بصورة خاصة .

اللواط والـزنا : تكـرر الزنـا يضعف المقـاومـة وخـاصـة في الجهـاز التناسلي .

الجماع أثناء المحيض : يضعف المقاومة في الجهاز التناسلي .

استخدام العقاقير : وأهمها الكورتيزون ومشتقاته والمضادات الحيوية وأدوية خفض المناعة مثل الأزاثيوبرين (الإيميوران) والسيكلوسبورين .

الإجـهاد الشديد : يضعف المقاومة بصورة عامة .

ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها الشديد : تضعف المقاومـة بصورة عامة .

تلوث البيئة وعادم السيارات والمصانع : يضعف المقاومة وخاصة في الجهاز التنفسي .

ومع هذا كله فهناك عوامل كثيرة لا تزال مجهولة . . وقد يصاب الرجل القوي الموفور الصحة بالميكروب فيصرعه ، ويصاب به شخص آخر هزيل يعاني من نقص التغذية فلا يسبب له أي أذى .

وهناك عوامل كثيرة متشابكة متداخلة ، وما نعلمه منها ليس إلا النزر اليسير .

تفاعل الميكروبات (عوامل العدوى) مع عوامل المناعة

تتفاعل عوامل الميكروبات المؤدية إلى المرض مع عوامل المناعة في جسم الإنسان بحيث أنها تؤدي إلى الآتي :

١) تغلب الجسم على الميكروب ، وبالتالي عدم ظهور المرض وبقاء الجسم سليماً لا يحمل الميكروب .

٢) تغلب الميكروب على الجسم بحيث يظهر المرض . . وفي هذه الحالة يكون المصاب في الغالب معدياً لمن حوله بطريقة من طرق العدوى المختلفة . . وتكون النهاية إما لصالح الجسم (بمساعدة العقاقير أو بدونها) أو لصالح الميكروب حيث يقضي على حياة المريض .

٣) تبقى الحرب سجالاً ، ويحدث التعايش بين الجسم والميكروب ويكون الشخص سليماً معافى في ظاهره .

وحامل المرض أو حامل الميكروب هو الذي يُبقي الميكروب موجوداً في المجتمع رغم عدم حدوث أي مرض ظاهر فيه .

وعلى سبيل المثال في حالات ميكروب الحمى الشوكية (المكورات السحائية) فإننا نجد الآتي :

١) في حالات عدم وجود أي وباء في المجتمع فإن ما بين ٣ إلى ١٠ بالمئة من السكان يحملون المكورات السحائية في حلوقهم دون وجود أي مرض عليهم أو على غيرهم[١٨] . ونجد الفئات التالية في المجتمع مصابة بهذه النسبة .

٠,٥ إلى ١ بالمئة في الأطفال من ٣ أشهر الى سنتين .
٥ بالمئة من المراهقين (١٤ إلى ١٧ سنة) .
٢٠ ـ ٦٠ بالمئة في معسكرات الجنود .
٤٠ بالمئة في العائلة عند إصابة أحد أفرادها بالحمى الشوكية[١٨-٢٤] .

وبصورة عامة تذكر بعض المصادر أن الوباء يظهر عندما يبلغ عدد حاملي الميكروب ٢٠ بالمئة من الشريحة السكانية المدروسة مثل معسكرات الجنود ، ولكن هذا ليس صحيحاً على اطلاقه . ففي كثير من الحالات يكون عدد حاملي الميكروب أكثر من ٢٠ بالمئة من مجموع الجنود في المعسكر ، ومع هذا لا يظهر عليهم أي مرض مطلقاً ، وفي كثير من الأحيان لا يظهر المرض إلا عندما يبلغ عدد حاملي الميكروب ٩٠ بالمئة من مجموع سكان المعسكر[١٨-٢٤] .

وفي حالات الحمى الشوكية فإن انتشار المرض سببه حاملي الميكروب السليمين ظاهرياً ، وليس سببه في الغالب الحالات المرضية القليلة . . وهناك عوامل عديدة لا تزال مجهولة تتحكم في ظهور الوباء أو عدم ظهوره[١٨-٢٤] .

وفي حالات حدوث الوباء فإن ما بين ٥ إلى ٢٤ من كل مائة ألف من السكان يصابون بالمرض (وفي وباء ساوباولو في البرازيل عام ١٩٧٤ ارتفعت الإصابة إلى ٣٧٠ من كل مائة ألف من السكان) ، وتكون الإصابة في الأطفال أكثر منها في البالغين . . [١٨-٢٤] ، وفي المجتمعات المغلقة وخلال انتشار الوباء فإن نسبة حاملي الميكروب قد ترتفع وتصل الى ١٠٠ بالمئة من السكان(*) .

وفي أفريقيا ظهرت الحمى الشوكية بصورة وبائية متكررة فيما يعرف بحزام الحمى الشوكية (نيجيريا) حتى عام ١٩٨٠ ، ثم انخفضت الإصابات بشكل ملحوظ ، بعد تعميم التطعيم وانتشاره حتى عام ١٩٨٦ ، عندما ظهر الوباء مرة أخرى بسبب إهمال التطعيم[٢٤] .

ويكفي التطعيم في الغالب لمدة تتراوح ما بين ثلاث وخمس سنوات . . وهناك فصائل عديدة من ميكروب الحمى الشوكية بناء على الغلاف (المصنوع

(*) انظر كتاب «كل ما يجب أن تعرفه عن الحمى الشوكية» تأليف د. أحمد بافرط ـ الرياض .

من المواد النشوية المخاطية) ، ولا يوجد تطعيم ضد فصيلة «B» من ميكروب (المكورات السبحية) حتى الآن[١٨-٢٤] ، وإنما يوجد اللقاح للفصيلة A و Cفقط[*] .

وقد كانت معظم الإصابات في أوبئة الحمى الشوكية ناتجة من المكورات السبحية نوع «A» ، ولكن منذ عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٠ كانت الإصابة من الأوبئة كالتالي : [١٨-٢٤] .

٥٦ بالمئة من المكورات السبحية نوع «B» .

١٩ بالمئة نوع «C» .

١١ بالمئة نوع «Y» .

١٠ بالمئة نوع «W_{135}» .

٣ بالمئة نوع «A» .

ومنذ عام ١٩٨٠ فما بعدها ظهر نوع «W 135» ليحل محل نوع «Y» حيث بلغت الإصابات نسبة ٢١ بالمئة من مجموع الاصابات[**] .

المناعة الطبيعية ضد الحمى الشوكية

عندما يولد الأطفال يكون لدى ٥٠ بالمئة منهم على الأقل مضادات الأجسام ضد ميكروب المكورات السبحية والتي عبرت المشيمة من الأم أثناء الحمل .

وفي خلال ستة أشهر لسنتين يفقد هؤلاء الأطفال هذه المناعة المكتسبة من الأم ، وفي مرحلة البلوغ يكون ٧٠ بالمئة من البالغين قد تكونت لديهم

(*) تعتبر فعالية اللقاح Aجيدة إذ تصل الى قريب من ٩٠ بالمئة، وكذلك اللقاح C. ولكن هذا اللقاح لا يعني الوقاية مائة بالمئة من الحمى الشوكية من فصيلة A و C، كما أنه لا يعطي أي وقاية للفصائل والزمر الأخرى مثل B و W و Y و X و Z إلخ .

(**) تقسم ميكروبات الحمى الشوكية من فصيلة نيسيريا Neisseria حسب غلافها الى زمر مختلفة مثل A,B,C وD,Z,Y,X و W 135 و 29E . وقد كانت معظم الاصابات ناتجة عن الزمرة A ثم صارت ناتجة عن الزمرة B وتحوّلت بعد ذلك الى الزمر الأخرى. وكان الوباء الذي انتشر في المملكة العربية السعودية في موسم حج ١٤٠٧/١٤٠٨هـ ناتجاً عن الزمرة B ومصدره من نيجيريا.

مضادات الأجسام ضد المكورات السبحية[١٨-٢٤] .

وهذا يعني ببساطة أن أغلبية السكان من البالغين يكون لديها مناعة مكتسبة ضد ميكروب الحمى الشوكية ، وذلك نتيجة العدوى المستمرة من حاملي المكيروب . . وليست هذه المناعة نتيجة التطعيم[١٨] .

ومع هذا فليس كل من لديه مضادات ميكروب الحمى الشوكية ينجو قطعاً من الإصابة بها ، ولا كل من ليس لديه مضادات الأجسام ضد ميكروب الحمى الشوكية سيصاب حتماً عند وجود الوباء . ففي دراسة على المتقدمين للجيش الأمريكي عام ١٩٦٨ وجد أن ١١ بالمئة من المتقدمين ليس لديهم مضادات الأجسام ضد ميكروب الحمى الشوكية . . وفي أثناء الدورات تكوَّن لدى ربع هؤلاء مضادات الأجسام ، وبقي الباقون بدون أجسام مضادة للحمى الشوكية . وعندما حدث وباء الحمى الشوكية أصيب بالمرض ٣٨ بالمئة ممن لم يكن في أجسامهم أجسام مضادة للمكورات السبحية ، بينما لم يصب سوى واحد بالمئة ممن كانت لديهم أجسام مضادة[١٨-٢٤] .

ورغم الفائدة الملحوظة لوجود أجسام مضادة لميكروب الحمى الشوكية إلا أن وجود هذه الأجسام لم يمنع المرض عند بعضهم . . كذلك فإن عدم وجود مضادات الأجسام لم يكن متلازماً مع حدوث المرض .

وقد ضربت المثل بالحمى الشوكية . . والشيء ذاته يمكن أن يقال عن الكوليرا وعن التيفود وعن غيرها من الأمراض .

ظهور الإعجاز في أحاديث العدوى :

تذكر الأحاديث النبوية الشريفة ، التي ذكرناها في التمهيد ، أن لا عدوى ، وفي نفس الوقت تقول فرّ من المجذوم فرارك من الأسد ، ولا يورد ممرض على مصح . . وفي حديث أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رفض أن يبايع المجذوم مصافحة ، وفي حديث آخر أنه ، صلى الله عليه وسلم ، أكل مع المجذوم في قصعة واحدة .

وقد أدى هذا التناقض الظاهري إلى إنكار الأحاديث النبوية الشريفة لدى طائفة من الناس قديماً وحديثاً ، وخاصة في مجال الطب مما حدا بكثير من

العلمـاء أن يقولـوا أن الأحاديث ، التي وردت عنـه صلى الله عليه وسلم في الطب ، هي من العاديات التي لا يتحدث فيها ، صلى الله عليه وسلم ، عنها بوحي . . وإنما هي من كلامه العادي الذي لا يـدخل في الـوحي ، والقابـل بالتالي للخطأ .

ومما سبق أن شرحنـاه في موضـوع الأمراض المعـدية يتبين لنـا إعجاز أحاديث المصطفى ، صلى الله عليـه وسلم . . فالأحـاديث النبويـة الشريفـة توضح بجلاء أن دخول الميكروب بذاته إلى جسم الإنسان ليس كافياً لحدوث المرض . . وأن هناك عوامل أخرى ، غير ظاهرة لنا ، هي المسؤولة في النهاية عن حدوث المرض .

وعلى هذا نستطيع أن نقول بكل ثقة أن الميكروب أو الطفيلي أو الفطر ليست وحدها المسؤولة عن ظهور المرض المعدي ، وإنما هناك عوامل عديدة بعضهـا معلوم وأكثرهـا مجهول ، تؤدي إلى ظهـور المـرض أو تغلب الجسم عليه .

وقد أوضحنا أن ما لا يقل عن ٩٠ بـالمئة ممن يـدخل الميكـروب إلى أجسامهم (الكوليرا ، شلل الأطفال ، الحمى الشوكية) لا يصابون بأي مرض على الاطـلاق ، وإن كانـوا يحملون الميكـروب في أجسـامهم وينقلونـه إلى غيرهم .

وأن مـا بين ٥و ٩,٥ بالمئـة ممن دخـل الميكـروب إلى أجسـامهم لا يشتكون من المرض الخطير وإنما من أعراض خفيفة جداً تشبـه نزلـة البرد أو الزكام . وأن ما بين نصف إلى واحد في المائة هم الـذين تظهـر عليهم بوادر المـرض الخطيـر ، وهؤلاء أيضاً ينقسمـون إلى فئـات ، بعضهـا يتغلب على المـرض دون علاج ، وبعضهـا يتغلب على المرض بـالعلاج ، وآخـر يهلك ويموت رغم العلاج .

ثم أن الميكروبات الطبيعية التي نستضيفها في أجسامنا ، وتمدنا بكثير مما نحتاج إليه وتتعايش معنا في وئام وسـلام ، قد تتحـول طبيعتها المسـالمة الوادعة ، فجأة ودون سابق إنذار ، إلى طبيعة عدوانية ماكرة ، فتهاجم أجسامنا وتعيث فيها فساداً .

والميكروب لوحده ، إذن ، لا يسبب المرض ، والعدوى لوحدها لا تساوي العاهة والسقم ، وإنما هناك أسباب أخرى ليست بيد العبد ولا في مقدوره أن يتحكم بها بل ولا يعلم كثيراً منها هي التي تهيىء جسمه للصحة أو المرض ، للعدوى أو المقاومة .

وهذه الأحاديث الشريفة ترد الناس إلى كمال التوحيد ، وتردهم إلى بارئهم الذي تقوم به الأسباب . فهو الذي إن شاء جعل هذا الميكروب سبباً للمرض ، وإن شاء جعله وقاية من الأمراض . . وهو الذي إن شاء جعل ميكروب الحمى الشوكية داء وبيلاً يقتل المصاب به ، وإن شاء جعله حملاً وديعاً يعيش في حلق الشخص وبلعومه دون أن يسبب له أي أذى ، وهو الذي إن شاء جعل فيروس شلل الأطفال مرضاً وبيلاً يشل الأطراف ، أو يشل أعضاء التنفس . . وإن شاء جعله حماية ووقاية لذلك الطفل من ذلك المرض الخطير في مستقبل الأيام .

وهو سبحانه يجعل البكتريا المسالمة الموادعة التي تعيش في أجسامنا تتحول فجأة إلى إعصار مدمر يهدم كل بنيان . وهو الذي خلق الداء والدواء ، وكم من داء إذا أصاب شخصاً انقلب في حقه إلى دواء (حسي أو معنوي) . . وكانت له وسيلة لمقاومة الميكروب في مستقبل الأيام .

ومنذ أن عرف الأتراك تلقيح الأبقاربالجدري ، ثم تلقيح الأطفال ، وتبعهم بعد ذلك جينير ، الطبيب الإنجليزي ، ظهرت فائدة التلقيح والتطعيم ضد مختلف الميكروبات . وفكرة التطعيم والتلقيح تتلخص في أن يُدْخِلَ الإنسان الميكروب ميتاً أو مضعّفاً إلى جسم السليم . . فتتعرف عليه أجهزة المناعة وتصنع المضادات ضده حتى إذا دخل الميكروب الحقيقي وجد أجهزة الدفاع على أتم استعداد لمقاومته .

وقد استطاع التطعيم والتلقيح أن ينقذ ملايين البشر من الجدري حتى أنه اندثر أو كاد من العالم أجمع ، كما استطاع أن يحمي ملايين الأطفال من شلل الأطفال والسعال الديكي والكزاز (التتانوس) وغيرها من الأمراض . .

ولكن التطعيم والتلقيح نفسه قد يسبب مرضاً خطيراً وبيلاً . . وهكذا

يتحول الداء إلى دواء . . وكم من مشلول أو مصاب بالتهاب الدماغ بسبب التلقيح والتطعيم .

وكذلك العقاقير التي نستخدمها لمحاربة الميكروبات والتي تنقذ الملايين من البشر كل عام تتحول أحياناً إلى داء وبيل لا إبلال منه ، بل وكم قتلت هذه العقاقير من البشر !!!

فسبحان من جعل بيده تصريف الأمور كلها . . وهو وحده الذي أنزل الداء والدواء . . وهو الذي إن شاء جعل الداء دواء ، والدواء داءً . . وكم من الأمراض سببها الأدوية التي نتعاطاها Iatrogenic Diseases ومع هذا كله فنحن لا ننفي الأسباب . . فالأسباب موجودة بقدر الله وقدرته ، ونحن مطالبون بمعرفة الأسباب واتخاذها فإن هذا لا ينافي التوحيد ، ولكن الذي ينافيه هو اعتقاد الأسباب انها فاعلة بذاتها .

وقد أمر رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بالتداوي حيث قال : « تداووا عباد الله ، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء » ، ولكنه ، صلى الله عليه وسلم ، أمرنا أن لا ننظر إلى الأسباب باعتبارها فاعلة بذاتها ، بل هي مربوبة مقهورة بيد بارئها وخالقها . والميكروبات ليست بذاتها سبباً للمرض والعدوى، بل هي جزء سبب ، تعارضه أسباب أخرى ، وليست بذاتها سبباً تاماً كاملاً ، وهي كما يقول ابن القيم[٢٥] :

«إن هي إلا خلق مسخر مربوب لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته . . وغايتها أنها جزء سبب وليست سبباً تاماً فسببيتها من جنس سببية وطء الوالد في حصول الولد ، فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التي خلق الله بها الجنين ، وكسببيته شق الأرض وإلقاء البذر ، فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التي يكوّن الله بها النبات » .

ثم يقول : « والمنحرفون طرفان مذمومان : إما قادح في التوحيد بالأسباب ، وإما منكر للأسباب بالتوحيد ، والحق غير ذلك وهو إثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر » .

وهكذا تتضح الرؤية ويعلم أن الميكروب وحده ليس سبباً للمرض ، وبالتالي لا عدوى بذاتها . . وإنما العدوى ناتجة بقدر الله وقدرته . ومع هذا

فنحن لا ننفي الأسباب ، بل نأخذ بالأسباب في عالم الأسباب مع الاعتقاد التام بأنها لا تضر ولا تنفع بذاتها ، وإنما الأمر كله بيد خالق الأسباب الذي بيده الضر والنفع . . والذي لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد أو يثق أو يتوكل إلا عليه وحده .

﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ التوبة ١٢٩ .

وبهذا يتبين أن أحاديث المصطفى ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في العدوى ليست بعيدة عن التناقض فحسب ، ولكنها تحمل في طياتها إعجازاً علمياً لم يكشف اللثام عنه إلا في القرن العشرين بعد أن تطورت علوم البشر عن أسباب المرض وجهاز المناعة، وحدوث المرض .

المراجع :

(١) صحيح البخاري ج ٩ مجلد ٩ كتاب الشعب ، القاهرة . . كتاب الطب .

(٢) ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر) العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، المكتبة السلفية القاهرة بإشراف وتصحيح ومراجعة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب . كتاب الطب .

(٣) صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر، بيروت، باب الطب ج ١٤/١٦٩ - ٢٢٨ .

(٤) ابن الأثير الجزري (أبو السعادات مبارك بن محمد) : جامع الأصول من أحاديث الرسول ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٢ ، (الطبعة الأولى) .

(٥) محمد بن محمد بن سليمان : جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد وبهامشه أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد للسيد عبد الله هاشم اليماني ، المدينة المنورة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، كتاب الطب .

(٦) الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى) : الجامع الصحيح المشهور باسم سنن الترمذي .

(7) Johnson R.T. Acute Anterior Poliomyclitis ; in Wyngaarden J. and Smith L. (eds). Cecil Textbook of Medicine, 17th Edition, 1985, Saunders Co. Philadelphie - London - New York. pp 2130 - 2132 .

(8) Ockner R. - K. Acute Viral Hepatitis; in Wyngaarden J and Smith L. (eds). Cecil Textbook of Medicine, 17th Edition, 1985. pp 812 - 812 .

(9) Robinson W.R. Hepatitis A Virus; in Mandell, Douglas R., Bennet J (eds):Principles and Practice of Infections Diseases, Wiley Medical Publication,. New York, 1979 . pp 1370 - 1388 .

(10) Robinson W.R. Hepatitis B Virus; in Mandell, Doublas, Bennet (eds) Principles and Practice of Infections Diseases, Wiley Medical Publications, New York, 1979 pp 1388 - 1424 .

(11) Robinson W.R. Non An non B Hepatitis. in Mandell, Douglas, Bennet (eds) Principles and Practice of Infections Diseases, Wiley Medical, New York 1973, 1424 - 1430 .

(12) Dienstag JL: Hepatitis A Virus: Identification, Characterization and epidemiologic investigation, In Popper H, Schaffner (eds): Progress in Liver Diseases, Grunne and Straton Co., New York, 1979 pp 343 - 370 .

(13) Dienstag JL : Non A, non B hepatitis, Gasteroenterology, 1983, 85 : 439 .

(١٤) البار (محمد علي) الأمراض الجنسية ، أسبابها وعلاجها ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٧ ، دار المنارة ، جدة ، ص ٢٤٢ وص ٢٥٢ .

(15) Wong - Stad F., Gallo R.: Human T Lymphortropic Retro Virus, **Nature 1985** , 317 : 395 - 403 .

(16) **Lancet, July** 5, 1986: 51.

(١٧) البار (محمد علي) وصافي (أيمن): الإيدز وباء العصر ، دار المنارة ، جده ١٩٨٧ ، ص ١١٢ .

(18) Swartz M.N: Meningo Coccul Diesase, In Wyngaarden J and Smith L (eds)Cecil Textbook of Medicine, 17th Edition, 1985, Saunders Co. Phil - London - New York, pp 1557 - 1563 .

(19) Band J. D., Chamberland ME et al: Trends in Meningococcal Diseases in The United States 1975 - 1980. **J. Infect Dis. 1983, 148:** 754 .

(20) De Voe I. W. The Meningococcus and Mechanism of Pathogenicity. **Microbiol Rev. 1982, 46:** 162

(21) Greenfield S., Sheehe PR, Feldman H.A.: Meninogoccoccal Carraige in a Population of normal Families. **J. Infect Dis. 1971, 123:** 167 .

(22) Feldman H.A.: Meningococcal Infections. **Adv. Int Med. 1972, 18:** 117 .

(23) Peltolah : Meningococcal Disease Still With US. **Rev - Inf. Dis. 1983, 5: 71 .**

(24) Mohammed I. Meningoco ccal Vaccine . **Postgraduate Doctor, 10, 4 :** 225 - 230 , **1987 .**

(٢٥) ابن القيم (محمد بن أبي بكر) : مفتاح دار السعادة ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض (بدون تاريخ) ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٧٠ .

قبسات من الطب النبوي [٣]

الإعجاز الطبي في أحاديث الجذام

بحث مقدم الى المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة . إسلام أباد (٢٣ - ٢٦ صفر ١٤٠٨ هـ الموافق ١٧ - ٢٠ أكتوبر ١٩٨٧ م) .

تمهيد :

يعتبر الجذام (الذي كان يطلق عليه قديماً اسم البرص)(*) من أكثر الأمراض التي أحدثت رعباً للإنسانية منذ عهود سحيقة ، وذلك لما يحدثه الجذام في كثير من الأحيان من تشوهات في الجسم وبتر للأطراف وشلل في الأعصاب الطرفية .

ورغم أن نسبة العدوى (أي دخول الميكروب الى الجسم) في الجذام عالية ، إلا أن الإصابة بالمرض ليست عالية[١-٣] . وفي الواقع فإن ٥ بالمئة من المخالطين خلطة شديدة للمجذومين هم الذين يصابون بالمرض[١-٣] . وفي المناطق المصابة بمرض الجذام فإن معظم البالغين من الأصحاء قد أصيبوا بميكروب الجذام ولكنه لم يسبب لهم أي مرض على الإطلاق[١-٣] .

وقد تعاملت البشرية بصورة قاسية في معظم الأحيان ، مع المجذومين أو الذين يعتقد أنهم مصابون بالجذام .

ففي سفر اللاويين من التوراة المحرفة[٤] وصف للبرص (الجذام) وكيف يمكن أن يميّزه الكاهن من البقع البيضاء التي قد تكون حزازاً ، أو ناتجة بعد الكي ، أو بعد إصابة جلدية أو جروح . ولا شك أن كثيراً من الذين حكم عليهم أنهم مصابون بالجذام لم يكونوا يعانون منه . .

(*) يطلق اسم البرص ، وخاصة عند القدماء ، على مرض الجذام . وقد يطلق أحياناً على البهاق . والبهاق مرض جلدي غير معدي ، يفقد الجلد فيه لونه ويصبح أبيض بياضاً شديداً . وسببه غير معروف على وجه الدقة ويعتقد أنه ناتج عن توتر نفسي وقلق . وهناك نوع وراثي Albinism خاص .

ويعتبر المصاب بالبرص (الجذام) نجساً ويخرج من البلدة ، وفي اللحظة التي يعلن فيها الكاهن أن شخصاً ما مصاب بالجذام تشق ثيابه وينادى عليه نجس نجس . . و« كل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون نجساً . . يقيم وحده» .

كما أن علاج الجذام كان مشوباً بالخرافات ففي سفر اللاويين الإصحاح ١٤[٥] تفصيل لهذه الطقوس التي يقوم بها الكاهن لإعلان شفاء المصاب بالبرص وخلاصه من النجاسة . . وذلك مقابل كبشين ونعجة ودقيق وزيت تقدم للكاهن . . وفي هذه الأثناء يذبح الكاهن عصفوراً ويلطخ آخراً بدمه . . ويجعل هذا العصفور الملطخ بالدم يطير فوق المصاب بالجذام . . ثم يذبح كبشاً . . ويلطخ المصاب بدمه . . الخ .

والغريب حقاً أن الجذام كان منتشراً في العصور الوسطى في أوروبا ؛ ففي بداية القرن الثالث عشر الميلادي كان في أوروبا أكثر من ١٩,٠٠٠ مستعمرة للمجذومين منها ألفي مستعمرة في فرنسا وحدها . وفي القرن الرابع عشر كان في باريس ٤٠ مستشفى يقابلها ٤٠ نزلاً للمجذومين . . وفي انجلترا ثم إنشاء ٧٢٠ مستشفى خلال القرون الثلاثة (الثاني عشر إلى الخامس عشر) ، كان ٢١٧ مستشفى منها للمجذومين[٦] .

وفي الوقت الراهن يقدر عدد المصابين بالجذام بعدد يتراوح ما بين ١٠ و ١٥ مليون شخص[١-٣] وتوصله بعض المصادر إلى ٢٠ مليون شخص ، تتركز في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية[١] . ولا يزيد عدد المجذومين في الولايات المتحدة عن ألفين[٧] ، وفي بريطانيا بلغ العدد المسجل ٤٠٠ حالة[٨] .

وبائيات الجذام وطرق انتشاره :

تقدر منظمة الصحة العالمية عدد حالات الجذام بـ ١١ مليوناً ، بينما ترفع المصادر الطبية الأخرى العدد إلى ١٥ مليوناً[٧] ، وبعضها إلى ٢٠ مليوناً[١] ، ويصل التركيز في بعض القرى في أفريقيا إلى أكثر من مائتي شخص من كل ألف . . وإن كان هذا نادر الحدوث[٧] . والغالب في الأمر أن

يكون عدد المصابين ما بين ٢٥ و ٥٥ من كل ألف من السكان في المناطق المصابة .

ورغم أن المناطق المصابة تتمثل في المناطق الاستوائية أو الحارة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلا أن المرض موجود ، وإن كان ذلك في حالات قليلة ، في أوروبا وسيبيريا وشمال الصين وفي الولايات المتحدة[٧] (حوالي ٢٠٠٠ حالة في الولايات المتحدة و ٤٠٠ حالة في بريطانيا) .

فترة الحضانة : تختلف فترة الحضانة اختلافاً كبيراً ، وتتراوح ما بين ستة أشهر وثلاثين عاماً ولكن معظم الحالات تتراوح ما بين ثلاث وخمس سنوات .

طرق العدوى :

لا تعرف طريقة انتشار المرض ، على وجه الدقة ، حتى الآن . وفي الماضي كان يعتقد أن الميكروب ينتقل من جلد المصاب إلى الشخص السليم . أما الآن فإن هذه الطريقة في العدوى تعتبر نادرة جداً ، وذلك لقلة الميكروبات بصورة عامة في جلد المصاب بالجذام .

وتتركز الميكروبات العضوية للجذام في الأنف ، وتنقل عطسة واحدة من مصاب بالجذام (من نوع الورم الجذامي) ٢ × ١٠^٨ ميكروباً[٣] إلى الهواء . وترفع بعض المصادر الرقم الى ٢ × ١٠^٨ ميكروباً[١] ولهذا تعتبر العدوى عن طريق الرذاذ هي أهم مصادر العدوى . ولكن لا يعلم كيف ينتقل الميكروب بعد ذلك من الجهاز التنفسي إلى الأعصاب الطرفية والجلد . . كما يحتمل أيضاً أن تنتقل الميكروبات من الرذاذ إلى الشقوق الصغيرة في الجلد .

والطريقة الثالثة المحتملة هي العدوى بواسطة وخز الحشرات حيث أمكن في المختبرات نقل الميكروب إلى الحشرات ونموها فيه . . ولكن لم يثبت حتى الآن بطريقة قطعية أن هذه الطريقة موجودة في وبائيات الجذام على الطبيعة .

والطريقة الرابعة هي عن طريق اللبن اثناء الرضاعة حيث تفرز ميكروبات

الجذام بكمية كبيرة في اللبن . أما الطريقة الخامسة فمشكوك فيها وهي عبور الميكروبات المشيمة أثناء الحمل .

ميكروب الجذام

يشبه ميكروب الجذام ميكروب الدرن إلى حد كبير (ميكروبكتريم) ويقبل صبغة زيل نيلسون ولا يمكن إزالة الصبغة بالكحول أو الأحماض . . ويتميز ميكروب الدرن بأنه لا يمكن زرعه في المختبر . . ولكن العالم (Sphephard) تمكن من تنمية الميكروب في قدم بعض الفئران عام ١٩٦٠ وقد تبين أن نمو الميكروب بطيء جداً حيث يتضاعف عدده في (١١ ـ ١٣) يوماً .

وقد وجد أن الميكروب يوجد أيضاً في الأرماديللو(*) والقرود البرية في الولايات المتحدة . . ولعل ذلك يشكل مخزناً للميكروب في الطبيعة[٧] . وللميكروب خصائص أخرى لا داعي لتفصيلها ها هنا[٢] .

مدى الإصابة

ورغم أن مرض الجذام يعتبر معدياً إلا أن ظهور المرض أمر نادر الحدوث نسبياً ، ولا يزيد عدد الذين يصابون بالمرض من المخالطين للمجذومين خلطة شديدة ، عن ٥ بالمئة ، بينما توجد لدى الباقين مناعة ذاتية ضد المرض[١] .

وعند إجراء فحص ليبرومين (وهو أخذ الميكروبات من ورم جذامي يتم قتلها بالحرارة ثم تحقن تحت الجلد) يظهر ورم حبيبي Granuloma تحت الجلد خلال ثلاثة إلى أربعة أسابيع في الحالات التالية :

١) معظم البالغين (٧٠٪ وأكثر) من الأشخاص الأسوياء في المناطق التي يوجد فيها مرض الجذام .

٢) حالات الجذام الدرني .

(*) الأرماديللو Armadello حيوان ثديي يغطي جسمه حراشيف ، وهو أشبه بالخلد والقنفذ ويتغذى على الحشرات ، ويوجد في أمريكا اللاتينية وولاية تكساس من الولايات المتحدة . ويسمى أحياناً المدرع .

ويكون الفحص سلبياً بصورة عامة لدى الأطفال ، وفي حالات الورم الجذامي (الجذام الأسدي) . ويؤكد هذا الفحص أن معظم السكان في المناطق التي يوجد فيها مرض الجذام ، قد أخذوا الميكروب وتغلبوا عليه بمناعتهم الذاتية[١-٣،٧،٨] .

وهذا يدلُّ على نقطتين هامتين :

الأولى أن الجذام مرض شديد العدوى .

والثانية أن ظهور المرض نادر جداً .

أنواع الجذام:

يظهر الجذام بصور متعددة . . وأول ظهوره على الجلد بصورة بقعة صغيرة ونادراً ما تُلفت الانتباه وتعتبر هذه المرحلة غير محدّدة Indeterminate Form وسرعان ما يتحدّد الجذام بأحد نوعين رئيسيين وبينهما درجات مختلفة ، وذلك يعتمد على درجة المقاومة وجهاز المناعة في جسم الشخص المصاب .

وتعتمد المناعة في الجذام على ما يسمى المناعة الخلوية Cell Mediated Immunity بينما لا تلعب المناعة الخلائطية إلا دوراً محدوداً بالنسبة للجذام . . ويظهر نوع الجذام بناء على ظهور المناعة الخلوية أو عدم ظهورها :

الجذام الدرني : وتكون فيه المناعة الخلوية على أشدها . . ويظهر الجذام في الجلد على هيئة إصابات جلدية محدودة وقليلة . . وينذر وجود الميكروب فيها . . وتتميز بتفاعل حُبيبي وعدم إحساس للحرارة أو البرودة أو اللمس أو وخز الأبر . .

وقد يشتد التفاعل المناعي فتحدث التفاعلات ويزداد الورم الحبيبي مسبباً إصابة الأعصاب الطرفية ، وبالتالي ، مؤدياً إلى فقدان الإحساس في الأطراف مما يؤدي إلى موتها وسقوطها . ويسمى هذا التفاعل الأول Type I Reaction ، ورغم أن هذا التفاعل ناتج عن شدة مناعة الجسم إلَّا أن الضرر على المصاب كبير وخطير .

وينتشر الجذام الدرني في أفريقيا بصورة خاصة حيث وُجد أن ما بين ٨٠

و ٩٤ بالمئة من حالات الجذام هي من الجذام الدرني ، أو على حافة الجذام الدرني Borderline tuberculoid . أما في آسيا (الهند) وأمريكا اللاتينية فإن الجذام الدرني ، وحافة الدرني ، يشكل ما بين ٣٥ ـ ٦٥ بالمئة من جميع حالات الجذام[٧] .

ويتميز الجذام الدرني وحافة الدرني بالآتي :

١ ـ العدوى نادرة ومحدودة لقلة وجود الميكروبات في الجلد والأنف .

٢ ـ الصورة الإكلينكية المميزة بالبقع الجلدية الفاقدة للإحساس ، مع تضخم الأعصاب الطرفية وهي الأساس في التشخيص .

٣ ـ التفاعل المناعي القوي يؤدي إلى إصابة الأعصاب الطرفية ، إصابة بالغة مما يؤدي إلى فقدان الإحساس كلية في الأطراف خاصة . وينتج عنه البتر التلقائي للأطراف .

٤ ـ فحص ليبرومين Lepromin إيجابي التفاعل .

٥ ـ المناعة الخلائطية غير ظاهرة ولهذا فإن مضادات الأجسام المناعية طبيعية وليس فيها زيادة .

٦ ـ لا توجد إصابة للغدد اللمفاوية والكلى ، والخصيتين . . الخ ، وتبقى الإصابة محدودة بالجلد والأعصاب الطرفية .

٧ ـ أنه يمكن أن يشفى بدون علاج ، وتبقى آثار إصابة الأعصاب الطرفية والجلدية .

الجذام ذو الورم الجذامي (الجذام الأسدي) Lepromatous Lepresy

تكون المناعة الخلوية مختفية ولا أثر لها . . ولذلك ينتشر المرض في الجلد والأغشية المخاطية للجهاز التنفسي وخاصة الأنف ، وفي الجزء الأمامي من العين ، والأعصاب الجلدية والطرفية ، والجهاز اللمفاوي والغدد التناسلية (الخصيتين) والغدة فوق الكلية .

ويتميز هذا النوع بالآتي :

١) شدة العدوى ، وخاصة من إفرازات الأنف حيث يحتوي المليلتر على ١ × ١٠^٨ من ميكروبات[٢] الجذام وتحتوي العطسة القوية على

٢ × ١٠^٨ ميكروباً من ميكروبات الجذام[٧].

٢) إصابة العين (التهاب القزحية ، والقرنية) قد تؤدي إلى العمى ، وإصابة الأنف تؤدي إلى تحطم الحاجز الأنفي ، وإصابة الخصيتين تؤدي إلى العقم ، وإصابة الغدد اللمفاوية والطحال والعضلات والعظام تؤدي إلى إصابات بالغة بالجسم .

٣) إصابة الجلد غير محددة ومنتشرة ويتغضن وجه الجلد بصورة خاصة مما يجعله يشبه إلى حدٍ ما وجه الأسد ، ومنها ظهرت التسمية الجذام الأسدي .

٤) التفاعل المناعي بواسطة الخلايا الخلوية Cell Mediated Immunity منعدم ، ولكن التفاعل الخلائطي المناعي Humoral Immunity موجود ، وعلاماته زيادة في البروتينات المناعية (وبالذات الجلولبيولين) في الدم Hypergamma globulinaemia وتكون الفحوصات المخبرية الخاصة بالزهري مثل فحص وازرمان ، و V.D.RL إيجابية نتيجة التفاعل مع الجلولبيولين المناعي في الدم . . وكذلك تكون الفحوصات المتعلقة بالغلوبولينات الباردة Cryoglobulinaemia إيجابية بنسبة ٣٠ بالمئة من الحالات ، وكذلك تكون مضادات الأجسام المضادة للأنوية Antinuclear Antibodies إيجابية .

وتزداد في الدم البروتينات الشبه نشوية Amyloid Proteins .

٥) تزداد الحالة سوءاً مع تقدم الأيام إلا إذا عولجت علاجاً دقيقاً . . وتكون الوفاة بسبب الإنتانات الميكروبية الغازية ، أو بسبب الفشل الكلوي أو بسبب مرض Amyloidosis .

٦) فحص ليبرومين سلبي التفاعل .

٧) تحدث تفاعلات مناعية مع البروتينات المناعية (Immunoglobulins) وتؤدي إلى حدوث التهاب في الأوعية الدموية مسبباً الحمرة العقدية الجذامية Erythema nodusm leprosum والتهاب الخصيتين ، والتهاب القزحية ، والتهاب الغدد اللمفاوية ، والتهاب العضلات . . وتعرف هذه التفاعلات باسم التفاعل الثاني Type II Reaction للتمييز بينها وبين

التفاعل الأول الذي يحدث في الجذام الدرني .

وتوجد حالات من الجذام لا هي من الجذام الدرني ولا من الجذام ذي الورم الجذامي (الجذام الأسدي) ، وهي تقسّم على حسب مقربتها من الجذام الدرني وتعرف بحافة الدرني أو مقربتها من الجذام ذي الورم الجذامي وتعرف بحافة الورم الجذامي . . وقد تميل من حافة الجذامي وتتحسن حتى تصل إلى الدرني أو تسوء من حافة الدرني حتى تصل إلى الورم الجذامي .

ومن الجدير بالذكر أن الحمل لا يزيد من مضاعفات الجذام بالنسبة للحامل ، وكذلك فإنه من المشكوك فيه جداً أن ينتقل ميكروب الجذام عبر المشيمة إلى الجنين . ولكنه من الثابت أن لبن الأم التي تعاني من الجذام ذي الورم الجذامي ، يحتوي على كثير من ميكروبات الجذام إذا لم تكن تتناول العلاج[١-٣،٧،٨] .

وقد كان الأطباء ينصحون بعدم إرضاع الطفل من أم تعاني من الجذام . . أما الآن فإنهم يسمحون بإرضاعه وذلك للأسباب التالية :

- أن الأم التي تتناول العقاقير لمعالجة الجذام تكون غير معدية .
- أن الأم التي تعاني من الجذام الدرني نادراً ما تفرز الميكروبات في لبنها .
- أن عدم الإرضاع يؤدي إلى أمراض كثيرة بالنسبة للأطفال وخاصة في البلدان النامية ، حيث تظهر حالات الجذام ، والمستوى الصحي منخفض في تلك المناطق ، ويؤدي ذلك إلى وفيات الأطفال نتيجة تناول اللبن من القارورة بسبب الإسهال المتكرر .

دراسة الأحاديث الواردة في الجذام على ضوء المعلومات الطبية

إن الأحاديث التي صحت عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، المتعلقة بالجذام هي :

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفر من المجذوم فرارك من الأسد»[٩] .

(٢) عن عمرو بن الشريد ، رضي الله عنه ، قال : كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إنا قد بايعناك[١٠] .

(٣) عن جابر، رضي الله عنه ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال : كل ثقة بالله وتوكلاً عليه[١١] .

ويعلق ابن القيم على هذه الأحاديث في كتابه مفتاح دار السعادة[١٢] .

«وأما قضية المجذوم فلا ريب أنه روي عن النبي ، صلى اللّه عليه وسلم ، أنه قال : فر من المجذوم فرارك من الأسد ، وأرسل إلى ذلك المجذوم إنا قد بايعناك فارجع ـ وأخذ بيد المجذوم فوضعها في القصعة ـ وقال : كل ثقة بالله وتوكلاً عليه . . ولا تنافي بين هذه الآثار . ومن أحاط علماً بما قدمناه تبيّن له وجهها ، وأن غاية ذلك أن مخالطة المجذوم من أسباب العدوى ، وهذا السبب يعارضه أسباب أخرى تمنعه اقتضاؤه» .

ومما تقدم من أسباب الجذام وأنواعه يتبين لنا الآتي :

١) أن الجذام مرض شديد العدوى وخاصة الجذام ذو الورم الجذامي Lepro-matous Leprosy وأن معظم السكان البالغين في المناطق التي يوجد فيها مرض الجذام قد دخل الميكروب إلى أجسامهم.

٢) أن نسبة قليلة لا تتجاوز ٥ بالمئة من المخالطين للمجذومين خلطة شديدة هم الذين تظهر عليهم آثار مرض الجذام .

٣) أن الجذام أنواع ، وأن النوع المعدي هو الجذام ذو الورم الجذامي أو الجذام الأسدي الذي يشبه فيه وجه المجذوم وجه الأسد . . وأن الجذام الدرني غير معدٍ إلا فيما ندر .

٤) أن ظهور مرض الجذام لا يعتمد على ضراوة ميكروب الجذام Virulence بل يعتمد على درجة مقاومة الشخص وجهاز مناعته .

٥) قد يحمل المصاب بالجذام عدداً مهولاً من ميكروبات الجذام تصل إلى $١٠^{١٣}$ ميكروب في جسمه . . ويبلغ في دمه $١٠^{٥}$ ميكروب لكل مليلتر من الدم ، ومع هذا لا يبدو على هذا الشخص أعراض أي مرض . . ويبدو ظاهرياً في صحة تامة جيدة[٨] .

ومن دراسة الأحاديث النبوية الشريفة تتضح الأمور التالية :

١) الحديث الأول : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفر من المجذوم

فرارك من الأسد» يوضح أن لا عدوى بذاتها وإنما هي بقدر الله . وظهور المرض ليس معتمداً على وجود الميكروب ، كما أوضحنا في بحثنا عن أحاديث العدوى ، وكما ذكره علماء الإسلام الأجلاء مثل ابن القيم[١٢] والنووي[١٣] . حيث قال : « إن حديث لا عدوى المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده أن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى» .

وفي نفس الوقت أمر ، صلى الله عليه وسلم ، باتخاذ الأسباب والبعد عن مصادر المرض ، ومثّل لذلك بالجذام الأسدي (الجذام ذي الورم الجذامي Lepromatous Leprosy) الذي أمر بالفرار منه كما تفر من الأسد . والمناسبة بين ذكر الأسد وذكر الجذام الأسدي لم تكن مفهومة في الأزمنة الغابرة . . ولكن العلم الحديث أوضح هذه العلاقة . . وأبان أن هذه الإشارة تحمل في طياتها إعجازاً علمياً فذاً ، حيث لم يكن معلوماً تقسيم الجذام إلى نوعين نوع أسدي معدٍ بل شديد العدوى ، ونوع درني نادر العدوى .

٢) وفي الحديث الثاني : أرسل إلى المجذوم من وفد ثقيف وقال له إنا قد بايعناك ، ورفض أن يبايعه ولعل هذا المريض كان ممن يعانون من الجذام ذي الورم الجذامي الشديد العدوى .

٣) وفي الحديث الثالث : أكل مع المجذوم في قصعة واحدة . . ولعل هذا المجذوم من النوع الذي يعاني من الجذام الدرني القليل العدوى ، والذي يكاد أن يكون غير معدٍ .

بالإضافة إلى ذلك فإن هناك ملحظاً آخر لاحظه ابن القيم[١٢] حيث يقول : « إن مخالطة المجذوم من أسباب العدوى . وهذا السبب يعارضه أسباب أخر تمنعه اقتضاؤه . . فمن أقواها التوكل على الله والثقة به ، فإنه يمنع تأثير ذلك السبب المكروه ، ولكن لا يقدر كل واحد من الأمة على هذا ، فأرشدهم إلى مجانبة سبب المكروه والبعد منه . ولذلك أرسل إلى المجذوم الآخر بالبيعة تشريعاً منه للفرار من أسباب الأذى والمكروه . . ولا يتعرض العبد لأسباب البلاء ، ثم وضع يده معه في القصعة فإنما هو سبب التوكل على الله

والثقة به الذي هو من أعظم الأسباب التي يدفع بها المكروه والمحذور ، تعليماً منه للأمة دفع الأسباب بما هو أقوى منها ، وإعلاماً بأن الضر والنفع بيد الله عز وجل فإن شاء أن يضرَّ عبده ضرَّه وإن شاء أن يصرف الضرَّ صرفه . . بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرّ ويضره بما هو من أسباب النفع فعل ، ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع» .

والملحظ الأخير هو المعاملة الإنسانية الرقيقة لمريض الجذام ، حيث امتنع ، صلى الله عليه وسلم ، عن مصافحة المجذوم من وفد ثقيف ، وأرسل إليه : إنا قد بايعناك ، حتى لا يحرجه بعدم المصافحة وحيث أكل مع المجذوم الآخر في قصعة واحدة .

وإذا نظرنا إلى ما هو موجود لدى الأمم الأخرى ، وبالذات ما هو مذكور في سفر اللاويين من التوراة المحرفة (الإصحاح ١٣ و ١٤)[٤،٥] من أن المجذوم رجس وأنه نجس وأنه يطرد . . ثم طريقة المداواة وذهاب الرجس التي تتم بتلطيخ المصاب بالدم وأخذ الرشاوى للكاهن المتمثلة في عدد من الذبائح والدقيق والزيت الذي يقدم للكاهن ليعلن خلوصه من النجاسة . إذا نظرنا إلى ما هو موجود لدى الأمم من المعاملة القاسية للمجذوم نجد أن معاملة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، للمجذومين كانت في منتهى الرقة والإنسانية والأدب ، مع المستوى الرفيع من معرفة الحقائق العلمية التي تميز بين الجذام الأسدي المعدي ، والجذام الدرني غير المعدي . . والمستوى الإيماني السامق الذي يعرف أن أسباب الضر والنفع كلها بيد الله وحده . . وأن دخول الميكروب إلى الجسم لا يعني المرض، وأن شدة العدوى أو انتقال الميكروب في مرض معين لا تعني بالضرورة انتقال المرض . . وكما أوضحنا فإن ٥ بالمئة فقط من المخالطين لمريض الجذام خلطة شديدة هم الذين يظهر عليهم المرض ، وأن معظم السكان البالغين في المناطق التي يوجد فيها مرض الجذام قد دخل الميكروب إلى أجسامهم دون أن يحدث لهم أي مرض ، بل قد يكون الميكروب موجوداً وبأعداد بآلاف الملايين (١٠[١٣]) ومع هذا لا يشكو حامل هذه البلايين من ميكروب الجذام من أي مرض .

وهكذا يتبين أن أحاديث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، هي

إعجاز لم تدركه البشرية إلا في القرن العشرين حيث اتضحت حقائق كثيرة عن مرض الجذام الذي أرعب الإنسانية لقرون طويلة وآماد سحيقة .

المـراجـع :

(1) Berkow R (editor in Chief) Merck Manual of Diagnosis and Therapy, Merck, Sharp and Dohme, N. J. 1982 (14th Edition) PP 140- 146.

(2) Bullock WR. Mycobacterium Lepra. In Mandell, Douglass Bennet (eds). Principles and Practice of Infections Diseases, Wiley and Sons. New York 1979 PP 1943-1953.

(3) Bryceson A. Leprosy. **Medicine International 1981,** 1, (3): 123- 126.

(٤) سفر اللاويين ، الإصحاح ١٣ ، الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة (لا يوجد ذكر سنة الطبع) .

(٥) سفر اللاويين ، الإصحاح ١٤ ، الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة .

(6) Encyclopedia Britannica, 15th Edition 1982, **Vol 8:** 695.

(7) Bullock W. R. Leprosy. In Wyngaarden J.and Smith L (eds). Cecil Textbook of Medicine. Saunders Co. Philadelphia- London- New York, 1985 (17th Edition) PP 1834- 39.

(8) Duncane ME. Leprosy in Pregnancy. **Postgraduate Doctor 1986, 9 (6):** 384- 392.

(٩) محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي : الجامع الصحيح . كتاب الطب ج ٩ ،مطبعة الشعب (لا يوجد ذكر لسنة الطبع).

(١٠) مسلم بن الحجاج القشيري :الجامع الصحيح ، باب الطب ج ٧ كتاب السلام ، باب اجتناب المجذوم ، دار الطباعة العامرة ١٣٢٩ القاهرة .

(١١) محمد بن عيسى الترمذي : الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي .

(١٢) محمد بن أبي بكر (ابن القيم) : مفتاح دار السعادة ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض (بدون تاريخ) ج ٢ / ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ .

(١٣) ابو زكريا محي الدين النووي : صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر ، بيروت كتاب السلام باب الطب واجتناب المجذوم ج ١٤ .

قبسات من الطب النبوي [٤]

«لا تداوِ أحداً حتى تعرف داءه »[١]

جاء الشمردل بن قباث الكعبي وهو من نجران . . فلمّا وفد إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أسلم ثم قام إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي . . إني كنت كاهن قومي في الجاهلية ، وإني كنت أتطبب ، فما يحل لي فإني تأتيني الشابة ؟! فقال الرسول الكريم صلوات الله عليه : « فصد العروق ، ومجسةُ الطعنة (وهي تستخدم لفتح الخراريج) وتسمى بالانجليزية (LACET) إن اضطررت . ولا تجعل من ذلك شراً . وما عليك بالسنا (أي عليك بالسنا وقد أوصى به صلى الله عليه وسلم كثيراً) . **ولا تداوِ أحداً حتى تعرف داءه** » . فقام الشمردل إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقبَّلَ ركبتيه وقال : « والذي بعثك بالحق . . لأنت أعلم بالطب مني » . (من كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني) .

وها هنا نقطة هامة جداً وهي قوله صلى الله عليه وسلم : « **لا تداوِ أحداً حتى تعرف داءه**) . وللأسف الشديد نجد أن المرضى كثيراً ما يُلحُّون على الطبيب في أن يعطيهم الدواء حتى قبل أن يتم تشخيص الداء . ونجد الأطباء أيضاً يسرفون في مجاملة المرضى واسترضائهم فيصرفون لهم الأدوية قبل أن يتمكنوا من معرفة الداء . . والتأكد من تشخيصه بالفحوصات اللازمة .

وقد تنبَّه شيخ الأطباء في عصره ، وفي عصور كثيرة تلته ، الطبيب أبو بكر الرازي ، المتوفى ٣٢١ هـ ، **إلى اهتمام العوام بإزالة الألم دون اهتمامهم بإزالة المرض . . وأن من أعطاهم مسكِّناً للألم فهو طبيب عندهم ، حتى ولو**

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة الأمان (بيروت) ومجلة الفيصل الطبية (الدمام).

بقي الداء كامناً يعبث في أجسامهم ، فيقول شيخ الأطباء الرازي ، وهو أول من وصف الحصبة وفرق بينها وبين الجدري .

« يعتقد عوام الناس أن المرض هو الشعور بالألم ، فإذا سكن الألم عن أحدهم ، بطريقة من الطرق ، ظن أنه قد شفي مما به من المرض . ولذلك ترى عوام الناس يسمون الأدوية المسكِّنة أدوية شافية . . ومن أجل ذلك أيضاً ترى عوام الناس أشد رغبة في الأطباء العاديين منهم في كبار الأطباء وفي العلماء من الأطباء . وكذلك تجد الطبيب الذي يحتال لتسكين ألم المريض أكثر من احتياله لشفاء المرض أكثر شهرة عند العوام من الناس . وينبغي للطبيب أن يوهم المريض الصحة ويرجِّيه بها ، وإن كان هو غير واثق بذلك ، لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » (أي أن الحالة الصحية للجسم تابعة للحالة النفسية بالتعبير الحديث) . .

« وينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يُوثق به من الأطباء . فإن من تطبَّب عند أطباء كثيرين أوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم . أما الطبيب الواحد فإن خطأه في جانب صوابه يسير جدا » . واستخدام الدواء قبل معرفة الداء يؤدي إلى مزيد من العلل والأدواء . . وخاصة أن الأدوية ، التي تستعمل اليوم ، ليست بسيطة التركيب خفيفة التأثير كما كانت معظم الأدوية في السابق ، حيث كانت من الأعشاب البسيطة فاستبدلت بمواد كيماوية شديدة التعقيد قوية التأثير بالغة الخطر . .

وهي سلاح ذو حدين شديدة المضار . . إما قَتَلتَ بها خصماً لدوداً وإما قَتَلتَ بها صديقاً ودوداً . . فإذا لم تعرف الداء فكيف يصل إليه الدواء . . ، ؟ فإنك عندئذ تطلق أعيرتك دون تمييز فلا تدري أيهما أصبتَ أألداء الذي تطلبه أم المريض الذي يطلبك ؟ . . . ولا شك أن ما قاله المصطفى ، صلوات الله عليه ، هو أحد الأسس الهامة جداً في الطب العلاجي . . وهذه دعوة مفتوحة للزملاء من الأطباء إلى مزيد من الانضباط بهذه الحكمة الخالدة ، والتأني في صرف الدواء حتى يُعلم الداء ويتم تشخيصه والتأكد منه . . ولا بأس ، في هذه الأثناء ، من اعطاء دواء لتسكين ألم المريض بدون الإفراط في ذلك ، مع

التنبيه عليه أن ذهاب الألم لا يعني ذهاب الداء . . وأن معالجة الداء أهم من تسكين الألم . . وإن كان تسكين الألم هو أهم ما يشغل بال المريض، كما نبَّه إلى ذلك شيخ الأطباء أبو بكر الرازي منذ اكثر من ١١٠٠ عام . .

وليست العبرة بكثرة الأدوية فإن أغلبها سموم . . وإنما العبرة بمعرفة الداء أولاً وإعطاء ما يضاده من دواء . . وكلما كان الدواء بسيطاً كان ذلك أفضل للمريض والطبيب على السواء . . وقد صارت الأمراض الناتجة عن استعمالات الدواء من الكثرة بحيث أصبحت فرعاً من فروع الطب وتندرج تحت اسم (Iatrogenic Diseases) أي الأمراض الناتجة عن المعالجة والتطبيب سواء كان ذلك بالأدوية، أم بالجراحة، أم بغيرها من الأشعّات والموجات التي لا تسمع ولا ترى . . مثل الموجات فوق البنفسجية والموجات تحت الحمراء وأشعة أكس . . والأصوات الغير مسموعة (التراسونيك) . . ومثل العلاج بالذرة والمواد المشعة التي تستخدم في التشخيص وفي العلاج على السواء . **وقد نبَّه ، المصطفى صلوات الله عليه ، في خطابه للشمردل بأن لا يجعل من فصد العروق ومجسة الطعنة شراً . . وأمرَهُ أن لا يلجأ إلى الجراحة إلا عندما يضطر لذلك اضطراراً . . وآخر العلاج الكي كما يقولون** . . ونحن نرى أن هناك بعض الأطباء ممن يسرعون بالمريض إلى غرفة العمليات ، وكأنما بأيديهم حكّة لا تزول إلا باستخدام المشرط والمبضع . . ولهؤلاء نقول : رويداً رويداً . . فإن بعض هذه العمليات قد لا تكون ضرورية . . وأنه قد ينفع فيها الدواء . . ولا بأس ، بل ولا بد ، من إجراء العمليات في بعض الأحيان وقد تكون هي الوسيلة الوحيدة . . لإنقاذ حياة مريض أوشكت زائدته على الانفجار . . أو انسد مجرى البول بحصاة ولا سبيل إلى أن يبول إلا بإخراجها . . وكثيرٌ من الأمراض لا علاج لها إلا مبضع الجراح . . وبعضها خير علاج لها هو مبضع الجراح ومجسة الطعنة . . ولكن التوجيه النبوي ينبغي أن يكون المهيمن والمسيطر على فكرة الطبيب ، سواء كان يعالج بالأدوية ، وهو ما كان يسميه العرب في أوج حضارتهم الطبائعي (Physian) ، وكما يسميه الانجليز اليوم ، وهو نفس الاسم القديم ، أو أخصائي الأمراض الباطنية كما نسميه نحن اليوم . . أو كان يعالج بمبضعهِ ومشرطهِ ومجسةِ طعنتهِ ، كما كان

ولا يزال يسمى بالجراح . . وينبغي أن تبقى قولتـه، صلى الله عليه وسلم ، دستوراً ونبراساً نهتدي به ونسير على نهجه حيث قال « فصد العروق ومجسـة الطعنة إن اضطررت . . ولا تجعل من ذلك شراً . ولا تداوِ أحداً حتى تعرف داءه » .

وكم من طفل خرج إلى الدنيا مشوَّه الخِلقةِ ، ناقص الأعضاءِ ، مبتـور الذراعين والساقين نتيجة لدواء وصفه الطبيب لأمه أثناء حملهـا به . . وقصـة عقار الثاليدوميد ، الدواء المسكن الخالي من الأعـراض الجانبيـة ، معروفـة للكثيرين ؛ فقد سُوِّقَ هذا الدواء في ألمانيا وانتشر إلى أوروبا كدواءٍ مهـدّىء مسكّنٍ خالٍ من الأضرار ، فلما أُعطي للحوامل تنبَّه بعض الأطباء إلى هؤلاء الأطفال المشوهي الخلقة المبتوري الأطراف ، فلما بحثـوا وجدوا أن السبب في ذلـك هو هـذا الـدواء الخـالي من الأضـرار !!؟ . . وهـرمـون الأنـوثـة ، الأستروجين ، ومشتقاته مثل الاستلبسترول إذا أُعطي للحامل فإن ابنتها تصاب بسرطان الفرج في شرخ الشباب . . أي بعد العشرين عاماً من استخدام الأم لذلك الدواء . . وكم من الأدوية والعقـاقير لا نـدرك أخطارهـا إلا بعد مضي عشرات السنين وبعد فوات الأوان . . فلا أقلَّ في غمرة جهلنا هذا أن لا نصفَ أي دواء إلا بعد معرفة الداء ، أما إعطاء الأدوية دون تمييز ، لعل هذا ينفع أو لعل ذاك يفيد ، فأمر ضرره أكثر من نفعه ، وبلواه أعظم من فائدته . . ومصيبته أعظم من جدواه . .

موت الفجأة[١]

قال صلى الله عليه وسلم : « من اقتراب الساعة موت الفجأة » رواه ابن أبي شيبة « موت الفجأة أخذة أسف (أي غضب) » أخرجه أبو داود .

« موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » رواه ابن أبي شيبة عن عائشة وابن مسعود رضي اللّه عنهما .

لا يكاد يمضي يوم إلا ونسمع فيه أن فلاناً قد مات فجأة . . وأن آخر كان في مكتبه وفجأة وافته المنية . . وثالثاً كان نائماً فلم يصبح . . ورابعاً كان يتحدث في التليفون في صفقة تجارية فلم يستطع أن يتمها لأن الموت داهمه .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يسمون « السكتة القلبية » أو جلطة القلب « القاتل رقم واحد » ، لأن هذا القاتل المرعب يغتال في كل عام في الولايات المتحدة فقط ٨٠٠,٠٠٠ شخص (عن مجلة ميديكل كلينكس أوف نورث أميركا) . . .

ويغتال ما يزيد عن هذا العدد في أوروبا . . وفي مختلف القارات . . وهو الآن يتصدر قائمة جميع الأمراض المسببة للوفاة في معظم أنحاء العالم ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأوروبا وأستراليا وجنوب أفريقيا .

وسبب موت الفجأة هو انسداد في أحد شرايين القلب . . وللقلب شريانان تاجيان أيمن وأيسر . . فأما الأيمن فيلتف حول القلب إلى الخلف

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة الفيصل الطبية (الدمام) ومجلة الأمان (بيروت) ومجلة المجتمع (الكويت).

ويغذي معظم الجهة الخلفية . . وأما الأيسر فسرعان ما ينقسم إلى شريانين أحدهما يغذي الجهة الأمامية من القلب ، والثاني يلتف حتى يكاد يلتقي بالأيمن من الخلف ، وبهذا يصبح للقلب ثلاثة شرايين يزحف عليها ما يسمى بتصلب الشرايين نتيجة ترسب مواد دهنية على السطح الداخلي الأملس لهذه الشرايين . . فتجعل هذا السطح الأملس خشناً كما أنها تضيق من مجرى الدم فيحدث أن تترسب على هذا السطح الخشن الصفائح الموجودة في الدم ، فإذا ما ترسبت هذه الصفائح والتصقت ببعضها أفرزت أنزيماتها (خمائرها) التي تسبب الجلطة أو بالتعبير القديم تجمد الدم .

وهذا ما يحدث عادة عندما يصاب أحدنا بجرح فسرعان ما يقف الدم المتدفق نتيجة لحدوث هذه الجلطة .

وبينما يكون حدوث الجلطة مفيداً عند الإصابة ، لأنها تمنع النزيف . . فإن حدوث الجلطة داخل الأوعية الدموية وخاصة أوعية القلب أمر شديد الخطورة ويؤدي في كثير من الأحيان إلى الوفاة .

ورغم التقدم الطبي الهائل ، وخاصة في ميدان أمراض القلب وتشخيصه وعلاجه ، إلا أن السبب الحقيقي لتصلب الشرايين ليس معروفاً على وجه الدقة . ولكن هناك أسباباً كثيرة تساعد وتسرع في تسبب تصلب الشرايين وتكوين الجلطات وخاصة في شرايين القلب . . وأهم هذه الأسباب ما يلي :

● تدخين السجائر والتبغ بكافة أشكاله وأنواعه :

أصبح من الثابت في ميدان العلوم والطب أن للنيكوتين تأثيراً على مختلف شرايين الجسم وخاصة شرايين القلب ، حيث يقوم بتضييق جدرانها . . كما أنه يساعد على التصاق الصفائح الدموية ببعضها وتكوين الجلطات . . ليس ذلك فحسب ، ولكن النيكوتين يزيد من ضربات القلب ويسبب عدم انتظامها . . أي يسبب اضطرابات في كهرباء القلب ، وسنعرف بعد قليل كيف أن اضطراب نبضات القلب هو أهم سبب لموت الفجأة . .

وتدخين التبغ يؤدي إلى زيادة في الغاز السام أول أكسيد الكربون

(الفحم) وهـو غاز يمنـع وصول الأوكسيجين إلى كـرات الدم الحمـراء التي تحمله إلى أنسجـة الجسم . . كما أنـه يساعـد على ترسب المـواد الـدهنيـة والكوليسترول على جدر الأوعية الدموية . .

وهكذا يجتمع تأثير النيكوتين وتأثير الغاز السام (أول أكسيد الكربون) فيسببان تصلب الشرايين وضيقها ويسببان الذبحة الصدرية وجلطة القلب وموت الفجأة .

ويذكر تقرير الكلية الملكية لـلأطباء عن التـدخين أن من يدخنـون ٢٥ سيجـارة فـأكثـر في اليـوم ، وهم تحت سن الخـامسـة والأربعين . . فـإنهم معرضون للإصابة بجلطة القلب بخمسة عشر ضعف أمثالهم وأترابهم ممن لا يدخنون . . أي بزيادة يبلغ قدرها ١٥٠٠ في المـائة . أمـا الذين يبلغـون من العمر أكثر من ٤٥ عاماً فإن خطر الإصابة يبلغ ثلاثة أضعـاف أمثالهم ممن لا يدخنون ، أي بزيادة قدرها ٣٠٠ بالمائة .

وتزداد الأخطار كلما زادت كمية السجائر التي يدخنها الشخص ، كمـا أنها تزداد تبعاً للسن التي ابتدأ فيها المدخن عـادة التدخين . . فـإن من ابتدأ التـدخين قبل العشـرين يواجـه خطراً أكبـر وأعظم ممن ابتـدأ التـدخين بعـد العشرين .

كما أن من يدخن وهو يعاني من السمنة يواجـه خطراً أكبـر ممن يدخن وهو لا يعاني منها . . وكذلك من يدخن ويشرب الخمور يواجه مخاطر مضاعفة لتأثير المواد السامة في كلا المادتين الخمر والسجائر . . ومن يـدخن ويعاني من مرض السكر أو ضغط الدم فإنه يواجه أخطاراً مضاعفة نتيجة لهذه الأمراض التي تسبب في ذاتها تصلب الشرايين .

والشيء ذاته يقال عن حبوب منع الحمل . . فإن من تـدخن وتستعمل حبوب منع الحمل فإنها تواجه أخطاراً مضاعفة .

● حياة الدعة والترف وقلة الحركة :

إن الانسان يسعى جهده ليصل إلى حياة الدعة والترف باعتبارها أقصى ما يتمناه في حياته الدنيا هذه . . ويكون نتيجة ذلك قلة الحركة . . فأغلبنا لا

يمشي إلا قليلاً ويستعمل السيارة في جميع تنقلاته . . وفي البيوت والمكاتب نستخدم المصاعد ... ونبقى ساعات طويلة على الكراسي دون حركة . . وهذا كله يؤدي إلى تسرب الدهون في الأوعية الدموية وخاصة شرايين القلب . .

والغريب حقاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أخبرنا بأننا سنترك الإبل ولا نسعى عليها فقال ، عليه الصلاة والسلام : « لتتركن القلاص (الإبل) فلا يسعى عليها » رواه مسلم . . .

وأخبرنا بأننا سنركب المياثر وهي ، كما فسرها الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، مثل السروج العظيمة . . قال المصطفى ، صلوات الله عليه : « يكون في آخر الزمان رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبواب المساجد » رواه أحمد والحاكم . وقال عليه السلام : « سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال ينزلون على أبواب المساجد » رواه أحمد والحاكم .

ونتيجة لحياة الترف والدعة وقلة الحركة تزداد جلطات القلب وموت الفجأة . . ولهذا نرى أن العمال والفلاحين والمزارعين والرعاة نادراً ما يصابون بجلطات القلب وموت الفجأة .

ونرى أكثر هذه الإصابات في التجار ورجال الأعمال والموظفين وخاصة المدراء والمسؤولين وجميع من تفرض عليهم أعمالهم قلة الحركة .

● حياة المدنية وزيادة القلق والهم :

وكلما زاد الهم والقلق والتكالب على الدنيا كلما زادت جلطات القلب وتصلب الشرايين .

وحياتنا اليوم خير شاهد على ما نقول . . هم وقلق وتكالب على الدنيا وجري وراء حلالها وحرامها . . ومظاهر براقة خادعة « يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب » كما وصفهم الرسول الكريم ، صلوات الله عليه ، (رواه الطبراني والحاكم عن أبي ذر) « لا تقوم الساعة حتى تتباكى القلوب وتختلف الأقاويل . . ويختلف الأخوان من الأب والأم في الدين » رواه الديلمي . .

« إذا ظهر القول وخزن العمل واختلفت الألسن وتباغضت القلوب وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (رواه الطبراني في الأوسط) ، « ما أنتم إذا مرج الدين وسفكت الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان (أي ارتفع) » رواه الطبراني في الكبير .

« وترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان » أخرجه البخاري ومسلم .

« ولا تقوم الساعة حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراجيل (أي الثياب المخططة) » رواه البخاري في الأدب المفرد .

وتزداد التجارة والمال :

« إن من أشراط الساعة أن يفشو المال وتفشو التجارة ويظهر القلم » رواه النسائي . .

« وإن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق » رواه أحمد والحاكم والبخاري . .

وينتشر الربا :

« ليأتين على الناس زمان لا يبقى فيهم أحد إلا أكل الربا ، فمن لم يأكله أصابه من غباره » رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة . .

وها أنت ترى صدق أحاديث المصطفى ، صلوات الله عليه ، في وصف حياتنا التي نعيشها من انتشار الربا حتى لا يكاد يوجد من لم يأكله أو يمسه من غبار ، وانتشار الزنا . . وفشو التجارة والقلم . . والقلم ليس العلم ، فالعلم الحقيقي يوصل بالله ، أما القلم فالكل يكتب ويقرأ . . وما أبعدهم عن العلم الحقيقي الموصل إلى الله ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

وارتفاع البنيان وتطاولهم فيه . . « وها أنت ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان . . وها أنت ترى البيوت والجدران توشى وتكسى بالأوراق المخملية وكأنها المراجيل (الثياب المخططة) . . . .

وهـا أنت تـرى جلود الضـأن على قـلوب الـذئـاب نـاعمـي المـلمس جميلي المـظهر وداخلهم أنتن من الجيف وقلوبهم قلوب السبـاع . . وهـذا التكالب والصراع الـرهيب على حطام الـدنيا يؤدي إلى مـزيد من القلق وإلى مـزيد من الضيق وإلى مـزيد من الهمّ . . وإلى مـزيـد من الهـروب منـه إلى التدخين ثم إلى شرب الخمور . . والمخدرات . .

وانظر إلى حياة النـاس في معظم أقـطار الدنيـا كيف أصبحت المدنيـة الحديثة حياة تثير القرف والضيق والهم والقلق . . رغم توفـر وسائـل الراحـة والدعة .

وكلمـا ازدادت هـذه الـوسـائـل كلمـازاد القلق . . وزادت الأمـراض النفسيـة . . وكلما زاد الهـروب منها بـالتـدخين . . والحبـوب المهـدئـة . . والخمـور . . والمسلسـلات والأفـلام . . وأخيـراً حين لا ينفـع ذلـك كله بالانتحار . . وها هي دول وشعوب أوروبا وأمريكا ، الذين سبقـونا إلى هـذه المدنية الـزائفة ، يعـانون من أعلى معـدلات الانتحار ومن انتشـار الجريمـة واستخدام المخدرات ، ففي مجلة النيوزويك الأمريكية في ١٩٨٠/٦/٣٠ م جاء : إن تقريراً حكومياً يقول إن عدد الشباب (فتياناً وفتيات) من سن ١٨ إلى سن ٢٥ ، الذين يستخدمون الحشيش ، ارتفع من ٤ بالمائة عام ١٩٦٢ م إلى ٦٨ بـالمائـة عام ١٩٧٩ م . . وإن عـدد الذين استخـدمـوا المـواد المخـدرة الخطيرة مثل الهروبين والكوكايين والأفيون ارتفع من ٣ بالمائة عام ١٩٦٢ م إلى ٣٣ بالمائة عام ١٩٧٩ م . .

وفي خـلال العشـر سنـوات المـاضيـة فقط ، أي من ١٩٧٠ م إلى ١٩٨٠ م ، تضـاعف عـدد المـراهقين (من سن ١٢ إلى سن ١٧) الـذين يستخدمون الحشيش والهروبين والأفيون .

وفي صحيفـة الديلي ميـل التي تصـدر في بـريـطانيـا عـدد ٢٦ يـونيـه ١٩٨٠ م :

أعلنت هيئة الصحة العالمية بعد دراسة لثلاثين قطراً ، من بينها بريطانيا والولايات المتحـدة ، أن ٨٦ بالمـائة من جـرائم القتل ، التي ازدادت زيـادة

مرعبة ، كانت بتأثير الخمور ، وأن خمسين بالمائة من حالات الاغتصاب ، التي أصبحت أمراً يومياً ، تمت تحت تأثير الخمور . . وأن نصف الجرائم الأخرى الأقل قد تمت تحت تأثير الخمور ، ويقول اللورد هاريس : إن المخدرات الأخرى أيضاً مسؤولة عن هذه الجرائم ، لكن هناك عدداً من المجرمين في السجون نتيجة لشرب الخمور لأن المجتمع يتساهل كثيراً في شرب الخمور ولا يتساهل بنفس الدرجة في استخدام المخدرات الأخرى .

هذ هي حياة المدنية اليوم : مزيد من التعاسة ومزيد من القلق . . ومزيد من الرفاهية الظاهرة . . وقلة الحركة . . واستخدام السيارات والطائرات . . واستخدام المصاعد في البيوت والمكاتب . . ومكوث طويل على الكراسي ، ثم عودة إلى المنزل للبقاء أمام شاشة التليفزيون أو الفيديو لاجترار مزيد من الإثارة والقلق . . وتدخين للسجائر للتخفيف من آثار القلق . . ثم إذا لم يكفِ التدخين فهناك الخمور والمخدرات .

دائرة مقفلة لا يكاد يفلت منها المرء . . سعار محموم على اقتناص الثروة والتمتع بها يؤدي إلى مزيد من القلق وعدم الحركة . . وكل ذلك يؤدي إلى مزيد من جلطات القلب . .

● السمنة :

إن السمنة هي أحد الأسباب الهامة لتصلب الشرايين وجلطات القلب وموت الفجأة . .

والسمنة تأتي نتيجة للإفراط في الطعام والشراب ولقلة الحركة . . وكلاهما مرتبط بالثروة وبحياة الترف والدعة . . وحياة المدنية التي أسلفنا في ذكرها . .

ومعلوم أن ما تدخره هو الفائض الفارق ما بين دخلك وصرفك . . وكذلك ما يدخره الجسم من شحوم ليس إلا الفرق ما بين تأكله وما تصرفه في نشاطك .

ولـلأسف فإن النشاط العقلي والمكتبي لا يصرف إلا قليلاً جداً من

السعرات الحرارية . . فإذا أكل الشخص البالغ مثلاً ثلاثة آلاف سعر حراري (وهو يمثل أكل يوم للشخص العادي فيه رز وخبز ودهون ولحوم وفاكهة وسكر) وكان هذا الشخص قليل الحركة جالساً معظم يومه على الكرسي أمام مكتبه ، أو في بيته متفرجاً على شاشة التليفزيون أو الفيديو ، فإنه لن يصرف أكثر من ألفي سعر حراري ، وبذلك يدخر ألف سعر حراري على هيئة شحوم تتراكم في جسمه . . وعلى الأوعية الدموية ومنها شرايين القلب .

ولهذا فإن انتشار السمنة ، كظاهرة عامة، ليس إلا من نتائج المدنية الحديثة . . ففي العصور السابقة لم يكن من المتوقع ظهور حالات كثيرة من السمنة لأن أغلب الناس مضطرون الى الحركة . أما في العصور الحديثة فإن الناس يستخدمون وسائل الانتقال المريحة والمؤدية في نفس الوقت الى زيادة الإصابة بجلطات القلب .

ولا شك أنه قد كانت هناك حالات سمنة في جميع العصور ، ولكن انتشار السمنة كظاهرة عامة أمر لم يحدث إلا في العصر الحديث نتيجة للمدنية الحديثة . .

ـ واستمع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصف حالتنا وهو يقول لعمران ابن حصين رضي الله عنهما : « إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، وينذرون ولا يوفون . . ويظهر فيهم السمن » . . رواه البخاري ومسلم وأحمد من رواية أبي هريرة ورواه أيضاً أبو داوود والترمذي والنسائي . .

ـ وهذه هي صفاتنا اليوم . . قوم يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يوفون . . ويظهر فيهم السمن إلا من عصم ربك وقليل ما هم .

ـ ويظهر فيهم نتيجة لذلك موت الفجأة والسكتة القلبية وضغط الدم والبول السكري . . ومزيد من حالات القلق والكآبة واستخدام المخدرات والخمور وانتشار الربا والزنا وتربية الكلاب ثم الانتحار . .

ضغط الدم والبول السكري :

ـ وهـذه هي خـامس الأسبـاب المؤديـة إلى انتشـار جلطات القلب ومـوت الفجأة . . وضغط الدم والبول السكري . أمـراض عرفتهـا الإنسانيـة منذ قديم الزمن . . وقد وصفها الأطباء منذ عصر أبوقراط وجالينوس . . ولكنها كـانت على مـدى التـاريـخ ، وفي مختلف بقـاع الأرض ، محـدودة الانتشـار . . فلما ظهـرت المدنيـة الحديثـة وزاد القلق والكـآبـة والهم ، وانتشرت وسائل المواصلات الحديثة من السيارة والـطائرة ، واستخـدمت المصاعد الكهـربائيـة ، وأصبح أغلب النـاس قليلي الحركـة . . انتشرت بينهم هذه الأمراض وتفشت تفشياً كبيراً . . وازدادت حالات ضغط الدم ، كمـا ازدادت حالات البـول السكري . . ويقـدر عـدد المصـابين بـالبـول السكـري في العالم اليـوم بعشرة في المـائة من سكـان العالم ، أو ٤٠٠ مليون نسمة . . وهو عدد رهيب لم يظهر مثله ولا نصفه في تاريخ الإنسانية الطويل منذ أن أهبط اللّه آدم عليه السلام الى الأرض .

ـ ويساهم كلٌ من البول السكري وضغط الدم مساهمة كبيرة في زيادة حالات الذبحة الصدرية وجلطة القلب وموت الفجأة . .

الأعـــراض :

ليس كل من يصاب بجلطة القلب يمـوت عند الإصـابة بهـا . . ولكن الاحصائيات تقول إن واحداً من كل أربعة يصابون بالجلطة يلاقي حتفه فجأة ولا يمكن إيصاله إلى المستشفى أو الطبيب أو حتى سيارة الاسعاف . .

ويشكل موت الفجأة ٦٠ إلى ٧٠ بالمائة من جميع الحالات المميتة من جلطة القلب . . وتحصل الوفاة بسرعـة مذهلة بحيث يصعب إنقـاذ الشخص المصاب . . ففي خلال دقائق يكون قد فارق الحياة . . وأكثر الوفيات تتم في غضون ساعة منذ بدء الأعراض . . المتلخصـة في إحساس بـألم شديـد في وسط الصـدر وتحت القص ويكـون مصحـوبـاً بـإحسـاس شـديـد بـالضيق والكرب . . وقد يصحبه صعوبة في التنفس وكثيراً ما يكون مصحوباً بإحساس

بالدوخة والميل إلى القيء مع عرق بارد غزير . .

وسبب الوفاة المباشر ، في جميع هذه الحالات ، هو اضطراب في نبضات القلب حيث تحدث في الغالب من هذه الحالات ذبذبة بطينية (Ven - tricular Fibrillation) وبطين القلب هو الذي يدفع الدم إلى الجسم ، فإذا اضطرب نبض البطين بحيث يضرب ٤٠٠ الى ٦٠٠ ضربة في الدقيقة ضربات غير منتظمة فإنه لا يدفع الدم إلى الرئتين ولا إلى الدماغ فيحصل الإغماء والغشي ، وإذا لم يصل الى الدماغ دم في خلال دقيقتين تموت خلايا الدماغ والنخاع المستطيل ويتوقف القلب عن النبض تماماً . .

وفي بعض الأحيان يتوقف القلب فجأة عن النبض عند حدوث انسداد في الشريان التاجي وتكوّن جلطة في الجزء المنظم لضربات القلب ، والموجود في أعلى الحاجز الموجود بين البطينين : (Interventricular Septum) .

وقد تحدث الوفاة قبل تكوّن الجلطة في القلب . . إذ يكفي أن ينسد أحد الشرايين التاجية المغذية للقلب لحدوث اضطرابات في كهرباء القلب مما يؤدي إلى ذبذبة بطينية أو إلى توقف كامل للقلب . . وكلاهما مميت في الحال إلا ما ندر . .

ويحتاج تكوّن الجلطة في القلب ذاته إلى بضع ساعات . . ولذا فإن انسداد أحد الشرايين المغذية للقلب يكفي لحدوث الوفاة حتى قبل ظهور الجلطة في عضلة القلب .

وفي أحيان كثيرة لا يشكو هذا الشخص من أي مرض ، ويبدو في تمام صحته وأوج عافيته ، وفجأة ينتابه ألم حاد في وسط صدره وفي لحظات يكون قد انتقل إلى العالم الآخر . .

العلاج :

لا شك أن الوقاية خير من العلاج . . وبما أن أسباب جلطة القلب وانسداد الشرايين معقدة كل التعقيد ومرتبطة تمام الارتباط بالمدنية الحديثة . .

فإن الأطباء لا يستطيعون أن ينفذوا برامج الوقاية من هذا المرض الوبيل لأن ذلك يستدعي مثلاً أن يتوقف الناس عن التدخين بتاتاً ، وأن لا يشربوا الخمور ، وأن يعيشوا حياة هادئة قانعة ، وأن يبتعدوا عن الهم والغم والكرب والقلق . . وأن يتحركوا كثيراً ويعملوا بأيديهم أو على الأقل يمارسوا الرياضة البدنية بصورة فعالة . . وأن يقللوا من انغماسهم في الملذات وفي الطعام والشراب . . وأن يتعودوا نوعاً من الصيام . . وهذه الأمور كلها لا يملك الأطباء إلا أن يتحدثوا عنها أما تنفيذها فأمر خارج تماماً عن إرادتهم وإمكانياتهم . .

ولذا فقد اهتم الأطباء اهتماماً شديداً بوسائل التشخيص المبكر والمعالجة ، واكتشفت الإنسانية في هذا المجال وسائل بارعة ورائعة . . فمنذ اكتشاف واختراع جهاز رسم القلب الكهربائي أمكن تطوير واختراع المزيد من الأجهزة الدقيقة الرائعة التي تساعد على التشخيص المبكر لهذه الحالات . . فهناك جهاز رسم القلب الذي يسجل نشاط القلب على مدار الساعة . . وهناك الجهاز المرتبط بالتلفزيون الذي يرن بمجرد أن يحصل لحامله أي اضطراب في نبضه ، كما أنه يوضح نوع هذا الاضطراب على شاشة تلفزيونية . . بينما حامل هذا الجهاز يمارس أعماله ونشاطه . .

وهناك الشاشات التلفزيونية المستقلة التي توضح نشاط القلب ثانية بثانية ، وهناك وسائل تصوير شرايين القلب سينمائياً . . وعرضها بعد ذلك على مجموعة من الأطباء لدراسة أي تغيير أو خلل فيها . . وهناك الصوت غير المسموع الذي تطور إلى جهاز بارع دقيق يرسل الموجات فوق الصوتية إلى القلب وترتد إلى الجهاز لتسجل نشاط القلب وأي خلل فيه . .

هذا في مجال التشخيص المبكر . . أما في مجال العلاج . . فقد بدأ منذ الستينات من هذا القرن ظهور وحدات القلب المكثفة والتي بدأت في أوروبا وأمريكا ، والتي انتشرت حتى وصلت أخيراً إلينا . . وفي هذه الوحدات مجموعة من الأطباء والممرضات المتمرسين والمختصين بمعالجة أمراض القلب . . ولديهم الأجهزة الحديثة المتطورة لمراقبة القلب ونشاطه ولمعالجته

بالصدمات الكهربائية التي توقف الذبذبات (Defibrillation) أو التي تنظم ضربات القلب بجهاز منظم القلب (Pace - Maker) والذي يعمل بالبطارية التي تطورت بدورها من بطارية تعمل لمدة عامين إلى بطارية تعمل عشرة أعوام وهي من الليثيوم إلى بطارية تعمل مدى العمر بالطاقة الذرية . .

كما تطورت وكثرت الأدوية المستعملة لعلاج الجلطات وما يصحبها من اضطرابات في النبض . . وأخيراً تمكن جراحو القلب من عمل العمليات الرائعة التي بواسطتها أمكنهم إبدال شرايين القلب المسدودة بأوعية دموية من الساقين والقدمين . .

وأمكنهم أول الأمر استبدال شريان واحد ثم أمكن استبدال اثنين ، وأخيراً أمكن استبدال ثلاثة شرايين في وقت واحد وعملية واحدة . . وتمكن هؤلاء الجراحون البارعون من إزالة الجلطة بعمليات دقيقة كل الدقة فيها من البراعة والفن والعلم ما يبهر العقول . . وبعد هذا التقدم الهائل اجتمع الأطباء مراراً ليدرسوا تأثير هذه الوسائل الحديثة الرائعة في التشخيص والعلاج على سير هذا المرض الوبيل ومدى انتشاره ، فوجدوا للأسف الشديد أن كل ما فعلوه ذهب أدراج الرياح . . وأن قليلاً جداً من الحالات أمكن إنقاذها من براثن الموت ، وأن الجلطات في ازدياد مستمر ، وأن شبح الموت والموت المفاجىء قد بسط أجنحته السوداء المعتمة على بريق الحضارة وأخذ منها وهجها وأطفأ نورها . . . وملأ القلوب بمزيد من الرعب والقلق والحيرة . . وإذا الاحصائيات الدقيقة تقول إن هذه الوحدات المكثفة وهذه الأجهزة الحديثة البارعة . . وهذه العقول الجبارة التي اخترعت هذه الأجهزة والعقاقير ، وهذه الأنامل التي قامت بها العمليات المذهلة . . إنها جميعاً فشلت فشلاً ذريعاً في التغلب على هذا المرض بل وفشلت حتى في إيقاف نموه وازدياده . . .

فقد كانت جلطات القلب نادراً ما تصيب من هم دون الأربعين . . وها هي الآن تنتشر حتى بين الشباب . . وكان من أندر النادر أن تصاب امرأة دون الأربعين بجلطة القلب . . وها هي الآن حالات جلطات القلب تظهر حتى بين النساء دون الأربعين ، رغم أن حدوث الجلطات بين النساء لا يزال أمراً نادراً نسبياً . . وخاصة تحت سن الأربعين . .

وقد كان ما يسمى بالعالم الثالث أو البلاد النامية قليل المعاناة من هـذا المرض الوبيل. . ولكن ها هي سيئات الحضارة الغربية تنتقل إلى العالم الثالث بأسرع مما تنتقل إليه حسناته. . وها نحن نتسابق إلى الوصول إلى قشور الحضارة والمدنية ، فنجلب كل ما يتصور من وسائل الراحة من سيارات فارهة وأثـاث فاخر وأجهزة تلفزيونية وأفلام سينمائية وأجهزة الفيديو وأشرطته . . وهـا نحن نقبل على التدخين بأشد مما يقبـل عليه الغـربيون . . ففي المملكـة العربيـة السعودية قفز استهلاك التبغ من خمسة مليون كيلو جرام عام ١٩٧٥ م الى ٢٧ مليون كيلو جراما عام ١٩٧٧ م أي أنه تضاعف الاستهلاك بزيادة قدرها ٥٥٠ بالمائة[1]. . وهي نسبة رهيبة لم تحدث منذ أن اكتشف كولومبس أمريكا، حيث وجد الهنود الحمر يدخنون التبغ من الغليون ذي الشرفتين. .

وبانتشار سيئات الحضارة الغربية ، وهبـوط الثروة المفـاجىء في البلاد البتـرولية الغنيـة ، ازدادت العوامـل التي تسبب الجلطة ازدياداً كبيـراً : ازداد التـدخين زيادة مـرعبة . . وانتشـرت وسائـل الرفـاهية وقلة الحـركة . . وقـل المجهود العضلي ، وازداد المجهود الـذهني والنفسي ، وازداد القلق والتوتـر وبلغ السعار المحموم مداه في اللهاث وراء الثروة واقتناصهـا بكافـة الوسـائل حلالاً كانت أم حراماً . . وإنفاقها في المتع والملذات والمظاهر الجوفـاء . . وانتشرت حالات الكآبة والقلق بين الرجال والنساء، وحتى الأطفال لم يسلموا من ذلك . . وأقبل الناس على أجهزة الفيـديو والتلفـزيون ليشـاهدوا الأفـلام والمسلسلات المثيرة ليجتروا مزيداً من القلق والتوتر . . وأقبلوا على التدخين ليخفف من حالات القلق والهم والضيق. . فإذا لم يجـدِ ذلك كله في عـلاج الكـرب والهم فـالـرحـلات إلى أوروبـا حيث المـزيـد من وسـائـل التـرف والكباريهات . . . . وهناك الخمور متـوفرة لمن أراد ودون عنـاء . . وبسرعـة ينجرف المرء إلى قاع المستنقع الآسن . . وتلفه الدوامة ويجرفه التيار . .

كل هذه العوامل مجتمعة ساعدت على انتشار حالات جلطات القلب ،

---

(١) زادت كمية الاستهلاك عام ١٩٨١م إلى ٣٧ مليون كيلوجرام. انظر مقال «التدخين في المملكة العربية السعودية» لمزيد من التفصيل ص ٣٣٣ من هذا الكتاب.

ونحن نتوقع المزيد منها . . لأن مفعول حياة الترف هذه لم يأخذ مداه بعد ولم يظهر تأثيره . . فمن المعلوم مثلاً أن تأثير التدخين ، في تكوين جلطات القلب أو سرطان الرئة ، يحتاج الى عشرين سنة أو أكثر . . وكذلك تأثير حياة الرفاهية وقلة الحركة ، وفي خلال عقدين أو ثلاثة من الزمن ستزداد حالات جلطات القلب زيادة مرعبة . . وكذلك سيظهر سرطان الرئة بصورة وبائية نتيجة لهذا الانغماس والإسراف في التدخين . .

ولن يجدي في معالجة هذه الأمراض الخطيرة استجلاب كل وسائل التقنية الحديثة ولا حتى شراء الأطباء المهرة كما نشتري لاعبي الكرة المهرة الآن . . لأن أوروبا وأمريكا ذاتهما فشلتا فشلاً ذريعاً رغم الامكانيات الهائلة في محاربة هذا الوباء الذي يزداد انتشاراً يوماً بعد يوم . .

وها هي أوروبا وأمريكا تجرب الآن وسيلة جديدة في محاولاتها اليائسة البائسة في إيقاف هذا الغول البشع ، الذي يختطف ضحاياه في كل لحظة دون أن يعطيهم فرصة حتى لاستدعاء الطبيب . .

وتتلخص هذه التجربة التي بدأت في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ م ، وانتشرت بعدها إلى الغرب كله ، في إيجاد نظام الإسعاف السريع الذي يصل إلى المريض في خلال خمس دقائق فقط من استدعائه . . وقد زودت سيارات الاسعاف هذه بأحدث الأجهزة لتشخيص الجلطة ، كما أنها جهزت بالعقاقير الحديثة التي تستعمل في معالجة اضطرابات نبضات القلب . . وجهزت أيضاً بجهاز موقف الذبذبات : (Defibrilator) ، ودُرِّب المسعفون تدريباً خاصاً للتعرف على جلطات القلب واضطراب النبض ، وفي أغلب الأحيان يكون معهم طبيب متمرس في علاج الجلطات وما ينتج عنها من اضطراب في كهرباء القلب . .

ورغم مضي ما يقرب من عشر سنوات على هذه التجربة الرائدة إلا أن النتائج ليست مذهلة . . فعدد الحالات التي أمكن إنقاذها لا يزال محدوداً . . وحتى هذه الحالات التي أمكن إنقاذها من براثن الموت المفاجيء عادت بعد ساعات فقط من إنقاذها الى توقف للقلب نتيجة نوبة أخرى لذبذبات القلب

البطينية والتي يفشل فيها للأسف العلاج .

وأخيراً أعلن الأطباء ، في أكثر من مؤتمر من مؤتمرات القلب ، أن العلاج الحقيقي لايقاف هذه الزيادة المرعبة في جلطات القلب وموت الفجأة هو معالجة الأسباب وأهمها :

١) تدخين السجائر ومختلف أنواع التبغ .

٢) معالجة السمنة .

٣) الإقلال من حياة الرفاهية وبذل المجهود العضلي بدلاً من الجلوس وراء المكاتب . . واستخدام السيارات والمصاعد . .

٤) محاربة موجة القلق والكآبة والضيق . . ولكنهم إلى الآن لا يعرفون كيف يتغلبون على هذه المشكلة . . فالأدوية المسكنة والعقاقير المضادة للكآبة ليست هي الحل الأمثل .

وليس هناك من منقذ حقيقي لحياة القلق والضيق والكرب مثل الإيمان والإقبال على قراءة القرآن الكريم ، فإنه يشرح الصدر ويجلو الهم والغم ففيه شفاء لما في الصدور ، وهو الرحمة والهدى وهو النور . . وليس هناك كالصلاة تريح النفس وتزيل عنها وعثاء الطريق . . وكدر الحياة . . ومنغصات العيش . .

ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرحنا بها يا بلال . . » « وكان صلى الله عليه وسلم اذا حز به أمر فزع إلى الصلاة . . » .

وليس هناك ما يزيل عنا داء السمنة ، كالصوم وكالالتزام بالآداب النبوية والمناهج المصطفوية في المطعم والمأكل والمشرب : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . . فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » (رواه ابن ماجه وابن حيان وحسنه الترمذي) .

وكثير من الأمراض التي نعاني منها هي نتيجة مخالفتنا لسنة نبينا وهديه صلى الله عليه وسلم في الطعام والشراب . . فإننا نسرف في الأكل ونقلل من الحركة . . ونتيجة ذلك أمراض الجهاز الهضمي وسوء الهضم والتهاب المعدة والقولون والتهاب المرارة وتكوّن الحصى بها ودهنية الكبد .

زيادة في أمراض السكر وزيادة في أمراض ضغط الدم وذلك راجع إلى الزيادة في الطعام وقلة الحركة وكثـرة القلق وتسلط الهـم والغم على الأفئدة والنفس . .

زيادة في أمراض المفاصل نتيجة الوزن الهائل التي تنوء تحته المفاصل وخاصة مفصل الركبة ومفاصل الأقدام . .

كما أن زيادة المواد البروتينية والإكثار من الشاي والقهوة وشرب الأنبذة يساهم في ظهور النقرس الذي كان يعرف قديماً باسم داء الملوك . .

وقد كان هذا المرض منتشراً بين الملوك وعلية القوم لأنهم يأكلون كثيراً ويتحركون قليلاً ويشربون الأنبذة .

ومن المعلوم أن المواد البروتينية الموجودة في اللحوم بوفرة تتحول في الكبد الى حامض البوليك الذي يزداد نتيجة للإكثـار من اللحوم ، كمـا يزداد نتيجة للإفراط في الشاي والقهوة أو شرب الأنبذة والخمور . . ويؤدي ذلك الى تسرب هذا الحامض على هيئة بلورات في المفاصل فيسبب ألماً شديـداً . . ويتسـرب في الكلى فيسبب حصى في الكلى ، كمـا يؤدي إلى فشـل وظيفـة الكلى . . ويساعد على حدوث جلطات القلب . .

فإذا أضيف الى كثرة الطعام قلة الحركة وكثرة التدخين والإكثار من شرب الشاي والقهوة وحياة القلق والتوتر فإن الدائرة تكـاد تكون مقفلة ولا يبـدو أنه يمكن الإفلات من نتائجها الوخيمة . .

ولنقلل من الطعام ولنأكل ولنشرب بدون إسراف ﴿ **وكلوا واشربوا دون إسراف ولا مخيلة** ﴾ ، « وبحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبة فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

التداوي بالخمر (*)

«انه ليس بدواء ولكنه داء» من حديث شريف أخرجه الإمام مسلم .

هل الكحول (الغول) وبالتالي الخمور دواء أم هي سم ؟ يقول الدكتور أوبري ، رئيس قسم الأمراض النفسية في جامعة لندن في أكبر وأشهر مرجع طبي بريطاني (مرجع برايس الطبي) .

« إن الكحول هو السم الوحيد المرخص بتداوله على نطاق واسع في العالم كله ، ويجده تحت يده كل من يريد أن يهرب من مشاكله ، ولذا يتناوله بكثرة كل مضطربي الشخصية ، ويؤدي هو إلى اضطراب الشخصية ومرضها (Psychopathic Anomaly) .

إن جرعة واحدة من الكحول قد تسبب التسمم وتؤدي : إما إلى الهيجان أو الخمود ، وقد تؤدي إلى الغيبوبة . أما شاربو الخمر المزمنون (Ch. Alcoholics) فيتعرضون للتحليل الأخلاقي الكامل مع الجنون » .

وقد كان الأطباء يزعمون ، في الأزمنة الغابرة وعلى زمن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وبعده وحتى عهد قريب ، أن للخمر بعض المنافع الطبية ، ثم تقدمت الاكتشافات العلمية وبطلت تلك المزاعم وتبين أنها أوهام ، وان كلام الصادق المصدوق عنها هو الحق الذي لا ريب فيه ولا التباس . فقد قال عنها ، صلى الله عليه وسلم ، لطارق الجعفي عندما سأله

(*) لقد وضعنا كتاباً كاملاً بعنوان الخمر بين الطب والفقه وهو في طبعته السابعة ، الدار السعودية جدة وفيه تفصيل للأمراض التي تصيب الانسان بسبب الخمر فهي داء وبيل وليست دواء . وذلك من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا المقال أحد فصول الكتاب المذكور.

عن الخمر فنهاه ، فقال طارق : إنما أصفها للدواء فقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بدواء ولكنه داء . اخرجه مسلم والترمذي .

وعن أبي هريرة : (نهى رسول الله عن الدواء الخبيث) أخرجه أبوداود.

واخرج أبو داود ايضاً في سننه : (إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام) . (وعن طارق بن سويد الحضرمي قال : قلت : يا رسول الله إن بأرضنا أعناباً نعصرها فنشرب منها ، قال : لا . فراجعته قلت : إنا نستشفي للمريض . قال : إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء) . (اخرجه مسلم) .

وتوهم بعض المتقدمين[1] : أن في الخمر منافع طبية واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ .

وقد رد كثير من الأئمة على هذا الزعم ، فيقول الأمير الصنعاني في كتابه سبل السلام : « وفي كتاب النجم الوهاج قال الشيخ : كل ما يقوله الأطباء من المنافع في الخمر وشربها كان عند شهادة القرآن أن فيها منافع للناس قبل، وأما بعد نزول آية المائدة : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ الآية . فإن الله تعالى الخالق لكل شيء سلبها المنافع جملة فليس فيها شيء من المنافع . وبهذا تسقط مسألة

---

(١) ومن هؤلاء الإمام ابن كثير حيث يقول في تفسيره للآية : ﴿ **قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس**﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدنيوية من حيث أن فيها نفع البدن وتهضم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التي فيها كما قال حسان بن ثابت في جاهليته .

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً لا ينهنهنا اللقاء

وقد قال أبو بكر الرازي في كتابه منافع الأغذية : « إن الشراب المسكر يسخن البدن ، ويعين على الهضم للطعام في المعدة ، وسرعة تنفيذه إلى الكبد ، وجودة هضمه هناك . وتنفيذه من ثمة إلى العروق وسائر البدن ، ويسكن العطش إذا مزج بالماء . ويخصب البدن متى شرب على أغذية كثيرة الاغتذاء ، ويحسن اللون ويدفع الفضول جميعاً ويسهل خروجها من البدن . . . ولذلك هو عون عظيم على حفظ الصحة» .

التداوي بالخمر . والذي قاله منقول عن الربيع والضحاك ، وفيه حديث أسنده الشعبي وغيره أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله تعالى لما حرم الخمر سلبها المنافع » ص ٣٦ الجزء الثاني .

والمنافع في الخمر موهومة ، فهي إما منافع مادية لمن يبيع الخمر ويتجر بها ولكنها طامة كبرى على المجتمع ، وخسارة مادية أي خسارة . . وإما منافع طبية وصناعية وأغلبها موهوم ، مثل الاعتقاد بأن الخمر تفتح الشهية .

وقد استخدمت الخمر كفاتح للشهية منذ أقدم العصور واستخدمها اليونان والرومان والفرس والعرب وتفننوا فيها . . ويستخدمها الأوروبيون اليوم ، وخاصة الفرنسيون ، وتدعى (Aperitif) أي فاتح للشهية ، وعادتهم أن لا يشربوا مع الأطعمة إلا النبيذ ، وكذلك الإيطاليون . . والخمر تفتح الشهية أول الأمر فتزيد من إفراز حامض المعدة كلور الماء (Hcl) ولكنها بعد فترة تسبب التهاب المعدة . . وتعقب تلك المنفعة الموهومة مضرّات وعواقب وبيلة وخيمة أولها التهابات المعدة وفقدان الشهية والقيء المتكرر وآخرها سرطان المريء .

وقد جاء وفد اليمن ووفد حضرموت إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بشرب الخمر بحجة أن بلادهم باردة ، فأبى عليهم ذلك . فقد روى أبو داود أن ديلم الحميري سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إنّا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً ، وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وبرد بلادنا ؟ قال رسول الله : هل يسكر ؟ قال : نعم . قال : فاجتنبوه . قال : إن الناس غير تاركيه . قال : فإن لم يتركوه فقاتلوهم .

وجاء الطب الحديث بعد هذه الحادثة بألف وأربعمائة عام تقريباً ليقول لنا إن ذلك الدفء ، ليس إلا من قبيل الوهم . فالخمر توسع الأوعية الدموية ، وخاصة تلك التي تحت الجلد ، فيشعر المرء بالدفء ويفقد حرارة جسمه في الجو القارس ، وقد يؤدي ذلك إلى وفاته وهو ينعم بالدفء الكاذب ، كما يحصل في أعياد رأس السنة وأعياد الميلاد في أوروبا وأمريكا حيث يسكر كثير من الناس ويبقى بعضهم في الشوارع والحدائق يتعرضون للبرد القارس

فيموتون من البرد وهم ينعمون بالإحساس الكاذب بالدفء .

ومن تلك المنافع استخدامها في الصناعة كحافظ لبعض المواد وكمادة منشفة للرطوبة (Dehydrating Agent) وكمذيب لبعض المواد القلوية والدهنية (Solvent) ، كما يستخدم في الطب كمطهر للجلد وكمذيب لبعض الأدوية التي لا تذوب إلا في الكحول . كما يستخدم الكحول كمذيب للمواد العطرية ، ويستخدم بكثرة في صنع الروائح والعطور (الكولونيا والبارفان) .

وقد بطل استخدام الخمر كترياق ودواء في الطب الحديث، ولكن بقي استعمال الكحول كمذيب لبعض الأدوية والعقاقير . والعجيب حقاً أن علماء الإسلام قد بحثوا هذه المسألة بحثاً دقيقاً وأتوا فيها بالعجب العجاب . يقول مغني المحتاج :

«إن التداوي بالخمر حرام إذا كانت صرفاً غير ممزوجة بشيء آخر تستهلك فيه . أما الترياق المعجون بها ونحوه مما تستهلك فيه فيجوز التداوي به عند فقد ما يقوم به التداوي من الطاهرات ، فعندئذ يتبع حكم التداوي بنجس كلحم حية وبول، وكذا يجوز التداوي بذلك لتعجيل الشفاء بشرط إخبار طبيب مسلم عدل بذلك ، أو معرفته للتداوي به ، وبشرط أن يكون القدر المستعمل قليلاً لا يسكر» .

ولا شك في حرمة الخمر الصرفة كدواء فهي داء وليست دواء[1] ، ولكن

---

(١) وقد ذكر الإمام النووي في المجموع أربعة أقوال في شربها : للتداوي والعطش المهلك الأول وهو الصحيح عند الجمهور وهو لا يجوز فيهما . والثاني يجوز معاً ، والثالث : يجوز للتداوي ولا يجوز للعطش والرابع يجوز للعطش المهلك دون التداوي ، وهذا الأخير قال به إمام الحرمين والإمام الغزالي .

وإن اضطر إلى شرب الخمر أو البول شرب البول لأن شرب الخمر أغلظ، وإن اضطر إلى شرب الخمر ففيه ثلاثة أوجه: **الأول**: أنه لا يجوز. **والثاني**: يجوز لأنه يدفع به الضرر عن نفسه كما لو أكره على شربها.

والثالث : أنه إن اضطر لشربها للعطش لم يجز لأنها تزيد في الالهاب والعطش (وقد رد هذا الوجه الأخير الإمام الجويني لأنها تزيل العطش. .والصحيح أنها تزيل العطش لأنه قد يبلغ الماء فيها أكثر من ٩٠ بالمائة كما هو في البيرة والأنبذة الخفيفة). وفي الوجه الثالث أنه يجوز استعمالها للدواء. قال النووي: وأما التداوي بالنجاسات، غير الخمر، فهو جائز في جميع النجاسات غير =

استعمالها في الترياق ، وهي الآن تستعمل في كثير من الأدوية ، كمذيب لبعض المواد القلوية أو الدهنية التي تذوب في الماء ، هذا الاستعمال هو المذكور في مغني المحتاج وهو جائز بشروط :

١ ـ أن لا يكون هناك دواء آخر خال من الكحول ينفع لتلك الحالة .

٢ ـ أن يدل على ذلك طبيب مسلم عدل .

٣ ـ أن يكون القدر المستعمل قليلاً لا يسكر .

وإذا نظرنا إلى الأدوية الموجودة التي بها شيء من الكحول نجدها على ضربين :

الأول : مواد قلوية أو دهنية تستعمل كأدوية ولا بد لإذابتها من الكحول .

أما الثاني : فمواد يضاف إليها شيء يسير من الكحول ، لا لضرورة ، وإنما لإعطاء الشراب نكهة خاصة ومذاقاً تعود عليه أهل أوروبا وأمريكا أي من حيث يأتينا الدواء جاهزاً مصنعاً .

وهذا النوع الثاني لا شك في حرمته . ولا بد للطبيب المسلم أن يتروى في وصف الأدوية التي بها شيء من الكحول وليتجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ولم يسمح أحد من فقهاء الإسلام باستخدام الخمر كدواء إلا عند الضرورة القصوى ، مثل أن يغصَّ أمرؤ ما بلقمة ولا يجد أمامه إلا الخمر ، فعندئذ يجوز شربها لإزالة الغصة. ويقول الشيخ سيد سابق في فقه السنة : (ومثَّل الفقهاء لذلك بمن غصّ بلقمة فكاد يختنق ولم يجد ما يسيغها به سوى الخمر) . ولكنه ، اي سيد سابق، يقع في خطأ عندما يقول : (أو من أشرف على الهلاك من البرد ولم يجد ما يدفع به الهلاك غير كوب أو جرعة خمر) . وقد . . . أوضحنا زيف ذلك الوهم الذي يقول إن الخمر تدفىء الجسم ، وكذلك يقع في الخطأ حين يقول : (أو من أصابته أزمة

المسكرة . . ومنهم من قال يجوز بأبوال الإبل خاصة لورود النص بحديث عرينة الذين سقموا فأمرهم الرسول بشرب ألبان الإبل وأبوالها فصحوا ثم قاموا بقتل الراعي وسرقة الإبل .

قلبية وكاد يموت فعلم أو أخبره الطبيب بأنه لا يجد ما يدفع به الخطر سوى شرب مقدار معين من الخمر)[1] . فهذا أيضاً خطأ فاحش . . ووهم قاتل ، فإن الخمر لا توسع الشرايين التاجية المغذية للقلب ، كما كان موهوماً من قبل ، وإنما تضيِّقها وذلك بترسيب الدهنيات والكوليسترول في جوفها ، وبذلك تساعد على تسبب جلطات القلب والذبحة الصدرية ، وخاصة مع التدخين ، فكلتا المادتين تساهم في انسداد الشرايين التاجية الأولى (أي الخمر) ، بترسيب الدهنيات والكوليسترول ، والثانية بانقباض الشرايين وتضييق مجراها . .

وللخمر خاصية أخرى فهي تصيب عضلة القلب بالتسمم (Toxic Cardiomyopathy) ، وسنعرض لذلك بالتفصيل عندما نتحدث عن الخمر والقلب والجهاز الدوري[2] . . ونقول للشيخ سيد سابق ، غفر اللّه له ، إنها ليست من باب الضرورات التي تبيح المحظورات ، كما توهم ، وإنما هي المضرّات والمفاسد التي ينبغي أن تُحْظَر . وقد أعجبني الإمام ابن القيم عندما تعرض لهذه النقطة ، في كتابه الطب النبوي ، فقد كان عملاقاً شامخاً كالطود لم يهله ادّعاء الأطباء في زمانه أن الخمر دواء ، فأوضح وأبان كيف هي داء . . وكان إيمانه بربه وبرسوله قد انتهى به إلى النهايات الصحيحة ، وأتى بما لم يأتِ به الطب في زمانه ، بل والتفت إلى نقط دقيقة كل الدقة . . ولم ينتبه لهذا الطب إلا في الآونة الأخيرة ، ومنها تأثير الاعتقاد في الدواء . فإذا كان اعتقاد المريض في الدواء والطبيب حسناً حصل له نوع شفاء ، وإن كان اعتقاده سيئاً لم يحصل له ذلك ، ويسمى ذلك التأثير (Placebo Effect) ، ويعرفه الأطباء كافة . فيقول ابن القيم : (إنما حرّم الله على هذه الأمة ما حرم لخبثه . وتحريمه له حمية لهم وصيانة عن تناوله ، فلا يناسب أن يُطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ؛ فإنه وإن أثّر في إزالتها (هذا الكلام حسب رأي الطب في زمنه) لكنه يعقب سقماً أعظم منه في القلب بقوة الخبث الذي فيه

---

(١) ذكر الشيخ سيد سابق ذلك بناء على ما أخبره به الأطباء. وقد أوضح الطب الحديث زيف ما ذهبوا اليه.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا الخمر بين الطب والفقه ، الدار السعودية ، جدة ، الطبعة السابعة .

فيكـون المداوى بـه قد سعى في إزالـة سقم البدن بسقم القلب . وتحـريمه يقتضي تجنُّبه والبعد عنه بكل طريق وفي اتخاذه دواء حضّ على الترغيب فيه وملابسته . وهذا ضد مقصود الشارع) .

(وهو داء كما نصّ عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء وهو يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بيِّناً . فإذا كان كيفيته خبيثة أكسب الطبيعة منه خبثاً ، فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته . ولهذا حرَّم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة والمـلابس الخبيثة لما تكتسب النفس من هيئة الخبث وصفته) .

ولنا هنا تعليق سريع : فهذه المسألة في منتهى الدقة ، ولم يتبينها الطب بعد بالتفصيل . فإن الأغذية والأشربة تتحول ، بعد الهضم والامتصاص ، إما إلى طـاقة تحـرك الجسم ووقود للعقـل والقلب ، أو إلى مواد لبنـاء الأنسجـة وإبدال التالف منها بجديد صالح .

ونحن نعرف الآن أن المواد النشـوية والـدهنية تتحـول إلى طاقـة بينما تتحول المواد البروتينية إلى خلايا وأنسجة ، ويقع ذلك ضمن عمليات كيماوية معقَّـدة فـدورة كـريب (Krebs Cycle) مـثـلاً هـي مجمـوعـة من العمليـات الكيمياوية البالغة التعقيد التي تحول سكر الدم (الجلوكوز) في ميتوكوندريـا بالخلايا إلى طاقة مخزونة عبر ما يقرب من أربعين عملية كيماويـة ، وتتحول ضمن دورة كريب وخارجها مجموعـة من الأحماض الأمينيـة (Amino Acids) الهامة لبناء الخلايا والأنسجة ، فالمواد البروتينية ليست إلا مجموعة ضخمة من الأحماض الأمينية هذه .

وهكذا ترى أن ما تأكله أو تشربه يتحول بالتالي إلى محرك لعضلة يدك أو عضلة قلبك أو قادح لزناد فكرك ، أو يتحول إلى نفس تلك العضلة في اليد أو اللسان أو القلب ، أو يجري في عروقك مع دمك مكوِّناً الكرويات الحمراء أو البيضاء أو الصفائح ، أو حيواناً منوياً يخرج من بين صلبك وترائبك[1] . أفلا

---

(١) تتكون الحيوانات المنوية في الخصية . . وتتكون الخصية في الجنين في منـطقة بين الصلب (العمود الفقري) . . والترائب (الأضلاع) ثم تنزل الخصية تدريجياً إلى كيس الصفن خارج =

يدخل في تركيب جسمك وتكوين فكرك ، بعد هذا ، ما تأكله أو تشربه من الخبائث كالخمر ولحم الخنزير وغيرها مما حرّمها الله ؟ بلى ، إنها لكذلك .

أفلا يكون كلام ابن القيم ، بعد هذا ، دقيقاً كل الدقة ، بارعاً كل البراعة ، في وصف ما لم يهتم به الطب الحديث إلى اليوم ؟ بلى ، إنه لكذلك . وإنه كما قال ابن القيم يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث ؛ فكل أكل أو شرب يدخل الجوف ويجري في العروق مع الدم يتمثله الجسم إما بالهدم (Catabolism) فيتحول إلى طاقة نعيش بها ونتحرك ، أو الى بناء (Anabolism) فيتحول الى خلايا وأنسجة .

فإذا دخل الخبث جوف ابن آدم وجرى في عروقه مجرى الدم وكان الخبث مصدر نشاط يده ولسانه وفكره وقلبه ، وكان الخبث عضلة من عضلات جسمه أو خلية من خلايا دمه ، أو حيواناً منوياً يخرج من صلبه ، فالخبث لا شك يؤثر في كل ذلك .

وهكذا تصدق عبارة ابن القيم (ولهذا حرّم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة وتكتسب الخبيثة لما تكتسب النفس من هيئة الخبث وصفته) .

ونستطرد فنسمع لابن القيم قوله :

(إن في إباحة التداوي به (المحرّم) ، ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ، ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذّة ، لا سيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها ، مزيل لأسقامها ، جالب لشفائها ، فهذا أحب شيء إليها ، والشارع سدّ الذريعة إلى تناوله بكل ممكن . ولا ريب أن بين سدّ الذريعة إلى تناوله وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً ، وأيضاً فإن هذا الدواء المحرّم (ليس دواء) ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء) . وأخيراً يقول :

(وهذا سر لطيف في كون المحرّمات لا يستشفى بها . فإن شرط الشفاء بالدواء تلقّيه بالقبول واعتقاد منفعته) . وهذا كلام يعرفه الأطباء ، ويسمى هذا التأثير (Placebo Effect) .

= الجسم قبيل الولادة ، ومع هذا تبقى تغذيتها بالدماء والأعصاب من بين الصلب والترائب . انظر مزيداً من التفصيل كتاب (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) للمؤلف .

ثم يقـول ابن القيم : (ومعلوم أن اعتقـاد المسلم تحـريم هـذه العين (الخمرة) مما يحول بينه وبين اعتقـاد بركتها ومنفعتها ، وبين حسن ظنه بها وتلقي طبعه لها بالقبول . بل كلما كان العبد أعظم إيماناً كان أكره لها وأسـوأ اعتقاداً فيها ، وطبعه أكره شيء لها . فإذا تناولها في هذه الحال كانت داءً له لا دواء) .

وهـذا كلام عجيب ، والأبحـاث الـطبيـة اليـوم تتجـه إليـه ، وذلـك : لاختلاف تأثير الدواء الواحد في المجتمعات المختلفة . فبينما يؤثِّر الدواء في مجتمع بعينه ، بطريقة خاصة ، يختلف ذلك التأثير ، ولو يسيراً ، في مجتمع آخر . إن تأثير الدواء يختلف من شخص إلى آخـر ، ويؤثر في ذلـك عوامـل عديدة ليس أقلها أهمية العامل النفسي لـدى متناول الـدواء . فإن كـان تلقِّيه للدواء بالقبول واعتقاد المنفعة حصل له ولو نوع شفاء ، وإن كان تلقِّيه له بسوء الظن فيه واعتقاد مضرَّته لم يحصل بـه نوع شفـاء ، بل ربمـا حصل لـه نوع ضرر ،وهذا باب جديد في الطب .

فلله در ابن القيم كيف استـطاع ان يـدرك التـأثيـر النفسي في تلقِّي الـدواء ، وهو أمـر لم يُدرك بعـد على حقيقته بصـورة واضحـة إلى اليـوم ، والأبحاث لا تزال جارية في هذا الميدان .

أما تأثير الدواء الخبيث ، أو المـأكل او المشـرب الخبيث ، في النسل فهو باب جديد من أبواب الطب[1] ، وقد كثر الكلام فيه بعـد اكتشاف قصـة عقار الثاليدوميد (Thalidomide) ، وهو عقار مهـدىء خال من المضـاعفات ، فلما أُعطي للحوامل تشوّهت الأجنّة وخـرج الأطفال بـدون أطراف . وثـارت قضايا أمام المحاكم في أوروبا وخاصة في ألمانيا حيث اكتشف هذا الدواء ،

---

(١) وقد ظهرت في الفترة الأخيرة أبحاث طبية عديدة تؤكـد تأثيـر الخمور على الأجنّـة فتؤدي إلى ظهور آثار الكحول السمِّية على الجنين مما يسبب : (١) توقف نمو الدماغ وصغر حجمه (٢) توقف نمو العينين (٣) توقف نمو الفكين مما يؤدي إلى ضمورهما وصغر حجمهمـا (٤) كثرة العيوب الخلقية في القلب (٥) تأخر النمو في الجسم عامة (٦) التأخر العقلي والعته والبلاهة نتيجة تأخر نمو المخ .

وسُحِبَ الدواء ولكن الشركة التي أنتجته أفلست لفرط ما دفعت من غـرامات وتعويضات . . .

وقد اتضح أن أولاد مدمن الخمر يكونون في الغالب مدمنين وتكثر فيهم نزعة الإجرام ، كما يكثر فيهم الخلل العقلي والعته والجنون . ولكن هل ذلك ناتج من تأثير الخمر في الصبغيات (الكروموسومات) والناسلات (الجينات) التي تحمل الصفات الوراثية عبر الحيوان المنوي للرجل أو البويضة للأنثى ، أم أن ذلك ناتج عن تأثير البيئة الفاسدة ؟

يجيب العلماء في هذا بقولهم : إننا لم نكتشف (جيناً) ناسلاً خاصـاً في الحيوان المنوي أو البويضة يحمل خاصية الادمان ، ولكننـا نعلم أن نسبة المدمنين عالية جداً بين الذين لهم تاريخ عائلي بالادمان ٦٢ بـالمائـة ، بينما تكون النسبة لدى شاربي الكحول العاديين (Social Drinkers) منخفضـة وهي ١٦ بالمائة ، كما يقول الدكاترة سيتل وفوجيتلين ولاميـر ، الذين يعملون في مصح شادل لمعالجة الادمان ، وهو أشهر مصح لمعالجة الادمان في الولايات المتحدة . .

كمـا أجريت تجـارب أخرى فنقـل أولاد المـدمنين من أسـرهم ، وهم أطفال ، وأنشئوا نشأة عادية في بيئة بعيدة عن الادمان ، فوُجِدَ أن نسبـة كبيرة منهم انقلبت إلى الادمـان عندمـا تعرضت لشـرب الخمور . وهـذا يدل على أن هنـاك استعداداً وراثيـاً على الأقـل لـلادمـان بين المـدمنين ، وأن شـرب الخمور يؤدي بالتالي إلى إيجاد حيوانات منوية لدى الرجل ، أو بويضـة لدى المرأة ، مصابة في إحدى نـاسلاتهـا (جيناتهـا) بالاستعـداد لشرب الخمـور لدرجة الادمان . وباختصـار ، كما يقـول الدكتـور لنكولن ويليـامز (Lincolin Williams) في كتـابه القيم : (Alcoholism Explained) شـرح إدمان الخمـر : (إن بذرة الادمان تنمو بسرعة في تربة الادمان العائلي) .

وهكذا تتضافر عوامل الوراثة ، مع عوامل البيئة ، في إيجاد ذرية تميل إلى الادمان ، أي أنها بمجرد شرب الخمور لا تملك القدرة على التـوقف ، كما يتوقف معظم الشاربين ، وإنما يستمرون في الشراب حتى الثمالة .

وقبل أن ننهي هذا الفصل عن التداوي بالخمر نورد بعض الحوادث التي

تـدل على عمق الإيمان . وكيف كـان المسلمون يتقبلون كـلام الله ورسولـه بالطاعة التامة . . ولا يصدقون في ذلك أقوال الأطباء في زمنهم . . ثم يتطور العلم ويتقدم الطب فإذا الطب الحديث يكتشف صدق مـا ذهب إليه هؤلاء ، وزيف ما اعتقده الأطباء في تلك الأزمنة ، وقد أوردنا مقالة ابن القيم في هذا الصدد ، وقد قالها في زمن كـان الطب مجمعـاً فيه على أن الخمـر دواء . . ورفض بصدق إيمانه تلك الخرافة .

ونعرض الآن لبعض ما روي عن الإمام جعفر الصادق في هذا الصـدد ففيه غناء :

(سأل أحدهم الإمام الصادق عن رجل به البواسير الشديد وقد وصف له دواء من نبيذ لا يريد به اللذّة بل يريد الدواء فقال : لا ، ولا جرعـة . قيل : وَلِمَ ؟ قـال : لأنه حـرام ، وإن الله لم يجعل في شيء ممـا حـرّمـه دواء ولا شفاء) .

وقد كان الطب في تلك الأزمنة الغابرة يظن أن علاج البواسير بالخمر ، وما درى الطب آنذاك أن الخمر تسبب البـواسير وتهيجهـا وذلك بـطريقتين : مباشرة : وذلك بسبب الاحتقان وتمدد الأوعية الدموية في الشرج . وثانيها : بواسطة تليُّف الكبد وازدياد ضغط الدم في الوريد البابي . .

(قال أحدهم لـلإمام جعفـر الصادق : إن بي وجعـاً وأنا أشـرب النبيـذ ووصفه لي الطبيب . فقال له : ما يمنعك من الماء الذي جعـل الله منه كـل شيء حي ؟ قال : لا يوافقني . قال : فما يمنعك من العسل الذي قال الله فيه شفاء للناس ؟ قال : لا أجده . قـال : فما يمنعـك من اللبن الذي نبت منـه لحمـك واشتد عـظمك ؟ قـال : لا يوافقني . قـال : تريـد أن آمرك بشـرب الخمر ، لا والله لا آمرك) .

وسئل جعفر الصادق عن الدواء يعجن بـالخمر. فقـال: (ما أحببت أن أنظر إليه ولا أشمه فكيف أتداوى به) .

مراحل خلق الإنسان في الأحاديث النبوية (*)

إن الأحاديث النبوية الشريفة شارحة ومفسرة لما في الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهناك من يزعم أن ما ورد من أحاديث في أبواب الطب وغيرها من الأمور العادية إنما هو شؤون الدنيا التي يقول فيها المصطفى ، صلوات اللّه عليه ، بعلمه لا بالوحي . . وهم يقسمون الأحاديث النبوية إلى قسمين :

قسم تشريعي يقولون إنه وحي ويقبلونه .

وقسم يتحدث فيه المصطفى عن أمور عادية مثل الطب وتأبير النخل وغيره، وهو في هذا يتحدث فيه بدون وحي . . وعليه فهو كلام قابل للصواب والخطأ ومبني على معلومات أهل زمانه . .

ومن أبرز وأجرأ من قال بهذا الرأي في الأقدمين ابن خلدون الذي يقول في المقدمة(١) :

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه . وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج . . وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره » .

« والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب . ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلّة لا من جهة أن ذلك مشروع

(*) نشر هذا البحث في المدينة وفي كتاب « خلق الإنسان بني الطب والقرآن » .

(١) الفصل التاسع عشر : في علم الطب ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

على ذلك النحو من العمل ، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمور دنياكم . فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع . فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل ، والله الهادي إلى الصواب لا رب سواه » .

وعبارة ابن خلدون فيها شيء من الوقاحة اذ يصف الطب النبوي بأنه من قبيل طب البادية المبني على تجربة قاصرة ، والمتوارث عن مشايخ الحي وعجائزه . . كما أن التعبير عن الطب النبوي بأنه غير مشروع أمر غامض والمشروع يندرج تحته الواجب والمندوب والمباح .

وكون رسول الله لم يبعث ليعلمنا الطب لا يعني أنه يقول في الطب وفي غيره من العاديات بجهل . . وهو أكمل الخلق وأرجحهم عقلاً . . وقد وهبه الله من المعارف اللدنية الربانية التي جعلته لا يقول إلا حقاً في هزل وفي جد . .

ويزعم ابن خلدون أن علاج المبطون الذي أصيب بالإسهال بالعسل ليس إلا من قبيل التبرك وصدق العقد الإيماني . . ونحن نعلم الآن أن العسل من خير الأدوية لحالات الإسهال الشديدة[١-٣] . . فهو سهل الهضم سريع الامتصاص من جدار الأمعاء والمعدة لا يسبب تخمراً مثل السكريات الثنائية (السكر العادي) . .

---

(١) سالم نجم وزملاؤه : علاج الإسهال المزمن بعسل النحل، المؤتمر الثاني للطب الإسلامي، الكويت، ١٩٨٢، ج ٢/٥٧٥.

(٢) Haffeegee I.E Moosa: Honey in The Treatment of Infantile G.E. **BMJ,** 290; 1866-7,1985

(٣) د . محمد نزار: العسل فيه شفاء للناس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ .

وهو شفاء للمبطون كما أنه شفاء لمن يعاني من أمراض الكبد . . ويستخدم العسل كذلك لإدرار البول . . وكمنفث وطارد للبلغم . . ويدخل في تركيب كثير من أدوية الكحة .

وابتدأت المحافل الطبية تهتم بفوائد العسل الطبية في أوروبا وأمريكا وروسيا . . . وهناك العديد من الأبحاث الطبية التي تعرض لفوائد العسل وليس مجالها هنا . . ولكننا ذكرنا نبذة يسيرة ليعلم من ينحون منحى ابن خلدون أن للعسل فوائد علاجية للمبطون وغيره . . وليس ذلك فقط من قبيل التبرك وصدق العقد الإيماني .

وقد سبق أن ناقشنا من يقول بمثل هذا الرأي في كتابنا « العدوى بين الطب وحديث المصطفى » ، الذي تعرضنا فيه للأحاديث الواردة في العدوى وظاهرها التناقض ، وأوضحنا أن لا تناقض بينها وإنما تعبر عن الحقيقة التي لم تكتشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . . بل إن بعض الشواهد على تلك الحقيقة لم تظهر إلا في السبعينات من هذا القرن .

وسنعرض إن شاء الله لما ورد من أحاديث في مختلف فروع الطب في كتاب مستقل بإذن الله ، ولكنا هنا سنعرض للأحاديث الواردة في خلق الإنسان بالذات في أطواره المختلفة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى مراحل التخليق ، ولن نتعرض للطور الطيني وخلق آدم لأنه خارج عن موضوع بحثنا .

وقد نحا منحى ابن خلدون بعض المتأخرين، وإن كان بصورة ألطف وأقرب إلى التأديب ، نذكر منهم الشيخ عفيف طبارة ، في كتابه روح الدين الإسلامي ، والشيخ علي الطنطاوي ، في كتابه تعريف عام بدين الإسلام . . وفي أحاديثه في إذاعة وتليفزيون المملكة العربية السعودية .

كما نحا هذا المنحى الدكتور موريس بوكاي ، وهو جراح فرنسي أعلن إسلامه وكتب كتاباً جيداً عن الإعجاز العلمي في القرآن وقارنه بالكتب المقدسة الأخرى[1] ، وخلص إلى أن تلك الكتب قد حرّفت ولذا فإنها تناقض العلم ، بينما القرآن الكريم سَلِمَ من التحريف ، ولذا فإنه لا يختلف مع أي

---

(١) اسم الكتاب « القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم » .

حقيقة علمية كونية . ولكنه (أي الدكتور موريس بوكاي) للأسف ، لم يفهم الأحاديث النبوية الواردة في الخلق ولا في العدوى ولا في الطب فهماً جيداً . . وقد جلست معه عدة جلسات وعلمت منه أنه لم يتعلم اللغة العربية إلا في سن الخمسين . . ومن ثم لم يقرأ أياً من الكتب التي تشرح هذه الأحاديث مثل فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ولا شرح النووي لصحيح مسلم ولا غيرهما . . وقراءته في هذا الباب محدودة جداً بالترجمة الإنجليزية لصحيح البخاري .

وللأسف ، فقد اتفق معه الدكتور معروف الدواليبي في هذا الرأي . . ونرجو أن يتمكن الدكتور موريس بوكاي من دراسة أعمق للأحاديث النبوية في هذا الباب ، وغيره من فروع الطب ، ليتمكن من إصدار حكم مبني على معرفة واسعة وصحيحة للأحاديث النبوية .

الأحاديث الواردة في النطقة :

الحديث الأول :

قال صلى الله عليه وسلم : « ما من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء » . أخرجه مسلم .

إن هذا الحديث إعجاز كامل . فلم يكن أحد يعلم أن جزأ يسيراً من المني هو الذي يخلق منه الولد . . فلم يكن أحد يتصور أن في القذفة الواحدة من المني ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوي وأن حيواناً منوياً واحداً فقط هو الذي يقوم بتلقيح البويضة . .

ويقول الدكتور ليزلي أري في كتابه (Developmental Anatomy) (الطبعة السابعة) : إن التجارب على الثدييات أثبتت أن واحداً بالمائة من المني فقط يكفي لتلقيح البويضة . ومن المقرر طبياً أن عشرين مليوناً من الحيوانات المنوية في القذفة الواحدة هي الحد الأدنى للإخصاب . . ورغم أنه يقرر طبياً أيضاً أن هناك حالات حمل كثيرة بأقل من هذه الكمية . . كما يمكن أن تحقن كمية المني الناقصة الحيوانات المنوية إلى الرحم مباشرة (Insemination Artificial) وهي الطريقة المسماة «بالتلقيح الصناعي» . . وهذه الطريقة

تستخدم أحياناً لمن يشكون العقم ، ويكـون السبب في ذلك قلة الحيـوانات المنوية في مني الزوج .

فالحديث صريح في أنه ليس من كل الماء يكون الولد . . وإنما من جزء يسير منـه . . . وإنّى لمن عاش قبل أربعة عشر قرناً أن يعلم هذه الحقيقة التي لم تعـرف إلا في القرن العشـرين إذا لم يكن علمه قـد جاء مـن لـدن العليم الخبير ، وقد دلت على معنى هذا الحديث آية قرآنية كريمـة . قال تعـالى : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ . . . قال المفسرون السلالة هي الخلاصة . . وخلاصة الماء المهين هي التي يكون منها الولد . . فهناك انتقاء من مئات الملايين من الحيوانات المنوية . . فأول ما تخرج يكون عشرون بالمـائة منهـا غير صـالح للتلقيح ثم يموت في المهبل عدد كبير منها . . ثم يموت على عنق الرحم عدد آخر . . ثم تذهب مجموعة منها إلى قناة الرحم اليمنى وأخرى إلى قناة الرحم اليسرى ولا تدري في أي منها تكون البويضة . . فتهلك تلك التي ذهبت إلى غيـر مكان البـويضة . . ولا يصـل في النهايـة إلى البويضـة إلا ما يقـرب من خمسمائة حيوان منوي فقط . وهنا يقع اختيار وانتقاء واصـطفاء آخـر لحيوان منوي واحد فقط من بين هؤلاء ليتم به تلقيح البويضة .

وفي البويضة كـذلك اصـطفاء وانتقـاء . . اذ يبلغ عدد البـويضات في مبيض الأنثى ، وهي لا تزال جنيناً في بطن أمها ، ستة ملايين بويضة أولية . . ولكن كثيـراً منها يـذوي ويموت قبـل خروجهـا إلى الدنيـا . . ثم تستمـر في اندثارها حتى إذا بلغت الفتاة المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألف فقط . .

وفي كل شهر تنمو مجموعة من هذه البويضات . . ولكن لا يكتمل النمو إلا لواحدة فقط[1] . . وفي حياة المرأة التناسلية لا يزيد مـا تفرزه المـرأة عن أربعمائة بويضة فقط . . . فهناك اصطفاء وانتقاء للحيوان المنوي .

وهناك اصطفاء وانتقاء للوبيضة أيضاً . .

---

(١) قد يفرز المبيض بويضتين أو أكثر في شهر واحد . فإذا ما تلقحت هاتان البويضتان فإن النتيجة هي التوائم الغير متشابهة .

ليس هذا فحسب بل إن هناك اصطفاء وانتقاء للحمل أيضاً !!

نعم ، تقول الأبحاث الطبية الحديثة (مجلة Medicine Digest عدد يناير ١٩٨١) : إن ٧٨ بالمائة من جميع حالات الحمل تسقط طبيعياً . . وإن ما يقرب من خمسين بالمائة يسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل . . ذلك لأن الرحم يلفظ الكرة الجرثومية بعد علوقها مباشرة . . فتظن الأم أن الدم الذي جاءها موعد الحيضة أو بعده بقليل هو دم الطمث الذي كانت تنتظره ولا تعلم أنه دم سقط . .

فهناك اصطفاء بعد اصطفاء ، وانتقاء بعد انتقاء وصدق اللّه العظيم حيث يقول : ﴿ **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ .

وصدق رسوله الكريم حيث يقول : « ما من كل الماء يكون الولد » . .

والشق الثاني من الحديث وهو : إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه (شيء)[1] .

إعجاز كامل لا يتصوره إلا من درس وسائل منع الحمل ونسبة النجاح فيها . . فمن وسائل منع الحمل وسائل قديمة معروفة مثل العزل ، ومنها وسائل حديثة مثل حبوب منع الحمل ، واللولب (Intra Uterine Device I.U.D) الذي يدخل إلى الرحم ، والموانع الميكانيكية لدى المرأة والرجل . . والمراهم واللبوس المهبلي (التحاميل)، وأخيراً عملية التعقيم بقطع قناتي الرحم وربطهما حتى لا تتمكن الحيوانات المنوية من الوصول إلى البويضة . .

ولن نعرض هنا لتفاصيل هذا الموضوع فمجاله بحث آخر إن شاء اللّه ، ولكنا فقط نشير هنا إلى إعجاز حديث المصطفى ، صلوات الله عليه ، من أن جميع وسائل منع الحمل لا تستطيع منع خلق الولد إذا أراده الله تعالى . .

وفي المتفق عليه في الصحيحين عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال : « كنا نعزل على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال إن لي جارية خادمتنا

---

(١) انظر فصل الحمل رغم منع الحمل في كتابنا خلق الانسان بين الطب والقرآن، الطبعة السادسة، الدار السعودية، جدة، لمزيد من التفصيل.

وساقيتنا في النخل (وفي رواية سانيتنا وهو بنفس المعنى) وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل . فقال صلى الله عليه وسلم : « اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها . . فلبث الرجل ما شاء الله ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حملت ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد قلت سيأتيها ما قدر لها » . رواه الشيخان البخاري ومسلم . . .

يقول كتاب «تنظيم الحمل» (Human Fertility Control) عن العزل: إنها وسيلة شائعة منذ أقدم العصور وإن أقدم ذكر لها هو في سفر التكوين من التوراة (المحرفة)، عندما تزوج أونان زوجة أخيه وعزل حتى لا يسقي أرض أخيه . . ويقول المؤلفان : «إن نسبة الفشل بهذه الطريقة تبلغ ٢٢ بالمائة »[١] .

ونحن نعلم الآن أن لكل وسيلة من وسائل منع الحمل نسبة تفشل فيها . . فرغم هذه الموانع يحصل الحمل إذا قدر الله ذلك . . بل لقد جاءتني إحدى المريضات . . وأخبرتني أنها أجرت عملية تعقيم بقطع قناتي الرحم وربطهما . . في لندن ، ثم لم تلبث بضعة أشهر إلا وهي حامل . . وذلك مقرر في الكتب والمجلات الطبية . . وتصل نسبة فشل هذه العملية ٥٥ بالمائة إذا كانت العملية عن طريق المهبل (Sterilisation by Chemicals Throligh Vaginal Route) ، ولكنها تهبط إلى واحد بالمائة فقط إذا أجريت العملية عن طريق فتح البطن وبواسطة جراح ماهر . .[٢] .

وسجل كثير من الباحثين نسبة فشل تصل إلى ٣,٧ بالمائة[٣] مع جراحين مهرة ، بل لقد سجلت حالة حمل بعد عملية استئصال للرحم[٤] . وعليه فإن الحديث النبوي الشريف إعجاز كامل في تقرير هذه الحقيقة العلمية .

---

(١) انظر كتاب (Human Fertility Control By Hawkins And Elders 1979) وصفحة ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٣٤٧ و٣٤٩.

(٣) المصدر السابق صفحة ٣٤٥ .

(٤) المصدر السابق .

الحديث الثاني : النطفة الامشاج :

أخرج الإمام أحمد في مسنده أن يهودياً مر برسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي . فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، فقال : يا محمد ، مم يخلق الإنسان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يهودي من كل يخلق : من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة » . فقال اليهودي : هكذا كان يقول من كان قبلك (أي من الأنبياء) .

وهذا الحديث الشريف إعجاز كامل أيضاً . . وقد ذكرنا في فصل النطفة الأمشاج[1]، في النبذة التاريخية ، أن البشرية لم تعلم ، بواسطة علومها التجريبية ، أن الجنين الإنساني يتكون من نطفة الرجل ونطفة المرأة إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، وتأكد ذلك لديها بما لا يدع مجالاً للشك في أوائل القرن العشرين . . فليرجع القارىء الكريم إلى فصل النطفة الأمشاج لمزيد من التفصيل .

الذكورة والأنوثة والشبه :

تحدثنا تحت باب الذكورة والأنوثة عن الآيات القرآنية الكريمة التي أوضحت بإعجاز كامل أن الذي يحدد نوعية الجنين هو مني الرجل : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

ولكن هل للمرأة من دور في تحديد الذكورة والأنوثة ؟

يقول المصطفى ، صلوات الله عليه لليهودي الذي سأله عن الولد : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فَعَلا مني الرجل مني المرأة أذكر باذن الله ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنث باذن الله . قال اليهودي : صدقت وإنك نبي »[2] .

---

(١) كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للمؤلف .
(٢) صحيح مسلم .

وتضمن الحديث وصفاً لماء الرجل وماء المرأة[1] . . . كما تضمن قضية الذكورة والأنوثة وأرجعها الى أي الماءين علا فالإذكار أو الإيناث تبع له .

ويبدو ذلك معارضاً للآيات الكريمة التي ذكرت أن جنس الجنين يحدده مني الرجل فحسب ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ النجم ، وقوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ القيامة .

كما يبدو معارضاً للمعلومات الطبية التي تؤكد أن جنس الجنين إنما يحدده الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة ، فإن كان حيواناً منوياً يحمل شارة الذكورة Y كان الجنين ذكراً بإذن اللّه ، وإن كان حيواناً منوياً يحمل شارة الأنوثة X كان الجنين أنثى بإذن اللّه . .

وفي الواقع ليس هناك تعارض . . وربما أثّر علو ماء الرجل أو ماء المرأة في الحيوانات المنوية التي سيفلح واحد منها باذن الله في تلقيح البويضة . . ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية وقاتلة للحيوانات المنوية . . وأن إفرازات عنق الرحم قلوية . . ولكنها لزجة في غير الوقت الذي تفرز فيه البويضة . . وترق وتخف لزوجتها عند خروج البويضة . . وإلى الآن لا ندري مدى تأثير ماء المرأة على نشاط الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة . . ولا بد من إجراء بحوث دقيقة لنتبين مدى تأثير هذه الإفرازات على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة ومدى تأثير علوها ، أو انخفاضها ، على نشاط هذه الحيوانات . . وهناك من يقول أن معنى العلو هو الغلبة والسيطرة ، فإن كانت الغلبة للحيوانات المذكرة كان إذكار ، وإن كان للمؤنثة كان إيناث بإذن الله .

وأما الشبه فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس ، رضي الله عنه ، أن عبد الله بن سلام ، رضي الله عنه ، سأل النبي ﷺ : من أي شيء ينزع الولد

---

(١) إن ماء المهبل يميل إلى الصفرة وكذلك الماء في حويصلة جراف . وعند خروج البويضة من هذه الحويصلة تدعى حينئذ الجسم الأصفر . . وهذا من الإعجاز لأنه لم يكن معلوماً آنذاك .

الى أبيه ؟ ومن أي شيء ينزع الى أخواله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها » .

فإذا سبق ماء الرجل كان الشبه له ، وإذا سبق ماء المرأة كان الشبه لها . . وذلك لا ينفي أن الولد قد لا يشبه أياً من الوالدين كما جاء في حديث الفزاري[1] الذي عرَّض بنفي ولده لأن امرأته ولدت غلاماً أسود فرده النبي صلى الله عليه وسلم برفق بعد أن سأله عن إبله هل فيها من أورق (أسمر) فأقر الرجل بذلك ، فسأله المصطفى ، صلوات الله عليه ، فأنّى أتاها ذلك فقال الرجل عسى أن يكون نزعة عرق . . فقال المصطفى ، صلوات الله عليه : فهذا عسى أن يكون نزعة عرق .

والخلاصة أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو الأسلاف أو بظهور صفات جديدة كما حدث للفزاري الذي جاءته امرأته بغلام أسود . . إن هذه العوامل معقدة . . شديدة التعقيد . . وبعضها يتبع قوانين مندل الوراثية وبعضها لا يتبعها . . وحتى تلك التي تتبعها لا تخضع لها بصورة مستمرة[2] . .

ونحن لا ندري إلى الآن ما هو دور سبق الماء في إيجاد الشبه . . وقد يحتاج الأمر إلى سنين طويلة حتى يكشف الله للإنسان هذا السر . والأمر على دقته البالغة وصعوبة البحث فيه مثير ويحتاج إلى أن يبذل علماء المسلمين ، في هذا الفن ، جهدهم . . ليوضحوا سر هذه الحقائق التي تحدث عنها المصطفى . . فيكون لهم بذلك فضل السبق في هذا الميدان الذي لم يسبقوا إليه بعد .

مراحل التخليق (تكوين الأعضاء)

إن الأحاديث الواردة في مراحل التخليق كثيرة ، منها ما حدد الأيام التي يدخل فيها الملك ومنها ما لم يحدد.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة والدارقطني .

(٢) انظر فصل التقدير في النطفة من كتاب خلق الانسان بين الطب والقرآن للمؤلف لمزيد من التفصيل .

أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم :

(١) « وكّل الله بالرحم ملكاً يقول أي ربّ نطفة ؟ أي ربّ علقة ؟ أي ربّ مضغة ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ، فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه » . وأخرج الإمام مسلم[1] عن حذيفة بن أسيد رضي اللّه عنه قوله صلى اللّه عليه وسلم.

(٢) « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يا ربّ رزقه ؟ فيقضي ربك ما شاء . . ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص » .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن حذيفة بن أسيد أنه قال صلى الله عليه وسلم :

(٣) « يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول : يا ربّ أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان . فيقول : أي ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص » .

(٤) وفيه أيضاً أن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك فيقول : يا ربّ ذكر أم أنثى ؟

وأخرج اللالكاني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وقد ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم ، وكذلك ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ، قال صلى الله عليه وسلم :

(٥) « إذا مكثت النطفة في رحم المرأة أربعين ليلة جاءها الملك فاختلجها ثم عرج بها الى الرحمن عز وجل فيقول : أخلق يا أحسن الخالقين . فيقضي الله فيها ما يشاء من أمره ، ثم تدفع إلى الملك فيقول : أسقط أم تمام ؟

---

(١) كتاب القدر ، صحيح مسلم .

فيبين له فيقول : يا ربّ واحد أم توأمين ؟ فيبين له، فيقول : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا ربّ : أشقي أم سعيد ؟ فيبيّن له ، ثم يقول: يا ربّ اقطع له رزقه مع أجله فيهبط بها جميعاً . فوالذي نفسي بيده لا ينال من الدنيا إلا ما قسم له » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

(٦) « إذا خلق اللّه النسمة قال ملك الأرحام : أي ربّ ذكر أم أنثى ؟ قال فيقضي اللّه أمره . ثم يقول : أي ربّ شقي أم سعيد ؟ فيقضي اللّه أمره . ثم يكتب ما بين عينيه حتى النكبة ينكبها » أخرجه البزار عن ابن عمر .

(٧) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن جابر رضي اللّه عنه قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استقرت النطفة في الرحم أربعين يوماً أو أربعين ليلة بُعث إليها ملك فيقول : يا ربّ شقي أم سعيد ؟ فيعلم . .

(٨) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « إذا وقعت النطفة في الرحم بعث اللّه ملكاً فقال : يا ربّ مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلقة مجتها الأرحام دماً . . وإن قيل مخلقة قال : أي ربّ شقي أم سعيد ؟ ما الأجل ؟ ما الأثر ؟ وبأي أرض تموت ؟ » . ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ، وذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ، وأخرجه ابن أبي حاتم وغيره .

(٩) وعن أبي ذر رضي اللّه عنه : إن المني يمكث في الرحم أربعين ليلة فيأتيه ملك النفوس فيعرج به إلى الرحمن عز وجل فيقول : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيقضي اللّه عزّ وجل ما هو قاضٍ ثم يقول : يا ربّ أشقي أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاقٍ بين يديه . . ثم تلا أبو ذر من فاتحة سورة التغابن الى قوله : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير** ﴾ . أخرجه ابن أبي حاتم.

(١٠) عن عائشة ، رضي اللّه عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن اللّه إذا أراد أن يخلق الخلق بعث ملكاً فدخل الرحم فيقول : أي ربّ ماذا ؟ فيقول : غلام أو جارية أو ما شاء أن يخلق في الرحم . . فيقول أي

ربّ أشقي أم سعيد ؟ ويقول : أي ربّ ما أجله ؟ فيقول كذا وكذا فيقول : ما خلقه ؟ ما خلائقه ؟ فيقول : كذا وكذا فما من شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم » أخرجه أبو داود في كتاب القدر والبزار في مسنده .

من مجموع الأحاديث الشريفة السابقة نرى ، كما يقول الإمام ابن القيم في « طريق الهجرتين »[1] : إن للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة وإنه يقول يا ربّ هذه نطفة . . هذه علقة . . هذه مضغة في أوقاتها . . فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله . . وهو أعلم بها وبكلام الملك فتعرّفه (أي الملك) في أوقات ؛ أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة ، وهو أول أوقات علم الملك بأنه ولد .

ومما قد مر معنا في فصل المضغة وفصل أطوار الجنين في القرآن وعلم الأجنة[2] عرفنا أن مرحلة تكوين الأعضاء (Organogenesis)هي أهم مرحلة في تكوين الجنين . . وتبدأ هذه الفترة في الأسبوع الرابع وتنتهي في الثامن ، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الأوقات . .

وفي نهاية الأسبوع السادس (٤٢ يوماً) تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين الأعضاء . . وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع حتى الثامن ، فيكون دخول الملك في هذه الفترة تنويهاً بأهميتها وإلا فللملك ملازمة ومراعاة بالنطفة الإنسانية في كافة مراحلها . . نطفة وعلقة ومضغة . . ودخوله هنا لتقسيمها وتصويرها وشق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها . . ثم بعد ذلك يحدد جنس الجنين ، ذكر أم أنثى ، حسب ما يؤمر به فيحول الغدة إلى خصية أو إلى مبيض . . والدليل على ذلك ما يشاهد في السقط حيث لا يمكن تمييز الغدة التناسلية قبل انتهاء الأسبوع السابع وبداية الثامن . . أي إنه لا يمكن تمييزها قبل دخول الملك لتحديد جنس الجنين ، ذكر أم أنثى ، كما يؤمر به من خالقها .

---

(١) طريق الهجرتين صفحة ٧٤ .

(٢) أنظر كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمزيد من التفصيل .

جمع الخلق

أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، حديث عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق ، قال : « إن أحدكم يجمع خلقه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح » .

ويشرح لنا الإمام ابن القيم ما يحدث في هذه الأربعين، كما ينقله عنه الإمام ابن حجر في فتح الباري كتاب القدر . . ثم يذكر ابن حجر كلاماً قريباً من كلام ابن القيم وكذلك يذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم . .

والغريب حقاً أن هؤلاء الأئمة من علماء الإسلام جاؤوا بكلام لم يكن معروفاً في ذلك العهد وقبل أن يعرف علم الأجنة . . وإليك ما قاله هؤلاء الأفذاذ من الرجال :

الإمام ابن القيم[1]

« إن داخل الرحم خشن كالإسفنج . . وجعل فيه قبولاً للمني كطلب الأرض العطشى للماء فجعله طالباً مشتاقاً إليه بالطبع . . فلذلك يمسكه ولا يزلقه بل ينضم عليه لئلا يفسده الهواء . . **فيأذن اللّه لملك الرحم في عقده وطبخه أربعين يوماً وفي تلك الأربعين يجمع خلقه** . . قالوا إن المني إذا اشتمل عليه الرحم ولم يقذفه استدار على نفسه واشتد (مرحلة الكرة الجرثومية في عرف علم الأجنة الحديث) إلى تمام ستة أيام . . فينقط فيه ثلاث نقط في مواضع القلب والدماغ والكبد . ثم يظهر فيما بين تلك النقط خطوط خمسة إلى تمام ثلاثة أيام ، ثم تنفذ الدموية فيه إلى تمام خمسة عشر يوما[2] ، فتتميز

---

(١) كما ينقله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري كتاب القدر جزء ١١ صفحة ٤٨١ المطبعة السلفية .

(٢) أي ٩ + ١٥ = ٢٤ يوماً .

الأعضاء الثلاثة ، ثم تمتد رطوبة الدماغ إلى تمام اثني عشر يوماً ،[1] ثم ينفصل الرأس عن المنكبين بحيث يظهر للحس في أربعة أيام[2] فيكمل أربعين يوماً . . فهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلقه في أربعين يوماً . . وفيه تفصيل ما أجمل » .

كلام الامام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري[3] :

« وقال بعضهم يحتمل أن يكون الملك عند انتهاء الأربعين الأولى يقسم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء بحسب الأعضاء . . أو يقسم بعضها إلى جلد وبعضها إلى لحم وبعضها إلى عظم فيقدر ذلك كله قبل وجوده . . ثم يتهيأ ذلك آخر الأربعين الثانية ويتكامل في الأربعين الثالثة . .

ومال بعض الشراح المتأخرين الى الأخذ بما دل عليه حديث حذيفة بن أسيد من أن التصوير والتخليق يقع في آخر الأربعين حقيقة وليس في حديث ابن مسعود ما يدفعه . . واستند إلى قول بعض الأطباء إن المني إذا حصل في الرحم حصل له زبدة ورغوة في ستة أيام من غير استمداد من الرحم (وهذا ما يقوله علم الأجنة من أن البويضة الملقحة تلبث ستة أيام قبل أن تنغرز وتعلق بجدار الرحم) ، ثم يستمد من الرحم ويبتدىء فيه الخطوط بعد ثلاثة أيام أو نحوها . . ثم في الخامس عشر ينفذ الدم إلى الجميع فيصير علقة (تبدأ الدورة الدموية في الجنين) ، ثم تتميز الأعضاء وتمتد رطوبة الدماغ . . وينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الأصابع تمييزاً يظهر في بعض ويخفى في بعض ، وينتهي ذلك إلى ثلاثين يوماً في الأقل وخمسة وأربعين في الأكثر . . . لكن لا يوجد سقط ذكر قبل ثلاثين ولا أنثى قبل خمسة وأربعين [4] » .

---

(١) أي ٢٤ + ١٢ = ٣٦ يوماً .

(٢) أي ٤ + ٣٦ = ٤٠ يوماً .

(٣) كتاب القدر .

(٤) عجيب جداً أن يتنبه هؤلاء الأقدمون إلى حقيقة لم تعرف إلا في السبعينات من القرن العشرين . . وهي أن تمايز الغدة التناسلية إلى خصية يسبق تمايزها إلى مبيض ولكنهم أخطأوا تحديد المدة . . فلا يمكن تحديد الذكورة قبل الأسبوع السابع .

ويقول ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم .

« وهذا كله مبني على أنه يمكن التخليق في العلقة . . كما قد يستدل على ذلك بحديث حذيفة بن أسيد المتقدم . . وما ذكره الأطباء يدل على أن العلقةتخلق وتخطط وكذلك القوابل من النساء يشهدن بذلك . .

ويقول : « وقد تأول بعضهم على أن الملك يقسم النطفة ، إذا صارت علقة ، إلى أجزاء فيجعل بعضها للجلد وبعضها للحم وبعضها للعظام ، فيقدر ذلك كله قبل وجوده . . وهذا خلاف ظاهر الحديث بل ظاهره أنه يصوّرها ويخلق هذه الأجزاء كلها » . .

مما تقدم من الأحاديث الشريفة ، وشروحها لدى أئمة علماء الحديث ، يتضح لنا أن الجنين يجمع خلقه في أربعين يوماً . . ولكن هناك التباساً ، نتيجة لبعض الروايات ، في حديث عبد الله بن مسعود الذي أخرجه الشيخان ، والذي سنعرض له بشيء من التفصيل . .

ولهذا الحديث الشريف عدة روايات في صحيح البخاري ورواية في صحيح مسلم :

رواية مسلم في باب القدر :

عن عبد الله بن مسعود رضي اللّه عنه قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً . . ثم يكون في (ظرفية) ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وعمله وشقي أو سعيد » .

وقد جاء في صحيح البخاري هذه الروايات :

١) « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً . . ثم (يكون) علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث اللّه إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » (كتاب الأنبياء ج ٤ باب ١) .

٢) « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم يكون

علقة مثله ، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح » كتاب التوحيد .

٣) «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك . . ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وعمله وشقي أم سعيد » .

مما تقدم من روايات الحديث ، الذي رواه الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود ، نجد اختلافاً طفيفاً في ألفاظ الحديث . . وهو ما يتوقع حدوثه لدى رواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، رغم الضبط الشديد والعناية التامة بحفظ الحديث الشريف . . فأحاديث المصطفى ، صلوات الله عليه ، لم يكتب منها مباشرة إلا القليل . . وأما أغلب الأحاديث ، ومنها هذا الحديث ، فقد مضت عشرات السنين قبل أن يُكتب وتناقله الحفظة الثقات جيلاً بعد جيل حتى جيل البخاري رحمهم الله جميعاً في المائة الثانية . . فكتبه الإمام البخاري في صحيحه . .

وهذا الاختلاف الطفيف في الألفاظ يؤدي إلى الاختلاف في الفهم . . فرواية الإمام مسلم والروايتان الأوليان للبخاري لم تذكر النطفة قط . . وإنما ذكرت هذه الروايات أن الخلق يجمع كله في بطن الأم في أربعين يوماً . . ثم يفصّل الحديث ما يحدث في هذه الأربعين . . وهذا بالضبط ما ذهب إليه ابن القيم عندما قال كما ذكرناه عنه قبل قليل : « فيأذن الله لملك الرحم في عقده وطبخه أربعين يوماً . . وفي تلك الأربعين يجمع خلقه » . وبعد أن يذكر تفصيل ما يحدث في هذه الأربعين إلى أن ينفصل الرأس عن المنكبين بحيث يظهر للحس يقول : « فهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلقه في أربعين يوماً . . . . وفيه تفصيل ما أجمل فيه » .

ومعنى : أن فيه تفصيل ما أجمل فيه ، أن مرحلة النطفة والعلقة والمضغة تندرج جميعاً في الأربعين الذي يجمع فيه الخلق . .

وذلك ما يذكره الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (كتاب القدر) عن جماعة من الشراح المتأخرين الذين يرون : « فيكون قوله فيكتب معطوفاً على قوله يجمع . . . وأما قوله ثم يكون علقة مثل ذلك فهو من تمام

الكلام الأول وليس المراد أن الكتابة لا تقع إلا عند انتهاء الأطوار الثلاثة . . فيحمل على أنه من ترتيب الأخبار لا من ترتيب المخبر به ويحتمل أن يكون ذلك من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه » .

وقد ذهب إلى هذا الفهم ابن رجب الحنبلي ، في كتابه « جامع العلوم والحكم » .

ومعنى ذلك أن هناك من السابقين من فهم أن خلق الإنسان يجمع في بطن أمه في أربعين يوماً . . وفي هذه الأربعين تكتمل مراحل نموه نطفة فعلقة فمضغة . .

وهناك منهم من فهم أن خلق الإنسان إنما يتم في مراحل . . وكل مرحلة تستغرق أربعين يوماً . . فالنطفة أربعين يوماً ، والعلقة أربعين ، والمضغة أربعين ، ومجموع ذلك مائة وعشرين يوماً . . ثم يحدث عندئذ نفخ الروح . .

ورأى كثير منهم أن ذلك يخالف الأحاديث الكثيرة التي تحدد دخول الملك في الأربعين ، كما قد مر معنا في حديث حذيفة بن أسيد ، الذي رواه مسلم . . « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه ملكاً فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها » ، وحديثه الآخر الذي جاء فيه : « يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول : يا ربّ أشقي أم سعيد ؟ فيكتبان » . .

وفي صحيح مسلم أيضاً : « إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك فيقول : يا ربّ ذكر أم أنثى ؟ » .

وفي مسند الإمام أحمد : « إذا استقرت النطفة في الرحم أربعين يوماً ، أو أربعين ليلة ، بُعث إليها ملك فيقول : يا ربّ شقي أم سعيد ؟ فيعلم » .

وهناك روايات أخرى ذكرنا بعضاً منها في أول هذا البحث . . وخلاصتها جميعاً أن الملك يدخل في الأربعين فيحدث التخليق للأعضاء المختلفة وللذكورة والأنوثة . . وتكتب الشقاوة والسعادة والرزق والأجل . .

وبما أن فهم رواية ابن مسعود على أساس أن مرحلة النطفة أربعين يوماً ، ومرحلة العلقة أربعين ، ومرحلة المضغة أربعين تناقض هذه الروايات

السابقة جميعاً؛ فقد حاول هؤلاء العلماء التوفيق بين الروايات وبين فهمهم لرواية ابن مسعود ، ومثال ذلك ما قاله الإمام ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن :

« فإن قيل قد ذكرتم أنّ تعلُّق الروح بالجنين إنما يكون بعد الأربعين الثالثة ، وأنّ خلق الجنين يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . . وبيَّنتم أنّ كلام الأطباء لا يناقض ما أخبر به الوحي ، فما تصنعون بحديث حذيفة بن أسيد الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل الملك في النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول : أي ربّ ذكراً أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص » .

قيل نتلقاه بالقبول والتصديق وترك التحريف . . ولا ينافي ما ذكرناه ، إذ غاية ما فيه أن التقدير وقع بعد الأربعين الأولى ، وحديث ابن مسعود يدل على أنه وقع بعد الأربعين الثالثة . . وكلاهما حق قاله الصادق صلى الله عليه وسلم . . وهذا تقدير بعد تقدير . . فالأول تقدير عند انتقال النطفة أول أطوار التخليق . . والتقدير الثاني عند كمال خلقه ونفخ الروح ، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره . . وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره . .

« فإن قيل فما تصنعون بحديثه الآخر الذي رواه مسلم عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها . ثم قال : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما يشاء ، ويكتب الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على أمره ولا ينقص » . وفي لفظ آخر في صحيح مسلم أيضاً : « إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك الذي يخلقها فيقول : « يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ أسوي أم غير سوي ؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوي ، ثم يقول : يا ربّ ما رزقه ؟ وما أجله ؟ وما خلقه ؟ ثم يجعله الله عز وجل شقياً أو سعيداً » .

وقيل نتلقاه أيضاً بالتصديق والقبول وترك التحريف . . وهذا يوافق ما

أجمع عليه الأطباء من أن مبدأ التخليق والتصوير بعد الأربعين . فإن قيل فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث ابن مسعود وهو صريح في أن النطفة : أربعين يوماً نطفة . . ثم أربعين علقة ثم أربعين مضغة . . ومعلوم أن العلقة والمضغة لا صورة فيهما ولا جلد ولا لحم ولا عظم . . والحاجة إلى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة بن أسيد المتقدم . . ولا تنافي بين الحديثين بحمد الله .

« وهنا تصويران : أحدهما تصوير خفي لا يظهر وهو تصوير تقديري كما تصور حين تفصل الثوب أو تنجر الباب : مواضع القطع والفصل فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل ، وكذلك كل من يضع صورة في مادة لا سيَّما مثل هذه الصورة . . ينشىء فيها التصوير والتخليق على التدرج شيئاً بعد شيء لا وهلة واحدة كما يشاهد بالعيان في التخليق الظاهر في البيضة . .

«فههنا أربع مراتب :

أحدهما : تصوير وتخليق علمي لم يخرج إلى الخارج .

الثانية : مبدأ تصوير خفي عجز الحس عن إدراكه .

الثالثة : تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد .

الرابعة : تمام التصوير الذي ليس بعده إلا نفخ الروح .

فالمرتبة الأولى علمية . . والثلاث الأخر خارجية عينية .

وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير . . فالرب تعالى قدَّر مقادير الخلائق تقديراً عاماً قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . . وهنا كتب الشقاوة والسعادة والأعمال والأرزاق والآجال . . والثاني تقدير بعد هذا وهو أخص منه . . وهو التقدير عند القبضتين حين قبض تبارك وتعالى بيمينه وقال : هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى وقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . .

والثالث: تقدير بعد هذا، وهو أخص منه، كما في حديث حذيفة بن أسيد المذكور .

والرابع : تقدير آخر بعد هذا . . وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح كما صرح به الحديث الذي قبله (حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه) .

وهـذا يدل على سعـة علم الرب تبـارك وتعـالى وإحـاطتـه بـالكليـات والجزئيات . .

وكذلك التصوير الثاني مطابق للتصوير العلمي والثالث مطابق للثاني . . والرابع مطابق للثالث . . وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ومطابقـة المقدور للمعلوم . . فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين » .

ولا يكتفي ابن القيم بهـذه المحاولـة الرائعـة في التـوفيق ، بين فهمـه للأحاديث ، مما يدل على سعة علمه وغزارته في مختلف فروع المعرفـة . . ولكنه أيضاً يقوم بنفس المحاولة مرة أخرى، في كتابه طريق الهجرتين ، فيذكر فيه كثيراً من الأحاديث الواردة في الخلق ويحاول أن يوفق بينها وبين حديث عبد الله بن مسعود المتقدم . . (صفحة ٧٢ إلى ٧٦) . . وبما أن كلامه في طريق الهجرتين قريب مما ذكرناه عنه من التبيان في أقسام القـرآن فلا نعيده هنا . .

وقد رأينا أيضاً محاولة ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم كما نقلناه عنه أول الفصل . . وكذلك محاولات الإمام ابن حجـر العسقلاني في فتح الباري ، ومن سعة علمهم وغوصهم وراء الحقائق انهم يأتون بمختلف الآراء وخاصة الإمام ابن حجر . . ولو كانت تعارض رأيه وينقلها إلينا بكل أمانة ودقة . .

ونحن نرى أن الخلق كله يجمع في الأربعين ، وفيها تفصيل ما أجمل كما يقول ابن القيم . . وأن النطفة والعلقة والمضغة والتخليق كلها تكـون في الأربعين . . وقد مر معنا في الفصول السابقة[1] أن النطفة الأمشاج تحتاج إلى ستة أيام قبل أن تعلق ، وفي تلك الفترة تكون مثل الكرة وتسمى الكرة الجرثوميـة . . ويصف هذه المرحلة ابن القيم فيقول : «إن المني إذا اشتمل عليه الرحم ولم يقـذفه استـدار على نفسه واشتد إلى تمام ستة أيام » .

ويصفها الامام ابن حجر بقوله : « إن المني إذا حصل في الرحم حصل له زبدة ورغوة في ستة أيام من غير استمداد من الرحم » .

ونحن نعلم أن البويضة الملقحة تنقسم وتصير مثل التوتة (Morulla) ثم

---

(١) كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن للمؤلف .

مثل الكرة وتسمى الكرة الجرثومية (Blastula) . . كل ذلك من غير استمداد من الرحم وذلك لمدة ستةأيام . .

ثم تعلق في اليوم السابع وتبدأ استمدادها من الرحم . . « ثم تنفذ الدموية فيه إلى تمام خمسة عشر يوماً » ، كما يصفها ابن القيم وابن حجر العسقلاني ، حيث تبدأ الدورة الدموية في الجنين في الأسبوع الثالث والرابع ، كما ذكرناه في فصل العلقة .

« ثم تتميز الأعضاء وتمتد رطوبة الدماغ وينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الأصابع تمييزاً يظهر في بعض ويخفي في بعض وينتهي ذلك إلى ثلاثين يوماً في الأقل وخمسة وأربعين في الأكثر » ، كما يقول ابن حجر وكما يتفق معه في نفس الوصف ابن القيم أيضاً . .

ومن هذا الوصف ذاته نرى أن العلقة قد تحولت إلى مضغة ، وأن المضغة قد بدأ فيها تخليق الأعضاء . . اللحم والجلد والعظام . . وتميزت رطوبة النخاع (أي الجهاز العصبي) وظهرت الأطراف وتميزت الأصابع . . وانفصل الرأس عن المنكبين . .

وكل هذا يحدث في فترة تكوين الأعضاء (Organogenesis) التي تمتد من الأسبوع الرابع وتنتهي في الثامن . .

ولكأن هناك يداً خفيَّة توجه هذه الخلايا من طبقة الأكتودرم لتكون جفناً ، وتلك لتكون قرنية العين الشفافة، وأخرى لتكون عدسة العين المبصرة . . ومجموعة أخرى لتكون خلايا الشبكية الحساسة للضوء . . والتي بها ثمان طبقات من الخلايا تختلف كل طبقة عن الأخرى في الشكل والوظيفة . . بل تختلف خلايا الطبقة الواحدة المتجاورة . . فالخلايا المخروطية (Cones) تختلف عن خلايا العصي (Rods) في الطبقة الواحدة من شبكية العين . .

وكذلك تختلف الخلايا المتجاورة في البنكرياس فهذه تفرز مواد هاضمة للدهنيات . . وتلك تفرز مواد هاضمة للبروتينات وأخرى إلى جوارها تفرز مواد هاضمة للنشويات . وبين هذه الكتل من الخلايا خلايا تعرف بجزر لانجرهان . . وفي هذه الجزر نوعان من الخلايا تفرز إحداها الأنسولين الذي

يحرق السكر ويطلق الطاقة ، وتفرز الأخرى هرموناً آخر (الجلوكاجون) (Glucagon) على النقيض منه يخزن السكر ويحتفظ بالطاقة . .

وهكذا في كل عضو وفي كل نسيج وفي كل خلية آية من آيات ربي . . من يقول لهذه الخلايا الصماء أنتِ ستكونين قلباً ينبض . . وأنتِ ستكونين خلايا في الدماغ تفكر . . وأنتِ ستكونين معدة تهضم . . وهذه المجموعة ستكون رئة تتنفس . . وتلك المجموعة لساناً ينطق .

من يهديها . . من يرشدها . . من يوجهها ؟ . . من غير اللّه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ .

ومع هذا افتح كتاباً في علم الأجنة فستجده يتحدث إليك عن قدرة الخلايا الذاتية العجيبة . . ومهارتها في التشكُّل والتنوع . . ولن تجد كتاباً واحداً يقول لك بصراحة إن الذي يوجهها ويهديها ويرشدها هو اللّه خالقها وبارئها ومصورها . .

لماذا ؟

لأن العلم اصطدم بالكنيسة ، منذ أول ظهوره ، فبقيت العقدة مستعصية على الحل . . ولا بد أن يبقى العلم محايداً ، كما يقولون، يصف الظاهرة ولا يعللها إلا بما يراه . . فإن لم يجد ما يراه قال إن لها توجيهاً ذاتياً . . ولم يزدنا علماً بمن يوجهها هذا التوجيه الذاتي المحض في خلايا لا تدرك ولا تعقل من أمرها شيئاً . .

ويبقى العلم الحديث للأسف محدوداً بالظاهر فقط . . وصدق اللّه العظيم حين يقول : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . . وهم عن الآخرة غافلون** ﴾ .

الإجهاض التلقائي :

١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال : يا ربّ مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً . . وإن قيل مخلقة

قال : أي ربّ شقي أم سعيد ؟ ما الأجل ؟ ما الأثر ؟ وبأي أرض تموت » ؟ .

أخرجه ابن أبي حاتم وذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم . . وذكره ابن كثير وابن جرير الطبري في تفسيريهما .

٢) عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إذا مكثت النطفة في رحم المرأة أربعين ليلة جاءها ملك فاختلجها ثم عرج بها إلى الرحمن عز وجل فيقول : أخلق يا أحسن الخالقين ، فيقضي الله فيها ما يشاء من أمره ثم تدفع إلى الملك ، فيقول : يا ربّ أسقط أم تمام ؟ فيبين له » أخرجه اللالكائي وذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري كتاب القدر .

إن السقط التلقائي (Spontaneous Abortion) يشكل ٧٨ بالمائة من مجموع حالات الحمل بأكملها . . وإن ما يقرب من خمسين بالمائة من حالات الحمل تجهض قبل أن تعلم الأم بأنها حامل . . ذلك لأن الرحم يقذف بالبويضة بعد تلقيحها وبعد انغرازها مباشرة . . وفي بعض الأحيان لا يتم الانغراز (العلوق) أصلاً . . وبما أن العلوق يحدث بعد التلقيح بأسبوع فقط . . فإن الرحم قد يقذف هذه العلقة بعد انغرازها فيه مباشرة . . ويكون ذلك في موعد الحيضة ، فلا تفطن المرأة إلى أنها قد حملت أصلاً . . وقد تتأخر حيضتها بضعة أيام ثم تأتي العادة الشهرية (الطمث) فتظن المرأة أن حيضتها قد تأخرت لأيام فقط . . ولا تفطن إلى وجود الحمل .

ولذا فإن الحديث الشريف يذكر أن السقط التلقائي يحصل قبل التخليق ، كما في الحديث الأول الذي رواه عبد الله بن مسعود وأخرجه ابن أبي حاتم ، وقد يحدث بعد التخليق كما في الحديث الثاني الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص وأخرجه اللالكائي .

ونحن نعلم الآن أن أغلب حالات الإجهاض (السقط) التلقائي تقع قبل التخليق ، وهو المرحلة التي تعرف في علم الأجنّة باسم تكوين الأعضاء

(Organo Genesis) وتبدأ من الأسبوع الرابع منذ التلقيح وتنتهي في الأسبوع الثامن .

« إذا وقعت النطفة في الرحم بعث اللّه ملكاً فقال : يا ربّ مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلقة مجتها الأرحام دماً » .

وهكذا أوضح لنا المصطفى ، صلوات الله عليه ، أن معظم حالات السقط تحدث قبل فترة التخليق الحرجة (Organo Genesis) . . وهذا أمر لم يكتشف إلا حديثاً جداً . .

ولم يعرف أنه يحدث بهذه الكثرة بحيث أنه يشمل ما يقرب من خمسين بالمائة من جميع حالات الحمل إلا في بداية الثمانينات من القرن العشرين[1] .

أَوَلَيْسَ هذا الذي ذكره المصطفى ، صلوات الله عليه ، إعجاز كامل لم نفطن إليه من قبل . . وكم من أسرار في أحاديث المصطفى تمضي دون أن ندرك كنهها ومغزاها حتى يكشف اللّه بعضاً من هذه الأسرار فتبدو هذه الأحاديث النبوية متألقة كالشمس في علاها تمد الإنسانية بالدفء والحياة . .

« ما جعل الله لمسخ من نسل »

أخرجه الامام أحمد في مسنده .

وقد ذكر هذا الحديث شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ ـ البقرة ـ وفي قوله تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون* فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا**

---

(١) تقرير مجلة (Medicine Digest) عدد يناير ١٩٨١ .

لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ الأعراف . وكذلك ذكره ابن كثير في تفسيره . . وذكره غيرهم من المفسرين .

وهم جماعة من يهود كانوا يسكنون في إيلات في خليج العقبة فحرم الله عليهم الصيد يوم السبت ، فكانت تأتيهم الحيتان ظاهرة مشرعة يوم سبتهم ، فإذا كان بقية الأسبوع اختفت . فابتدأ نفر منهم بوضع الشباك لها يوم الجمعة ويمسكونها بها يوم السبت ويأخذونها يوم الأحد تحايلاً على أمر الله، ثم ظهر فيهم هذا الأمر وانقسموا إلى ثلاث طوائف . . طائفة تحايلت على أمر الله ، وطائفة نهت عن المنكر ، وطائفة سكتت . . وكان ابن عباس رضي الله عنه يرى أن الذين نجوا هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فقط . ويرى أن الذين سكتوا وقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً مع الهالكين . . ثم يبكي خشية أن يكون من الذين رأوا المنكر فلم ينهوا عنه وذلك في أيام بني أمية . . فجاءه مولاه عكرمةوأقنعه بأن الذين كرهوا وسكتوا هم الناجون فسر بذلك رضي اللّه عنه .

والطائفة الثالثة مسخها الله قردة وقال مجاهد إن ذلك مسخ معنوي لا صوري ، ولكن أغلب المفسرين خالفوه في ذلك وقالوا بل هو حسي ومعنوي . . وورد عندئذ سؤال : هل لهؤلاء الذين مسخوا قردة من نسل ؟ فكان الجواب ما رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً على سؤال عائشة ، رضي الله عنها ، عن القردة : هل هي ممن مسخ الله من يهود ؟ فقال لها صلى الله عليه وسلم : « ما جعل الله لمسخ من نسل » . .

وفي هذا الحديث الشريف دلالة على أن المسخ لا يتناسل . .

والأجنة التي تولد ممسوخة إما أن تولد ميتة أو تعيش لبضعة أيام ثم تموت . . وإذا كانت الإصابة أخف مثلما يكون في حالة ترنر ، التي لا يوجد فيها إلا كروموسوم (صبغ أو جسيم ملون) واحد للجنس وهو كروموسوم X ، فإن صاحبة هذه الحالة تظهر كأنثى ولكنها لا تحمل ولا تلد مطلقاً . .

وكذلك حالة كلينفلتر (Kleinfelter)حيث يكون كروموسوم الجنس على

هيئة XXY أي يحمل شارتي الأنوثة وشارة واحدة للذكورة فيكون صاحب هذه الحالة ذكراً في الشكل ولكنه بارد الهمة خائر العزيمة تبدو عليه آثار الأنوثة وهو عنين وعقيم .

وجميع حالات المسخ التي ذكرنا بعضاً منها في فصل « بعض العيوب الخلقية »[1] وأوضحناها بالصور الفوتوغرافية لا تعيش إلا بضعة أيام في غالب الأمر أو تنزل ميتة . . مما يؤكد على أنها لا تتناسل .

---

(١) كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن للمؤلف .

الحكمة من تحريم الجماع أثناء الحيض(*)

«اتَّقِ الحيض والدبر».

حديث شريف

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾ .

وأخرج الإمام مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن اليهود كانت إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يجامعوها » فسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصنعون فقال : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح» .

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يباشر نساءه فوق الازار .

وروت أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت مضطجعة مع النبي صلى الله عليه وسلم في خميلة (قطيفة) فحاضت فأنسلت من جانبه فدعاها الرسول الكريم صلوات الله عليه وقال لها : « أنفست أي حضت . فقالت نعم فدناها فاضطجعت معه في الخميلة » . (أخرجه البخاري ومسلم) .

وأخرج البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها كانت ترجل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف في المسجد وهي حائض في بيتها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكىء في حجرها ويقرأ القرآن وهي حائض .

(*) نشر هذا المقال في مجلة الفيصل (الرياض) وبتغيير طفيف في مجلة الفيصل الطبية (الدمام) وأُلقي في المؤتمر الطبي السعودي السادس في الرياض باللغة الانجليزية .

مما تقدم يتبين موقف الإسلام وخاصة أثناء الحيض . . لم يعتبرها الإسلام نجسة كما هو مقرر عند الكثير من الأمم السابقة . . حيث كانوا لا يؤاكلونها ولا يشاربونها . . بل ويعزلونها عزلاً تاماً عن المنزل فلا تلمس شيئاً بيديها حتى لا تنجسه . ففي سفر اللاويين من الأصحاح الخامس عشر من التوراة التي يتعبد بها اليهود والنصارى إلى اليوم ما يلي :

« إذا كانت امرأة ولها سيل . وكان سيلها دماً في لحمها . فسبعة ايام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجساً وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء . وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام . وكل فرش يضطجع عليه يكون نجساً» .

« كل من مسها يكون نجساً ، وان اضطجع معها رجل فهو نجس لمدة سبعة ايام وكل فرش يضطجع عليه يكون نجساً » .

هذا ما يقوله اليهود ويتبعهم في ذلك النصارى لأنهم ملتزمون بالعهد القديم كما يسمونه . .

أما رسول الرحمة . . رسول المحبة رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلوات اللّه عليه فيقبل نساءه في حيضهن ويتودد إليهن ويضطجع معهن في خميلة واحدة . . فإن انسلت إحداهن دعاها إليه وقربها منه ولاطفها وتودد إليها . . بل إنه ليقرأ القرآن وهو على حجر احداهن وهي حائض . . بل إنه ليترك لها شعر رأسه ترجله وهو في المسجد معتكف وهي في بيتها وهي حائض يمد رأسه إليها فترجله , . بل أكثر من ذلك يقول لها إتزري ويباشرها من فوق الإزار .

هل هناك رحمة وشفقة وإكرام وإعزاز للمرأة فوق هذا . . ؟ ! كلا واللّه . . حاضت السيدة عائشة رضي الله عنها وهي بشرف قبيل الحج فبكت فجاء إليها الرسول الكريم الشفيق الرحيم وتودد إليها وقال لها : «لا تحزني إن هذا شيء قد كتبه اللّه على بنات آدم» وافعلي كل شيء في الحج غير أن لا تطوفي بالبيت . . ويقول لها رب العزة : ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾ أذى فقط وليس تنجيساً أو قذراً أو أي لفظ آخر . .

ويخفف عليها الإسلام كثيراً من واجباتها ، أثناء الحيض . . فيسقط

عنها الصلاة ويعفيها من الصوم ويأمرها بالقضاء في أيام أُخر . . ويأمر زوجها بعدم مجامعتها أثناء الحيض لما يسببه ذلك من أذى لها وله . .

المحيض أذى

يقذف الغشاء المبطن للرحم بأكمله أثناء الحيض . . وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء والبيضاء قطعاً من الغشاء المبطن للرحم . . ويكون الرحم متقرحاً نتيجة لذلك . . تماماً كما يكون الجلد مسلوخاً . . فهو معرض بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح . . ومن المعلوم طبياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها . . وتقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك ويصبح القضيب يشكل خطراً داهماً على الرحم . . ومما يزيد الطين بلة أن مقاومة المهبل لغزو البكتريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض . . إذ يقل إفراز المهبل للحامض الذي يقتل الميكروبات . . ويصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل . . كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها . . ليس ذلك فحسب ولكن جدار المهبل المكون من عدة طبقات من الخلايا يرق أثناء الحيض ويصبح جداره رقيقاً ومكوّناً من طبقة رقيقة من الخلايا بدلاً من الطبقات العديدة التي نراها في أوقات الطهر . . وخاصة في وسط الدورة الشهرية حيث يستعد الجسم بأكمله للقاء الزوج . .

لهذا فإن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض ليس إلا إدخال للميكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم . . كما أن وجود الدم في المهبل والرحم يساعد في نمو تلك الميكروبات وتكاثرها .

ومن المعلوم أن على جلد القضيب ميكروبات عديدة . . ولكن المواد المطهرة والإفراز الحامضي للمهبل تقتلها أثناء الطهر . . أما أثناء الحيض فأجهزة الدفاع مشلولة والبيئة الصالحة لتكاثر الميكروبات متوفرة . .

ولا يقتصر الأذى على ما ذكرناه من نمو الميكروبات في الرحم والمهبل مما يسبب التهاب الرحم والمهبل الذي كثيراً ما يزمن ويصعب علاجه . . ولكن يتعداه إلى أشياء أخرى نوجزها فيما يلي :

(١) تمتد الالتهابات إلى قناتي الرحم فتسدها أو تؤثر على شعيراتها الداخلية التي لها دور كبير في دفع البويضة من المبيض إلى الرحم . . وذلك يؤدي إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرحم . . وهو أخطر أنواع الحمل على الإطلاق . . ويكون الحمل عندئذ في قناة الرحم الضيقة ذاتها . . وسرعان ما ينمو الجنين وينهش في جدار القناة الرقيق حتى تنفجر القناة الرحمية ، فتتفجر الدماء أنهاراً إلى أقتاب البطن . . وإن لم تتدارك الأم في الحال بإجراء عملية جراحية سريعة فإنها لا شك تلاقي حتفها .

(٢) يمتد الالتهاب إلى قناة مجرى البول فالمثانة فالحالبين فالكلى . . وأمراض الجهاز البولي خطيرة ومزمنة .

(٣) يصاحب الحيض آلام تختلف في شدتها من امرأة إلى أخرى . . وأكثر النساء يصبن بآلام وأوجاع في أسفل الظهر وأسفل البطن . . وبعض النساء تكون آلامهن فوق الاحتمال مما يستدعي استعمال الأدوية والمسكّنات ، ومنهن من يحتجن إلى زيارة الطبيب من أجل ذلك . .

(٤) تصاب كثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق أثناء الحيض وخاصة عند بدايته . . وتكون المرأة عادة متقلبة المزاج سريعة الاهتياج قليلة الاحتمال . . كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى مستوى لها أثناء الحيض . . ولهذا نهى الرسول عن تطليق المرأة أثناء الحيض .

(٥) تصاب بعض النساء بالصداع النصفي (الشقيقة) قرب بداية الحيض . . وتكون الآلام مبرحة وتصحبها زغللة في الرؤية وقيء .

(٦) تقل الرغبة الجنسية لدى المرأة ، وخاصة عند بداية الطمث . . بل إن كثيراً من النساء يكن عازفات تماماً عن الاتصال الجنسي أثناء الحيض ويملن إلى العزلة والسكينة . . وهو أمر فسيولوجي وطبيعي . . إذ أن فترة الحيض هي فترة نزيف دموي من قعر الرحم (الغشاء المبطن للرحم من الداخل) . . وتكون الأجهزة التناسلية بأكملها في حالة شبه مرضية . فالجماع في هذه الآونة ليس طبيعياً ولا يؤدي أي وظيفة بل على العكس يؤدي إلى كثير من الأذى .

(٧) رغم أن الحيض عملية فسيولوجية (طبيعية) بحتة فإن استمرار فقدان الدم كل شهر يسبب نوعاً من فقر الدم لدى المرأة . . وخاصة إذا كان الحيض شديداً غزيراً في كميته .

(٨) إذا حصل جماع أثناء الحيض فإن ذلك قد يساعد في انتباذ بطانة الرحم وجعلها تنمو في أقتاب البطن Endometeriosis، وذلك يسبب العقم كما يسبب آلاماً مبرحة أثناء نزول الطمث.

(٩) تنخفض درجة حرارة المرأة أثناء الحيض بدرجة مئوية كاملة . . وذلك لأن العمليات الحيوية التي لا تتوقف في الكائن الحي تكون في أدنى مستوى لها أثناء الحيض . . وتسمى هذه العمليات بالأيض أو الاستقلاب . . ونتيجة لذلك يقل إنتاج الطاقة من الجسم كما تقل عمليات التمثيل الغذائي .

(١٠)تصاب الغدد الصماء بالتغير أثناء الحيض فتقل إفرازاتها الحيوية الهامة للجسم إلى أدنى مستوى لها أثناء الحيض .

(١١) نتيجة للعوامل السابقة تنخفض درجة حرارة الجسم ويبطىء النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والفتور والكسل . .

(١٢) الوطء في الحيض لا يمكن مطلقاً أن ينتج حملاً . . ذلك لأن خروج البويضة (التبويض) لا يمكن أن يتم أثناء الحيض . . بل يكون خروج البويضة قبل الحيض بأسبوعين كاملين تقريباً (قد تقل أو تزيد يوماً أو يومين فقط) ، ففترة التلقيح والإخصاب بعيدة كل البعد عن الحيض . . ولذا فلا يمكن أن يؤدي الجماع في الحيض إلى الوظيفة المطلوبة منه . . ولا يمكن انتظار الولد من وطء الحيض مطلقاً[1] .

(١٣) لا يقتصر الأذى على الحائض في وطئها وإنما ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وطأها أيضاً . . فإدخال القضيب إلى المهبل المليء بالدماء يؤدي إلى تكاثر الميكروبات والتهاب قناة مجرى البول لدى الرجل . . وتنمو

---

(١) ليس صحيحاً ما يشاع ان الولد يكون أحولاً نتيجة لوطء الحيض . فوطء الحائض لا يؤدي إلى الولد كما أسلفنا .

الميكروبات السبحية والعنقودية على وجه الخصوص في مثل هذه البيئة الدموية .

وتنتقل الميكروبات من قناة مجرى البول إلى البروستاتا والمثانة . . والتهاب البروستاتا سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة ، والتي نادراً ما يصلها الدواء بكمية كافية لقتل الميكروبات المختفية في تلافيفها . . فإذا ما أزمن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزو بقية الجهاز البولي التناسلي فتنتقل إلى الحالبين ومنه إلى الكلى . . وما أدراك ما التهاب الكلى المزمن . إنه العذاب المستمر . . ولا علاج سوى عملية الديلزة أوزرع الكلي ، وكلاهما محفوف بالمخاطر .

وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالحبل المنوي فالبربخ فالخصيتين . . وقد يسبب ذلك عقماً نتيجة انسداد قناة المني أو التهاب الخصيتين . . كما أن الآلام المبرحة التي يعانيها المريض تفوق ما قد ينتج عن ذلك الالتهاب من عقم . .

هذا موجز للأذى الذي يصيب كلاً من المرأة والرجل إذا خالفا الأوامر الإلهية وقررا الوطء في المحيض . .

وصدق الله العظيم حيث يقول : **﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾** .

فالمحيض أذى للمرأة . . ووطؤها يزيد من هذا الأذى ويجعله يستشري وينتقل إلى الزوج أيضاً .

ومن كان به رغبة وأراد أن يستمتع بزوجته أثناء الحيض فلا بأس أن يفعل بشرط أن يكون فوق الإزار إذا وثق من نفسه أنه لا يتعدى الحدود . . ولذا نبّهت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، لذلك حيث قال : « وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك إربه » . فمن وثق من نفسه فلا بأس ومن خاف أن يقع في الحرام فالأولى البعد . . لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

والاستمتاع بالحائض فوق السرة ودون الركبة مباح بلا خلاف عند الفقهاء ، ولكن الخلاف ينشأ في الاستمتاع فيما دون السرة وفوق الركبة دون الفرج[1] . . وللفقهاء في ذلك ثلاثة أقوال : الأول : أنه حرام ولا دليل عليه إلا سداً للذريعة وبعداً عن الوقوع في الحرام . **والثاني** : مكروه كراهة تنزيهية . وهذا الوجه أقوى من حيث الدليل حيث قال صلى الله عليه وسلم : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » .

والثالث : مشروط بضبط المباشر نفسه . فإن كان يثق من نفسه باجتناب الفرج جاز له . . وإلا فيجتنب المباشرة دون السرة وفوق الركبة حيث لا يأمن الوقوع في الحرام . . وهو الجماع والوطء في الفرج .

وهذا الوجه الأخير استحسنه الإمام النووي .

وما عدا ذلك من المخالطة الشديدة للحائض بل والنوم معها في لحاف واحد فهو جائز شرعاً . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في خميلة واحدة مع زوجاته وهنَّ حيَّض ، وكانت عائشة تغسل رأسه وترجله وهي حائض وهو معتكف في المسجد . . وكان يقرأ القرآن وهو متكيء على حجرها وهي حائض . .

وهكذا تتضح عناية الإسلام بالمرأة حتى وهي حائض . . واهتم الرسول ، صلوات الله عليه ، بتصحيح ما كانت عليه من امتهان وازدراء كما كانت تفعل اليهود . . بل وشنَّع الرسول صلى الله عليه وسلم فعلتهم تلك فقال : « إن اليهود كانت إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يجامعوها » ، ثم علَّم أصحابه رضوان الله عليهم قائلاً لهم : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » رواه مسلم .

---

(١) أما الجماع في الفرج فحرام بالكتاب والسنة . قال الشافعي : من وطيء الحائض وهو عالم بحالتها ، عالم بالتحريم غير جاهل فقد أتى كبيرة . وقال العلماء من استحل وطء الحائض حكم بكفره لأنه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، واختلف في كفارة من وطأ حائضاً ، فقيل يتصدق بدينار إن كان في أول الحيض وبنصف دينار إن كان في آخره ، وقيل كفارته التوبة والاستغفار .

ولم يكتفِ بذلك ولكنه قام عملياً بتنفيذ هذا الدرس الذي ألقاه عليهم . . ونقلت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ذلك إلى المؤمنين كافة على مدى الأزمان والأجيال ليعرفوا كيف كان الرسول يرفق بهن في كل وقت وحين ، ويزداد رفقه وشفقته أثناء الحيض ، فكان يداعبهن ويقبلهن بل وينام معهن في لحاف واحد وخميلة واحدة . . بل كان أكثر من ذلك يأمر إحداهن أن تتزر فيباشرها فوق الإزار . . وفي نفس الوقت يعلم أمّته أن وطء الحائض أذى . . أذى للحائض وأذى لزوجها . . حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه الأمم المعاصرة حيث يطؤون الحائض .

وبين التفريط والإفراط تضيع المرأة وكرامتها وصحتها . . ويبقى الإسلام وحده على الجادة في وسط الطريق . . لا يلغي الفطرة ولا الغرائز ولكنه يهذّبها ويرتفع بها . . ويوجهها وجهتها السليمة . . يأمرهم باعتزال النساء في المحيض . . حتى يطهرن ﴿**فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين**﴾ .

الرعاية الصحية للطفولة والأمومة في الإسلام(*)

لا تبدأ رعاية الطفولة في الإسلام منذ لحظة الولادة بل ولا حتى لحظة تلقيح البويضة بالحيوان المنوي حينما تتكون النطفة الامشاج (ZYGOTE) ثم تمر بعد ذلك في المراحل المتلاحقة من علقة ومضغة وعظم ولحم وتصوير في الأرحام وتطور خلق من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، لكن هذه الرعاية تبدأ منذ لحظة التفكير في الزواج .

فقد حث الإسلام على البحث عن ذات الدين أولاً ، فإن اجتمع للمرأة بعد ذلك الجمال فهو من كمال السعادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ولا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن . . ولا تزوجوهن لأموالهن لعسى أموالهن أن تطغيهن . . ولكن تزوجوهن على الدين » أخرجه ابن ماجه والقزويني .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» أخرجه ابن ماجه والديلمي في الفردوس .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدارقطني .

وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ .

(*) نشر هذا المقال في مجلة الفيصل الطبية العدد١٣ ، صفر - ربيع الثاني ١٤٠٦هـ ، ص١٦ - ٢٠ .

ولـذا حث الإسلام على اختيـار الزوجـة الصالحـة . . واختيار الـزوج الصالح . . وكلمة الصالح تشمل الدين والخلق والصحة النفسية والجسدية.

وقد صرحت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهمية الوراثة ، كما جاء في حديث : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . . وكما ورد في حديث عمر بن الخطاب (وهو لا يصح رفعه) « اغتربوا لا تضووا»[1] ولا تزوجوا القرابة القريبة » .

ومعناه أن يبتعد المرء قدر الإمكان عن الزواج بالقرابة القريبة ، مثل بنت العم أو بنت الخـال ، وأن الابتعاد في الـزواج أحـرى بـأن لا يجعـل النسـل ضعيفاً .

وهذه الحقيقة يقررها الطب حيث تذكر المراجع الطبيـة أن الزواج بين الأقـارب من الدرجـة الثانيـة مثل أولاد العم والعمـة والخال والخـالـة يـظهـر الأمراض النادرة المتنحية ويزيده في المجتمع زيادة كبيرة جداً .

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نصح من يريد الزواج بأن ينظر إلى من يريد منها الزواج . فقد روى مسلم والنسائي قوله لمن أراد الـزواج : «هل نظرت إليها ؟ قال : لا . قال : فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا خطب أحدكم امرأة فإن استـطاع أن ينظر منها ما يدعوه لنكاحها فليفعل ». رواه أبو داود .

وإن من هذه المبادىء العامة التي وضعها الإسلام ما يدعـو إليه الـطب الحديث من إجراء فحص طبي لمن يريد الزواج للذكر والأنثى على السواء . . وإجراء ما يسمى بالاستشارة الوراثية (Councelling Genetic) لمن لدى أسرهم وأقـاربهم نوع من الأمـراض الوراثيـة حتى يتبين مدى احتمـال الإصـابـة بين المخطوبين إذا هما تزوجا وأنجبا . .

ولا شك أن الإسلام قد سبق الطب في ذلك بأربعة عشر قرناً . .

---

(١) لا تضووا أي لا يضعف نسلكم .

ثم تأتي حماية الجنين بحماية أبوية من الأمراض التناسلية التي كثيراً ما تصيب الأجنّة فتسبب تشوهها أو قتلها . . مثل الزهري والهربس وغيرها من الأمراض التناسلية ، حيث تبلغ الإصابة في الأجنّة درجة عالية وخطيرة . . ولا يكاد ينجو منها إلا ما ندر (تبلغ الإصابة في الهربس ٩٠٪ إذا كانت الأم مصابة بهذا المرض) .

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الزنا حيث قال عز من قائل : ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ ووصف المؤمنين بأنهم لا يزنون . .

وقال : ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين**﴾ .

والأمراض الجنسية التي يمكن أن تصيب الحامل كثيرة جداً ، مثل الزهري والسيلان والتهاب مجرى البول من غير السيلان (الكلاميديا) والإيدز . . والهربس والقرحة الرخوة والالتهاب المغبني الحبيبي وغيرها من الأمراض العديدة والتي تصيب بدرجة كبيرة الجنين وتشوّهه .

ولا شك أن حماية الجنين والحامل تتطلب البعد عن هذا الطريق المنتن القذر للزوجين معاً . . فإن الزوج إذا أصيب أصاب زوجته ونقل ذلك إلى ذريته .

ثم تتطلب رعاية الحامل ، بالإضافة إلى الغذاء الجيد المحتوي على العناصر المتكافئة من المواد البروتينية والنشوية والدهنية مع الأملاح والفيتامينات ، رعاية أهم من رعاية الغذاء وهي الرعاية النفسية حيث تحتاج الحامل إلى هذه الرعاية من زوجها ومن حولها . .

وفي الحمل ينقلب كيان المرأة الجسدي والنفسي . . ويبدأ الحمل بالغثيان والقيء ، وكثيراً ما يكون ذلك شديداً في أشهر الحمل الأولى . . وفي الحمل يسحب الجنين كل ما يحتاجه من غذاء وحديد وكالسيوم وفيتامينات وغيرها من المواد الهامة من أمه عبر المشيمة حتى لو تركها شبحاً . . ويقول مجموعة من أساتذة طب النساء والولادة في كتاب الحمل والولادة : « والطفل يعتبر كالنبات الطفيلي الذي يستمد كل ما يحتاجه من الشجرة التي يتعلق بها ؛

فهو يعيش ويأخذ غذاءه من الأم كاملاً مهما كانت حالتها أو ظروفها حتى لو تركها شبحاً» .

ويقول نفس المصدر : « وتحتاج الحامل إلى عناية شديدة من المحيطين بها ، في هذه الفترة بالذات ، إذ تكون أكثر حساسية من أي فترة مضت ، سريعة التأثر والانفعال والميل إلى الهموم والحزن لأتفه سبب . . وذلك بسبب التغيير الفسيولوجي في كل أجزاء الجسم ، لذا يجب أن تحاط بجو من الحنان والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلى تأثرها وانفعالها » . وهذا يعني ببساطة أن تبقى في البيت أثناء فترة الحمل والولادة والرضاعة ، إذ أن خروجها إلى العمل يعرضها لمخاطر نفسية وجسدية جمة ، كما يعرض وليدها الصغير لحرمانه من الرضاعة كما سيأتي .

وقد حرص الإسلام على رعاية المرأة في جميع أحوالها ، والرسول الكريم يقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» .

واللّه سبحانه وتعالى يصف الحمل وما فيه من مشقة وتعب وكبد ﴿ **حملته أمه وهناً على وهن** ﴾ ويقول تعالى : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾ .

المخاض « الوضع»

ولا شك أن الولادة أيضاً شاقة قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ أي مشقة ومشاقة وقال : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾ .

وقد ذكر القرآن الكريم أهمية الراحة النفسية في حالات الولادة ، كما نوّه بأهمية الشرب والأكل آنذاك وخاصة من الرطب . قال تعالى في سورة مريم : ﴿**فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترينَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّاً** ﴾ . هكذا أمر الله سبحانه وتعالى مريم على لسان الملك جبريل ألا تحزن وأن تهدأ بالاً وتقر نفساً .

ثم أمرها أن تأكل من الرطب الجني ، وأن تشرب من ذلك الماء الجاري تحتها . ولقد أظهرت العلوم الحديثة أن للرطب فوائد عديدة في حالة المخاض . . منها أن الرطب يحتوي على مادة البتوسين (Pitocin) التي تزيد من انقباضات عضلات الرحم مما يساعد على تمام الولادة ومنع النزيف بعدها . . ولولا انقباضات الرحم الشديدة بعد الولادة مباشرة لتفجرت الدماء ولنزفت النفساء حتى الموت . . والرطب يساعد على منع ذلك مساعدة قوية[1] .

ويحوي الرطب أنواعاً من السكر مثل الفركتوز والجلوكوز السهل الهضم ، كما يحتوي البروتين والمعادن فإذا أخذتها المرأة في المخاض كان ذلك من أحسن الأغذية لها ؛ ذلك لأن عملية الولادة عملية شاقة وتستهلك كمية كبيرة من الطاقة . . والرطب يوفر ذلك كله بصورة جاهزة للامتصاص خاصة مع شرب الماء .

وفي الرطب أيضاً مواد مسهلة تنظف الأمعاء من محتوياتها . . ذلك مما يساعد على الولادة الميسرة ، لأن الأمعاء الغليظة الممتلئة بالنفايات تعيق حركة الرحم وانقباضه . ولذا يحرص الأطباء والقابلات على إعطاء الأم ، عند بداية المخاض ، حقنة شرجية لتنظيف المستقيم والأمعاء الغليظة . وشرب السوائل أيضاً مهم في الولادة . . وقد حوت هذه الآية توجيهات عظيمة لمن كانت في حالة المخاض ؛ حيث أمرها بعدم الحزن والرضا وهذا من أهم عوامل تيسير الولادة . . ثم أمرها بالأكل والشرب وخاصة من الرطب الجني ، وكل ذلك مما ييسر الولادة .

وقد جعل الله للمولود حقوقاً كثيرة نجملها فيما يلي :

١ ـ حقه في الرضاعة :

قال تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وفصاله في عامين** ﴾ .

---

(١) انظر كتاب «مع الطب في القرآن» لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز، وكتاب «الأدوية في القرآن الكريم» لمحمد هاشم.

وقد قرر الإسلام حق الطفل في الرضاعة ، كما قرر حق والدته في إرضاعه والنفقة أثناء الرضاعة وإعطائها أجرة رضاعتها لابنها . . وجعل كل ذلك على الزوج . وجعل للأم نفقة كاملة أثناء الحمل والرضاعة حتى مع حصول الطلاق والفرقة ، وهذا ما عجزت عنه المنظمات الدولية وهيئة الصحة العالمية وحقوق الإنسان ورعاية الطفولة .

قال تعالى : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن** ﴾ . . وقد ذكر ابن حزم في المحلى ج ١٠/ ٢٣٥ وجوب إرضاع الأم لولدها أحبت أم كرهت ولو أنها بنت الخليفة ، وتجبر على ذلك إلا أن يكون لها عذر من مرض أو طلاق . فإن كانت مطلقة لم تجبر على ذلك إلا أن تشاء هي ذلك . . فإذا أرادت إرضاع طفلها كان لها ذلك . وفوائد الرضاعة متعددة للأم والطفل وتحتاج منا إلى عدة صفحات لتوضيحها ونجملها فيما يلي :

أ) لبن الأم معقم جاهز بينما الألبان المحضَّرة غير معقمة ، وقد أوردت منظمة الصحة العالمية في تقريرها أن الألبان المجففة الصناعية تؤدي إلى وفاة عشرة ملايين طفل في كل عام في العالم الثالث .

ب) لبن الأم مركَّب على هيئة تفي بحاجات الوليد الإنساني ، ويتغير تركيبه يوماً بعد يوم على حسب حالة الطفل ودرجة نموه .

جـ) اللبا وهو الإفراز الذي يخرج من الثدي بعد الولادة مباشرة به مواد المناعة ضد الأمراض .

د) نمو الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم أسرع وأفضل من نمو الأطفال الذين يرضعون القارورة .

هـ) أما الحالة النفسية ، فتذكر منظمة الصحة العالمية أن كثيراً من اضطرابات الأطفال والشباب النفسية وموجات الإجرام مردها إلى عدم إرضاع الأطفال في كثير من الأحيان . وأما الفوائد التي تعود على الأم فهي أن الرضاعة في حد ذاتها تزيد من إفراز هرمون الأوكسيتوسن الذي يجعل الرحم يعود إلى

وضعه الطبيعي فيمنع النزف وحمى النفاس بذلك .

كما أن فائدة الرضاعة للأم نفسها كبيرة جداً . . والرضاعة أحد موانع الحمل الطبيعية وتزيد الرضاعة من شهية الأم للطعام .

٢) حق المولود في التسمية حيث ينبغي أن يسمى اسماً حسناً .

٣) حقه في أن يعقّ عنه ، وأن يماط الأذى عنه .

٤) حقه في الرعاية الكاملة .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « الغلام يعقّ عنه يوم السابع ويسمّى ويماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنوات أدِّب ، فإذا بلغ سبع سنين عُزِلَ فراشه ، فإذا بلغ عشر ضرب على الصلاة» .

وقد وضع ابن القيم رحمه الله كتاباً سماه تحفة المودود في أحكام المولود ، وجعله في سبعة عشر باباً . الباب الأول في استحباب طلب الاولاد ، والباب الثاني في كراهة تسخط ما وهب الله له البنات .

ثم ذكر الأحاديث الواردة في استحباب الأذان والإقامة في أذنيه واستحباب تحنيكه والعقيقة وتسميته والختان وأحكامه ، وتقبيل الأطفال وملاعبتهم ومداعبتهم والعدل بينهم وتربيتهم .

هذا موجز شديد عن بعض ما جاء في الإسلام من رعاية الطفل من قبل أن يتكون وأثناء حمله ثم رضاعته ونشأته .

أهم الكتب التي ألّفها المسلمون المتعلقة برعاية الأم والطفل

لقد أفردت كتب كثيرة في الإسلام لرعاية الأم والطفل أثناء الحمل والولادة قبل أن يعرف الغرب ذلك بقرون طويلة . . وأشهر هذه الكتب وأهمها كتاب ابن القيم « تحفة المودود في أحكام المولود» ، وكتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان » للطبيب أحمد بن محمد البلدي العراقي ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري (أي قبل أكثر من ألف عام) وقد حقق هذا الكتاب ونشره الدكتور محمود الحاج قاسم .

وألّف ابن الجزار القيرواني (٢٨٥ ـ ٣٧٧هـ) كتاب سياسة الصبيان

وتدبيرهم . . وألف شيخ الأطباء أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١ - ٣١١هـ) رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم ، كما وضع في كتابه الموسوعي في الطب « الحاوي» فصولاً عن الحمل والولادة والرضاعة وطب الأطفال ، وكذلك جعل المقالة الرابعة من كتابه « المنصوري» في تدبير الأطفال ، وهو أول من فرق بين الحصبة والجدري .

وقد ألّف الشيخ أبو علي الحسين بن علي بن سينا ، المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، أعظم أطباء المسلمين قاطبة ، كتابه المشهور « القانون في الطب» وجعل فيه فصولاً عن الحمل والولادة والرضاعة ، ثم جمع ذلك في أرجوزة شعرية من ١٣٢٦ بيت خصص منها أربعين بيتاً للأم والطفل وجعلها في تدبير الطفل في بطن أمه ، ثم تدبير المخاض ، ثم اختيار المرضع (الظئر) ثم تدبير الطفل في خاصته .

وقد ألّف الطبيب أحمد بن محمد الطبري (٣٢٠ - ٣٦٩هـ) كتابه الذي سماه المعالجات البقراطية نسبة إلى أبي قراط اليوناني ، وقد جعل قسماً وافراً من كتابه للحمل والولادة وتدبير الأطفال .

وألّف ثابت بن قرة ، المتوفى سنة ٢٨٨هـ ، مقالة في صفة كون الجنين ، ورسالة في الجدري والحصبة .

وألّف علي بن سهل الطبري ، الذي عاش في القرن الثاني والثالث الهجري (١٦٤ - ٢٣٦ هـ) كتابه فردوس الحكمة ، وخصص منه فصولاً للحمل والولادة والرضاعة وطب الأطفال .

وألّف حنين بن إسحاق ، (١٩٤ - ٢٦٠ هـ) ، «كتاب المولودين » ، ومقالة في كون الجنين وكتاب في اللبن والمولود لسبعة أشهر .

وكتب يوحنا بن ماسويه (١٦١ - ٢٣٤ هـ)[1] مقالة في الجنين . . وتعتبر هذه أول رسالة مستقلة في علم الأجنّة باللغة العربية .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن وفاته كانت سنة ٢٤٣هـ - ٨٥٧م .

وكتب عريب بن سعد ، الكاتب القرطبي ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري في عهد المستنصر بالله الحكم الثاني الأموي الأندلسي ، كتابه (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين) .

وخصص علي بن العباس المجوسي (القرن الرابع الهجري) فصولاً من كتابه المشهور كامل الصناعة الطبية للحمل والولادة وطب الأطفال .

وألّف ابن زهر (أبو مروان عبد الملك)[1] الأندلسي كتابه الأغذية ، وجعل فيه فصلين أحدهما بعنوان : ذكر ما يحفظ الأجنة في الأجواف ، والثاني القول في تدبير الطفل واهتم فيه بتغذية الحامل والمرضع والطفل.

وقد استعرض الدكتور محمود الحاج قاسم في كتابه « الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم» وكتابه «الطب عند العرب والمسلمين» مساهمة الأطباء العرب المسلمين في طب الأطفال. . واستقصى ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وفي كل كتب الفقه والدين تجد فصولاً إضافية عن الحمل والولادة والرضاعة وتربية الأطفال .

---

(١) ولد سنة ١٠٩٤م . وتوفي سنة ١١٦٢م . مولده في أشبيليه بالأندلس وكان صديقاً لابن رشد.

هل للمرأة دور في جنس الجنين(*)؟

«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنث بإذن الله».

الحديث.. أخرجه مسلم في صحيحه

من الذي سيحدد نوع الجنين وجنسه ذكراً أم أنثى ؟

سؤال قديم اختلفت الإجابات حوله .. وجاء القرآن الكريم بفصل الخطاب ، ولا غرابة فإن الذي خلق أعلم بخلقه ﴿ **ألا يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبير**﴾ . فإذا تحدث المولى عن ذلك فهو حديث اللطيف الخبير العليم بكل شيء .. والذي أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة ، وكل رطب ويابس ، وكل ذرة وكل حركة وسكون .. وكل همسة ونأمة .. وكل خاطرة وفكرة ﴿ **يَعلَمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدورُ**﴾ .

يقول المولى عزّ وجلّ في سورة القيامة :

﴿ **أيحسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً * ألم يَكُ نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثم كان علقة فخلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنه (أي المني) الزوجَيْنِ الذكَر والأنثى * أليسَ ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى**﴾ .

ويكون الجواب الوحيد على هذا السؤال : بلى إنه قادر على كل شيء قدير . كما يقول تعالى في سورة النجم : ﴿ **وإنه خَلَقَ الزوجين الذَّكَرَ والأنثى * من نُطْفَةٍ إذا تُمنَىٰ**﴾ .

والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل .. هي الحيوان المنوي كما نسميه اليوم باصطلاح العلم الحديث .

إن كل خلية في جسم الإنسان تحتوي على ثلاثة وعشرين زوجاً من

(*) نشر هذا المقال في المجلة العربية (الرياض).

الجسيمات الملوّنة ، وإن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن صفة الشخص وجنسه : ذكراً أم أنثى .

كل خلية من خلايا الجسم تنبئك بذلك . . فخلايا الرجل تحتوي على الجسيمات الملوّنة YX بينما خلايا المرأة تحتوي على الجسيمات الملوّنة XX . فإذا انقسمت خلايا الخصية انقساماً اختزالياً فإن ناتج هذا الانقسام هو خلايا، أو حيوانات منوية، تحتوي على X فقط أو Y فقط، أي أن هذه الحيوانات المنوية إما أن تكون حيوانات منوية مذكرة Y أو حيوانات منوية مؤنثة X . فالحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة X . . وقد استطاع العلماء ان يفرقوا بينهما في الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما في الحقيقة والمخبر .

انظر إلى الصورة المنشورة رقم (١) ترى للحيوان المنوي المذكور وميضاً ولمعاناً في رأسه بينما الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة يفقد ذلك اللمعان والنور . .

ليس هذا فحسب ، ولكن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة أسرع حركة وأقوى شكيمة في الغالب من زميله الذي يحمل شارة الأنوثة . .

فالحيوان المنوي المذكر يسير حثيثاً وينطلق كالصاروخ حتى يصل إلى موقع البويضة في ست ساعات تقريباً فإن وجد البويضة جاهزة للتلقيح لقحها بأمر الله وإلا فيبقى ساعات ثم يموت كمداً وحسرة .

وأما الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة فيسير بطيئاً في الغالب ولا يصل إلى موضع البويضة إلا بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة . . وربما وصل في أربع وعشرين ساعة . فإذا وصل إلى موضع البويضة فإن وجد الرجال قد سبقوه إليها مات حسرةً وكمداً على جدارها . . وإن وجدها تخلفت عنهم ونزلت متباطئة بعد قدومهم ووفاتهم فإن الفرصة تكون سانحة له بتلقيحها . .

وهناك أبحاث تدل على أن تقلصات الرحم هي المسؤولة بالدرجة الأولى عند شفط وسحب السائل المنوي المختلط بماء المرأة عند عنق الرحم إلى داخل الرحم ، ولذا فإن سرعة الحيوانات المنوية المذكرة والتي قيست في المخبر ، تصبح قليلة الجدوى في سبق الوصول إلى قناة الرحم . . إذ

وجد أن الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة ، بل والميتة ، تصل في وقت واحد تقريباً إلى قناه الرحم ، ولكن عوامل الحركة تفعل فعلها الذي لم يعرف بعد على وجه الدقة حينما تقترب الحيوانات المنوية من البويضة . . فتخترق التاج المشع (Corona Radiata) ، أما البويضة فتحمل دائماً شارة الأنوثة ـ X .

فإذا أراد الله ولقح البويضة حيوان منوي يحمل شارة الذكورة فإن النطفة الأمشاج تحتوي على ٤٦ صبغياً على هيئة ثلاث وعشرين زوجاً منها زوج واحد على هيئة X و Y .

أما إذا قدر الله ولقح البويضة حيوان منوي يحمل شارة الأنوثة فإن النتيجة هي نطفة أمشاج (بويضة ملقحة) تحمل شارة الأنوثة فقط XX .

وبما أن الأم (البويضة) تعطي دائماً شارة الأنوثة فإن الحيوان المنوي هو الوحيد الذي يحدد بإرادة الله نوع الجنين ذكراً أم أنثى ؛ إذ أنه يحمل شارة الذكورة أو يحمل شارة الأنوثة . . فإذا لقح الحيوان المنوي المذكر البويضة كان الجنين ذكراً بإذن الله . أما إذا لقح البويضة حيوان منوي يحمل شارة الأنوثة فإن نتيجة الحمل أنثى بإذن الله .

وتبقى الآية بعد ذلك كله إعجازاً علمياً كاملاً :

﴿ وأنه خَلَقَ الزوجَيْنِ الذكَرَ والأنثى * من نطفة إذا تُمْنَى ﴾ .

فالنطفة التي تمنى زوجان: حيوان منوي مذكر وحيوان منوي مؤنث . . والنطفة التي تمنى تقرر نوعية الجنين وجنسه . . وصدق الله العظيم . .

هل للمرأة دور في تحديد الذكورة والأنوثة :

لقد قررت الآيات الكريمة السابقة أن الذي يحدد ذكورة الجنين أو أنوثته هو الله سبحانه وتعالى بواسطة النطفة التي تمنى **﴿ وأنه خَلَقَ الزوجَيْنِ الذكَرَ والأنثى * من نطفة اذا تمنى﴾** .

ويبدو أن ليس للمرأة دور واضح في تحديد الذكورة والأنوثة . . ولكن الحديث النبوي الشريف ، الذي أخرجه مسلم في صحيحه ، يقول : إن للمرأة دوراً في ذلك حيث يقول صلى الله عليه وسلم لليهودي الذي سأله عن الولد : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني

صورة رقم (١)

حيوانات منوية تحمل شارة الذكورة وفي وسط رأسها مادة مشعّة لمّاعة بيضاء بينما الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الأنوثة لا تحمل ذلك اللمعان

صورة رقم (٢)

صورة توضح خلية ذكر تحتوي على ٤٦ جسيماً ملوناً على هيئة ثلاث وعشرين زوجاً منها واحد على هيئة Y و Xأما الجسم الملوّن Yفهو قصير وبه لمعان ظاهر . . وأما الجسم Xفهو طويل وكبير الحجم ولكنه لا يحمل أي لمعان .

المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنث بإذن الله » قال اليهودي : صدقت وإنك لنبي .

وتضمن الحديث عدة قضايا : أولها صفة ماء الرجل وهو أبيض وصفة ماء المرأة وهو أصفر . . . والتعبير عن ماء الرجل بالمني معروف وشائع . . أما التعبير عن ماء المرأة بالمني فغير شائع . . ويقول ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٤٣) « لمني الرجل خاصة الغلظ والبياض والخروج بدفق ودفع . فإن أراد من نفى مني المرأة انتفاء ذلك عنها أصاب . . ومني المرأة خاصيته الرقة والسيلان بغير دفع ، فإن نفى ذلك عنها أخطأ» .

والقضية الثانية : « هي إذا علا ماء الرجل أذكر بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة أنث بإذن الله» .

ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حمضية بينما إفرازات عنق الرحم قلوية ، كما نعلم أن إفرازات عنق الرحم تكون ثخينة ولزجة في غير وقت الإبياض . . أما عند خروج البويضة من المبيض فإن هذه الإفرازات ترق

وتخف لزوجتها لتسمح للحيوانات المنوية بالولوج بسهولة . .

ونحن إلى الآن لا نعلم دور هذه الإفرازات في تشجيع الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة أو الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة . .

ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث لتحديد دور هذه الإفرازات في تحديد الذكورة والأنوثة . . وذلك بواسطة تأثيرها على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة[1] .

ونحن نقول مع ابن القيم (التبيان في أقسام القرآن) : « ومع هذا كله فهذا جزء سلبي وليس بموجب . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب . . وقد يترتب عليه ضد مقتضاه ، ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزاً لقدرته ، وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله : (أذكر وأنث بإذن الله) وقد قال تعالى : ﴿ **لله مُلكُ السمواتِ والأرض يخلق ما يشاءُ يَهَبُ لمن يَشَاءُ إناثاً وَيَهَبُ لمن يشاء الذكورَ أو يزوجُهُم ذُكراناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يَشَاءُ عقيماً إنه عليمٌ قديرٌ**﴾ فأخبرسبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته ، وأنه قد يهب الذكور فقط والإناث فقط ، وقد يجمع للوالدين بين النوعين معاً ، وقد يخليهما عنهما معاً ، إن ذلك راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته» .

---

(١) ظهرت أبحاث حول تأثير درجة حموضة سائل المهبل على الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكرة . وتلك التي تحمل شارة الأنوثة . وقد وجد الباحثون أن الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكورة Y تميل الى المحلول القاعدي بينما تميل الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الأنوثة الى المحلول الحامضي . . ويمكن في المختبر فصل الحيوانات المنوية المذكرة عن المؤنثة بهذه الطريقة بحيث تصل الى نسبة تركيز ٧٠ بالمئة حيوانات منوية مذكرة و٣٠ بالمئة حيوانات منوية مؤنثة . وكذلك أوضحت الأبحاث الحديثة أن وجود هرمون الأنوثة الأستراديول (في المهبل أو في المختبر) يزيد من نشاط وحركة الحيوانات التي تحمل شارة الذكورة . . ويمكن في المختبر أيضاً استخدام وسيلة الترسيب والطرد من المركز Centrifugation ويؤدي ذلك الى فصل الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكورة عن تلك التي تحمل شارة الأنوثة ، وقد ذكرنا ذلك كله بشيء من التفصيل في كتابنا طفل الأنبوب والتلقيح الاصطناعي (دار العلم - جدة) ص ٨٦ - ٩١ .

العلم الحديث يكشف سراً من أسرار الطواف

يبدأ الطواف من الحجر الأسود فإن استطاع الطائف بالبيت أن يقبِّله قبَّله وإلا أشار إليه وهو يقول بسم الله ، الله أكبر ، ثم يجعل البيت على يساره فيطوف سبعة اشواط . قال الإمام القاضي الفيلسوف الطبيب أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المشهور (بابن رشد الحفيد) في بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو يصف كيفية الطواف .

« والجمهور يجمعون على أن صفة كل طواف ، واجباً كان أو غير واجب ، أن يبتدىء من الحجر الأسود ، فإن استطاع أن يقبِّله قبَّله أو يلمسه بيده ويقبلها إن أمكن (أي اللمس) ، ثم يجعل البيت على يساره ويمضي على يمينه فيطوف سبعة أشواط ، يرمل في الثلاثة الأولى ، ثم يمشي في الأربع ، وذلك في طواف القدوم على مكة ، وذلك للحاج والمعتمر دون المتمتع وأنه لا رمل على النساء . . . ويستلم الركن اليماني وهو الذي على قطر الركن الأسود لثبوت هذه الصفة من فعله صلى الله عليه وسلم» .

وبهذه المناسبة نقول لأولئك الذين يمنعون الطائفين من استلام الركن اليماني أنهم قد أخطأوا ، فليس في ذلك بدعة بل هو مشروع . . وقد ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . . وأن كثيراً من هؤلاء الذين يدفعون الناس عن البيت والتزامه لا يعدون أن يكونوا جهلة أغماراً .

وصفة الطواف هذه بجعل البيت عن يسار الطائف ، وبابتدائه من الحجر

(*) نشر هذا المقال في مجلة المجتمع (الكويت) وصحيفة المدينة (جدة) وباللغة الانجليزية في صحيفة (سعودي جازيت) ، جدة .

الأسود ، إنما هي حركة دائرية تسمى « ضد عقارب الساعة» .
(Anti Clockwise) هكذا :

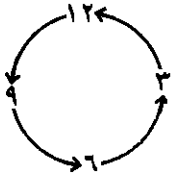

لأن حركة عقارب الساعة عكس ذلك
(Clockwise Rotation) هكذا :

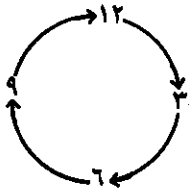

وإذا نظرنا إلى الكون بأكمله وجدناه في حركة دائرية أو إهليليجية لا تتوقف . . . وأن هذه الحركة هي على هيئة الطواف .

فالأليكترونات ، في مداراتها حول النواة ، تدور بنفس حركة الطواف حول البيت ؛ أي حركة ضد عقارب الساعة ، فإذا ارتفعنا من الأليكترونات وجدنا البويضة في لحظة التلقيح ، والحيوانات المنوية محيطة بها وقبل أن تختار يد القدرة الإلٰهية واحداً منها ليلقحها ، نجد البويضة تدور نفس تلك الدورة العجيبة المشابهة لحركة الطائف بالبيت ؛ أي أننا نجد عند تكوّن النطفة الأمشاج (المختلطة من نطفة الذكر ونطفة الأنثى) . . . وهي بداية تكوّن الإنسان . . تلك الحركة الدائرية العجيبة التي تجعل مركز الدائرة عن يسارها فتدور شوطاً بعد شوط . . لكأنما هي طائف يطوف بالبيت ذاكراً خاشعاً متبتلاً . . .

فإذا ارتفعنا من مستوى الذرات والأليكترونات ومستوى الخلايا إلى مستوى الكرة الأرضية بكاملها وجدنا لها دورتين . أما الأولى فحول محورها وتتمها في أربع وعشرين ساعة . . وعنها ينتج الليل والنهار . . وتعطينا يومنا الأرضي المقدر بـ ٢٤ ساعة . والدورة الثانية تتم في ٣٦٥ يوماً لتكمل الدورة حول الشمس وتعطينا بذلك ما نعرفه باسم السنة . . وعن هذه الدورة ينتج اختلاف الفصول . .

والعجيب حقاً أننا نرى الأرض في دورتها ، تلك التي حول نفسها وتلك التي حول الشمس ، وكأنما هي طائف يطوف بالبيت خاشعاً متبتلاً يجعل البيت عن يساره ويدور حول البيت في تلك الحركة الفذة العجيبة التي تسمى

دورة ضد عقارب الساعة (Anti Clockwise Rotation) .

فإذا انتقلنا إلى الأقمار والكواكب والنجوم وجدنا دورات ودورات . . ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ .

وكل دورة من هذه الدورات تشبه حركة الطائفين حول البيت . . حركة دائرية أو إهليليجية تبدأ من يسار المركز ثم تنطلق مسبحة لخالقها وبارئها لكأنما هي طائف يستلم الحجر الأسود وهو يقول باسم الله ، الله أكبر ، وتتحرك ذرّات جسمه كلها في نفس الحركة التي تشمل الكون بأسره من الذرة إلى المجرة . .

يا لله . . ايّ سرٍ هذا الذي انكشف اليوم !! الكون كله من الذرة إلى المجرة في حركة دائبة دائرية أو إهليليجة لكأنما هو طائف يطوف بالبيت يجعل محور دورانه عن يساره فيما يعرف بدورة « ضد عقارب الساعة » .

كل ما في الكون يدور هذه الدورة من كهارب وخلايا وأقمار وكواكب ونجوم . . ومجموعات شمسية . . ومجرات . . ثم بعد ذلك نجد الملائكة يطوفون بالبيت المعمور لا يتوقفون عن ذلك ولا يخلو البيت منهم أبداً . . .

وهكذا البيت ، في مكة المكرمة ، لا يخلو من الطائفين أبداً سبحانك ربي سبحانك . . . ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ .

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ [النور : ٤١]. ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٢٤] . ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ [الرعد : ١٣] . ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

فالكون كله يسبح لله ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ وكل شيء خاضع له مستسلم لارادته . . . وكل ذرة في الكون ساجدة له خاضعة ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : ١٥] ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير

حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ [الحج : ١٨] .

فكل ما في الكون خاضع لله ساجد له مستسلم لإرادته إلا جانباً واحداً جعله الله في الإنسان وأناط به الثواب والعقاب وجعل له الإرادة ليختار أحد السبيلين إما شاكراً وإما كفوراً ، وهداه النجدين ، طريق الخير وطريق الشر ، وجعل له الإرادة في ذلك إما أن يختار سبيل المهتدين وإما أن يهلك مع الهالكين .

وجعل له تلك الإرادة ليسجد مختاراً طائعاً لينسجم في ذلك مع الكون بأكمله . . أو يشذّ عن ذلك فيهوى في قعر جهنم . . ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون** ﴾ [القلم : ٤٢] .

فهنيئاً لك أيها الطائف . . وهنيئاً لك أيها الساجد الخاشع المسبح المتبتل . . فأنت في ذلك منسجم مع كل ذرة من ذرات هذا الكون العجيب ، بما فيها ذرات جسمك وخلايا بدنك . . وهنيئاً لك السجود فإنه لا بد آتٍ يومٌ لا يستطيع فيه السجود من أبى واستكبر اليوم .

متى تنفخ الروح في الجنين (*)؟

قال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ السجدة (٧ـ ٩) .

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ٢٩ الحجر وآية ٧٢ سورة ص .

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ الإسراء ٨٥ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح) أخرجه الشيخان .

وقال ابن القيم : « فإن قيل الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة . فلما نفخت انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه » (التبيان في أقسام القرآن ص ٢٥٥) .

والروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا إنه من أمر ربي وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه كرَّم بني آدم بنفخ الروح فيه ، وكذلك كرَّم نبيه آدم حيث جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه . .

(*) نشر هذا المقال في المجلة العربية (الرياض) .

والرسول الكريم ، صلوات الله عليه ، يوضح لنا متى ينفخ الروح في الجنين فيقول إن ذلك إنما يكون بعد مروره في مراحل وأطوار مختلفة . . **النطفة أولاً** . . وهي نطفة الرجل ونطفة المرأة ، ويفرز المبيض بويضة واحدة كل شهر تمكث بعد ذلك يوماً أو يومين على الأكثر ليتم تلقيحها بإذن الله بالحيوان المنوي (نطفة الرجل) ، وتتحد النطفتان لتكوِّنا النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل (الحيوان المنوي) وماء المرأة (البويضة) ، وتنمو النطفة الأمشاج لتصبح مثل الكرة أو التوتة ثم تعلق في الرحم بعد أسبوع من تكوينها (أي النطفة الأمشاج) وتكون علقة بجدار الرحم ثم تكون مضغة يتخلَّق فيها الجنين وتتكون أعضاؤه . . وفي هذا الأثناء تتكوَّن العظام ثم يكسوها اللحم (العضلات) وتتكوّن وتتكامل الأجهزة : القلب والكبد والأطراف والسمع والبصر والدماغ . . وتبدأ في الجنين حركات إرادية في الشهر الرابع : يمصّ أصابعه ، يمسك بالحبل السري ويصبح كثير الحركة . . يتقلب في الرحم ينام ويصحو . . يسمع الأصوات تكتب على جبينه وترسم كتابة لا نظير لها مطلقاً . . تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه وعاصروه أو سيلحقونه ، بصمات أصابعه المتفردة تظهر في نهاية الشهر الرابع . . الكتابة والرسم العجيب على جبينه يظهر في الشهر الثالث ، المشيمة تستقل بوظيفتها في الشهر الثالث . . الكبد والقلب والأطراف والسمع والبصر يكتمل بناؤها في الشهر الثالث .

وفي نهاية هذا الشهر أيضاً تتميز الأعضاء التناسلية الباطنة والظاهرة ، ويمكن التفريق بين الذكر والأنثى . . كما إن فحص عينة من السائل الأمنيوسي (الرهل) تصبح ممكنة في الشهر الرابع . . وبفحص خلايا الجنين التي تسقط في السائل يمكن معرفة بعض الأمراض الوراثية كما يمكن معرفة الجنين ذكراً أم أنثى .

وفي هذه الفترة أيضاً يتخذ وجهه الشكل الإنساني المميز . . أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر أو الأرنب أو القرد . . لا فرق واضح يمكن الاعتماد عليه لنقول هذا جنين دجاجة أو سمكة أو جنين إنسان عدا أن مراحل النمو تختلف من نوع إلى آخر ومن فصيلة إلى أخرى :

وفي هذا الشهر تظهر السمات الإنسانية . . ويكتمل نمو الوجه تقريباً . . وتكسى العظام بالعضلات ، وتكتمل تغذية العضلات بالأعصاب . . وتستلم الأعصاب رسائلها وأوامرها من الدماغ وتبدأ العضلات الإرادية بالتحرك ، بل إن عضلات الوجه تعبر عن حالة الجنين وما يعانيه .

وتظهر بداية العضلات من الكتل البدنية (Somites) التي تنقسم إلى قطع هيكلية (Selerotome) وقطع عضلية (Myotome) وتتحول القطع الهيكليّة بأمر الله إلى بداية الفقرات وذلك في الأسبوع الخامس ، وتكسى بالعضلات في الأسبوع السادس ﴿ **فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً**﴾ . . وفي الأطراف تظهر بدايات العظام في الأسبوع السادس وتُكسى بالعضلات في الأسبوع السابع . .

أما عضلات الرأس فتبدو محددة المعالم في الأسبوع الثامن . وآخر العضلات الإرادية ظهوراً هي عضلات العجان (Perineum) والتي تظهر في الأسبوع العاشر .

وتبدأ حركات إرادته محدودة جداً في الأسبوع الثامن . . وتتضح في الأسبوع الثاني عشر . وتحس بها الأم الحامل في نهاية الأسبوع السادس عشر بوضوح تام . . ولو كانت الحامل خروصاً (أي بكرية) . ولهذا فإن الشارع الكريم قد حدد عدة المتوفى عنها بأربعة أشهر وعشراً حتى يتبين الحمل من عدمه . فإن كانت الأرمل المتوفى عنها زوجها حاملاً أصبحت عدتها مدة الحمل حتى تضع حملها سواء طالت المدة أم قصرت لأن ذلك استبراء للرحم . . والغريب حقاً أن الإمام ابن القيم قد جعل العلامة المميزة لنفخ الروح هي بداية الحركات الإرادية بينما حركة النمو والاغتذاء لم يعتبرها هذا الإمام العظيم إلا حياة نباتية .

ولا شك أنه قد سبق عصره في ذلك بل سبق الأطباء والعلماء في العصر الحديث ؛ إذ أن ما قاله ابن القيم يعتبر أدق مفهوم في تعريف الحياة الإنسانية التي فرق بينها وبين الحياة النباتية (Vegetative Life) حيث قال : « فإن قيل الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة فلما

نفخت انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه » .

وهذا تعريف دقيق بارع مبني على معرفة واسعة بعلوم التشريح والطب حيث نرى ابن القيم يرجع بداية الروح إلى ظهور الحركات الإرادية ووجود الإحساس وذلك مبني على وجود الجهاز العصبي المركزي والطرفي . .

وربما كان هذا المفهوم أيضاً أدق مفهوم لمعرفة نهاية الحياة حيث نرى التقدم الطبي يبقي أشخاصاً تحت وسائل الإنعاش الصناعية بحيث يتنفس لشخص وينبض قلبه صناعياً بينما خلايا الدماغ قد ماتت . . ولهذا ظهر في الطب تعريف موت الدماغ باعتباره نهاية الحياة ولا شك أن تعريف ابن القيم الذي ذكرناه بارع كل البراعة وقد سبق الطب الحديث بسبعة قرون على الأقل .

الروح التي بها حياة البدن(*)

● ﴿ ويسألونك عن الروح ؟ قال الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ [الإسراء ٨٥].

معاني لفظ الروح في القرآن الكريم:

ورد لفظ الروح في القرآن الكريم بعدة معان نذكر منها الآتي:

١ ـ إنه القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ وقال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾. ولقد سمى اللّه تعالى القرآن روحاً لأنه حياة الأرواح والقلوب والعقول.

٢ ـ إنه ملك من الملائكة عظيم الخلق جداً . وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾.

٣ ـ إنه جبريل عليه السلام. قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿تنزّلُ الملائكة والروح فيها﴾ وقال في قصة مريم عليها السلام: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾.

٤ ـ إنه الوحي الذي ينزل على الأنبياء عليهم السلام. وهو المراد في قوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾.

٥ ـ إنه الراحة والسعادة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وروح وريحان وجنة نعيم﴾.

(*) مقال نشرته المجلة العربية على حلقتين (عدد جمادى الآخرة ورجب ١٤٠٨/ فبراير ـ مارس ١٩٨٨).

٦ ـ إنه القوة والثبات. قال تعالى: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه**﴾.

٧ ـ إنه المسيح عيسى بن مريم قال تعالى: ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾. وفي الحديث الشريف يقال لعيسى عليه السلام: يا روح اللّه.

وليس المقصود من ذلك كما يظن النصارى وبعض الجهلة أن الروح التي في عيسى والروح التي نفخها اللّه في آدم عليهما السلام هي جزء من روح اللّه، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

ونسبة الروح إلى اللّه كنسبة البيت والناقة والرسول حيث يقال بيت اللّه وناقة اللّه (ناقة صالح) وعبد اللّه ورسول اللّه . . وكلها إضافات إليه تقتضي التشريف والتكريم. فالبيوت كلها بيوت اللّه والنوق كلها له، والعبيد جميعاً عبيدة، والخلق كلهم ملك يده. فأضاف فرقة إليه وسماهم حزب اللّه وسمى الفرقة الأخرى حزب الشيطان، وكلهم خلقه وعبيده. . وكما يقول الإمام العيدروس في كتابه الدرّ والجوهر: «إذا وصل الذاكر إلى عالم الروح، برز له نعت القِدم بتنصيص التخصيص، ومنشور التشريف من باب إضافة ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ ثم يقول «إضافتك إليه إضافة مزيّة، لا إضافة جزئية، إضافتك إليه إضافة خصوصية لا إضافة بعضية، إضافة قرب لا إضافة نسبة، إضافة كرم لا إضافة قدم، هو منزّه عن كل إضافة وإن قال ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾.

٨ ـ إنه الروح الذي بها حياة البدن. قال تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾. والمقصود ماهية الروح وكنهها فذلك مما لا يعلمه إلّا اللّه وحده. . وإن كان كثير من العلماء قد تكلم فيه وأسهب.

ومقصودنا هنا هو الحديث عن الروح الذي بها حياة البدن ، وأقوال العلماء فيها ، ومقصودهم من ذلك. . وما يمكن أن يتوصل إليه بعد الاكتشافات العلمية الحديثة.

الروح مخلوقة مربوبة:

والعلماء جميعاً متفقون على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة. قال الإمام ابن القيم في كتابه الروح «ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه، وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، وأنشأها وكوّنها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما يحكيه عنه ابن القيم في كتابه الروح «روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنّة». ولم يشذ عن ذلك إلّا بعض فلاسفة المسلمين الذين قالوا بأن الروح قديمة وأنها خالدة، وهم قد تأثروا بذلك بفلسفة أرسطو طاليس الذي كانوا يسمونه المعلم الأول..

ماهيـة الـروح:

اختلف العلماء في ماهية الروح. قال الإمام الشوكاني في فتح القدير في تفسير قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ «وقد اختلف الناس في المسؤول عنه، فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حيـاته. وبهـذا قال أكثر المفسرين». وقد بلغت الأقوال في الروح كما يقول الشوكاني ثمانية عشر مائة قول (١٨٠٠).. وانتهى الشوكاني إلى القول بأن «الروح من جنس ما استأثر اللّه بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده فهي من أمر ربي».

ولم يقبل ابن القيم هذا القول (وابن القيم قد سبق الشوكاني بعدة قرون) وقال إن الروح المسؤول عنه هو ملك عظيم يظهر يوم القيامة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً**﴾، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب. وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهـل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.. ثم ذكر ابن القيم كثيراً من هذه الأقوال مثل قول النظام المعتزلي: إن الروح جسم وأنهـا النفس وأنكر أن تكـون الحياة والقوة معنى غير الحي القوي.

وقال الجبائي: إن الروح جسم وإنها غير الحياة. وقال جماعة: ليس

الروح شيئاً سوى اعتدال الطبائع الأربع وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. . وقال الباقلاني: النفس هي النسيم (الهواء) الداخل والخارج بالتنفس والروح هي الحياة.

وقال بعضهم إن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل هذا البدن واختلفوا في ذلك الجسم على وجوه:

(الأول): أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة (السابق ذكرها).

(الثاني): أنه الدم.

(الثالث): أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء.

(الرابع): أنه الروح الذي يصعد في القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكر والذكر.

(الخامس): أنه جزء لا يتجزأ من القلب.

(السادس): أنه جسم نوراني علوي خفيف متحرك حي ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية.

وإذا أفسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

ثم قال ابن القيم: «وهذا القول هو الصواب في المسألة الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة». وسنناقش هذا الكلام بعد قليل ولكنّا نحب أولاً أن نوضح رأي الإمام الغزالي.

كلام الغزالي في الروح:

يعتبر الإمام الغزالي خير من كتب في موضوع القلب والروح والنفس، وذلك في كتابه «شرح عجائب القلب» من موسوعته «إحياء علوم الدين».

وقد سبق أن ذكرنا قوله (في مقال سابق) إن القلب يطلق على معنيين:

أحدهما: القلب المادي الصنوبري الشكل المودع في الصدر، والموجود لدى البهائم فضلاً عن الإنسان. والثاني: هو اللطيفة الربانية التي هي حقيقة الإنسان، وهو (أي القلب المعنوي) المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب.

ثم ذكر أن جميع ما ورد في الكتاب والسنة عن القلب إنما يشير إلى هذه اللطيفة الربانية لا إلى القلب العضلي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر.

أما الروح فقال: «إنها تطلق على عدة معان، وما يتعلق بغرضه منها في الكتاب معنيان:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن. وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به. والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه. والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى. وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب».

والثاني: «هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب. وهو الذي أراده الله بقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾. وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته».

ما هو المقصود من كلام ابن القيم والغزالي في الروح؟

بينما لا يعترف ابن القيم إلا بمعنى واحد للروح ولا يرى غيره صواباً، نرى الغزالي يجعل الروح الذي به حياة البدن على معنيين: الأول: وهو من غرض الأطباء. والثاني من الأسرار الإلهية التي قلَّ من يدرك معناها.

والمعنى الذي هو من غرض الأطباء في كلام الغزالي يشرحه ابن سينا وابن النفيس شرحاً وافياً. وسنفاجأ مفاجأة مذهلة في أن الروح عند ابن القيم

والرازي وغيرهما من العلماء لا تزيد عن الأوكسجين!! نعم.. الأوكسجين!!

وقد ظن كثير من العلماء والأطباء في السابق أن الروح هو جسم لطيف يتولد في الجانب الأيسر من القلب، وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء، أو أنه الروح الذي يصعد من القلب إلى الدماغ، أو أنه الجسم اللطيف الذي ينبع من تجويف القلب فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر البدن. وأنه يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم.. ويضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فلا ينتهي إلى جزء من البيت إلّا وأناره.

خلاصة كلام ابن سينا في الروح:

قال الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا في كتابه القانون في الطب (ج ٢/ ٢٦١)[1]: إن في القلب ثلاثة بطون.. بطنان كبيران وبطن كالوسط ليكون له مستودع غذاء يتغذى به كثيف قوي (وهذا القول خطأ فالقلب له بطنان فقط والوسط هو الحاجز Septun بينهما).

وقد ظن ابن سينا أن معدن الروح يتولد في هذا البطن الثالث. وخلاصة كلام ابن سينا أن الدم يأتي من الكبد إلى البطن الأيمن من القلب (وهو أمر صحيح، حيث يصب الوريد الأجوف السفلي في الأذين الأيمن ومنه إلى البطين الأيمن). ولما كان البطن الأيمن يحوي دماً غليظاً ثقيلاً (غير مؤكسد بالتعبير الحديث) والأيسر يحوي دماً دقيقاً خفيفاً (أي مؤكسد) عُدِّلَ الجانبان بترقيق البطن الأيمن وتغليظ الأيسر». ووصف ابن سينا الأذينين وأنهما كالخزانتين يقبلان عن الأوعية الدموية ثم يرسلان الدم إلى القلب. وهو قول صحيح.

---

(١) وُلد الشيخ الرئيس سنة ٣٧٠هـ في إحدى قرى بخارى في الاتحاد السوفياتي حالياً (أوزبكستان). وأبوه من بلخ في شمال أفغانستان وأمه من بخارى. يعتبر بحق من أعظم أطباء المسلمين. ظل كتابه القانون في الطب يدرس في جامعات أوروبا لمدة سبعة قرون. توفي في همدان سنة ٤٢٨هـ.

وينتهي ابن سينا إلى أن الروح الحيوانية (ج ١ / ٧٠ من كتاب القانون) تتولد في القلب ، وأن منبت الشرايين هو من التجويف الأيسر من القلب فتقوم هذه الشرايين بدفع الدم النقي الذي فيه الروح الحيواني إلى الجسم بأكمله بواسطة العروق الضوارب.

كلام ابن النفيس في الروح والدورة الدموية:

تبدو عبقرية علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي المشهور بابن النفيس والذي جاء بعد ابن سينا بقرنين من الزمن (ولد سنة ٦٠٧هـ في دمشق وتوفي سنة ٦٨٧هـ بالقاهرة) في كونه أول من وصف الدورة الدموية الصغرى بدقة متناهية، وفي كونه أول من عرف أن القلب يتغذى من شرايين خاصة (الشرايين التاجية) وأول من أشار إلى مرور الدم في الأوعية الشعرية سابقاً بذلك وليم هارفي الذي يُعزى إليه في الغرب، كذباً وبهتاناً، اكتشاف الدورة الدموية، بعدة قرون من الزمن.

ورغم احترام ابن النفيس وتوقيره لعلم ابن سينا وجالينوس إلّا أنه انتقدهما واختلف معهما في عدة مواضع قائلاً: «إننا نعتمد على ما يقتضي النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفهم».

وحقق ابن النفيس بذلك مستوى علمياً راقياً. وقد انتقد ابن سينا في كتابه: شرح التشريح من قانون ابن سينا في ثلاثة مواضع:

الأول: قول ابن سينا إن للقلب ثلاثة بطون. قال ابن النفيس: «هذا الكلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط. والتشريح يكذِّبُ ما قالوه». وهذا يدل على أن ابن النفيس مارس التشريح.

الثاني: قول ابن سينا إن الدم الذي في البطين الأيمن يغذي القلب. قال ابن النفيس «لا يصح فغذاؤه من العروق المارة في جسمه» (أي جسم القلب). وكان بذلك أول من وصف الشرايين التاجية وأنها تغذي القلب.

الثالث: قول ابن سينا إن الدم يمر من البطين الأيمن إلى الأيسر عبر خروم إلى البطن الثالث في الوسط. وأن الدم يتصفى ويرق في البطن الأوسط

حيث يتولد معدن الروح. وقد انتقد ابن النفيس هـذا القول ووصف الـدورة الدموية الصغـرى حيث يذهب الدم من الـبطين الأيمن الى الـرئتين حيث يتصفى (ويطرد ثاني أوكسيد الكربون) ويرق (ويستلم الأوكسجين) ثم يعود إلى الأذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر. ومن البطين الأيسر عبر الشريان الأورطي (الأبهـر) إلى العـروق الضـوارب وإلى كـل أعضـاء الجسم حيث يمـدهـا بالأوكسجين اللازم لحرق الجلوكوز والمواد الدهنية التي تتولد منها الطاقة.

وبذلك يكون ابن النفيس أول من وصف الدورة الدموية الصغرى سابقاً وليم هارفي بعدة قرون.

قال ابن النفيس في كتابه شرح التشريح من قانون ابن سينا ما يلي:

«إذا لطف الدم في التجويف الأيمن فلا بـد من نفوذه إلى التجـويف الأيسر حيث تولد الروح. وليس بين التجويفين منفذ، فإن جرم القلب هناك سميك، وليس فيه منفذ ظاهر كما ظن جماعة، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظن جالينوس، فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ. فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني (يقصد الشريان الرئوي. وقد سمي بالوريد لأنه يشبه الأوردة في حمله الدم غير المؤكسد. وسماه الشرياني لأن منبعه القلب. وهو صادر عنه) إلى الرئة لينبثّ في جرمها ويخالط الهواء، ويتصفى ألطف ما فيه. وينفذ إلى الشريان الوريدي (يقصد الأوردة الرئوية) ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب».

وقال أيضاً في كتابه الموجز في الطب: «الأرواح ولا نعني بها النفس كما يرد في الكتب الإلٰهية بـل نعني بها جسمـاً لطيفـاً بخاريـاً يتكون من لـطافة الأخلاط».

هل الروح هي الأوكسجين؟

مما تقدّم يتضح أن الروح الجسماني الخفيف الذي وصفه الرازي وابن القيم والغزالي، بأنه جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، وبالذات التجويف الأيسر منه، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائرأجزاء البدن، ويسري في الأعضاء كما يسري الماء في الورد والنار في الفحم والدهن في

الزيتون، ليس إلّا الأوكسجين الذي يتحد مع خضاب الدم (الهيموجلوبين) الموجود في كريات الدم الحمراء أثناء دورة الدم في الرئة ، حيث ينفذ الأوكسجين بواسطة الانتشار من الأسناخ (الحويصلات) الرئوية عابراً الحواجز الرقيقة من جدار الحويصلة الهوائية والشعيرات الدموية المنتشرة حول الحويصلة.

ثم ينتقل بواسطة الأوردة الدموية إلى الأذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر الذي يضخه عبر الشريان الأورطي (الأبهر) إلى مختلف أجزاء الجسم وخلاياه ، حيث يقوم الأوكسجين بإحراق السكر والدهون في عمليات كيميائية بالغة التعقيد، وتحويلها إلى طاقة. . تماماً كما تسري النار في الفحم، والنور في السراج مولدة تلك الطاقة الفذة العجيبة التي يستنير بها البيت وتتحرك بها الأعضاء. . وهي هي عملية الاحتراق ذاتها في البنزين وفي قطعة الفحم وفي خلايا جسم الكائن الحي.

وما يؤكد أن الروح بهذا المفهوم ليست إلّا غاز الأوكسجين ما ذكره الإمام الغزالي في أحد معاني الروح، وهو الروح الحيواني الذي به حياة الإنسان والحيوان وأكده بقوله: «والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف انضجته حرارة القلب» وما ذكره الفخر الرازي بقوله: «إنه الروح اللطيف الذي يولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء». وما ذكره الباقلاني بقوله: «النفس هي النسيم (الهواء) الداخل والخارج بالتنفس».

والهواء الداخل والخارج بالتنفس هو عبارة عن أخذ الأوكسجين واتحاده بخضاب الدم في الأسناخ الرئوية وإخراج ثاني أوكسيد الكربون من الدم إلى الأسناخ الهوائية ، ومن ثمَّ إخراجه إلى الخارج في عملية الزفير. . .

وكل الأحياء ما عدا بعض البكتيريا اللاهوائية والفيروسات تحتاج إلى الأوكسجين لإطلاق الطاقة والاستفادة منها. . يستوي في ذلك البكتيريا الدقيقة التي تقاس بالميكرون (١ على مليون من المتر) وحوت البحر الذي يزن الأطنان مروراً بوحيدات الخلية والفطريات والطحالب والديدان والحشرات

والنباتات والحيوانات على كافة طبقاتها وأنواعها حتى تصل إلى الإنسان الذي اختاره اللّه لخلافة الأرض وجعله أكرم خلقه.

ليست الروح هي الأوكسجين فقط:

وإذا كان الروح الحيواني الذي تحيا به الأجسام هو الأوكسجين وارتباطه بالدورة الدموية وعمليات التنفس الخارجية (الشهيق والزفير) والداخلية التي تتم فيها عمليات الاحتراق وتوليد الطاقة عبر عمليات معقدة مكثفة، فيما يسمى المقدَّرة أو المصوَّرة (الميتوكوندريا) داخل الخلايا، إذا كان الروح الحيواني هو الأوكسجين فإن الروح الذي خصَّ اللّه به الإنسان شيء آخر أغلى وأثمن من هذا الغاز المنتشر في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة، والذي تستخدمه جميع الكائنات الحية وغير الحية لإطلاق الطاقة، وإتمام عملية الاحتراق سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إن الإنسان وقيمه ومثله هو قطعاً أغلى وأعظم من هذا الأوكسجين. ونحن نتفق تماماً مع الإمام الغزالي في أن الروح التي بها حياة البدن تطلق على معنيين:

الأول: وهو جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائرأجزاء البدن... وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب.

وهذا المعنى الأول هو الذي فهمه الإمام ابن القيم وقال عنه: إنه القول الصواب في المسألة الذي لا يصح غيره. وكل الأقوال سواه باطلة.

وهو معنى محدود من معاني الروح موجود لدى جميع الكائنات الحية من البكتيريا الدقيقة إلى الفيل والدرفيل وحوت البحر.. وليس للإنسان فيه أي ميزة على أي كائن حي سواء كان نباتاً أم ثعباناً أم دودة تزحف على الأرض.

والمعنى الثاني: الذي ذكره الإمام الغزالي ولم يذكره ابن القيم وكثير من العلماء: هو «اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب وهو الذي أراده اللّه بقوله: **﴿قل الروح من أمر ربي﴾**، وهو أمر

عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته».

وهو كما ذكره في معنى القلب المعنوي بقول: «لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلّق. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان. وهو المدرك العالم العارف من الإنسان. وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب».

وهذه اللطيفة هي التي أودعها اللّه في آدم عليه السلام في قوله: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ [الحجر ٢٩] وهي اللطيفة التي جعلها اللّه لبني آدم حيث خاطبهم في عالم الذر وهم لا يزالون في ظهر آدم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ [الأعراف ١٧٢].

قال العلماء: إن هذا الاشهاد والاستنطاق إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة. وقد تحدث لنا المصطفى صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك اليوم وشرحه لنا ونقله عنه الصحابة الأجلاء من أمثال الفاروق عمر بن الخطاب وعبد اللّه بن عباس وأبي بن كعب ورواه عنهم أهل الحديث (موطأ مالك ومسند أحمد ومستدرك الحاكم وسنن النسائي.. الخ) قال صلى اللّه عليه وسلم: «إن اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾.

وعن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿**وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**﴾ قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: «ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين». رواه ابن جرير.

فهذه الأرواح التي كانت في عالم الذر والكامنة في آدم عليه السلام لا علاقة لها بالأوكسجين ولا بالجسم اللطيف الذي ينبع من تجويف القلب

وينتشر بالعروق الضوارب إلى سائر البدن ولا بالبخار الذي أنضجتـه حرارة القلب أو النسيم الداخل والخارج بالتنفس.

* * *

إن هذه الروح شيء آخر عظيم عظيم.. شيء يستحق أن تخضع له الملائكة الروحانيون ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون**﴾.. هذا الروح هو من أمر اللّه تعالى الذي شرّفه ونسبه إليه تعالى حيث قال: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي**﴾ وحيث قال: ﴿**ثم سواه ونفخ فيه من روحه**﴾.

وهو لا شك من عالم الأمر وعالم الملكوت لا من عالم الملك وعالم الشهادة، هو أمر غيبي فوق طاقتنا وتصورنا.. وهو الذي أراده اللّه بقوله: ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً**﴾ «وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته» كما يقول الإمام الغزالي.

وقد صدق الإمام الغزالي، فإن أكثر العقول تحار وتـدهش عن إدراك الروح على هذا المعنى.

قال الإمام الشوكاني: «الروح من جنس ما استأثر اللّه بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده فهي من أمر ربي».

وقال الإمام الجنيد: «إن الروح شيء استأثر اللّه تعالى بعلمه ولا يجوز لأحد البحث عنه أكثر من أنه موجود».

وقال الشعراني: «لم يبلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تكلم عن حقيقة الروح. مع أنه سُئل عنه فتمسك عن الحديث عنها أدباً».

وقال الفراء: «الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر اللّه سبحانـه به أحداً من خلقه ولم يعط علمه أحداً من عباده».

* * *

وخلاصة القول إن ما ذهب إليه ابن القيم والرازي والباقلاني وغيرهم في معنى الروح لا يعدو أن يكون معنى بسيطاً يتعلق به غرض الأطباء وهو دخول

النسيم (الهواء) وخروجه واتحاد الأوكسجين بالدم ودورته في الدورة الدموية ووصولها إلى كل خلية في الجسم.

والمعنى الثاني وهو المعنى الحقيقي للروح وهو اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الإنسان الذي ميّزه اللّه بها عن سائر خلقه وكرمها به على ملائكته، فهو سر من الأسرار تحار أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته، كما يقول الإمام الغزالي.

ولن يكشف هذا السر لأغلب البشر إلاّ يوم يقال: ﴿**فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾.

تمريض ومداواة النساء للرجال .. والعكس؟
إقتراح بإنشاء كلية طب لأمراض النساء والولادة(*)

ذكر فضيلة الشيخ علي الطنطاوي أمدّ الله في عمره ، في أحد أحاديثه التي يجمع فيها بين العلم والمتعة والأدب الرفيع ، أن شخصاً كتب إليه يشكو من أن ممرضة ، في أحد المستشفيات الخاصة ، قد قامت بحلق شعر عانته للتحضير لعملية كان سيجريها في ذلك المستشفى ، وأنه لا توجد في أقسام الرجال من ذلك المستشفى سوى الممرضات بدلاً من الممرضين من الرجال. وذكر فضيلة الشيخ أن ذلك لا يجوز وغار غيرته المعروفة المحمودة على الدين والعرض .

والواقع أن معظم المستشفيات ، إن لم نقل كلها ، لا تكاد تجد فيها اليوم ممرضاً من الرجال ، وعلى العكس من ذلك فإن أقسام أمراض النساء والولادة مليئة بالأطباء من الرجال .

ولكن يا ترى ما هو الدافع لهذا الاختلاط الذي يحدث في المستشفيات ؟

ربما كانت هناك أسباب خفية ، ولكن إذا أحسنا الظن بأن الحجج التي يمكن أن يوردها من يدافعون عما يجري حالياً في المستشفيات من اختلاط بين الرجال والنساء يتلخص فيما يلي :

أولاً : عدم وجود عدد كاف من الممرضين الذكور .

ثانياً : أثبتت المرأة قدرتها في مجال التمريض ، ولعل التمريض أليق بوظيفتها وطبيعتها الأنثوية من المجالات الأخرى .

(*) مقال نشرته صحيفة الشرق الأوسط (لندن ـ الرياض ـ جدة).

ثالثاً : الآسيات (الممرضات) المسلمات المشهورات يملأن صفحات التاريخ الإسلامي عزاً وفخراً .

رابعاً : لقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابيات الجليلات بالتمريض بل والقتال معه أثناء المعارك. فقد أخرج مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن ماجه في سننه أن أم عطية ، رضي الله عنها ، قالت : « غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، أخلفهم في رحالهم وأصنع لهم الطعام وأجيز على الجرحى وأداوي المرضى» . وروى الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغزو ومعه أم سليم (أم أنس) ومعها نسوة من الأنصار يستقين الماء ويداوين الجرحى » .

وأخرج البخاري في صحيحه عن الربيع بنت معوذ قالت : «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة» .

وعندما أصيب سعد بن معاذ، رضي الله عنه بسهم غرب، في موقعة الأحزاب جعل له الرسول خيمة في المسجد وأوكل تمريضه إلى رفيدة الأسلمية .

وأخرج مسلم أن نجدة الخارجي كتب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، يسأله عن غزو النساء مع النبي فكتب إليه أنه كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين من الغنيمة ، وأما بسهم فلم يضرب لهن .

خامساً : ذكر الإمام الذهبي في كتابه الطب النبوي (ص ١١٢) ما يلي : « ونص أحمد أن الطبيب يجوز له أن ينظر المرأة الأجنبية إلى ما تدعو إليه الحاجة إلى العورة ، نص عليه في رواية المروزي والأشرم وإسماعيل ، كذلك يجوز للمرأة أن تنظر إلى عورة الرجل عند الحاجة . . قال المروزي : أصاب أبا عبد الله (أي الإمام أحمد) لوى فدعا بامرأة فأخرجته » . ثم قال الذهبي : « وكذلك يجوز خدمته الأجنبية ويشاهد منها عورة في حال المرض ، وكذلك المرأة يجوز لها أن تخدم الرجل وتشاهد منه عورة في حال المرض إذا لم يوجد رجل أو محرم» .

هذه هي حجج القوم أوردناها كأحسن ما يمكن أن تورد ، وسنرد على هذه الحجج واحدة واحدة .

أولاً : عدم وجود عدد كاف من الممرضين الرجال ، والرد عليه أنه كما أنشأنا في الجامعات كليات للتمريض العالي للفتيات ، فإن علينا أن نوجد كليات للتمريض للفتيان والشباب ، وهو أمر ميسور ولا يوجد ما يمنع ذلك ، كما ان معاهد التمريض ينبغي أن تكون على شقين للذكور والإناث ، وبهذا تنتفي الحاجة خلال بضع سنين .

ثانياً : إن إثبات كفاءة المرأة في التمريض لا يجعلها أقدر على تمريض الرجال . . وقد عملنا في مستشفيات مختلفة ، حتى في بريطانيا ، حيث كان الممرضون من الرجال يقومون بمهمتهم خير قيام . . بل هناك من أعمال التمريض الشاقة ما يقوم بها الرجل خيراً من المرأة .

ثالثاً : وجود الأسيات في التاريخ الإسلامي دلالة على عظمة هذا الدين ، ومع هذا لم يذكر أحد أن المستشفيات (البمارستانات) ، التي انتشرت في العالم الإسلامي بأكمله ، كانت تقوم على النساء من الممرضات فقط . . فقد كانت أقسام النساء لا يدخلها إلا الممرضات من النساء ، وأقسام الرجال لا يدخلها إلا الممرضون من الرجال .

رابعاً : الأحاديث الشريفة الواردة في إباحة مداواة النساء للرجال واشتراكهن في ميادين القتال بمساعدة المقاتلين وخدمتهم وسقيهم ومعالجة الجرحى ، أمر يوضح عظمة هذا الدين وسماحته . ولكن القارىء سيلاحظ أن ذلك كله كان وقت المعارك واشتداد القتال وانشغال الرجال بالقتال ، فلم يكن بد من استخدام النساء في هذه الأغراض لعدم وجود الرجال .

خامساً : جواز الإمام أحمد للمرأة أن تداوي الرجل وتمرضه وتخدمه ، ولو كان أجنبياً ، وجوازه للرجل أن يداوي المرأة ويخدمها ويمرضها ، ولو كانت أجنبية ، ولو رأى منها أو رأت منه عورة . . . مشروط بعدم وجود طبيب أو ممرض من جنس المريض أو عدم وجود محرم . وهذا يوضح عظمة الإسلام وأنه مبني على اليسر في كل الأمور . . . ولكن الإباحة في هذا الشأن تمثل الشذوذ لا القاعدة .

فالقاعـدة والأساس والشيء الـطبيعي أن يقوم بتمـريض المرأة امـرأة ، وتمريض الرجل رجل . والقاعدة والأساس إن يطبب المـرأة امرأة ، وخـاصة فيما يتعلق بأمراض النساء والولادة ، وأن يطبب الرجل رجل وخاصة فيما يتعلق بالجهاز التناسلي . ولم نسمع أن الأطبـاء المسلمين ، على شهرتهم ، كـانوا يقومون بدور القابلات ، بل كانت القابلات هن اللائي يتـولين الإشراف على ولادة ملايين المسلمين منذ أن ظهر الإسلام إلى العصور الحديثـة عندمـا بدأ الأطباء من الرجال يحلون محلهن .

ولم نسمع بطبيبات يقمن بالكشف على الجهاز التناسلي للرجل وإن كنا قد سمعنا بطبيبة بني أود في العهد الأموي والتي اشتهرت بطب العيون آنذاك ، فكانت تعالج أمراض العيون لدى النساء والرجال جميعاً .

كلية طب لأمراض النساء والولادة :

بما أن أمراض النساء والولادة تستوجب كشف العورة المغلظة للمرأة ، فإن كشف هذه العورة المغلظة للمرأة أمر تحرمه الشريعة إلا إذا لم توجد طبيبة وتكون الإباحة على هذه الصورة .

تكشف العورة المغلظة عند الضرورة لطبيبة أو قابلة مسلمة فإن لم يتيسر فلطبيبة أو قابلة غير مسلمة ، فأن تعذر ذلك جازت المعـالجة والتـطبيب لدى طبيب مسلم دون خلوة (أي بـوجود أحـد محارمهـا) فإن تعـذر ذلك جـازت المعالجة والتطبيب لدى طبيب غير مسلم بدون خلوة .

والواقع الآن أننا نعاني من نقص كبير في التخصصات في أمراض النساء والولادة وذلك للأسباب التالية :

١ ـ إن دراسة الطب تستغرق ما بين ست وسبع سنوات ، وهي دراسة مجهدةٍ وشاقةٍ وطويلة يتخرج بعدها الطالب طبيباً عاماً .
٢ ـ إذا أراد أن يتخصص الممارس العام فعليه بدراسـة أخرى علميـة وعملية تستغرق حوالي أربع سنوات منذ التخرج .
٣ ـ إن هذا التخصص (أمراض النسـاء والولادة) شـاق ويستوجب تضحيـات

كبرى من المتخصص فيه حيث يبقى تحت الطلب في معظم ساعات الليل والنهار .

٤ ـ بما أن الفتاة ستتزوج في غالب الحالات فإن مسؤولية الزواج والأسرة تعيقها ، إلا فيما ندر ، عن التخصص في هذا الفرع الشاق . وبما أن دراسة الطب في حد ذاتها طويلة فإن الفتاة المجتهدة تتخرج طبيبة عامة وقد شارفت أو جاوزت الخامسة والعشرين ، فإذا كان عليها أن تتخصص في أمراض النساء والولادة قبل الزواج فإنها ستحتاج إلى أربع سنوات اخرى ومعنى ذلك أنها لن تتزوج قبل الثلاثين . وهو أمر غير مستحسن وقد يؤدي إلى أن يفوتها قطار الزواج .

٥ ـ إذا فرضنا أنها تحملت واستطاعت التخصص في هذا الفرع فإن مسؤولياته الجسيمة تؤدي إلى اعتزال نسبة منهن هذه المهنة الشاقة أو تضييق نطاق عملهن بسبب مسؤوليات البيت والزوج والاولاد .

وهكذا نجد أن هذه الأسباب مجتمعة مع غيرها تؤدي إلى عزوف كثير من الطبيبات عن التخصص في هذا الفرع الهام ، الذي يعتبر فرض كفاية بالنسبة للأمة ، وفرض عين بالنسبة لبعض الطبيبات القادرات .

لهذا كله نقترح إيجاد كلية لطب أمراض النساء والولادة تقبل الفتيات فيها مباشرة بعد الثانوية ، وبذلك نستطيع أن نخرج متخصصات على أعلى مستوى في أمراض النساء والولادة في ست أو سبع سنوات بدلاً من عشر سنوات .

وإذا كانت الأسنان تستحق ان يفرد لها كلية خاصة بها فأمراض النساء والولادة تستحق دون ريب أن يكون لها كلية خاصة بها . وليس هذا الأمر جديداً كل الجدة ، ففي كندا اتجاه لدى بعض الجامعات إلى اختصار سنوات دراسة الطب العام وجعل الطبيب يتجه إلى نوع من التخصصات الكثيرة حسب رغبته .

وفي الاتحاد السوفياتي كذلك تختصر الدراسة بالنسبة للممارس العام ثم يتوسع الطبيب في الفرع الذي يريد التخصص فيه .

وبما أن معظم الأطباء يتجهون اليوم إلى التخصص فإن الدراسة الطويلة جداً قد تكون غير ذات جدوى بالنسبة لتخصصاتهم ، وتبدو أهمية إيجاد كلية لأمراض النساء والولادة خاصة بالفتيات فقط إذا عرفنا الفوائد التي نجنيها من ذلك الإجراء وهي :

أولاً : سنسد حاجة المجتمع إلى طبيبات متخصصات في أمراض النساء والولادة .

ثانياً : لن نحتاج إلى كشف عورات المسلمات للرجال لانتفاء الحاجة .

ثالثاً : إن إيجاد كلية كاملة لأمراض النساء والولادة ستضمن تخريج عدد كبير من الطبيبات في هذا الفرع وفي فترة وجيزة نسبياً .

رابعاً : إن الفاقد المتوقع نتيجة زواج الطبيبة وانشغالها بالبيت والاولاد يمكن تعويضه بسهولة بالعدد الوافر من الطبيبات المتخرجات .

خامساً : تخفف عن الطبيبات المختصات والمتزوجات واللائي لهن أسر وأولاد الأعباء بحيث لا يحتجن للمناوبات الليلية إلا فيما ندر ، وذلك لوجود عدد كاف من الطبيبات المختصات اللائي لم يتزوجن بعد أو ليس لديهن اطفال .

نصائح من أبي بكر الرازي للمريض والطبيب(*)

أبو بكر الرازي (٢٥١ ـ ٣١١ هـ) هو أحد كبار أعلام الطب في تاريخ المسلمين . . ولد بالري (قرب طهران) من أصل فارسي ، ولكن الإسلام لا يعرف التفريق في الجنسيات والقوميات وإنما يجمع الكلّ في أمة واحدة ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ وتعلم الطب وبرع فيه ونبغ وكان أكبر ظهوره في بغداد في المستشفى «بيمارستان» العضدي الذي بناه عضد الدولة البويهي . . وكان أكبر مستشفيات العالم آنذاك . . وفيه يدرس الطب وعلومه . . وتولى الرازي رئاسة هذا المستشفى العظيم الذي نُظِّم أحسن تنظيم ، فكانت فيه العيادات الخارجية كما نعرفها اليوم . . وكان المرضى يفدون عليها ويقوم عليها الأطباء . . فإذا كانت الحالة يسيرة وصفوا لها الدواء من صيدلية المستشفى فيأخذها المريض . . وإن كانت الحالة غير يسيرة حولها هؤلاء إلى أساتذتهم في فنون الطب . . فإن عجزوا فيها أحالوها الى الرازي الذي كان كثيراً ما يوفق في الوصول الى تشخيصها وعلاجها .

وكان يقيم الحلَقات العلمية الطبية ويدخل المريض فيتولى الطبيب المستجد الحالة ويعرضها عليهم فإن أصاب وافقه أساتذته . . وإلا راجعوه . . فإن أخطأوا قام الرازي وأوضح رأيه . .

وهو أول من وصف الحصبة والجدري وصفاً دقيقاً وفرّق بينهما ، كما أنه أول من استعمل «فتيلة الجرح » من أمعاء الحيوانات لخياطة الجروح . . وهو أول من استخدم الرصاص الأبيض في المراهم وأدخل الزئبق في المسهل . .

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة المنورة (جدة).

وقد كان الرازي يؤكد على تلاميذه ، وفي كتبه ، على أهمية سؤال المريض بدقة عما يشكو ، وهو ما يسمى بتاريخ المرض . . كما أنه اهتم اهتماماً كبيراً بالفحص السريري الإكلينيكي ، وفرّق بين أنواع النبض المختلفة وطريقة التنفس وضربات القلب . . كما أنه لم يكن يترك المريض إلاّ بعد فحص بوله وبرازه . .

وله في الجراحة باع طويل ، وتكلم عن السرطان وفرق بينه وبين الأورام الحميدة . . ولم يكن الرازي عبقرياً لا يبارى في ميدان الطب فقط ولكنه كان أحد أعلام علم الكيمياء في تاريخ البشرية كلها . .

وقد وصف الرازي التقطير والتصعيد والتشميع «تليين المعادن » وأنواع التكليس (وهو معالجة المعادن والأحجار حتى تصبح مسحوقاً ناعماً) وحضّر الرازي عدداً من الأحماض ، لأول مرة في تاريخ البشرية ، فقد حضّر حامض الكبريتيك المسمى ، في ذلك الوقت بزيت الزاج ، وذلك من الزاج الاخضر « كبريتات الحديدوز » ، كما كان أول من حضر الكحول (الغول) بتقطيره من مواد نشوية متخمرة[1] . . وحضّر النشادر «الأمونيا»، كما حضر كثيراً من السوائل والأملاح المشتقة منها . .

وتتجلى عبقرية الرازي فيما سأنقله لك في الفقرة التالية . . والتي لا نزال بحاجة إليها إلى يومنا هذا . . وخاصة في البلاد العربية والإسلامية وبلاد ما يسمى العالم الثالث . .

يقول الرازي منذ أكثر من ألف عام :

«يعتقد عوام الناس أن المرض هو الشعور بالألم فإذا سكن الألم عن أحدهم بطريقة من الطرق ظنَّ أنه قد شفي مما به من المرض . . ولذلك ترى عوام الناس يسمون الأدوية المسكنة أدوية شافية . .

ومن أجل ذلك ترى عوام الناس أشد رغبة في الأطباء العاديين منهم في كبار الأطباء وفي العلماء من الأطباء . . وكذلك تجد الطبيب الذي يحتال

(*) يقال إن أول من حضّر الكحول (الغول) هو جابر بن حيان التوحيدي سنة ١٨٥ هـ (٨٠٠م).

لتسكين ألم المريض أكثر من احتياله لشفاء المرض أكثر شهرة عند عوام الناس . .

وينبغي للطبيب أن يوهم المريض الصحة ويرجّيه بها وإن كان هو غير واثق بذلك لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس . .

وينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء فإنّ من تطبَّب عند أطباء كثيرين أوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم . أما الطبيب الواحد فإن خطأه في جنب صوابه يسير جداً » .

وكل جملة مما سبق تدل على علم غزير وحكمة غالية نحن في أشد الحاجة إليها اليوم . .

فلا شك أن أغلب الناس يظنون أن المرض هو الشعور بالألم وأن زوال الألم معناه زوال العلة . . وليس الأمر كذلك . . فأغلب الأمراض مثل السرطانات ، وخاصة في أول امرها ، لا تسبب ألماً . . وتسكين الألم لا يعني أن المرض قد زال . . والبول السكري وضغط الدم قد يكونا موجودين بدون أي أعراض . . كذلك تصلب الشرايين . ونرى المريض ، وخاصة في هذه البلاد[1] ، ربما يزور خمسة أو ستة أطباء مختلفين في بضعة أيام وأحياناً في خلال يومين فقط . .

ويعرف ذلك كل من له علاقة بمهنة الطب في هذا البلد . . وذلك من الأشياء الضارة والدالة على الجهل . . إذ أن انتقال المريض من طبيب إلى آخر واستعماله هذا الدواء يوماً أو بعض يوم ثم انتقاله إلى دواء آخر وهكذا . . مما يسبب عللاً وأمراضاً جديدة فوق ما هي موجودة عند المريض . .

وفي أغلب الأحيان لا يعلم الطبيب الثاني ما وصف الطبيب الأول . . وفي الأدوية الحديثة تعارض وتضاد فيحصل بذلك مرض أشد من المرض الذي جاء يشكو منه المريض . .

وقد لاحظنا أن أغلب تلك الحالات التي تكثر الانتقال إنما تعاني من أمراض بسيطة مثل الأنفلونزا والنزلات الشعبية والدوسنتاريا وما شابه ذلك . .

---

(١) المقصود المملكة العربية السعودية .

ولو صبر المريض على الدواء بضعة أيام لشفي ، ولكنه يستعجل ذهاب الألم أو الحمى ، فلا يقرُّ له قرار فتراه في الصباح في مستشفى وفي المساء في عيادة . . بل قد رأيت من المرضى من ذهب إلى عدة مستشفيات وعدة أطباء في يوم واحد !!

وهذا كما يقول الرازي ، المتوفى سنة ٣٢١هـ (أي منذ أكثر من ألف عام) : يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم . . أما الطبيب الواحد فإن خطأه في جنب صوابه يسير جداً . .

وملاحظة الرازي للأطباء بأن يوهموا المريض الصحة ويرجُّوه بها لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ملاحظة جديرة بالاهتمام . . فإن العامل النفسي في مقاومة المرض عامل هام جداً . . وينبغي للطبيب أن يراعي هذه النقطة . . وفي نفس الوقت قد يحتاج إلى نوع من الحزم لمنع المريض من عاداته السيئة مثل التدخين وخاصة لمريض القلب أو ضغط الدم أو البول السكري . . أو الالتهابات الرئوية أو النزلات الشعبية فإنها جميعاً تسوء عاقبتها بالتدخين . .

استعمال حبوب منع الحمل دون إرشاد الطبيب

في معظم أقطار الدنيا يمنعون صرف « حبوب منع الحمل » إلا بوصفة طبية ، ليس لأنهم يحرصون على زيادة النسل ، ولا لأنهم يخافون من استخدامها بواسطة الآنسات او للتخفيف من سعار الجنس . . كلا ، دافعهم للمنع ببساطة طبي بحت . .

أمّا نحن هنا ، وفي بعض البلاد العربية والإسلامية ، حيث يقول الرسول صلوات الله عليه : « تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم » والذين نعاني ، وخاصة في الجزيرة العربية ، من نقص شديد في السكان حيث تبلغ الكثافة السكانية في الجزيرة شخصين لكل كيلو متر مربع[1] ، فإننا نقوم بتطبيق الحديث الشريف بطريقة المشي على الرأس . . أي أن حبوب منع الحمل تستخدم بدون قيود تقريباً . وسنترك هنا الجوانب الشرعية والاقتصادية لانتشار استعمال الحبوب . . وبما أني طبيب فإني أحب أن أدافع عن وجهة نظر الأطباء، والتي تتلخص في منع استعمال حبوب منع الحمل إلاّ بوصفة طبية . .

وليس الدافع لي في ذلك هو أن أزيد من عدد المراجعين للعيادات الطبية حتى يتسنى للزملاء زيادة دخلهم في فترة الركود الحالية التي يعاني منها

---

(١) بلغ عدد سكان المملكة في احصاء ١٩٧٤ سبعة ملايين منهم اكثر من ثلاثة ملايين أجنبي وافد. وبما أن مساحة المملكة اكثر من مليوني كم٢ فإن الكثافة السكانية تصبح أقل من شخصين لكل كيلومتر مربع ، ومع حدوث زيادة في السكان فإن الكثافة تبلغ ثلاثة أشخاص لكل كيلومتر مربع .

الكثيرون . . ولكن هدفي هو توضيح بعض أهم المضار الطبية لاستعمال الحبوب بدون إرشاد طبي .

وأول هذه المضارّ : زيادة الجلطات في الأوردة والشرايين . . وخاصة لدى السيدات اللائي يعانين من الدوالي أو تاريخ جلطة سابقة . . وأخطر هذه الجلطات هي التي تصيب شرايين القلب أو تلك التي تصيب الشريان الرئوي أو أحد فروعه أو الجلطة التي تصيب أحد شرايين الدماغ .

وثاني هذه المضار : ارتفاع ضغط الدم . . فإذا كانت المرأة التي تستعمل الحبوب تعاني من ارتفاع في ضغط الدم فإن ذلك يسبب زيادة كبيرة في مضاعفات هذا المرض .

وثالثها البول السكري : فإذا كانت المرأة التي تستعمل الحبوب تعاني من البول السكري أو لديها تاريخ عائلي بوجود مرض السكر في أحد والديها أو أخوتها فإن استخدام الحبوب يزيد من فرصة ظهور هذا المرض إذا لم يكن قد ظهر بعد . . كما يزيد من جميع مضاعفاته إذا استخدمت الحبوب المذكورة. وترفع هذه الحبوب نسبة السكر في الدم حتى لدى أولئك النسوة اللائي لا يعانين من مرض السكر . . فكيف بأولئك اللائي يعانين منه ، مما يجعل التحكم في هذا المرض أكثر صعوبة من ذي قبل .

ورابعها أمراض الكبد . . وما أكثر أمراض الكبد في عالمنا الإسلامي . . نتيجة انتشار البلهارسيا والتهاب الكبد الفيروسي . . وحبوب منع الحمل الشائعة (وهي تحوي عادة الأستروجين) تؤثر على وظائف الكبد تأثيراً سيئاً وربما سببت اليرقان .

وخامسها الأمراض النفسية وخاصة الكآبة والقلق وهما سمة هذا العصر . . والحبوب بذاتها تزيد من الكآبة والقلق . . فإذا استخدمتها امرأة تعاني من هذه الأمراض كانت كالطامة الكبرى .

وسادسها البدانة . . فإن الحبوب تزيد في الغالب من الاتجاه إلى البدانة .

وسابعها التدخين . . فإن مضار التدخين تتضاعف على هيئة متواليات هندسية مع استعمال حبوب الحمل . .

وثامنها : أن تكون المرأة قد جاوزت سن الخامسة والثلاثين ، ومن النادر أن تجد امرأة تعترف بهذه الحقيقة . . ولهذا يعتبر هذا الشرط أصعبها تحقيقاً . . وربما حرصت بعض النسوة اللائي جاوزن هذه السن فعلاً على استخدامها لمجرد إثبات أنهن لم يبلغنها بعد !!

والسبب في وضع حد فاصل بين ما قبل الخامسة والثلاثين وما بعدها أن جميع المضاعفات السابق ذكرها ، وخاصة الجلطات والتحول السرطاني ، تزداد بعد هذه السن .

وتاسعها : أن تكون المرأة ، التي تريد استخدام حبوب منع الحمل ، قد أصيبت من قبل بتورم في الثدي أو المبايض أو الرحم . . حتى لو كان ذلك الورم حميداً وقد تم استئصاله ذلك لأن هذه الأورام تزداد باستعمال الحبوب ، وربما عادت وبصورة سرطانية !!

وعاشرها : أن تكون المرأة التي تستخدم الحبوب تعاني من مرض من أمراض الغدد الصماء ، مثل الغدة الدرقية أو الغدة الكظرية أو النخامية .

ولا أرى من حاجة إلى إطالة القائمة فإن هذه العشر هي من أهم الحالات التي ينبغي فيها عدم استعمال حبوب منع الحمل . .

ولا بد إذن من الذهاب إلى الطبيب حتى يقرر هل يمكن استعمال الحبوب أم لا .

ورغم أن وزارة الصحة الموقرة . . قد أصدرت أمراً بعدم بيع حبوب منع الحمل ، وقائمة طويلة من الأدوية والعقاقير ، إلا بوصفة طبية ، إلا أن الواقع اليومي يدل على أن هذه التعليمات لا تتبع إلا فيما يخص الأدوية المنومة والمهدئة . .

وقد قمت بسؤال بعض الصيدليات عن كيفية بيع حبوب منع الحمل ،

فاتضح لي من خلالها أن بعض من يعملون بهذه الصيدليات لم يسمعوا بهذه التعليمات . أما أولئك الذين علموا بها فإنهم يضطرون إلى البيع خوفاً من المشاكل مع الجمهور . . وقد قص علي بعضهم ما واجهه من شتائم عندما رفض بيع مضاد حيوي إلا بوصفة طبية . .

وهذا الأمر يحتاج إلى جهود في توعية الجمهور إلى مغاب استعمال الأدوية بدون إرشاد من الطبيب . . وياحبذا لو قامت الوزارة بالتعاون مع أجهزة الإعلام ببث برامج تليفزيونية وإذاعية حول هذا الموضوع الحيوي .

كما أنه يحتاج إلى مزيد من الرقابة فإن الله قد يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

إن هناك طرقاً عديدة لمنع الحمل مارسها الإنسان منذ القدم . . وقد استحدثت وسائل جديدة في القرن العشرين ، واتسع نطاق استخدام هذه الوسائل حتى أصبح عدد اللواتي يستخدمن وسائل منع الحمل يعد بالملايين بل بمئات الملايين . . ومع هذا فإن الحمل قد يحدث رغم استخدام وسائل منع الحمل إذا أراد الله ذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء » أخرجه مسلم . وطرق منع الحمل كثيرة نوجزها فيما يلي :

أ ـ طرق تمنع وصول الحيوانات المنوية الى عنق الرحم .

١ ـ الجماع بدون إيلاج .

٢ ـ العزل (Coitus Interruptus) .

٣ ـ استعمال الرفال (Condom) وهو يغطي الإحليل .

٤ ـ استعمال الحواجز والقلنسوة (القبعة الهولندية) (Diaphragms and Caps) .

٥ ـ استعمال المراهم واللبوس (Suppositories)والدوش المهبلي .

ب ـ تنظيم الجماع : بحيث يقع في أول الدورة وآخرها ويتجنب وسطها الذي تخرج فيه البويضة من المبيض . . والذي يقع عادة في اليوم الرابع عشر قبل بدء الحيض من الدورة التالية .

ج ـ طرق تمنع المبيض من إفراز البويضة : وأهم هذه الطرق هو حبوب منع الحمل التي ظهرت عام ١٩٥٦ والتي تستعملها حالياً أكثر من مائة مليون

إمرأة في العالم[1] .

د ـ استعمال أداة داخل الرحم (اللولب) I.U.D : ويعتقد أن اللولب يعمل بواسطة منع علوق البويضة الملقحة في جدار الرحم .

ويقال أن العرب في الصحراء هم الذين ابتكروا هذه الطريقة حيث كانوا يدخلون أحجاراً صغيرة في رحم الناقة عندما يريدون السفر الطويل ويخشون عليها من أن تحبل . . ويقدر عدد النساء اللائي يستخدمن هذه الطريقة بخمسين مليون إمرأة في العالم نصفهن في الولايات المتحدة الأمريكية[2] .

هـ ـ الرضاعة: تعتبر الرضاعة من الوسائل الفسيوليجية لمنع الحمل . . وهي طريقة موغلة في القدم . . وقد وجد أن إفراز البرولاكتين (Prolactin) من الغدة النخامية (Pituitary gland)، وخاصة إذا كانت المرأة تعاني من نقص في التغذية ، يؤدي إلى منع إفراز البويضة . . وهذه الطريقة قد هيأها الله تعالى للمرأة في الأزمنة الغابرة والحاضرة لمنع الحمل أثناء الرضاع بصورة فسيوليجية . . إلا أن هذه الطريقة نسبة الفشل فيها عالية . ولذا فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن وطء المرضع وسماه وطء الغيلة وأنه يدرك الفارس فيدعثره . وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتلوا أولادكم سراً فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره من فوق فرسه »[3] .

ثم أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم وطء المرضع عندما رأى أنه لا يضر أمتين قويتين آنذاك هما الفرس والروم وكانوا يفعلونه .

عن أسامة بن زيد (رضي الله عنه) أن رجلاً جاء الى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : إني أعزل عن امرأتي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تفعل ذلك ؟ فقال الرجل : أشفق على ولدها . فقال

---

(1) Hexagon Vol 4, No. 5 - 1976 .
(2) Times May 26, 1980 .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٦/٤٥٣ ، ٤٥٨ وأبو داود في كتاب الطب باب الغيل ٤/١٣ ، وابن ماجه في السنن كتاب النكاح باب الغيل ١/٦٤٨ .

الرسول : «لو كان ذلك ضاراً لضر فارس والروم » أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده[٤] .

وقد أزال العلماء التعارض الظاهر بين الحديثين . ومن أحسن ما كتب ما قاله ابن القيم في زاد المعاد ثم في مفتاح دار السعادة[٥] . فقد أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم أن وطء المرضع يضعف المولود حتى أن ذلك الضعف قد يدركه وهو على فرسه فيدعثره فأرشدهم إلى تركه ولم ينه عنه نهياً قاطعاً . ولما رأى أن الإمساك من وطء النساء مدة الرضاع ، ولا سيما من الشباب وأرباب الشهوة التي لا يكسرها إلا مواقعة نسائهم ، يؤدي إلىٰ مفسدة أعظم . . رأى صلى الله عليه وسلم أن دفع المفسدة الأعظم أهم من دفع المفسدة الأصغر . . وقد رأى أن الغيل (وطء المرضع) لا يضر أمتين قويتين هما فارس والروم فعندئذٍ أرشد إلى مواقعة المرضع .

و ـ التعقيم : ويتم تعقيم الرجل بقطع الحبل المنوي في الجهتين . . وقد انتشرت هذه الطريقة في الهند خاصة عندما أمرت تنفيذها قسراً أنديرا غاندي وأدى ذلك إلىٰ اضطرابات كثيرة وسقوط حكمها آنذاك .

أما تعقيم المرأة فقد يتم بإزالة الرحم أو المبايض وذلك عند إصابة هذه الأعضاء بمرض خطير . . أو نزف شديد . . أو ورم حميد أو خبيث .

كما يتم عادة بربط وقطع قناتي الرحم (Tubal Ligation) .

ومن المعلوم أن ربط الحبل المنوي من الجهتين وقطعه لا يؤدي إلىٰ العقم مباشرة ، ولا بد من مرور ثلاثة أشهر علىٰ الأقل قبل التأكد من أن الرجل أصبح عقيماً . . ومع هذا فإن هناك نسبة لا يستهان بها بقيت لهم قوة الإخصاب رغم قطع الحبل المنوي من الجهتين حتىٰ بعد مرور فترة طويلة من الزمن .

وكذلك فإن هناك نساء عديدات حملن رغم ربط الأنابيب (قناتي الرحم) وقطعها وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول**

---

(٤) صحيح مسلم كتاب النكاح باب جواز الغيلة ومسند أحمد ٥/٢٠٣ .

(٥) زاد المعاد ٤/١٨ ومفتاح دار السعادة ٢/٢٧٠ .

له كن فيكون ﴾ ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء » أخرجه مسلم .

ز ـ الإجهاض : قد يعتبر بعضهم الإجهاض أحد وسائل منع الحمل . . وهناك ٢٥ مليون حالة إجهاض جنائي (Induced orcriminal Abortion) في العالم سنوياً(*) . . ورغم أن هذه أبشع الوسائل لمنع الحمل فإنها للأسف لا تزال واسعة الانتشار .

وتختلف وسائل منع الحمل في درجة نجاحها فبعضها ذات نسبة نجاح عالٍ مثل حبوب منع الحمل وربط الأنابيب واللولب ، وبعضها ذات نسبة فشل كبيرة تصل إلى ٣٠ بالمئة مثل العزل والرضاعة .

سياسة منع الحمل في البلاد الإسلامية (عربية وأعجمية)

بما أن الإسلام شجع على التناسل والنكاح ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم » رواه أبو داود والنسائي والحاكم . وفي رواية « تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم » . . والأحاديث والآيات الحاثة على الزواج والتناسل كثيرة جداً فإن سياسة منع الحمل أو ما يسمى تنظيم الحمل ، والذي تقوم به كثير من الدول في البلاد الإسلامية (عربية وأعجمية) ، هي سياسة خاطئة تضاد مقاصد الشريعة من كثرة التناسل والزواج والبحث عليهما .

والأغرب من ذلك أن تقوم بعض الدول (المسلمة) بإكراه النساء على وسائل منع الحمل دون مراعاة لأدنى نصيب من إنسانية الإنسان وكرامته . . ففي بعض البلاد العربية ، التي تبذل كل جهدها في نشر وسائل منع الحمل بكافة الطرق ، يقوم الطبيب بإدخال اللولب .I.U.D إلى رحم المرأة عند قيامه بفحصها دون علمها ولا رغبتها ولا موافقتها !! وذلك تنفيذاً لأوامر الدولة !! وهو أمر يجافي أبسط المبادىء الإنسانية .

كما أن هذه الدول تستدين مئات الملايين من الدولارات لتنفيذ سياسة

(*) تذكر التقديرات الحديثة أن العدد قد تضاعف وأصبح اكثر من ٥٠ مليون حالة اجهاض يتم بفعل فاعل سنوياً في العالم .

منع الحمل . . وتوجه إعلامها لنشر هذه الوسائل والدعوة إليها . . والسخرية من الحمل وكثرة النسل .

وإذا علمنا أن إسرائيل تشجع سكانها على التناسل . . وبدرجة مثيرة للتقزز ، عندما وقف بيجن وطلب من الإسرائيليات أن ينجبن سواء كان ذلك بطريق شرعي أو غير شرعي ، إذا علمنا ذلك أدركنا أن أعداء الإسلام يعملون دائبين على منع الحمل بين المسلمين ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلاً .

وفي البلاد الإشتراكية (الشيوعية) تقوم الدولة بتشجيع الحمل إلا بين الفئات الإسلامية . . ففي الإتحاد السوفيتي مثلاً انزعج المسؤولون انزعاجاً شديداً عندما رأوا أن المسلمين في آسيا الوسطىٰ (جمهوريات أوزبكستان ، طادجكيستان، قازاقستان ،قرغيزيا وتركمنستان) وفي جمهورية أذربيجان وبقية مناطق القوقاس ، يتكاثرون بنسبة تبلغ ضعف ما عليه الروس والأوكران . . وهم يعملون بكافة الوسائل لنشر منع الحمل بين المسلمين وزيادة الحمل بين الروس والأوكران وبقية المجموعات غير المسلمة .

وتقدم الدولة في الغرب وفي الإتحاد السوفيتي كافة المعونات للنساء الحوامل والمرضعات ، وتخفف الضرائب عن الأسر التي تعول أطفالاً عديدين . . وكلما زاد عدد الأطفال كلما خففت الضرائب وزادت المعونة من الدولة علىٰ هيئة غذاء مجاني للأطفال . . بينما تقوم الدولة هناك بفرض ضرائب مرهقة علىٰ غير المتزوجين وعلىٰ الأسر بغير أطفال . وأشد هذه الدول الغربية انزعاجاً من قلة النسل هي الدولة الألمانية حيث انخفض أطفال الأسرة الواحدة في المعدل إلىٰ ١,٦ ومعنىٰ ذلك ببساطة أن سكان ألمانيا (من الألمان) سينخفضون تدريجياً ويواجهون مشكلة الانقراض إذا استمر انخفاض التناسل علىٰ ما هو عليه . .

ولا شك أن ارتفاع عدد السكان في أوربا ، في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل العشرين ، هو الذي مكّن لهذه الدول أن تبسط سيطرتها ونفوذها على مناطق العالم . وإذا علمنا أن كثرة النسل وزيادته في بريطانيا قد أدت إلىٰ أن يستوطن البريطانيون أستراليا ونيوزيلندة وكندا والولايات المتحدة وبالتالي يفرضوا سيطرتهم ولغتهم وثقافتهم علىٰ تلك البلاد الشاسعة .

ونظرة إلىٰ الوراء توضح لنا سكان بريطانيا . . ففي عام ١٤٠٠ م كان عدد سكانها لا يجاوزون مليونين فقط ، وفي عام ١٥٠٠ بلغوا ثلاثة ملايين ، وفي عام ١٦٠٠ بلغوا خمسة ملايين ، وفي عام ١٧٠٠ بلغوا سبعة ملايين ، وفي عام ١٨٠٠ بلغوا عشرة ملايين ثم حدثت الطفرة التي جعلت بريطانيا الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ففي عام ١٨٤٧ بلغ عدد السكان ٢٠ مليوناً ، وفي عام ١٨٨٢ قفزوا إلىٰ ثلاثين مليوناً ، وفي أوائل القرن العشرين (١٩١١) كانوا قد قفزوا إلىٰ رقم ٤٠ مليوناً . . وفي عام ١٩٥١ وصلوا إلىٰ ٥٠ مليوناً[٥] ، وفي عام ١٩٧٨ كان عدد السكان قد تجاوز ٥٦ مليوناً . .[٦] .

وإذا قارنّا الجزيرة البريطانية بالجزيرة العربية ، من حيث المساحة والسكان ، فإننا سنذهل للفارق الكبير بينهما . فبينما نجد سكان المملكة العربية السعودية لا يتجاوزون ثمانية ملايين بمن فيهم الأجانب ، نجد سكان بريطانيا قد تجاوزوا ٥٦ مليوناً . . وبينما نرى مساحة المملكة العربية السعودية تبلغ ٢,٢٤٠,٠٠٠ كليو متراً مربعاً نجد أن مساحة المملكة المتحدة (إنجلترا وويلز واسكوتلندة وشمال إيرلندة) تبلغ ٢٤٤,١٠٤ كيلو متراً مربعاً . .

وتذكر دائرة المعارف البريطانية[٧] أن سكان المملكة العربية حسب إحصاء عام ١٩٧٤ كانوا ٧,٠١٢,٦٤٢ (بمن فيهم الأجانب الذين قدروا بأكثر من ثلاثة ملايين) . أما الكثافة السكانية فتبلغ في المملكة ٣,١ لكل كيلو متر مربع (وإذا أخذنا الرقم بالنسبة للسعوديين فهو أقل من شخصين لكل كيلو متر مربع[*]) .

وبالمقارنة فإن الكثافة السكانية في المملكة المتحدة حسبما ذكرته دائرة

---

(5) Hawkins and Elders: Human Fertility Control P 466, Buttey Worths - London, 1979 .

(٦) من كتاب « التحكم في الخصوبة الإنسانية » Hawkins, Elders: Human Fertility Control . PP. 446 Butterworths- London- 1979.

(٧) الميكروبيديا المجلد ٨/ ٩٢٠ طبعة ١٩٨٢ .

(*) قدّر عدد سكان المملكة في بداية ١٩٨٨ باثني عشر مليوناً منهم قرابة أربعة ملايين أجنبي ، وتكون الكثافة السكانية بذلك أربعة سعوديين لكل كيلومتر مربع .

المعارف البريطانية[٨] كانت ٣, ٢٢٩ في كل كيلو متر مربع .

أما عدد المواليد في المملكة العربية السعودية فكانوا (في الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥) ٥, ٤٩ لكل ألف من السكان . أما عدد الوفيات فكانوا ٢, ٢٠ لكل ألف من السكان أي أن الزيادة هي ٣, ٢٩ لكل ألف نسمة من السكان .

وسجل معدل الأعمار في المملكة بـ ٤٤ عاماً للذكور و ٤٦ عاماً للإناث (دائرة المعارف البريطانية)[٩] .

وبالمقارنة فإن معدل الأعمار في المملكة المتحدة هو ٧٠ عاماً للذكور و ٧٦ عاماً للإناث .

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية وكندا (أمريكا الشمالية) فقد كان عدد سكانها عام ١٧٥٠ م مليون نسمة فقط . وبعد قرن واحد (أي عام ١٨٥٠ م) بلغوا ٢٦ مليون نسمة . . وبعد قرن آخر بلغ عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية (بدون كندا) أكثر من ١٦٦ مليوناً . . وهذا ما أعطى الولايات المتحدة الزخم السكاني وحولها من مستعمرة لبريطانيا في القرن التاسع عشر إلى أعظم دول الأرض قاطبة في القرن العشرين . . وقد ارتفع السكان ارتفاعاً حثيثاً في هذه الفترة ولا يزال ارتفاع معدل السكان عالياً ، فقد زاد السكان عام ١٩٧٢ إلى ٢٠٩ مليون نسمة[١٠] . . وفي عام ١٩٨٠ بلغ عدد السكان أكثر من ٢٣٠ مليوناً . وبالمقارنة فإن كندا التي تبلغ مساحتها ٩, ٩٧٦, ١٣٩ كيلو متراً مربعاً فإن سكانها حسب إحصاء ١٩٧١ كانوا أقل من ٢٢ مليوناً[١١] .

وهذا ما جعل الولايات المتحدة التي تقل مساحتها عن مساحة كندا دولة عظمى بينما نرى كندا دولة من الدرجة الثالثة .

ويقدر عدد سكان العالم العربي عام ١٩٧٦ بـ ١٤٦ مليوناً[١٢] بينما بلغ

---

(٨) الميكروبيديا المجلد ١٠/٢٦٦ طبعة ١٩٨٢ . (٩) المجلد ٨/٩٢٠ .

(١٠) الميكروبيديا المجلد ١٠/٢٧٠ .

(١١) الميكروبيديا المجلد ٢/٤٩٦ .

(١٢) كتاب أحوال السكان في العالم العربي للدكتور عزت النصر .

سكان العالم ٤٠٤٥ مليوناً في نفس العام . وبما أن مساحة العالم العربي تشكل عُشْر $\frac{1}{10}$ مساحة اليابسة من الكرة الأرضية فإن سكان العالم العربي ينبغي أن يكونوا أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة .

وبما أن الموارد النفطية والمعدنية والزراعية في البلاد العربية كبيرة جداً فإن تقارير الجامعة العربية تؤكد أن البلاد العربية تستطيع أن تضاعف عدد سكانها دون أن تجد أي صعوبة في إطعامهم وإسكانهم وإيجاد العمل المناسب لهم ، إذا استغلت الطاقات العظيمة الموجودة حالياً ، وإذا نظمت الأمور تنظيماً دقيقاً نسبياً علىٰ التعاون والتكامل بين كافة الأقطار العربية[١٣] . وقد جاء في تقرير برنامج الأمن الغذائي الذي أصدرته المنظمة العربية للتنمية الزراعية بالجامعة العربية أغسطس ١٩٨٠ ما يلي :

١ ـ إن حجم الموارد الطبيعية سواء كانت الأرضية أو المائية يعد كافياً للوفاء باحتياجات الأمة العربية في المستقبل القريب والبعيد .

٢ ـ إن آفاق التنمية الزراعية واسعة وإمكانياتها متاحة بلا حدود فيمكن زيادة الموارد المائية السطحية من ١٣٩ مليار متر مكعب إلى ٢٠٢ مليار متر مكعب وذلك بالتحكم فقط في فواقد الأنهار الحالية وتنفيذ مشروعات التخزين السنوي والمستمر . وكذلك نستطيع أن نضاعف مياهنا الجوفية المستغلة من ١٢ مليار إلىٰ ٢٥ مليار متر مكعب سنوياً . . وعلىٰ ذلك يمكن مضاعفة المساحة المروية سنوياً إذ يمكن زيادتها من نحو ١٢,٥ مليون هكتار إلىٰ ٢١,٦ مليون هكتار عام ٢٠٠٠ الأمر الذي يشير إلىٰ أن هناك إمكانيات هائلة لتنمية إنتاج الغذاء خاصة إذا استُغلت هذه الموارد على الوجه الصحيح .

٣ ـ إن مساحة الأرض الصالحة للزراعة في الوطن العربي تبلغ ٢٣٦ مليون هكتار لا يُستغل منها حالياً سوىٰ ٤٦ مليون هكتار . ويعتمد منها علىٰ الأمطار ٨٠٪ من هذه المساحة وينخفض التكثيف الزراعي علىٰ هذه

---

(١٣) برنامج الأمن الغذائي ـ جامعة الدول العربية المنظمة العربية للتنمية الزراعية . اغسطس ١٩٨٠ .

الأراضي المطرية بحيث لا يتعدى ٥٠٪ وهو معدل ضئيل للغاية .

ويستعرض ذلك البحث الضخم المكون من ٨ مجلدات كيفية الاستفادة من الإمكانيات الزراعية الهائلة المتاحة وغير المستغلة حالياً كما يورد إحصائيات دقيقة عن الموارد المائية الممكنة في الدول العربية من مصادرها المختلفة ، والتي تبلغ ٢٣٨ مليار متر مكعب ، والذي لا يُستغل منها حالياً سوى ١٥٦ مليار وبطرق بدائية تسبب عدم الاستفادة حتى من هذه الكمية المستخدمة .

كما يتحدث الباحثون بعمق عن مصادر الثروات الحيوانية وكيف يمكن مضاعفتها عدة مرات وكذلك الثروات السمكية والدواجن وغيرها .

وخلاصة البحث أن البلاد العربية تستطيع أن تعتمد على نفسها في إطعام سكانها حتى لو تضاعفوا إذا استخدمت الموارد المتاحة بطرق فنية جيدة وبتعاون وثيق بين مختلف الدول العربية .

ويكفي أن تعلم أن السودان وحدها إذا استغلت إمكانياتها الزراعية والحيوانية تستطيع أن تطعم العالم العربي بأكمله . . وهي تحتاج إلىٰ أموال وإلى وفرة سكانية يمكن أن تأتيها من مصر التي تعاني من زيادة نسبية في السكان . ولهذا فقد أسمت الدوائر المطلعة السودان « سلة الخبز » للعالم العربي(*) .

إذن نخلص من هذا إلى أن سياسة منع الحمل التي تسير عليها الدول العربية والإسلامية الأخرى هي سياسة خاطئة علمياً ودينياً وديموجرافياً .

منع الحمل على مستوى الأفراد :

إذا قررنا أن سياسة منع الحمل على مستوىٰ الدولة سياسة خاطئة فإننا نعتقد أن موضوع منع الحمل علىٰ المستوى الفردي يختلف تمام الاختلاف عن موضوع سياسة منع الحمل على مستوىٰ الدولة .

يقرر الإسلام أهمية الحمل والتناسل وما يكون فيهما من أجر للوالدين

(*) من المضحك المبكي أن سلة الخبز هذه عانت من المجاعة ولا تزال منذ عام ١٩٨٥ .

وخاصة الأم ، ويعتبر الإسلام مشقة حملها وولادتها مثل مشقة الجهاد . . ولها في ذلك مثل أجر المجاهد .

ومع هذا فإن وسائل منع الحمل يمكن أن تمارس بشرط :

١ ـ أن لا تكـون وسـائل دائمة أي تؤدي إلى العقم مثل قطع الأنابيب وربطها وقطع الحبل المنوي وربطه أو استئصال الرحم ما لم يكن هناك سبب طبي قوي جداً لذلك الإجراء .

٢ ـ أن لا يعقب استخدام وسائل منع الحمل خـطر وضرر على صحة المـرأة التي تستخـدمها . . فمثـلاً لا ينصح بـاستخدام حبـوب منع الحمـل في الحالات التالية :

١ ـ أمراض القلب وضغط الدم .

٢ ـ أمراض الكلىٰ .

٣ ـ أمراض الكبد .

٤ ـ امرأة بلغت سن الخامسة والثلاثين فما فوقها .

٥ ـ البول السكري .

٦ ـ إمـرأة أصيبت بنوع من أنـواع السرطـان وخاصـة سرطـان الثـدي وعولجت منه .

٧ ـ إمرأة أصيبت بجلطة أو تخثر في الدم .

٨ ـ الأمراض النفسية مثل الكآبة والقلق والشيزوفرانيا .

٩ ـ تزداد أضرار حبوب منع الحمل مع التدخين إذ أن كلاهما يؤثر على شرايين القلب والدماغ والأطراف وكلاهما يزيد من احتمال الإصابـة بالجلطات .

وتعتبر الوسائل الفسيوليجية هي أسلم الوسائل لمنع الحمل وهي العزل أي القـذف خارج الرحم . . وتنظيم الجمـاع بحيث يتجنب فترة نـزول البويضة . . والرضاعة . أما الوسائل الميكانيكية فهي قليلة الضرر مثل الرفال (Condon) والحواجز والقبعة وهذه الوسائل جميعها نسبة الفشل فيها عـالية إذ تتراوح ما بين ١٠ بالمئة إلىٰ ٣٠ بالمئة . وتـرتفع نسبـة النجاح في استعمـال اللولب ولكن محاذير اللولب كثيرة وهي :

١ ـ إن طريقة عمل اللولب ، وهو منع العلوق ، يعتبر نوعاً من الإجهاض المبكر جداً . . ويحرمه الإمام مالك والظاهرية (ابن حزم) .

٢ ـ النزف المتكرر .

٣ ـ آلام شديدة عند بعض النساء في الظهر وأسفل البطن .

٤ ـ إلتهابات ميكروبية في الجهاز التناسلي .

٥ ـ إنثقاب الرحم وهو أمر نادر الحدوث ولكنه خطير .

٦ ـ إنغراز اللولب في جدار الرحم .

٧ ـ قد يطرد الرحم اللولب دون أن تشعر المرأة فتحمل .

٨ ـ تزداد نسبة الحمل خارج الرحم مع وجود اللولب.

٩ ـ حدوث الحمل رغم وجود اللولب (بنسبة ٦٪) .

المسوغات لتنظيم النسل :

١ ـ الخشية علىٰ حياة الأم أو صحتها من الحمل والولادة إذا أخبر بذلك طبيب ثقة .

٢ ـ الخشية في وقوع حرج دنيوي قد يفضي إلىٰ حرج في دينه فيرتكب المحظور من أجل الأولاد .

٣ ـ الخشية علىٰ الأولاد أن تسوء صحتهم أو تضطرب تربيتهم .

٤ ـ الخشية علىٰ الرضيع من حمل جديد .

وقد أورد الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين[١٤] النيات الباعثة علىٰ العزل وقال هي خمس :

الأولى : في الإماء . . لأن حمل الأمة (الجارية) يمنع التصرف فيها حيث تصبح أم ولد .

---

(١٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : إحياء علوم الدين مجلد ٢/ كتاب النكاح ص ٥١ ـ ٥٣ طبعة دار المعرفة بيروت .

الثاني : استبقاء جمال المرأة واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق . . وتكرر الحمل والولادة وهذا ليس منهي عنه .

الثالث : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة ودخول مداخل السوء . .وهذاغير منهي عنه فإن قلة الحرج معين علىٰ الدين .

الرابع : الخوف من الأولاد الإناث .

الخامس : أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع وكان ذلك عادة الخوارج .

وهاتان النيتان (الرابع والخامس) نيتان فاسدتان ولا يجوز العزل من أجلهما .

الأحاديث الواردة في العزل :

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا نعزل علىٰ عهد رسول اللَّه والقرآن ينزل . . أخرجه البخاري ومسلم، وزاد مسلم : فبلغ ذلك رسول اللَّه فلم ينهنا .

٢ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه : غزونا مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم غزوة بني المصطلق فسبينا كرائم العرب فطالت علينا العزبة ورغبنا في الفداء فأردنا أن نستمتع ونعزل فقلنا نفعل ذلك ورسول اللَّه بين أظهرنا لا نسأله فسألنا رسول الله فقال : « لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلىٰ يوم القيامة إلا ستكون » . أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه والدارمي وأحمد .

٣ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رجلاً أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا (وفي رواية سانتينا وهي بمعناه) وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل فقال : إعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قُدِّر لها . فلبث الرجل ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حبلت ، فقال: «قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قُدِّر لها » رواه مسلم وابن ماجه وأحمد والدارمي .

٤ ـ عن جابر بن عبد الله قال: «قلنا يا رسول الله كنا نعزل فزعمت اليهود أنه المؤودة الصغرىٰ . فقال : كذبت اليهود . إن الله إذا أراد خلقه لم يمنعه» وفي رواية « إذا أراد الله خلقه لم تستطع رده » أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داود .

٥ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن العزل عن الحرة إلا بإذنها . رواه أحمد في مسنده .

٦ ـ قال رجل في مجلس عمر ، رضي اللّٰه عنه : العزل كالوأد . فقال الإمام علي وكان حاضراً المجلس : لا تكون مؤودة حتىٰ تمر عليها التارات (وفي لفظ الأطوار) السبع : حتىٰ تكون سلالة من طين ثم تكون نطفة ثم تكون علقة ثم تكون مضغة ثم عظاماً ثم تُكْسىٰ لحماً ثم تكون خلقاً آخر . فقال عمر رضي الله عنه : صدقت أطال الله بقاءك . (ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم) .

وقد أباح أصحاب المذاهب الأربعة العزل عن الأمة برضاها وبدون رضاها ، كماأباحوا العزل عن الزوجة الحرة برضاها لأن لها حقاً في الولد . ولكن جاء في مذهب الأحناف : « إن خاف فساد الولد لسوء الزمان فله أن يعزل بغير رضاها . وكذلك إذا كانت الزوجة سيئة الخلق ويريد فراقها مخافة أن تحبل »[١٥] .

وأما المالكية والحنابلة فقالوا لا يجوز له أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها لأن لها حقاً في الولد[١٦] . وقال ابن قدامة : ظاهر كلام أحمد وجوب الاستئذان من الزوجة ويحتمل أن يكون مستحباً لأن حقها في الوطء دون الإنزال .

وأما الشافعية فأباحوا العزل عن الزوجة علىٰ قولين أحدهما إنه يجب

---

(١٥) حاشية ابن عابدين ٢/٥٢١ .

(١٦) المنتقي شرح الموطأ للباجي ٤/١٢٨ وكتاب قضية تحديد النسل لأم كلثوم يحيىٰ مصطفىٰ الخطيب . . والحلال والحرام في الإسلام للشيخ يوسف القرضاوي والمغني لابن قدامة .

إذنها والقول الآخر إنه لا يجب إذنها لأن لها حقاً في الوطء فقط[١٧] .

وأما الظاهرية فقال ابن حزم (أبو محمد) : « لا يحل العزل عن حرة ولا أمَة »[١٨] .

ومما تقدم يتضح أن المذاهب الأربعة علىٰ إباحة العزل علىٰ ما ذكرنا من نياته الباعثة له، كما ذكرها الإمام الغزالي في الإحياء، مع اشتراط موافقة الزوجة ورضاها عند أغلب الفقهاء ، لأن لها حقاً في الولد ، ولحديث عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن العزل عن الحرة إلا بإذنها » رواه أحمد .

فلا مسوغ إذن لمنع هذه الرخصة والتشدد فيها كما فعل بعض العلماء المحدثين مثل الإمام أبو الأعلىٰ المودودي في كتابه حركة تحديد النسل ، والباحثة أم كلثوم يحيىٰ مصطفىٰ الخطيب في رسالتها التي نالت بها الماجستير من كلية الشريعة جامعة الأزهر « قضية تحديد النسل في الشريعة الإسلامية » ، حيث حددوها فقط بوجود سبب طبي قوي وحيث رفضوا البواعث الأخرى التي ذكرها العلماء وأقروها .

---

(١٧) المجموع شرح المهذب للنووي ١٥/٥٧٧ .
(١٨) المحلى لابن حزم ١٠/٨٧ .

مدة الحمل وأقله وأكثره في الطب والشرع والقانون

بحث مقدم الى مؤتمر الطب الاسلامي الرابع، بكراتشي ـ باكستان (٥ ـ ٩ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ = ٩ ـ ١٣ نوفمبر ١٩٨٦م).

مدة الحمل الطبيعية :

تعتبر مدة الحمل الطبيعية ٢٨٠ يوماً ، تحسب من بدء آخر حيضة حاضتها المرأة ، ذلك لأن الحساب منذ التلقيح أمر يصعب إدراكه بل ويصعب في بعض الأحيان سؤال المرأة عنه .

وبما أن التلقيح يكون في حوالي اليوم الرابع عشر منذ بدء الطمث فإن مدة الحمل الحقيقي تتراوح بين ٢٦٦ و ٢٧٠ يوماً ، كما تذكره دائرة المعارف البريطانية[١] .

وإذا أخذنا مدة الحمل بالأشهر الهجرية (والشهر الهجري يتراوح بين ٢٩ و ٣٠ يوماً) فإن مدة الحمل هي ٢٩,٥ × ٩ = ٢٦٥,٥ أي (٢٦٦) يوماً تقريباً ، وهي نفس المدة التي يذكرها الأطباء لمدة الحمل .

ولهذا فإن الحساب بالشهر الهجري يكون أدق وأسهل من التعامل بالشهر الميلادي . وطريقة الحساب بالشهر الميلادي تكون كالآتي :

يحسب ميعاد بداية آخر حيضة حاضتها المرأة قبل الحمل ويضاف إليه سبعة أيام ثم تضاف تسعة أشهر ميلادية (أو تخصم ثلاثة أشهر ميلادية) .

أما الشهر الهجري فتحسب بداية آخر حيضة حاضتها المرأة قبل الحمل ويضاف إليها أربعة عشر يوماً ثم تضاف تسعة أشهر هجرية (أو تخصم منها ثلاثة أشهر هجرية) .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٥ (١٩٨٢) ج ١٤/٩٦٩ (باللغة الانجليزية) .
Encylopedia Britanica Vol 14 P 969, 15 th Edition, 1982 .

وسواء كان الحساب بالشهر الميلادي أو الهجري فإن موعد الـولادة لا يطابق الحساب إلا في ٥ بالمئة فقط من جميـع حالات الـولادة ، ولكن هذه النسبة ترتفع إلى ٢٥ بالمئة في حدود أربع أيام ، قبل أو بعد الموعد المحدد بالحساب . فإذا كانت المدة أسبوعاً قبل أو بعد موعد الحساب ازدادت النسبة إلى ٥٠ بالمئة فإذا كان الموعد أسبوعين قبل أو بعد الموعد المحدد بالحساب فإن ٩٥ بالمئة من النساء يضعن حملهن في هذه الفترة (نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية)[١] .

أقل مدة للحمل في الطب :

لقد كان الأطبـاء إلى الستينات من القـرن العشرين يحـددون أقل مـدة يمكن أن ينـزل فيها الـطفل ويعيش هي ٢٨ أسبـوعاً . ولـلأسف فـإن دائـرة المعارف البريطانية ، حتى عام ١٩٨٢ ، تحدد ٢٨ أسبوعاً كـأقل مـدة يعيش فيها الجنين بمساعدة طبية ، وجعلت أقل مدة للحمل المكتمل ٢٥٠ يوماً[١] . وقد اعتبر الأطباء أن المولود لستة أشهر يمكن أن يعيش إذا وضع في المحضن وقدمت له الوسائل الطبية الحديثة ، إذ أن العائق الأساسي هو في وجود غشاء هلامي زجاجي في الأسنـاخ (الحويصـلات) الرئـوية (Hyaline membrane) وذلك يمنع تنفس المولود الخداج (المبتسر) (Preamature) .

ويقول مرجع مرك الطبي[٢] : إن أقل مدة يمكن أن يعيش فيها المولود الخداج هي عشرين أسبوعاً فما فوقها ، أو أن يكون وزن المـولود خمسمـائة جرام فما فوقها ، بشرط أن يجد المولود العناية الطبية المركَّزة الحديثة .

وقـد ذكرت الصحف (جـريدة البـلاد)[٣] مولـد طفـل ، في مستشفى الولادة بجدة ، عمره ستة أشهر ووزنه ستمائة جرام وقد عاش ذلك الطفل .

---

(٢) مرجع مرك الطبي العملي الطبعة (١٣) ١٩٧٧ ص ٩٤٩ (باللغة الانجليزية)
The Merk Mannal 13 th Edition, 1977 , Merk and Co. Inc. New Jersy U.S.A., PP. 949 .

(٣) جريدة البلاد السعودية في ١٣٩٩/١/٢٤ هـ موافق ١٩٧٨/١٢/٢٤ .

أقل الحمل في الفقه الإسلامي :

لقد أجمع الفقهاء ، أو كادوا ، على أن أقل مدة يعيش فيها الجنين هي ستة أشهر . وهم قد سبقوا الأطباء بذلك بأربعة عشر قرناً من الزمان ذلك أن أول من استنبط هذا الحكم هو الإمام علي كرم الله وجهه .

قال ابن قدامة في المغني[٤] (وهو من أهم مراجع الحنابلة) :

« وأقل مدة الحمل ستة أشهر ، لما روى الأشرم ، بسنده عن أبي الأسود، أنه رفع إلى عمر أن امرأة ولدت لستة أشهر فهمَّ عمر برجمها فقال له علي : ليس لك ذلك . قال الله تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ فحولان وستة أشهر ثلاثون شهرا، لا رجم عليها. فخلّى عمر سبيلها وولدت لذلك الحد (أي ستة أشهر) مرة أخرى . ورواه الأشرم أيضاً عن ابن عباس . وذكر ابن قتيبة أن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر . وهذا قول مالك والشافعي وأصحاب الرأي وغيرهم »[٤] .

وقد رُوِيَت هذه الحادثة أنها وقعت في زمن عثمان ، رضي الله عنه ، وأن علياً ، كرَّم الله وجهه ، ذكر الأدلة من كتاب الله بأن ذلك ممكن . ذكره القرطبي[٥] في تفسيره وابن كثير في تفسيره[٦] وغيرهما . وقال ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن[٧].

« أما أقل الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر » . ثم ذكر عن جالينوس أنه شاهد امرأة ولدت في ١٨٤ يوماً . والمقصود بالأشهر القمرية (وهي ٢٩ أو ثلاثون) فتكون ٢٩,٥ × ٦ = ١٧٧ يوماً . فإذا حسبت

---

(٤) ابن قدامة (موفق الدين) المغني ج ٧/٤٧٧ (الطبعة الموسعة ج ٩ /١١٥ ـ ١١٧) .

(٥) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) الجامع لأحكام القرآن ، تفسير سورة الأحقاف ، آية ١٥ .

(٦) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي) تفسير القرآن الكريم ، سورة الأحقاف ، آية ١٥ (مكتبة الحلبي القاهرة) .

(٧) ابن القيم (محمد بن أبي بكر) التبيان في أقسام القرآن (مكتبة القاهرة) ، ص ٢٤٧ .

من بداية آخر حيضة حاضتها المرأة أضيف إليها ١٤ يوماً فتكون (١٩١) يوماً.

أقل الحمل في القانون :

ذكرت دائرة المعارف البريطانية[١] أن أقل الحمل ، الذي يمكن أن يعيش ، هو ٢٨ أسبوعاً (١٩٦ يوماً) ، فإذا كان المقصود بذلك الحساب من بداية آخر حيضة حاضتها المرأة قبل الحمل فإنه لا يفترق عن حساب الأشهر القمرية الستة إلا بخمسة أيام فقط .

وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية[١] أن أقل مدة لحمل جنين كامل هي ٢٥٠ يوماً (ولم تحدد إن كان ذلك منذ التلقيح أو منذ آخر حيضة حاضتها المرأة) .

والغريب حقاً أن يعتبر القانون المصري أقل الحمل تسعة أشهر . يقول الدكتور زكريا البري في كتابه (الأحكام الأساسية للمواريث والوصية الواجبة في الفقه والقانون)[٨] : « وقد أخذ القانون (أي المصري) بهذه الأحكام وهو أن أقل مدة الحمل تسعة أشهر محافظة على حق الحمل واتباعاً للأغلب وقدَّر تسعة الأشهر بالأيام (٢٧٠) يوماً حتى لا تختلف الأحكام بشأنها » .

ويقول أيضاً[٨] : « فجاء نص المادّه الثانية » : يجب لاستحقاق الورث تحقق حياة الوارث وقت موت المورِّث ، أو وقت الحكم باعتباره ميتاً . ويكون الحمل مستحقاً للإرث إذا توافر فيه ما نص عليه في المادة ٤٣ من ولادته حياً في مدة معينة .

« ولما كانت مدة بقاء الحمل في بطن أمه تختلف من حمل لآخر إذ تكون الولادة لأقل مدة الحمل أحياناً » . ويعلق الدكتور زكريا البري بقوله[٨] : « وجاء في مذهب الإمام أحمد ، كما ورد عن ابن تيمية ، أن أقل مدة الحمل تسعة أشهر . ويقول الكمال في فتح القدير : إن العادة المستمرة كون الحمل أكثر من ستة أشهر ، وربما تمضي الدهور ولا يسمح بولادة لستة أشهر » .

---

(٨) د . زكريا البري : الأحكام الأساسية للمواريث والوصية الواجبة في الفقه والقانون ، إصدار معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة.

ولم يذكر الدكتور البري أين قال ابن تيمية إن أقل الحمل في مذهب الإمام أحمد هو ستة أشهر . وأما ما ذكره الكمال في فتح القدير فليس فيه ما ينفي أن يقع الحمل لستة أشهر ، وكون ذلك نادراً لا ينفي وقوعه ولا الحكم بأن أقل الحمل تسعة أشهر .

ولا شك أن موقف القانون المصري هذا مصادم ومناقض للطب والشرع كلاهما معاً .

والمذهب الحنبلي يقول مثل بقية المذاهب الإسلامية بأن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر (انظر ما نقلناه عن المغني لابن قدامة والتبيان لابن القيم) .

ورغم هذا فإن محكمة الاسكندرية قد حكمت ، في القضية رقم ١٢٨ في ١٩٥٦/١١/١٨ ، بأن نسب المولود إلى أبيه يثبت حتى لو كان الحمل أقل من ستة أشهر متى ما أقرَّ الأب ببنوة الطفل له ، ولا يمكن للأب أن يرجع في إقراره متى فعل ذلك[٩] .

وفي الهند وباكستان لا تعترف المحاكم بأقل من مدة الحمل وهي ستة أشهر ، كما هو متبع في الشرع ، بل تعتبر النسب لصاحب الفراش ولو تزوج صاحب الفراش منذ بضعة أسابيع فقط . ولكن باكستان منذ عام ١٩٦٥ بدأت تعود لاعتبار أقل الحمل ستة أشهر وذلك ما حكمت به المحاكم هناك باعتبار أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريعات في باكستان[٩] .

أكثر الحمل :

أما أكثر الحمل عند الأطباء فلا يزيد عن شهر أو نحوه بعد موعد الولادة وإلا لمات الجنين في بطن أمه ، ويعتبرون ما زاد عن ذلك خطأً في الحساب . . ومن النادر جداً أن يتمادى الحمل إلى سنة كاملة .

وأما كتب الفقه فمشحونة بحكايات المولودين لثلاث وأربع وخمس

---

(9) Isam Ghanem : Islamic Medical Jurisprudence, C.V Arthur Probsthain, London, 1982 , PP 44 - 54 .

عصام غانم ، الطب الشرعي الإسلامي (باللغة الانجليزية) ص ٤٤ ـ ٥٤ .

وسبع سنوات ، وكلها حكايات لا سند لها من الصحة ، إذ قد تكون المرأة راغبة في الحمل فتنتفخ بطنها ، وقد تغيب عادتها الشهرية لقوة الوهم وتأثيره النفسي عليها ، فتقول إنها حامل ويصدّقها من حولها . . وبعضهن يحضن ، وبما أن الحامل تحيض عند الشافعية فإنها تستمر في حيضها سنيناً ثم يشاء الله تعالى فتحمل حملاً حقيقياً ، فإذا ولدت حسبت مدة الحمل من بداية توهمها . لذلك اختلف الفقهاء في أقصى مدة الحمل ، فمنهم من جعلها سنتين مستدلين بحديث عائشة (موقوف عليها) : « ما تزيد المرأة في الحمل على سنتين قدر ما يتحول ظل عمود المنزل » . وهو قول الأحناف ورواية في مذهب أحمد .

وذهب الليث بن سعد إلى أنه ثلاث سنوات ، وذهب الشافعية إلى أنه أربع سنوات ، وهو أصح الأقوال في مذهب أحمد ، وقول في مذهب المالكية . وذهب المالكية إلى أنه خمس سنين استناداً إلى بعض الأخبار من ولادة فلان وفلان لخمس سنوات وقد أنبتت أسنانه .

ومما يزيد الأمر تعقيداً أن هناك أسناناً كاذبة يمكن أن تظهر على المولود لتسعة أشهر ، فإذا كانت المرأة قد مضت عليها فترة وهي في الحمل الكاذب (Pseudocysis) ثم حملت بعد ذلك وولدت طفلاً ، قد ظهرت بعض أسنانه ، فإن ذلك يعتبر دليلاً قوياً لديهم بصحة حسابهم وأن الحمل قد كان فعلاً لمدة سنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو سبع سنوات ، وهو قول الزهري .

وحالات الحمل الكاذبة منتشرة جداً في المجتمعات البسيطة ، وقد شاهدت بنفسي عشرات النساء ، وأغلبهن من اليمن (الشمالية والجنوبية) ؛ وهن يزعمن بأنهن حوامل لسنتين أو أكثر وما بهن من حمل ، بل هن واقعات في الوهم المعروف باسم الحمل الكاذب (Pseudocysis) ، وفي أغلب الأحوال يكون الزوج قد هدد زوجته بأنه سيتزوج إن لم تحمل ، فلا يكون أمامها ، من حل لاشعوري ، إلا بأن تكون حاملاً .

وقد يحدث أن إحداهن تحمل بعد ذلك حملاً حقيقياً فتحسب مدة الحمل من بداية الوهم .

قال ابن قدامة في المغني[٤] (ج / ١١٧) :

« سأله : قال : « ولو طلقها أو مات عنها فلم تنكح حتى أتت بعد طلاقه أو موته بأربع سنين لحقه الولد وانقضت عدتها » .

ظاهر المذهب (أي مذهب أحمد) أن أقصى مدة الحمل أربع سنين . به قال الشافعي ، وهو المشهور عن مالك . وروي عن أحمد (بن حنبل) أن أقصى مدته سنتان ، وروي ذلك عن عائشة ، وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة ، لما روت جميلة بنت سعد عن عائشة : لا تزيد المرأة عن السنتين في الحمل . ولأن التقدير إنما يُعلم بتوقيت أو اتفاق ولا توقيف ها هنا ولا اتفاق إنما هو على ما ذكرنا ، وقد وجد ذلك ، فإن الضحاك بن مزاحم وهرم بن حيان حملت أم كل واحد منهما به سنتين . وقال الليث (بن سعد) : أقصاه ثلاث سنين ، حملت مولاة لعمر بن عبد الله ثلاث سنين . وقال عبّاد بن العوام : خمس سنين. وعن الزهري قال : قد تحمل المرأة ست سنين وسبع سنين . وقال أبو عبيد : ليس لاقصاه حدٌّ يوقف عليه .

ولنا أن ما لا نص فيه يرجع فيه إلى الوجود ، وقد وجد الحمل لأربع سنين ، فروى الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس : حديث جميلة بنت سعد عن عائشة لا تزيد المرأة على السنتين في الحمل . قال مالك : سبحان الله من يقول هذا ؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل أربع سنين قبل أن تلد . وقال الشافعي : بقي محمد بن عجلان في بطن أمه أربع سنين . وقال أحمد : نساء بني عجلان يحملن أربع سنين . وامرأة عجلان حملت ثلاث بطون، كل دفعة أربع سنين. وبقي محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين ابن علي ، في بطن أمه ، أربع سنين ، وهكذا إبراهيم بن نجيح العقيلي . حكى ذلك أبو الخطاب .

وإذا تقرر وجوده وجب أن يُحكَّم ولا يزاد عليه لأنه ما وجد ولأن عمر ضرب لامرأة المفقود أربع سنين ، ولم يكن ذلك إلا لأنه غاية الحمل . وروي ذلك عن عثمان وعلي وغيرهما . إذا ثبت هذا فإن المرأة ولدت لأربع سنين فما دون من يوم موت الزوج أو خلافه ، ولم تكن تزوجت ولا وطئت عدتها

بالقروء ولا بوضع الحمل فإن الولد لاحق بالزوج وعدتها منقضية به .

وأن أتت بالولد منذ مات ، أو بانت منه بطلاق أو فسخ أو انقضاء عدتها، إن كانت رجعية ، لم يلحقه ولدها لأننا نعلم أنها علقت بعد زوال النكاح والبينونة منه . وكونها قد صارت منه أجنبية فأشبهت سائر الأجنبيات. ومفهوم كلام الخرقي أن عدتها لا تنقضي به لأنه لا ينتفي عنه بغير لعان فلم تنقض عدتها منه بوضعه ، كما لو أتت به لأقل من ستة أشهر منذ نكحها . قال أبو الخطاب هل تنقضي به العدة ؟ على وجهين » .

ومما تقدم يتبين أن ليس لدى الفقهاء الأجلاء من دليل في مدة الحمل سوى الوقائع . والوقائع كما يدلنا عليها الطب مبنية على وهم الحمل ثم تحمل المرأة فتلد فتحسب المدة منذ بداية وهم الحمل لا من مدة الحمل . وقد وجدنا ذلك في كثير من الحالات وتبيَّن عند الفحوص المخبرية أنهن لسن حوامل . ثم قد يحدث لإحداهن أن تحمل بعد مدة من وهم الحمل (الحمل الكاذب Pseudocysis) .

وقد يموت الجنين في بطن المرأة فيتكلس (أي تترسب فيه أملاح الكالسيوم) ، ويبقى بعد ذلك سنيناً وهو أمر معروف في الطب ، ويسمى الإجهاض المختفي . ولكن الطب لا يقر أن يعيش الجنين في البطن سنيناً .

وقد أنكر الظاهرية ، وعلى رأسهم الإمام أبو محمد علي بن حزم ، قول الفقهاء القائلين بتمادي الحمل إلى سنين . قال في المحلى[١٠]:

«لا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر، ولا أقل من ستة أشهر لقول الله تعالى : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ فمن ادعى حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال ، وردَّ كلام الله عز وجل جهاراً » .

وبعد أن ذكر أقاويل الفقهاء المختلفة في مدة الحمل ، التي أوصلها الزهري إلى سبع سنوات ، قال ابن حزم : « وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة

---

(١٠) ابن حزم (أبو محمد علي) المحلى ج ١٠/٣١٦ طبعة دار الفكر بيروت .

إلى من لا يصدق ولا يعرف من هو ، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا » .

ونحن لا نتهم هؤلاء بالكذب ، كما فعل ابن حزم ، بل نتهمهم بالوهم كما قد رأيناه في حالات عديدة بأنفسنا حيث تظن المرأة أنها حامل وتجزم بذلك وجميع الفحوصات الطبية تؤكد أنها غير حامل .

وقد تنبه ابن حزم الى أن الجنين قد يموت في الرحم ويبقى فيه سنيناً قال : « ألا إن الولد قد يموت في بطن أمه فيتمادى بلا غاية حتى تلقيه متقطعاً في سنين . فإن صح فلا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله إلا أنه لا يوقف له ميراث ولا يلحق أصلاً لأنه لا سبيل إلى أن يولد حياً . ولو سعت عند تيقن (موته) ذلك في إسقاطه بدواء لكان مباحاً لأنه ميت بلا شك » .

ويتفق الطب الحديث مع ابن حزم اتفاقاً كاملاً تاماً من كل وجه في هذه المسألة .

ويقول الدكتور زكريا البري في كتابه « الأحكام الأساسية للمواريث والوصية الواجبة في الفقه والقانون »[٨] .

« وذهب محمد بن عبد الحكم الفقيه المالكي إلى أن أكثر مدة الحمل سنة هلالية كما ذهب الظاهرية إلى أن أكثرها تسعة أشهر عملاً بالغايب » .

الوضع القانوني والشرعي في البلاد الإسلامية في الوقت الراهن :

تختلف البلاد الإسلامية (عربية وأعجمية) في تقديرها لأقصى مدة للحمل ، ففي المملكة العربية السعودية ، حيث يُعمل بالمذهب الحنبلي ، فإن الحمل المعتبر هو أربع سنوات . ويذكر الأستاذ عصام غانم في كتابه (Islamic Medical Jurisprudence)[٩] ، أن قاضي مكة مصطفى بن عبد القادر العلوي قد حكم لخديجة ، التي طلقت من زوجها في ٢٩ جمادى الأخرى ١٣٦٢ هـ ، بأن ولدها الذي أنجبته ، بعد مرور أربع سنوات من طلاقها ، حكم بنسبه لزوجها السابق ، وكذلك حكم لأختها ، التي ولدت بعد مرور خمس سنوات من وفاة زوجها ، بأن الولد ينسب لأبيه المتوفى قبل خمس سنوات!!! وقد اتجهت معظم الدول الإسلامية (عربية وأعجمية) إلى الأخذ

بما تأخذ به المحاكم الغربية من أن أقصى مدة الحمل هي سنة شمسية .

يقول الدكتور زكريا البري في كتابه[٨] الأحكام الأساسية للمواريث والوصية الواجبة في الفقه والقانون : «واعتبر (أي القانون) أقصى مدة الحمل سنة ميلادية . فنصت المادة ٤٣ على أنه (إذا توفّى الرجل عن زوجته أو عن معتدته فلا يرثه حملها إلا إذا ولد حياً لخمسة وستين وثلاثمائة يوم على الأكثر من تاريخ الوفاة أو الفرقة ، ولا يرث الحمل غير أبيه إلا في الحالتين الآتيتين :

الأولى : أن يولد حياً لخمسة وستين وثلاثمائة يوم على الأكثر من تاريخ الموت أو الفرقة إن كانت أمه معتدة موت أوفرقة ، ومات المورث أثناء العدة .

الثانية : أن يولد حياً لسبعين ومائتي يوم على الأكثر من تاريخ وفاة المورث ، وإن كان من زوجيّة قائمة وقت الوفاة

وبينت المذكرة الإيضاحية أن القانون أخذ برأي محمد بن عبد الحكم ، من علماء المالكية ، الذي نقله عنه ابن رشد في كتابه بداية المجتهد ، وهو أن أكثر مدة الحمل سنة ، للأسباب التي بينت بالمذكرة التفسيرية للقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ حيث تقول : (ولما كان رأي الفقهاء ، في ثبوت النسب ، مبنياً على رأيهم في أقصى مدة الحمل ، ولم يبنِ أغلبهم رأيه إلا على أخبار بعض النساء بأن الحمل مكث كذا سنين ، والبعض الآخر كأبي حنيفة بنى رأيه في ذلك على أثر ورد عن السيدة عائشة يتضمن أن أقصى مدة الحمل سنتان وليس في أقصى مدة الحمل كتاب ولا سنة ، فلم تر الوزارة مانعاً من أخذ رأي الأطباء في المدة التي يمكنها الحمل ، فأفاد الطب الشرعي بأنه يرى أنه عند التشريع يعتبر أقصى مدة الحمل ٣٦٥ يوماً حتى يشمل جميع الأحوال النادرة) . والمراد بالسنة عنده (أي محمد بن عبد الحكم) السنة الهلالية (٣٥٤ يوماً) فرئي أن تكون سنة شمسية عدد أيامها ٣٦٥ يوماً للاحتياط الذي أخذ به القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ . فإذا مات شخص عن زوجته الحامل ورث من أبيه إذا ولد حياً في مدة ٣٦٥ يوماً على الأكثر من تاريخ وفاة الأب لأن نسبه يثبت من أبيه المتوفى ، وذلك دليل على وجوده في بطن أمه وقت الوفاة .

وإذا مات شخص عن معتدته الحامل ورث الحمل من أبيه إذا ولد في مدة ٣٦٥ يوماً على الأكثر من تاريخ الطلاق لأن نسبه يثبت من أبيه، وذلك دليل على وجوده في بطن أمه وقت الطلاق فيكون موجوداً وقت الوفاة .

فإذا كانت الولادة بعد ٣٦٥ يوماً من تاريخ الوفاة أو الطلاق لم يرث الحمل لأنه لم يكن موجوداً وقت الوفاة أو الطلاق » أ . هـ .

ومنذ عام ١٩٢٩ سار القانون المصري على اعتبار أكثر مدة للحمل هي سنة شمسية . أما قبل ذلك فكان القانون يعتبر أقصى مدة للحمل هي عامين ، بناء على ما جاء في مذهب الأحناف ، وقد حكمت محكمة الجمالية الشرعية بالقاهرة في ١٩٢٧/١٠/٢٢ بذلك[٩] .

واتخذت بعض الدول العربية تغييرات مماثلة إلى حد ما ، على ما يجري عليه القانون المصري المادة ٢٥ لعام ١٩٢٩ .

وقد أصدرت السودان في مارس ١٩٣٥ المنشور القضائي رقم ٤١ ، والذي بموجبه صارت أقصى مدة للحمل سنة شمسية ، وأصدرت سوريا قانوناً مماثلاً عام ١٩٥٣ وتونس عام ١٩٥٧ والمغرب عام ١٩٥٨ واليمن الديمقراطية الشعبية (عدن) عام ١٩٧٤[٩]

وفي القانون المغربي يذكر الأستاذ عصام غانم ، أن الحمل إذا بلغ سنة شمسية فإن المحكمة، في حالة الشك ، تأخذ برأي الخبراء من الأطباء في هذا الباب[٩].

وفي القانون التونسي تحدد أقصى مدة للحمل كذلك بعام واحد ، كما يجوز للزوج أن يرفض نسبة الولد له ، بناء على ما يقدمه من أدلة ، وللمحكمة ، إذا اقتنعت بهذه الأدلة، أن ترفض نسب المولود وتفرق بين الزوجين[٩] .

ورغم أن القانون المصري (المادة رقم ٧٨ لعام ١٩٣١) ينص على أن الزواج لا يكون معترفاً به إلا إذا سجل في وثائق رسمية ، إلا أن المحكمة ، في ١٩٥٧/١/٢٠ ، حكمت بالنسب للمولود بناء على اعتراف الزوج بالزواج العرفي[٩].

ولا يحدد القانون الأردني لعام ١٩٥١ ، والقانون العراقي لعام ١٩٥٩

حداً أعلى لمدة الحمل[١٠]، ولا بد لنفي الولد من إثبات عدم اتصال الزوج بالزوجة مطلقاً. ولهذا فقد حكم القاضي علاء الدين خروفة، قاضي المحكمة الشرعية السنية بالبصرة ، بنسب الولد لأبيه رغم أنه ولد بعد الطلاق بعامين كاملين بناء على مذهب الأحناف . والغريب حقاً أن القاضي لم يسمع لمحامي المطلقة ، التي ادعت أن زوجها كان عقيماً . ولقد نظر القاضي فقط للقاعدة الشرعية وهي أن الولد للفراش وأنه ولد بعد عامين من الطلاق (وهي أقصى مدة الحمل عند الأحناف)، وأن أباه لم ينكره. ورغم أن الزوجة اتهمت نفسها بطريقة غير مباشرة بالزنا وأن زوجها عقيم إلا أن القاضي أثبت النسب للرجل الذي طلقها منذ عامين .

وفي الاتحاد السوفيتي يذكر بنجنسن[٩] ، في كتابه الإسلام في الاتحاد السوفيتي ، أن القانون هناك يمنع الزواج بأكثر من واحدة ، وهذا ما يسجل رسمياً ، بينما يقوم بعض الأهالي بالتزوج بأخرى بعقد غير رسمي لدى الملا (عالم الدين) . ويسجل أبناء الزوجة الجديدة بأنهم أبناء للأولى لأن القانون لا يسمح إلا بالزواج بواحدة ، (عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي خمسين مليوناً) .

وقد قامت تونس عام ١٩٥٧ بمنع تعدد الزوجات واعتبار الزواج بامرأة ثانية جريمة يعاقب عليها القانون في الوقت الذي يسمح فيه القانون للزوج باتخاذ أي عدد من العشيقات . .

وكذلك قامت اليمن الديمقراطية الشعبية بإصدار نفس القانون التونسي إلا أن تنفيذه بواجه كثيراً من الصعوبات .

وفي تنجانيقا ، التي كانت مستعمرة بريطانية ، فإن أقصى الحمل هو أربع سنوات، حيث يؤخذ في هذه النقطة بالمذهب الشافعي (والحنبلي أيضاً) . فإذا طلق رجل زوجته وحملت أثناء هذه المدة ولم تتزوج وولدت في تلك الفترة (أي خلال أربع سنوات) فإن الزوج قد يدّعي بأن الولد له ، فتقوم المطلقة بنفي ذلك وتقول أنها زنت . وبما أن القانون لا يعاقب على الزنا في حالة الطلاق فإنها بذلك تستطيع أن تنفي الولد وهذا ما يحدث بالفعل في المحاكم هناك[٩] .

وهكذا تجدالمشاكل طريقها إلى المجتمعات الإسلامية (عربية وأعجمية) ، لأن المحاكم تحكم في موضوع الأحوال الشخصية في معظم الأحيان بالشريعة الإسلامية ، بينما ترفض أحكام الشريعة في موضوع الحدود مثل الزنا والربا والخمر الخ . .

وينتج عن هذا التناقض تلك الحالات الغريبة التي ذكرنا طرفاً منها . .

وبالنسبة لأقصى مدة الحمل فإن على الفقهاء أن يأخذوا بقول الطب ، خاصة وأنه لا يوجد في هذه القضية نص من كتاب الله ولا من سنة رسوله وإنما هي اجتهادات حسب وقائع الأحوال .

ووقائع الأحوال ، كما يشهد بذلك الطب ، لا تتفق مع القول بأن أكثر الحمل عامين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو سبعة بل تحدد أن أقصى ما يمكن أن يكون هو سنة ميلادية تحسب منذ لحظة الوفاة أو الطلاق .

وقائع من العيادة (*)

١ ـ منع الحمل عند بداية الزواج :

قالت بعد ان اخذت مكانها هي وزوجها : قرأت لك مقالاً تتحدث فيه عن أخطار حبوب منع الحمل بدون وصفة طبية . . وأنا أريدك أن تكشف وتقرر الحبوب المناسبة .

قلت: حاضر . . فقط أحب أن أسألكم كم لديكم من الأطفال ؟

قالت : ليس لدينا أطفال ونحن تزوجنا قريباً .

قلت : عجباً . . ليس لديكم أطفال وتريدين منع الحمل ، لماذا ؟

قالت : أنا مشغولة بالدراسة في الجامعة . . فهل هناك بأس من تأجيل الحمل إلى حين الانتهاء من الدراسة ؟

قلت : من الناحية الطبية لا أظن أن هناك مشكلة . . لكن لا بد من التأكد أولاً أنه لا يوجد لديك أو لدى زوجك مانع طبيعي للحمل؟

قالت : ماذا تقصد ؟

قلت : ربما يكون أحدكما عقيماً ، فلماذا تأخذين حبوب منع الحمل إذن ؟

وكأنما وقع كلامي عليهما وقع الصاعقة ، فامتعقت الوجوه وامتعضت الشفاه . . . وساد الغرفة وجوم . . . فواصلت حديثي ، محاولاً التخفيف :

أقصد هناك حالات نادرة نسبياً . . حصل فيها ما قلته . . وهو أن الزوجة

(*) هذه مجموعة من المقالات الصغيرة نشرت تحت عنوان (وقائع من العيادة) في صحيفة المدينة المنورة (جدة).

تأخذ مانعاً للحمل ويكون الزوج عقيماً . . أو تكون هي ذاتها عقيمة ، وهي في نفس الوقت تستعمل منع الحمل . .

أرجو أن لا يزعجكم كلامي هذا . . . ولكن ألا ترون أنني محق فيما أقول ؟

قال الزوج المثقف : قد يكون الحق مراً .

قلت : لا داعي للظنون ، وسنبدأ بك . أرجو أن تذهب لتحليل السائل المنوي . . . وتعود إلي بالنتيجة . .

فذهبا ثم عادا في اليوم التالي وصاح فرحاً جذلاً : انظر هذا هو التحليل سليم مائة في المائة .

قلت : مبروك . والآن جاء الدور عليك يا سيدتي ، سأبعثك إلى الزميلة أخصائية أمراض النساء والولادة وسأكتب لها خطاباً بذلك . . . وأرجو أن تعودا إلي بالنتيجة .

قالت : كم ستستغرق هذه الفحوصات .

قلت : ربما أسبوع .

قالت : كثير جداً ، وليس لدي وقت لذلك . أرجو أن تصف لي الحبوب المناسبة لمنع الحمل .

قلت : لا بد من التأكد أولاً من عدم وجود مانع طبيعي قبل أن تقدمي على استخدام الحبوب سنوات عدة .

ورضخت أخيراً وذهبت إلى الزميلة أخصائية أمراض النساء ، ثم عادت بعد أسبوع ممتعقة الوجه متثاقلة الخطى وكأنما هموم الدنيا قد أثقلتها .

قلت لها : ما لك ؟

قالت : كل هذا بسببك . .

قلت : بسببي انا ؟

قالت : ألم ترسلني إلى أخصائية أمراض النساء ؟

قلت : بلى ، ولكن ما دخل هذا بحالتك ؟

قالت : أخبرتني أنني أعاني من العقم . . وأن الأنابيب مسدودة . .

قلت : ألم تخبرك أن هناك وسائل للمعالجة قد تفلح ؟

قالت : نعم ولكنها ليست مضمونة . .

قلت : عليك أن تجربي . . . وإن شاء الله نراك في المرة القادمة وأنت حامل .

فاستبشرت خيراً . . . وخرجت لتذهب إلى أخصائية أمراض النساء لتعالجها من العقم .

وفي أثناء خروجي من العيادة إلى منزلي سمعت رجلاً ينشد لنفسه .

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغيّر اللّه من حال إلى حال

فقلت في نفسي : ما أصدق هذا الشاعر !!

٢ ـ حبوب منع الحمل :

دخلت في مشية متثاقلة تنقل خطاها بصعوبة نتيجة لما تنوء به من أثقال على كاهلها وفي أردافها وعجزها . . وكلها تضغط على مفصل الركبة فتزيد من تباريحه وآلامه . .

قلت : تفضلي يا سيدتي :

جلست وهي تسب الروماتيزم . . وبعد أن أخذتُ تفاصيل أمراضها ، والكشف عليها ، تبين أنها تعاني ليس من الروماتيزم فحسب ولكنها تعاني أيضاً من قائمة طويلة تتصدرها السمنة وضغط الدم والبول السكري . .

ولما كان يبدو عليها بوادر الكهولة ، رغم أن سنها لم يتجاوز الأربعين ، إلا ببضع سنوات ، سألتها عن حبوب منع الحمل وهل تستعملها . .

فأجابت : نعم منذ اثني عشر عاماً . .

قلت : هل راجعت في هذه المدة طبيباً ؟

قالت : نعم ، لكنني لم أخبرهم عن حبوب منع الحمل ، ولم يسألني أحد عنها . . وقد كتبها لي في البداية أحد الأطباء ، منذ اثني عشر عاماً ، ثم سافر ذلك الطبيب واستمرّيت في استعمالها منذ ذلك الوقت . .

قلت : اسمحي لي يا سيدتي أن أشرح لك بعض المشاكل المتعلقة بحبوب منع الحمل :

إنها تزيد من حالة البول السكري وقد تكون سبباً له . . وكذلك تزيد من

حالة ضغط الدم وقد تكون أيضاً سبباً له . أما السمنة فدورها فيه معروف . . . وكذلك دورها في النرفزة وتوتر الأعصاب والكآبة . .

قالت : ولماذا كتبها لي الطبيب إذن؟

قلت : لعله عندما كتبها لك لم تكوني تعاني من السكر والضغط عندئذٍ . . ولعل وزنك أيضاً زاد خلال هذه المدة . . وكان عمرك ثلاثين سنة تقريباً . .

قالت : كل ذلك صحيح .

قلت : أما الآن فقد تغير الوضع ، زاد وزنك وظهر السكر وضغط الدم وعمرك قد تجاوز الأربعين ، وكل هذه أسباب قوية لتتركي حبوب منع الحمل . .

قالت : وما العمل إذا حملت لو تركتها؟

قلت : أكتب لك خطاباً للزميلة أخصائية أمراض النساء لترتب لك وسيلة أخرى مناسبة لمنع الحمل . . هذا إذا كانت المبايض لا تزال نشيطة بعد هذا الاستعمال الطويل لحبوب منع الحمل . . .

ولم أخبرها ببقية المخاطر المترتبة على استعمال حبوب منع الحمل ، لهذه الفترة الطويلة ، وخاصة بعد أن تجاوزت الأربعين وظهرت عليها أعراض السكر وضغط الدم والسمنة . . وكل هذه العوامل مسببة لانسداد الشرايين وجلطات القلب والدماغ . . كما أن استخدام الحبوب لفترة طويلة يزيد من احتمالات الإصابة بالأورام السرطانية وغير السرطانية في الثدي والرحم . . .

وقلت في نفسي وأنا اودعها : الشيء الحسن الذي فعلته ، أو بالأصح الذي لم تفعله ، هو أنها لم تدخن قط . . وإلا لكانت المصائب قد اجتمعت عليها من كل حدب وصوب . . .

٣ ـ نصائح مجانية :

في بلاد الغرب كثيراً ما يكتفي الطبيب ، بعد فحص المريض وإجراء الفحوصات له ، بتطمينه وعدم إعطائه أي وصفة طبية . . وللأسف فإن بعض

الأطبـاء ، الـذين درسـوا هنـاك ، يبـدو أنهم تعلمـوا هـذه العـادة السيئـة من أساتذتهم !! وأنهم ينوون قفل الصيدليات المنتشرة في بعض المناطق بحيث أنك تجد بين كل صيدلية وصيدلية صيدلية أخرى !

وأعترف أنني كنت (أقول كنت وبحمد الله شفيت الآن من هذه العادة) من هؤلاء الأطباء الذين يكتفون أحيانـاً بتطمين المـريض وإخباره بـأن مرضـه الموهوم لا يحتاج إلى أي علاج أو دواء على الأطلاق .

وجاءني ذات يوم مـريض يتصبب العرق منـه ، وهو يصف دقـات قلبه السـريعة وكتمـة النسم (ضيق التنفس)، ومجموعـة طويلة من الأعـراض. وبعد الفحص الـدقيق لم أجـده يعـاني من أي مـرض عضـوي . . لـديـه حـالـة قلق شائعة جداً .

وتوسمت في المريض درجـة من الثقافـة والذكـاء تسمح لي بممـارسة عادتي السيئة . . وبـدأت أشرح لـه أنه لا يعـاني من أي مرض في القلب أو الرئتين . . وأن الأمر لا يعـدو حالـة قلق ينبغي معرفـة سببه ومحـاولة التغلب عليه . . وأن خير علاج لهذه الحالة هو الصلاة وقراءة القرآن . . وأن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان يقـول لبلال : أرحنـا بها يـا بلال . . أي أرحنـا بالصلاة . . وإنها جعلت قرة عينه صلى الله عليه وسلم . . محـاضرة طـويلة ألقيتها على مسامعه . .

وبدت على أسارير المريض حالة انفراج مما يعانيه . . وابتسم وقال ، وهو يصافحني : أشكرك جداً على هذه النصائح الغالية . . شكراً ، شكراً . .

وخرج مهرولاً قبل أن يدفع أجرة الكشف والشرح الذي استغـرق أكثر من نصف ساعة . .

ــ تمهّل يا صديقي (محاولاً أن أعيده) إليّ أجرة الكشف لو سمحت .

فأجاب : لماذا .

ــ ألم أكشف عليك وتأخذ وقتاً ؟

فأجاب : نعم ولكنك لم تكتب لي وصفة طبية . . ولا أظنك تطلب أجراً على النصائح .

فكتمت غيظي وقلت له : صدقت .

ومن يومها تعلمت أن لا أكتفي بهذه الوصفة فقط . . وإلاَّ اضطررت لقفل عيادتي والتضور جوعاً .

٤ ـ قلة الشهية نعمة !!

دخلت المريضة تتهادى في مشيتها وهي تكاد ترزح تحت أثقال مئة كيلو جرام أو تزيد تشكل منعطفات من الدهن المتجمع حول أردافها وفي بطنها . . ومعها فرقة كاملة من الأهل والأقارب والجيران يشدون أزرها . .

(اتفضلوا استريحوا) قلت لهم حتى يأخذوا مقاعدهم وطلبت من العدد الإضافي الانتظار خارج غرفة الكشف . . تململ الأقارب والجيران واضطروا للانسحاب أمام إصراري على أن لا يبقى مع المريضة أكثر من ثلاثة لأن غرفة الكشف لا تتسع لهم جميعاً . . حتى وهم وقوف .

ـ خيراً يا سيدتي ماذا تشكين ؟

فأجاب الزوج والبنت في وقت واحد :

ـ يا دكتور . . مالهاش نفس للأكل . . نفسها مصدودة .

وكدت اضحك . تمالكت أعصابي .

ـ طيب اتفضلي على سرير الكشف . .

وفي أثناء الكشف لم ينقطع الزوج والبنت عن وصف حالتها السيئة ، فقد مضى عليها أسبوع وهي لا تأكل . وعند التدقيق اعترفت بأكل شوية مربى وعيش في الفطار . . ورز وفرخة في الغداء . . وحلاوة طحينية مع العيش والجبنة في العشاء . .

كيف أقول لهم الحقيقة المرة . . لقد علمتني التجارب أن أتلطف في مواجهة المرضى بالحقائق . إنها لا تعاني من شيء غير السمنة . . وإن ألم المفاصل ليس إلا بسبب ما تحمله من أثقال على ركبها وأقدامها . .

ـ اسمع يا عزيزي ـ توجهت بخطابي إلى الزوج لظني أنه سيكون من يتفهم الحقائق المرة ـ : «أحياناً تكون قلة الشهية نعمة» ورفع حاجبيه

استغراباً . . وهو يحاول أن يواصل احتجاجه قائلاً : إنها لا تأكل .

قلت: «حسناً . . إن عدم الأكل هو المطلوب . . كان المفروض أن نعطيها دواء يفقدها الشهية التي لا تحسد عليها . . وبدلاً من أخذ أدوية لها أضرار جانبية ، فإن خير ما تفعله هو أن تمتنع عن قائمة طويلة من الأطعمة» . .

احتجت المريضة وصرخت « أنت تريد تموتني» بعد ان استعمت إلى قائمة الأطعمة الممنوعة «لا يا سيدتي» أجبتها ولكن الذي سيموتك هو الدهن المتراكم على شرايين القلب وهنا بدأ الجميع يهدأ وينصت .

واقتنعوا أخيراً بأن يخرجوا بقائمة طويلة من الممنوعات من ألوان الطعام والشراب الشهي بدلاً من فاتح للشهية . . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . .

٥ ـ هل يجوز اسقاط الحمل قبل نفخ الروح ؟

دخلت إلى العيادة بصحبة زوجها شاحبة الوجه ، يبدو على سيماها القلق والضيق فما أن جلست حتى قالت : الم تعرفني ؟ قلت : بلى الست فلانة ؟ ما لي أراك قلقة ؟

قالت : تصور أنني حامل . . وأنت تعلم كم يتعبني الحمل ، ولدي طفل رضيع لم يجاوز العام إلا قليلاً . .

قلت : وماذا تريدين ؟

قالت : ارجوك إبعثني إلى أحد زملائك لإسقاط هذا الجنين الذي لا أريده . . ألا تستطيع أنت أن تعطيني دواء يسقطه ؟

قلت : لا أستطيع ولا أظن أحداً من الزملاء سيوافق على إسقاط جنينك ؟

قالت : لماذا ؟

قلت : لأنه حرام شرعاً وممنوع قانوناً . .

قالت : لا . ليس حراماً . . إنه لم ينفخ فيه الروح بعد . . وقد سمعت

في الإذاعة أحد الشيوخ يقول إن الروح لا تنفخ إلا بعد مائة وعشرين يوماً . . وإن الإسقاط قبل نفخ الروح جائز . . وأنا أتعب بالحمل ولدي طفل رضيع ، كما قلت لك . . وعندي أطفال وزوج وجميعهم يريدون رعاية . . وأنا المحتاجة الآن إلى الرعاية . .

قلت لها : يا سيدتي إن القلب يبدأ أول ضرباته بعد ثلاثة أسابيع من تلقيح البويضة (أي من بداية الحمل) وتبدأ الدورة الدموية في ذلك الوقت المبكر . . وكذلك يبدو تكوّن الجهاز العصبي وبقية الأجهزة . . وفي الأسبوع الرابع والخامس يبدأ تكون العظام . . وفي الأسبوع السادس تكسى العظام بالعضلات ويتكون الوجه . . والطرفين العلويين والسفليين . وفي الأسبوع الثامن (٤٩ ـ ٥٦ يوماً) تكون أجهزة الجنين الأساسية جميعها قد تكونت بما في ذلك الغدد التناسلية ويستطيع الجنين أن يتحرك في الرحم . .

قالت : ولكني لا أشعر بحركته . . ولا أعلم بامرأة تشعر بحركة الجنين إلا في الشهر الرابع . .

قلت : صدقت لأن حركة الجنين قبل ذلك ضعيفة جداً وجسمه صغير جداً كذلك . . ولكن الاكتشافات العلمية الحديثة اثبتت ذلك . .

قالت : خلاصة القول . . أنا أريد أن تسقط هذا الجنين أو على الأقل تدلني على من يسقطه . .

قلت : لا أنا ولا أظن أحداً غيري سيفعل ذلك . .

قالت : يا دكتور هذا لم ينفخ فيه الروح بعد . .

قلت : ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** . . ﴾ وقد نص كثير من الفقهاء ، ومنهم الإمام الغزالي في الإحياء ، على حرمة إسقاط الجنين قبل نفخ الروح ، ويزداد الجرم تفاحشاً بعد نفخها . . ولم يبيحوا إسقاط الجنين إلا إذا كان في ذلك خطر على حياة الأم . .

قالت : إن الحمل يتعبني جداً .

قلت : قد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك فقال : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً**﴾ وقال : ﴿ **حملته وهناً على وهن**﴾ . . والحمل يا سيدتي

مشقة وتعب وفي ذلك الأجر الكبير . . ولولا ذلك لم يجعل الرسـول صلوات الله عليه الجنة تحت أقدام الأمهات . .

قالت : يعني مافيش فايدة ؟

قلت : سيرزقك الله بولد بار إن شاء الله . . وسيعوض تعبك هذا . .

فقالت ، وهي تودعني بحسرة : أرجو أن تثير هذه المشكلة لنسمع رأي علماء الدين . .

قلت : أما هذا فسأفعله إن شاء الله . .

٦ ـ الكورتيزون لفتح الشهية !!

من عادتي أنني أحرص أن أعرف الأدوية السابقة التي يستخدمها المريض الذي يأتي إلي . . وكثيـراً ما يخـرج المريض ويضـطر إلى العودة إلى منـزله لإحضـار الـدواء السـابق أو بـالأصـح مجمـوعـة الأدويـة الـرهيبـة التي كـان يتعاطاها . .

وليس الدافع ، في هذا الإصرار ، هو أنني أريد أن أتعب مرضاي كما قـال بعضهم لي . . ولكن الدافـع هو أن كثيـراً من الأدوية تتعـارض آثـارهـا ومفعولها في جسم الإنسان ولم تعد الأدوية والعقاقير كما كـانت في الماضي ضعيفة المفعول قليلة السميّة بل أصبحت بفضل التقدم التكنـولوجي والعلمي الواسع مواد شديدة السميّة قوية الفاعلية . . وأصبحت قائمة الأدوية التي تتضاد تأثيراتها الفارمـاكـولجية طويلة جداً بحيث يصعب حفظها في الذاكرة . . ولذا فإنني احتفظ بخريطة ضخمة توضح تضاد الأدوية . .

وجاءني ذات يوم أحد المرضى وأصررت كعادتي أن يحضر الدواء الذي يستخدمه . . وأكد لي أنه لا يستخدم أي دواء سوى فـاتح للشهيـة وصفه لـه صديق ، كان يستخدمه بوصفة صديق آخر ، وأنه مرتاح جداً لهذا الدواء الذي جعله يقبل على ما لذّ وطاب بنهم يفوق الوصف . . ورغم هذه التوضيحـات بقى موقفي متصلباً لا يلين . . لا بد من إحضار هذا العقار العجيب قبل أن أبدأ في وصف أي دواء آخر . .

واضـــطر المسكين أن يـذهب ليحضـــر دواءه . . العجيب . . وكـانت مفاجأة لي !!

لم يكن الـدواء البـريء الـذي أطنب مـريضي في وصفـه سـوى أحـد مشتقات الكورتيزون . . ولعل القارىء يهز رأسه قائلاً . . وإيه يعني ؟

الكورتيزون يا عزيزي هرمون تفرزه الغدة الكظرية فوق الكلية وهو أحد الاكتشافات الهامة في عالم الطب . . ودواء مهم وذو فوائد متعددة ولكنه أيضاً سلاح بتار ذو حدين وله أخطار عديدة . . ومن أخطاره أنه قد يؤدي إلى قرحة المعدة . . والبول السكري وضغط الدم . وتليُّن العظام . . و . . و . . وفتح الشهية والبدانة وإيجاد حالة من الجذل (إيوفوريا) . .

وهـذان العامـلان هما اللذان دفعا بصديقنـا إلى استخدامـه وإلى وصفه لكل الأصدقاء الذين يشكون من قلة الشهية . . وحـالة الضيق والـطفش التي تنتاب الكثيرين هذه الأيام . .

وبـالتأكيـد فإن كثيـراً من الأطباء لم يسمعـوا مثلي بهـذه الـطريقـة في استخدام الكورتيزون . . ولا يرغبون قط في استخدامها . .

٧ ـ وصفة طبية بريالْين :

بعد عودتي من بلاد الأنجلوساكسون حيث كنت أعمل في المستشفيات وأحضر في نفس الوقت لعضوية الكلية الملكية لـلأطباء . . تعلمت منهم ألا أسرف في استعمال الأدوية ، وأن أكتفي في كثير من الأحيان بدواء أو اثنين . . وقد أكتفي أحياناً بتطمين المريض وأن أشرح له سبب الأعراض وأنها لا تحتاج إلى دواء . .

وعدت أحمل معي هذه العادة القبيحة . . ودخل إلي رجل ضخم الجثة حسن الهيئة يبدو عليه أن لديه قدراً لا بأس به من الثقافة العـامة . . وبعـد أن أتممت فحصه وجدت أن مرضه لا يعدو نوعاً من الروماتيزم البسيط وأن صحته جيدة يحسده عليها محمد علي كلاي . .

فوصفت له الدواء ، وفوجئت بعد قليل وإذا باب غرفتي يرتطم ويدخل

منه رجل هائج الأعصاب محمر الأحداق منتفخ الأوداج يكاد الشرر يتطاير من عينيه . . والزبد يخرج من فيه والكلمات ترتطم بعضها ببعض من شدة الغضب ، ودهشت لما أرى فقد كان هو نفس الشخص الذي كنت أفحصه قبل دقائق . . قلت له :

(تفضل اجلس وهدىء أعصابك) ولكنه استمر على حالته يردد (لا أريد الجلوس مش عيب يا دكتور يا محترم انتظر دوري في العيادة ساعة كاملة وأدفع أجرة الكشف وتكتب لي دواء بريالين فقط . .) .

وكدت أضحك: (اتفضل يا أخي اجلس أولاً) قلت له ذلك محاولاً تهدئته . .

فأنطلق يتحدث بسرعة الحاسب الآلي ورمى الوصفة في وجهي . . وأرتج باب الغرفة بطريقة كادت تخلعه . .

وحمدت الله أن تلك اللطمة القوية كانت من نصيب الباب . . ولم تكن من نصيبي فليست لي مقدرة بمصارعة محمد علي كلاي . .

وتعلمت درساً هاماً هو أن لا أكتب وصفة بريالين فقط!!

رحلة الأيام!
الاحتفال بأكل الهلال والتركي

كنت أقضي أول شتاء لي في بلاد الأنجلو ساكسون حيث تتساقط الثلوج بغزارة . . وكانت تلك أول مرة في حياتي أشاهد القطن الأبيض الناصع المندوف يتساقط على رأسي وأنا أهرول من منزلي إلى المستشفى القريب بجواري حيث كنت أعمل . . وكان جرس التليفون لا يكاد يرتاح حيث كانت الممرضة المناوبة نشيطة تلك الليلة في استخدامه . . إذ كانت تلك ليلة عيد الميلاد . . حيث يكثر المخمورون وتكثر بالتالي جميع المشكلات المتعلقة بشربها . .

وفي صباح اليوم التالي أقام المسؤولون في المستشفى حفلاً للمرضى والأطباء وجميع العاملين بالمستشفى . . وكانت تلك أول حفلة كريسماس أحضرها في حياتي كما كانت الأخيرة أيضاً . .

إكتفيت بشرب عصير البرتقال الذي قدم لي ، فقد كانت خبرتي مع المخمورين لا تحمل في طياتها سوى الآلام والأسقام . . وقاكم الله شرّها . . وقدموا لي قطعة من « التركي» و« الهلال» لأكلهما . . كما يفعل بقية القوم بسرور بالغ . .

ولأنني جاهل فقد طلبت من الممرضة النمساوية الأصل التي كانت بجواري أن تزيح عني غشاوة الجهل . . فأخبرتني بكل حماس أن « الهلال أو الكرواسون أو الكريسنت» عبارة عن خبز رقيق محلى يحرص الأوروبيون عامة على أكله كل صباح ، منذ ان صدوا الغزو العثماني على أسوار فيينا . . وأن هذه العادة ابتدأت في بلدهم احتفاء بصد المسلمين العثمانيين . . ومنها انتشرت إلى أوروبا . . أما الأنجلو ساكسون فلا يأكلونه إلا في المناسبات لأن

أكل الهلال كل يوم يؤدي إلى تكرش البطون . . ويكتفون بأكله بشهية في المناسبات السعيدة . .

وعندما سألت عن « التركي» أفادتني أنه ديك ضخم عرفت من وصفه أنه « الديك الرومي» وأن عيد الميلاد لا يتم إلا بأكله . . فهو علامة الانتصار على الأتراك الذين أرادوا أن يرفعوا راية الإسلام في أوروبا . .

وفهمت الدرس ووعيته . . ولكن ما أذهلني حقاً هو أن أجد معظم الفنادق الكبرى في البلاد الإسلامية وخطوط الطيران العربية والإسلامية تحتفل دائماً بأكل الهلال والتركي . .

بلى .. إن هناك حكمة
«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»

يقول الكاتب الوجودي المشهور انيس منصور في أخبار اليوم عدد ١٥٨٩ الصادر في ٧ ـ ٤ ـ ٩٥هـ الموافق ١٩ ـ ٤ ـ ١٩٧٥م :

« ولا حكمة لحياة أو لموت . إننا ولدنا دون حكمة واضحة لنموت دون عبرة واضحة . فنحن كأي حيوان أو حشرة أو نبات نعيش ضمن ملايين الملايين لتدوسنا قوى أو قوانين ونتبدد ضمن ملايين الملايين . فليس لنا وزن كبير وإنما نحن الذين نعطي لأنفسنا الوزن والحكم والقيمة والحكمة . وهذا هو الذي يجعل لحياتنا معنى مع أنه لا معنى هناك لأي شيء . صدقني ، هذه هي الحقيقة المؤلمة . إن اهتديت إلى ذلك فأنت أتعس الناس وإن نسيت فأنت أقل تعاسة ، وإن كنت لا تدري شيئاً من هذا كله فأنت أسعد الناس» .

ونقول له : بلى . . . إن هناك حكمة . . وإن نظرة عميقة فاحصة متدبرة في الكون وفي الأرض وفي السماء لتدلنا على وجود الحكمة في كل صغيرة وكبيرة ولن نبعد في الالتفات والتدبر ولكن لننظر إلى أنفسنا ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ .

إن جسم الإنسان مكون من بلايين الخلايا . . وإذا دققنا النظر من خلال المجهر (الميكروسكوب) في الخلية نجدها تتكون من نواة مكونة من مادة الحياة الـ D.N.A ومن الجبلة (البروتوبلازم) ، ونجد بالبروتوبلازم (الجبلة) مجموعة جسيمات . . ولكل جسيم وظيفة وحكمة .

فالنواة ، وهي مكونة من الصبغيات (الكروموسومات) ، وكل صبغ

(*) نشر هذا المقال في مجلة رابطة العالم الاسلامي (مكة المكرمة) .

(كروموسوم) يحمل الصفات الوراثية للإنسان من أجداده . . وكما أن وظيفة النواة هي الانشطار والتكاثر والمحافظة على الصفات الوراثية ، فإن من وظيفتها أيضاً توجيه الخلية والتحكم فيها . . فهي عقلها المدبر وعن طريق D.N.A. النواة ترسل الإشارات بواسطة رسول يدعى رسول الـ R.N.A. إلى الجسيم المدعو (ميكروسوم) الخلية الموجودة بالجبلة (البروتوبلازم) والجسيم (ميكرسوم) ـ مكون من مادة الـ R.N.A. فيتلقى الرسائل بواسطة الرسول ويقوم بصنع بروتينات الخلية . فالخلية الموجودة في البنكرياس مثلاً على ضربين :

خلية موجودة في (جزر لانجرهان) بالبنكرياس وهذه تفرز مادة الأنسولين .

وخلية أخرى في بقية البنكرياس تفرز الأنزيمات الهاضمة . . وكلاهما بروتين .

ولكن الفرق بين الأنسولين والتربسين مثلاً فرق ما بين السماء والأرض . . وهو أمر عجيب كل العجب . خليتان متشابهتان في مكان واحد . . وكل واحدة منهما تتلقى الرسائل من النواة الى الجسيم فيصنع هذا مادة الأنسولين ويصنع الآخر مادة التربسين . فمن ذا الذي أعطى الحكمة لهذه الخلية وقال لها افرزي الأنسولين وقال للأخرى افرزي التربسين .

ثم نظرة أعمق قليلاً . . كل خلايا الجسم تبدأ من النطفة . . والنطفة هي بويضة المرأة وحيوان الرجل المنوي .

إن كل خلية من خلايا الجسم تحتوي على ٤٦ صبغاً (كروموسوماً) موجودة في النواة ، وتنقسم خلايا الجسم في كل ثانية ويخلق الله ملايين الملايين في هذه الثانية كما يميت منها هذا العدد الرهيب . . ولكن هذه الانقسامات المتوالية لا تأتي إلا بخلية بها ٤٦ صبغاً (كروموسوماً) . . أما في المبيض أو الخصية فالأمر يختلف . . المبيض يفرز بويضة بها ٢٣ صبغاً فقط وكذلك الخصية ، فمن علم المبيض أو الخصية أن يختصر العدد إلى النصف حتى يكتمل العدد عند تكوّن النطفة الأمشاج ؟ . . . أليست هناك حكمة مقصودة في ذلك؟ . . بلى ، وإنها لأوضح من الشمس في رابعة النهار .

ثم انظر إلى هذه البويضة تخرج من المبيض فيتلقفها البوق فتسير بتؤدة وأناة في قناة فالوب وتكون محاطة بخلايا تكون لها « كالتاج المشع » وهذاهو اسمها العلمي (CORONA RADIATA) . وعند خروجها من المبيض يقوم المبيض بإفراز هرمون البروجسترون والأوستروجين ، الذي يجعل الرحم يستعد لتلقي النطفة ، فيزداد الدم في جداره كما يبطن غشاءه بطبقات متتالية استعداداً لوصول النطفة الملقحة . . وماذا تفعل الهرمونات أيضاً ؟ إنها تجعل المرأة أكثر أنوثة وأكثر جاذبية لزوجها . . فإذا ما اجتمعا قذف الرجل مئات الملاين من الحيوانات المنوية التي يشبه الواحد منها صاروخاً بذيل طويل . وتنطلق مئات الملايين صوب البويضة . . وتختار الحكمة الإلهية حيواناً بعينه من بين هذه الملايين ليقوم بتلقيح البويضة . . ويجتمع الشتيتان . . ويكتمل عدد الصبغيات في الخلية الجديدة (النطفة الأمشاج) ويصبح عددها ٤٦ ، ولكنها من مخلوقين مختلفين :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ .

وتشاء القدرة الإلهية أن يكون هذا الحيوان المنوي حاملاً ضمن صبغياته (كروموسوماته) صبغ الأنوثة أو الذكورة (X) أو (Y). وهو سبحانه الذي يقدر ذكراً أم أنثى .

فاسمع لقوله تعالى :

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه «أي المني» الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ .

بلى إنه لقادر على ذلك .

ثم انظر إلى النطفة الأمشاج تنقسم انقساماً متوالياً فتكون مجموعة من الخلايا تسمى التوتة ، ثم تنطلق إلى جدار الرحم فتعلق به بواسطة الخلايا الآكلة . . وتجد المهاد الوثير وتجد القرار المكين . . إلى القدر المعلوم :

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

ثم تتحول النطفة إلى علقة تعلق بجدار الرحم وتنشب فيه . وتلك هي العلقة :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم ﴾.

ثم تتحول العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتخثر تتحول إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة . . ويقر خالقها في الأرحام منها ما يشاء . . ويسقط ما يشاء .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾ .

ثم تتحول هذه المضغة إلى عظام فيكسو اللحم العظام ثم ينشئه الله خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .

وتتحول تلك الخلية الواحدة بقدرة الله وحكمته الى طبقات ثلاث :

الطبقة الخارجية (Ectoderm) .

الطبقة الداخلية (Entoderm) .

وبينهما الطبقة المتوسطة (Mesoderm) .

ويخلق الله الحكيم البديع الصنع من الطبقة الخارجية الجلد والشعر والجهاز العصبي والفم والشرج ، ويخلق من الطبقة الداخلية الغشاء المبطن للجهاز العصبي والجهاز التنفسي والجهاز البولي التناسلي . وتتحول الطبقة الوسطى إلى عظام يكسوها اللحم وإلى عضلات في الجدر ثم تتخصص كل مجموعة من الخلايا لتؤدي وظيفة . . هذه لتكون عيناً تبصر ، وهذه لتكون أذناً

تسمع ، وهذه لتكون لساناً ينطق ، وهذه لتكون شفاهاً وتلك لتكون أسناناً ، ثم الأسنان هذه قواطع لها وظيفة ولها شكل معين وتركيب معين يختلف عن الأنياب ويختلف عن المطاحن .

والحكمة واضحة جلية في كل عضو بل في كل خلية : خلايا الدم الحمراء تفقد نواتها وتتشبع بالهيموجلوبين (الصبغة الحمراء) كي تحمل الأوكسيجين ، بينما كرات الدم البيضاء تكبر نوياتها حتى تقوم بمهمة مهاجمة الميكروبات الغازية المعتدية . . بل إن كرات الدم البيضاء تتخصص هي الأخرى فهذه الخلايا اللمفاوية وظيفتها إفراز بروتينات (Antibodies) مضادة للأجسام الغريبة . . كأنها ترسل القذائف الصاروخية إلى مواطن العدو فتهاجمه . أما الخلايا الآكلة أو الخلايا البيضاء (Phagocytes and Neutro Phils) فوظيفتها بلع الأعداء ثم هضمهم . . وهناك الخلايا الكانسة التي تكنس أماكن المعارك من حطامها حتى يستطيع الجسم البناء من جديد .

أليست تلك هي الحكمة ؟

بلى . . . ومن يستطيع أن ينكر ذلك . . إن كليات الطب ليس لها من وظيفة إلا دراسة هذه الحكمة . . في علوم متعددة . . فعلم وظائف الأعضاء ليس له من مهمة إلا دراسة حكمة كل عضو من أعضاء الجسم . . وعلم التشريح دراسة حكمة مواضع الأعضاء ومواقعها ، وعلم الكيمياء الحيوية يعطينا شيئاً من أسرار الحياة، وعلم الأمراض (الباثوليجيا) يرينا حكمة مقاومة الجسم للأمراض ، ثم حكمة المرض وعلم الدواء (الاقرباذين) يعطينا حكمة الأدوية وهكذا .

عندما تشم رائحة شواء مثلاً وأنت جائع ماذا يحدث ؟ ترسل الإشارات المخية بواسطة العصب المخي التاسع والعاشر إلى الغدد اللعابية أن افرزي فتفرز ماءها، وبه أنزيم (خميرة) التيالين، ثم خلايا المعدة فتفرز حامض كلور الماء وأنزيم البيبسين (Pepsin) ، ثم خلايا البنكرياس فتفرز التربسين والأميليز ، وترسل الإشارات والأوامر إلى العضلات الإرادية أولاً وعضلات المضغ في (الفك) حيث يتحكم فيها العصب المخي الخامس واللسان حيث

يتحكم فيه العصب المخي الثاني عشر . فإذا ما وصلت اللقمة إلى البلعوم تنتهي الإرادة عندئذ . . ويبدأ العمل اللاإرادي بواسطة العصب التاسع والعاشر . . فأنت لا تملك أن توقف تلك اللقمة في البلعوم أو المريء . . إذا وصلت اللقمة إلى البلعوم أقفل لسان المزمار على الحنجرة حتى لا تذهب نقطة ماء إلى الحنجرة ، وإلا لشرقت وغصصت بشربة ماء . . ترى من علم لسان المزمار (Epigiottis) أن يسرع ليقفل الحنجرة في اللحظة المناسبة ؟

أليس لذلك حكمة ؟

بلى . . إنَّ له لحكمة .

كل جهاز من أجهزة الجسم ، بل كل خلية من خلاياه ، آية كاملة وحكمة قائمة تنقضي الأعمار ولا تنقضي عجائبها . . مئات العلماء والباحثين، منذ مئات السنين وكل يوم، يكتشفون جديداً ويرون حكمة بالغة تتراءى لهم من كل كشف .

وهكذا تفرعت العلوم الطبية وتشعبت لأن الفرد المحدود لا يستطيع أن يلم بها جميعاً ، ولذا وجدت التخصصات وتخصصات التخصصات ، هذا في علم وظائف الأعضاء، وذاك في التشريح، وهذا في علم الأجنة، وذاك في علم الخلايا ، بل وتوسعت دائرة الاختصاص حتى أصبح هناك اختصاص كامل لدراسة النواة ، وهي جزء بسيط من الخلية واختصاص كامل لدراسة الميتوكوندريا (Mitochondria) ، وهي رئة الخلية وجسيم صغير لا يرى إلا بالمجهر الاليكتروني مكبراً آلاف المرات ، وقس على ذلك .

ينقضي عمر العالم وهو لا يزال يدرس حكمة الميتوكوندريا ، ولا تنقضي عجائبها ، فيأتي من بعده علماء . بل أصبحت الميتوكوندريا تبحث وتدرس في القارات أجمع .

ماذا نقول ؟ لو توسعنا لما وسعتنا كتب ، والعلماء صامتون قابعون في معاملهم يبحثون عن الحكمة وعن الأسرار . . ويتفكرون ولكن اللاهين الضائعين التائهين يقولون لنا :

ليست هناك حكمة !

يـا سبحان اللّه . . لكـل صغير وكبيـر حكمـة . . والإنسـان بـأكمله بـلا حكمة .

« جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت .
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت .
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت .
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟ لست أدري
أوَرَاء القبر بعد الموت بعث ونشور ؟
فحياة فخلود أم فناء فدثور ؟
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور ؟
أصحيح أن بعض الناس يدري ؟ لست أدري .
ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديا ؟
لست أدري . . ولماذا لست أدري ؟
لست أدري . . » .

هكذا يقول التائهون من أمثـال إيليا أبـو ماضي . . وأنيس منصـور . . أولئك الحيارى التائهون في الدياجير

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ .

أو **﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى﴾** .

ولقد صدق أنيس منصـور في قولـه : إن من يؤمن بما قـاله فهـو أتعس النـاس . . وأشقاهم . . ولا أشـك في أن أنيس منصـور تعيس شقي ، وهـو صادق كل الصدق عندما يقول عن مكتبته :

« أتمنى إذا مت أن أحرق مع مكتبتي . أن أكون وقوداً لمكتبتي أو تكون

هي وقوداً لي ، فإنها لم ترحني ولا أنا أرحت بها أحداً ، ولا نفعتني ولا نفعت بها أحداً فهي قبري وأنا ميتها . وهي فقيدي وأنا قبرها» .

وهذه هي مأساة كثير من المثقفين في البلاد العربية والإسلامية . . نشأوا في مدارس لا تعلمهم الإسلام ولا الإيمان . . وإنما تغرس في قلوبهم الشك والزيغ والإلحاد . . مدارس أسسها كرومر وتلاميذه . فقد كنا أطفالاً يلقنوننا أن الإنسان تطور من قرد . . وكانوا يقولون لنا في درس الكيمياء إن المادة لا تخلق من عدم ولا تفنى ، أي إن المادة أزلية أبدية . ولا يزال هذا الهراء يدرس في جميع المدارس في بلاد المسلمين إلى اليوم . . ثم يتوسع الطالب فيدرس أبسن وهيمنجواي وبرتراند راسل وألبيير كامو ، فإذا كان من طليعة المثقفين قرأ «لعبة الكراسي» لصموئيل بيكيت أو حضرها في مسرح الجيب «مسرح المثقفين» . . أو قرأ لكيركجود أو سارتر أو غيرهم من تلك الأسماء اللامعة في دنيا أدب الكفار ، حتى تؤدي به إلى الهاوية والعياذ بالله .

ولا منجى من الهاوية إلا بالإيمان . . ولا طريق سوى طريق الله ولا هدى إلا هداه .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

تطور العقيدة عند العقاد ومصطفى محمود (*)

يعتقد بعض مشاهير الكتاب كالأستاذ العقّاد ، رحمه الله ، وكالدكتور مصطفى محمود ، أنه يخدم الإسلام عندما يقول إن عبادة الله قد تطورت من عبادة الطوطم إلى عبادة الشجر والحجر ومنها إلى عبادة الأفلاك والنجوم ، ثم صارت أرباباً متعددة لها إلّه أعظم هو زيوس أو جوبيتر ، ثم تحولت إلى عقيدة توحيد مخصوصة بشعب واحد وهو « يهوا » رب اليهود فقط . . وهم شعب الله المختار . . ثم تطورت العقيدة الإلّهية لتصبح الثالوث : الأب والابن والروح القدس في المسيحية ، التي تدعي أنها تؤمن برب واحد في أقانيم ثلاثة . . وكانت قمة تطور العقيدة الإلّهية في الإسلام الذي جاء به الرسول الأمين الذي دعا الناس جميعاً إلى رب العالمين . .

ووضع الأستاذ العقاد كتاباً أسماه « الله » يشرح هذه النظرية ، كما وضع الدكتور مصطفى محمود أيضاً كتاباً أسماه « الله » ليعيد كلام العقاد بأسلوب أسلس وأقرب إلى عقول الشباب .

وقد مر الدكتور مصطفى محمود بمراحل متعددة في عقيدته حول الله جل جلاله . . فقد وضع أول ما وضع كتابه « الله والإنسان » عام ١٩٥٥ . . وكتابه ذلك كفرٌ صريح وسخرية من العقيدة الإلّهية . . وقد قدّم لذلك الكتاب أحد مشاهير الشيوعيين في مصر آنذاك وهو محمود أمين العالم أو مذموم خائن الجاهل ، كما كان يسميه الأستاذ العقاد رحمه الله .

ثم شاء الله أن يهتدي الدكتور مصطفى محمود ويتحول من الكفر إلى الإيمان ، ومن الشك إلى اليقين ، فوضع كتابه الأخير « الله » ، بعد عشرين

(*) نشر هذا المقال في مجلة الدعوة (القاهرة) ثم نشر مرة أخرى في مجلة المجتمع (الكويت) .

عاماً من نشر كتابه الأول قضاها وهو يصارع لجج الشك ويخوض بحار الحيرة حتى هداه الله للإسلام .

والكتاب في جوهره دعوة إيمانية صادقة . . وجهد مثمر في دعوة الشباب والملحدين إلى الإيمان بالله عز وجل . . ولكن الدكتور مصطفى محمود وقع فيما وقع فيه الأستاذ العقاد ، غفر الله لي ولهما ، فجعلا العقيدة الإلهية تتطور من عبادة الطوطم إلى عبادة الأشجار والأحجار إلى عبادة النجوم إلى عبادة الآلهة المتعددة التي يسيطر عليها كبير الآلهة إلى «يهوا» ، رب اليهود فقط ، إلى الأقانيم الثلاثة في واحد إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد في الإسلام . . وهو قمة التوحيد . .

ويتحدث الدكتور مصطفى محمود عن الإنسان الأول الذي كانت روحه ترتجف جوعاً إلى الإيمان مثلما يرتجف جسده جوعاً إلى اللقمة والأمان . . ويقول : « وكما ظن البرق عفريت كذلك ظن أن أباه الميت الذي يظهر له في الحلم هو الله فعبده وذبح له القرابين . واتخذ من قبره محراباً ومزاراً . . وتطورت عبادة الأسلاف لتصبح عبادة ثابتة . . وأصبح لكل قبيلة جد قديم تجعل منه إلهها ورمزها المعبود . ثم بدأ الإنسان البدائي يتصور أن روح هذا الجد يمكن أن تحل في حيوان أو شجرة ، فانتقل إلى عبادة الحيوانات والأشجار . . وأصبح لكل قبيلة حيوانها الخاص الذي تعبده (الطوطم) . . وهو مرة طائر ومرة ثعلب ومرة أسد ومرة عجل « أبيس » ومرة بقرة ومرة شجرة تين عتيقة . . وكانت هذه النقلة إلى إله متجسد يلمس باليد أسهل على عقل البدائي من عبادة روح مجردة بلا شكل ولا جسم . . والذين احتفظوا بعبادة الأجداد والأسلاف هؤلاء صنعوا لهؤلاء الأجداد تماثيل ، أصناماً ترمز إليهم مثل اللات والعزى وهبل حتى تكون لمعبوداتهم أجسام تلمس ومواقع تزار ، « والبعض اتجه إلى حيث شعور القوة في الطبيعة فعبد الرياح والبحر والكواكب والنجوم والنار . . وهكذا تعددت الأرباب بقدر تعدد حاجات الإنسان الهمجي ومخاوفه . . ثم ظهرت فكرة الإله الواحد ممثلة في الشمس أكبر ما ترى العين في السماء . . الإله رع عند الفراعنة . . وفي اليونان زيوس كبير آلهة الأولمب الذي جعل من باقي الآلهة أرباباً صغاراً يعملون في خدمته

ويدينون له بالطاعة . . وكانت أول خطوة نحو توحيد حقيقي لرب مجرد تمام التجريد هي الخطوة التي حققها أخناتون، نبي الفراعنة، بحق!! ويصل هذا التوحيد الى ذروة النقاء والتجريد على يد أخناتون».

ثم ينقل الدكتور مصطفى محمود أنشودة أخناتون في الشمس آتون ، التي تمنح الحياة وتشرق على وجوه الناس ليقول أخناتون لربه في ختام الأنشودة: «وليس هناك من يعرفك غير ابنك الذي ولد من صلبك ملك مصر العليا والسفلى الذي يحيا في الحق: سيد الأرض أخناتون».

وأخناتون هذا أشهر عابد للشمس ، وأشهر من تزوج أخته الجميلة نفرتيتي . ثم يستطرد الدكتور مصطفى محمود في شرح تطور العقيدة إلى بني إسرائيل الذين لا يعرفون الإله الواحد ولا البعث ولا الآخرة ولا الجنة ولا النار . . ونفس الرأي يقوله أيضاً الأستاذ العقاد : « وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر » . ويقول في موضع آخر « ومثل بني إسرائيل مثل جميع الأمم الغابرة في تطور العقيدة فقد دانوا زمناً بعبادة الأسلاف ، كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب والظواهر الطبعيية وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان » . .

ولكن الدكتور مصطفى محمود يستدرك بقوله : « ولا يأتي ذكر البعث والآخرة والجنة والنار إلا في آيات متأخرة من التوراة . . يتأخر تاريخها إلى مائتي سنة قبل ميلاد المسيح . . ولا نقرأ عن الإله المنزَّه المجرَّد عن التشبيه والصفات إلا على لسان أنبياء متأخرين مثل أشعيا . . » .

ويورد الاستدراك ذاته الأستاذ العقاد . . وينتهي كل من الأستاذ العقاد ومصطفى محمود إلى أن وصول الإنسان إلى عقيدة التوحيد المجرد المنزه إنما جاءت متأخرة جداً ، فيقول الدكتور مصطفى محمود : « وإنما جاء وصول الإنسان إلى حقيقة الله عز وجل على مراحل ومحطات وجرعات . . وجاء اقترابه من تلك الحقيقة على درجات ، حسب ما تهيأ له من مواهب الفهم . . وهنا تأتي فكرة الإسلام عن الله الواحد المتعال ، الذي ليس كمثله شيء ، لتكون الذروة والخاتمة لذلك التجريد الخالص . . الذي لم يلد ولم يولد ولم

يكن له كفؤاً أحد . . الأول والآخر والظاهر والباطن الـذي يدرك الأبصـار ولا تدركه الأبصار » ا هـ .

ومفهوم تطور العقيدة يناقض صريح القـرآن . . فالقـرآن يخبرنـا أن أبا البشر آدم ، عليه السلام ، كان نبياً موحـداً على أنقى صور التـوحيد . . ولم يكن أخناتون ، عابد الشمس ، هو أول موحد على وجه الأرض ، كمـا يزعم العقّاد ومصطفى محمود ونجيب محفوظ وكثرة من الكتاب والأدباء المصريين .

ويخبـرنا القـرآن الكريم أن نـوحاً عليه السـلام كان من أولي العـزم من الرسل ، وكان على أنقى صور التوحيد وأعلاها . . وهو الذي دعا قومـه ألف سنة إلا خمسين عاماً إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد . . وهو الذي أنزل الله فيه سورة كاملة تصور قصة جهاده ومثابرته في الدعوة ليلاً ونهاراً سراً وجهراً إلى عبادة الله وحده . . لا ند له ولا صنو ولا شريك . وهو الذي يصف القرآن الكريم دعوته بقوله : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يـأتيهم عذاب أليم * قـال يا قـوم إني لكم نـذيـر مبين * أن اعبـدوا الله واتقوه وأطيعونِ * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلا فراراً * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشـوا ثيـابهم وأصـروا واستكبـروا استكبـاراً * ثم إني دعـوتهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السمـاء عليكم مدراراً * ويمـددكم بأمـوال وبنين ويجعل لكم جنـات ويجعل لكم أنهـاراً * مالكم لا تـرجون لله وقـاراً * وقـد خلقكم أطواراً** ﴾ .

ثم جاءت الرسل تترى : هود وصالح وشعيب وإبراهيم وبنيه إسماعيـل وإسحاق . . ومن وراء إسحاق يعقوب . . ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يـا بني إن الله اصطفى لكم الـدين فلا تمـوتن إلا وأنتم مسلمـون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه مـا تعبدون من بعـدي قالـوا نعبد إلهـك وإله آبـائك إبـراهيم وإسمـاعيـل وإسحـاق ، إلهـاً واحـداً ونحن لـه**

مسلمون ﴾ . ويوسف الصديق ابن الصديق يقول لربه : ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ .

ويستمر ركب النبوة وركب الإيمان إلى موسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه التوراة هدى ونور . . وليست كما يزعم الأستاذ العقاد والدكتور مصطفى محمود أن ليس في التوراة ذكر للتوحيد إلا قبيل زمن المسيح . . وأن ليس فيها ذكر الجنة والنار واليوم الآخر . . وأن ليس فيها سمو روحي . . إلى آخر ما يناقض صريح القرآن . .

نعم ، يستطيع أن يقول من شاء إن اليهود، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قد حرفوا التوراة وبدّلوا كلام الله ليشتروا به ثمناً قليلاً كما وصفهم الله تعالى بذلك . . يستطيع أن يقول ذلك ولا يعدو الصواب . . ولكن أن يزعم أن التوراة كانت تمثل تطوراً في سلم تطور العقيدة من الطوطم إلى عبادة يهوا ، رب الشعب ورب القبيلة ، فهو الهراء المحض . .

والله يقول عن التوراة ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ .

ويقول : ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون ﴾ .

ولا نقول لأهل الكتاب إلا ما قاله الله على لسان محمد وصحبه :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

ولا نقول كما قالت يهود نؤمن بما أنزل إلينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . . ولا نقول نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض . . فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . . ولا نفرق بين الله ورسله بل نعتقد اعتقاداً جازماً أن جميع الرسل ما جاءوا إلا برسالة الإسلام ورسالة التوحيد ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم كلها منزلة من عند الله تعالى وأنها هدى ونور . . وأن لا فرق في عقيدة الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم . . وأن الدين عند الله الإسلام . . وأن جميع الرسل ما جاءوا إلا بعقيدة واحدة هي عقيدة التوحيد الخالص الكامل النقي الذي لا شبهة فيه . . وأن ليس هناك من اختلاف في العقيدة قط . . وأن التحريف والتبديل قد حصل على فترات من الرسل . . فآدم عليه السلام وبنوه كانوا موحّدين . . ولكن الذراري طال عليهم العهد فنسوا حظاً مما ذكروا به . . فتولوا وكفروا . . فأنزل الله الأنبياء والمرسلين يردونهم إلى جادة الطريق . . وجاء نوح عليه السلام فآمن له من قومه قليل . . ونجّى الله الذين اتقوا وأغرق الباقين . . وبقيت أمة الإسلام ولكن ذراريهم انحرفوا مرة أخرى، فأرسل اللّه إليهم رسله: هود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط ويونس وإلياس وموسى وعيسى . . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

وتاريخ الإنسانية من فجرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تمثل

هذا الصراع الدائم بين الحق والباطل . . بين الهدى والضلال . . بين أمة الإسلام وأمم الكفر . . فنوح عليه السلام ومن معه يمثلون أمة الإسلام . . وقومه الذين كفروا به يمثلون أمة الكفر . . وهود عليه السلام ومن معه يمثلون أمة الإسلام . . وقوم هود الذين كفروا به يمثلون أمة الكفر والضلال . . وهكذا جمع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم يمثلون أمة الهدى والإسلام . . وجميع الذين كفروا بهم يمثلون أمم الكفر والضلال .

وليس تاريخ الإنسانية درجات متصلة في سلم التطور، كما يزعم دعاة التطور . . وليس اللاحق بالضرورة أفضل وأكمل من السابق . . وليس القرن العشرين في ميزان الحق والهدى والنور هو خير القرون ، بل لعله أشدها بعداً عن ميزان الحق والهدى والنور . . وأكثرها إيغالاً في الظلم والضلال والغواية . .

وخلاصة القول : لا اختلاف بين الرسالات السماوية جميعها في العقيدة . . وإن الاختلاف إنما يكون في بعض أحكام الشريعة وليس في أصولها . . فالصلاة مفروضة على الجميع وكذلك الزكاة والصيام . ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ . ولكن طريقة الصيام وأيام الصيام وكيفية الصيام تختلف من شريعة إلى أخرى . . وكذلك الصلاة . . . وكذلك الزكاة . . بل إن كثيراً من أحكام التوراة قد أقرّها القرآن الكريم : فالقصاص مثلاً قد أقره الله تعالى ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** ﴾ . وأضاف إلى ذلك رحمة بنا ﴿ **فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ . . وأقر الرسول الكريم حكم التوراة في رجم الزاني المحصن . . وقال الله تعالى لليهود الذين أرادوا أن يبدلوا حكم التوراة عندما جاءوا إلى الرسول يحتكمون إليه في قضية زنا يهودي . ﴿ **وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ .

ومن رحمة الله بالعباد أن جعل أحكام الشريعة السابقة منسوخة بالشريعة اللاحقة . . يبقى منها ما يصلح لذلك الزمان وينسخ الله الأحكام الأخرى تخفيفاً ورحمة ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ .

بل إن رحمة الله اقتضت أن تنسخ بعض الأحكام التي نزل بها القرآن الكريم . . فحكم الزانية مثلاً كان محدداً بالحبس في البيوت كما في سورة النساء ، ﴿ **واللاتي يأتين بالفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلاً** ﴾ ، فجعل الله لهن سبيلاً بنزول آية : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله** ﴾ ، في سورة النور .

وحكم قيام الليل الذي كان فرضاً صار ندباً ، وحكم أن يقاتل المسلم عشرة من الكفار ولا يفر منهم خفّف إلى أن يقف في وجه اثنين ، وتحريم الخمر تدرج من قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ إلى تحريمها تحريماً كاملاً قاطعاً في قوله تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ .

والحكمة والرحمة الإلهية واضحة كل الوضوح ، جلية كل الجلاء ، في تدرج الأحكام . ففطام النفوس فجأة عن محبوبها يعسر ، وفطامها على التدريج يسهل . . وتجلي فضل الله وكرمه يتضح أكثر فأكثر عندما تخفف الأحكام من الشديد إلى اليسير . .

وخلاصة القول أن الرسول ، صلوات الله عليه ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده . . ولم يبقَ لأحد ، كائناً من كان ، أن يبدِّل في دين الله حرفاً ولا يغير موضعاً . . ولا يزيد منه ولا ينقص ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ .

ولو ركز الأستاذ العقاد والدكتور مصطفى محمود بحثهما على تطور الشريعة في الأديان وحكمة الله في ذلك لأصابا وأحسنا . . ولكنهما ـ غفر الله لي ولهما ـ طمعا فيما لا مطمع فيه ، وجعلا العقيدة مجالاً للتطور من عبادة الطوطم إلى عبادة الإله الواحد الأحد . . وحسبا في ذلك أنهما يؤديان للإسلام

خدمة . . ومادريا أنهما إنما يخالفان في ذلك صريح القرآن .

وللحق فإن الدكتور مصطفى محمود شعر بهذا التناقض فأراد أن يستدرك ذلك بقوله إن التطور العقيدي يمثل جهد العقل البشري ، بينما رسالات السماء واحدة من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم . . وإنهم جميعاً لم يأتوا إلا برسالة التوحيد الخالص النقي . . ولكن مصطفى محمود لا يفرق أثناء ذلك بين التوراة المحرّفة والتوراة التي أنزلها الله وجعلها هدى ونور . . ولا يفرق بين أتباع الرسل الذين آمنوا وصدقوا ، وبين أصحاب التطور العقيدي ممن عبدوا الطوطم والأشجار والأحجار . . بل إنه يخلط بين أنبياء الله وبين أخناتون فرعون مصر وعابد الشمس والقائل عن نفسه إنه ابن الإلّه ومن صلبه ملك مصر العليا والسفلى وسيد الأرضين . . ويعتبره قمة في التوحيد بل ويقول عنه إنه أول الموحدين في العالم من بني الإنسان .

وموقف الدكتور مصطفى محمود من قضية التطور ـ على أي حال ـ خير من موقف الأستاذ العقاد الذي يقول : « التطور في الديانات محقق لا شك فيه » .

موقف العقاد موقف الجازم الموقن بقصة التطور العقدي ، وموقف مصطفى محمود موقف المتردد المتناقض فيقول : « ولذلك نقرأ في تاريخ الأديان بين الشعوب البدائية تلك الحكاية الطويلة لتطور الفكر الديني من طفولة العقل البشري ، حينما كان العقل طفلاً لا يستطيع أن يؤمن إلا بشيء مادي يمسكه به إلى أن بلغ غاية نضجه فأصبح يؤمن بالمطلق والمجرد . . بينما نقرأ عن أنبياء نزلوا برسالات سماوية كانوا يمثلون استثناء دائماً من هذه القاعدة . . من نوح إلى إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب وإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . كان النبي يأتي ومعه حقيقة واحدة لا تتغير ولا تتبدل : إن الله واحد لا إلّه إلا هو . كل نبي يأتي بتمام التوحيد » .

وهذا الكلام الأخير ينسف حكاية من الحكايات وأسطورة من الأساطير راجت لدى علماء الغرب ، في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، فظنوها حقيقة الحقائق ، وليس لديهم من دليل إلا أساطير تروى من هنا وهناك ،

وتفسيرات تلفق على أيدي أناس تجرّدوا لمحاربة الرسالات السماوية بأجمعها من أمثال فرويد وماركس وأنجلز وبرجسون . . وغيرهم من أعلام دعوة الإلحاد .

والغريب في الأمر حقاً هو وقوع الأستاذ العقّاد ، وهو من هو علماً ورسوخاً وثباتاً ، في مهاوي هذا التصور البادي سخفه لكل من كان له عقل أو القى السمع وهو شهيد . . وكذلك تصديق الدكتور مصطفى محمود لحكاية التطور ، كما يسميها بنفسه ، أمر مستغرب ممن هو في مكانة الدكتور مصطفى محمود وسعة اطلاعه . . وخاصة بعد عودته إلى رحاب الإيمان بعد جولته الطويلة في فيافي الشك والحيرة . . والدكتور مصطفى محمود جدير بأن يراجع ما يكتب فإنّ لكتاباته تأثيراً عميقاً في آلاف الشباب . . ولقد استطاع الدكتور مصطفى محمود أن يجذب آلافاً منهم إلى رحاب الإيمان ويستنقذهم من بحور الحيرة ولجج الضلال . . فالله أسأل أن يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه . . وأن يغفر لنا وله الزلات والعثرات . . وأن يقينا وإياه الهفوات والكبوات . . إنه سميع مجيب .

الأسرار الإلهية في علم الوراثة(*)

قال تعالى في سورة عبس : ﴿ **قتل الانسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره** ﴾ . (عبس : ١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

كشف العلم الحديث عندما اكتشف مورجان دور الكروموسومات والجينات عام ١٩١٢ في تكوين الجنين أن خلق الانسان كله مقدر في نطفة الرجل (الحيوان المنوي) ونطفة المرأة (البويضة) . ليس هذا فحسب بل إن تأثير الوراثة ضمن الجينات يمتد عبر القرون ليتصل بالآباء والأجداد حتى يصل إلى آدم . . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم أن رسول الله (ﷺ) سأل رجلاً قال له : ما ولد لك ؟ قال الرجل : يا رسول الله ما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية ؟ قال فمن يشبه . . قال الرجل : يا رسول الله من عسى أن يشبه إما أباه وإما أمه . فقال الرسول صلوات الله عليه : مه . . لا تقولن هكذا إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم . . أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى : ﴿ **في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾ قال شكلك » .

أسرار يظهرها الله :

وها هو العلم الحديث يكشف أن ضمن الجينات التي تقاس بالأنجستروم (واحد على البليون من الميتر) أو أقل من ذلك . . تكمن أسرار وأسرار يظهرها الله متى شاء . . ومن ضمن تلك الأسرار الصفات والملامح

(*) مقال نشرته مجلة «المسلمون» في أول عدد لها.

التي تعطي الإنسان صفته وشكله واستعداده لكثير من الأخلاق والصفات البدنية والنفسية ، بل واستعداده لتقبل هذا الميكروب أو قدرته على مناعته . . كما أنه يرث استعداده لهذا المرض أو ذاك . .

بل إن العلم الحديث قد خطا خطوات فقال إن الانسان موجود بشكل شفرة (الرمز الذي يستعمل في البرقيات أو غيرها) معقدة مطوية مبرمجة(أي أن لها برنامجاً محدداً) . فإذا استقرت النطفة الأمشاج في الرحم بدأت تفك شيئاً من سرها المغلق حسب البرنامج المعد لذلك خطوة فخطوة . . حتى تخطو النطفة الأمشاج من مرحلة إلى مرحلة وتدلف من طور إلى طور حسب ذلك البرنامج المعد منذ أن كانت في عالم الذر حسب أمر بارئها وخالقها . وفي أثناء هذه الرحلة الطويلة وهي تفك شيئاً فشيئاً من رموزها المغلقة وتوجه الخلايا لتكون الطبقة الخارجية الآكلة (Cytotrophoblast) في الكرة الجرثومية أو توجهها بأمر خالقها لكي تكوِّن الطبقة الجرثومية الداخلية التي تتمايز إلى ورقتين : ورقة الأكتودرم أو ورقة الأنتودرم . . ثم تسير حسب توجيه بارئها لها الذي يرعاها في كل طور ، وفي كل لحظة ، وفي كل آن ، فيجعل هذه الخلايا تنمو لتكوِّن الجهاز العصبي وأخرى تنمو لتكوِّن الجهاز الهضمي ، وغيرها لتكوِّن القلب والجهاز الدوري . . وتكون الخلايا الجرثومية في أول أمرها « عميمة وجميمة ذات قوة كامنة ولها قدرة على التكييف والتفريق لما يحتاجه الحميل من خلايا متنوعة » (Totipotent) ولكن ما أن تتمايز وتتحدد فإنها لا تعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل . . بل إنها تسير في الخط المحدد لها . . فإذا ما تحولت بعض خلايا الطبقة الخارجية (الأكتودرم) إلى خلايا الميزاب العصبي فإنها تبقى بعد ذلك في خطها المعلوم لتكوين الجهاز العصبي ولا تعود لتكوين الجلد أبداً . . وكذلك إذا صارت بعض خلايا الطبقة الداخلية في طريقها لتكوين زر الرئة فإنها تسير بعد ذلك في تكوين الرئة ولا تعود أدراجها لتكوين الجهاز الهضمي أبداً . . وهي لا تتحول إلى خلايا محددة إلا في الوقت المحدد المعلوم . . فمن ذا الذي يحدد ذلك الوقت ومن ذا الذي يحدد البرنامج الذي عليه تسير ؟؟! من غير الله سبحانه وتعالى ؟!

أطوار الخلق :

ولقد اتفقت عدة مصادر علمية على أن خلق الإنسان على مستوى الجينات مقدر مرسوم ، وأنه على مستوى الخلايا والأنسجة متطور عبر أطوار متعددة حددها بعضهم : بطور النطفة الأمشاج (المشيج) (Fertilized ovum) ثم طور الحميل (Embryo) ثم طور الجنين (Fetus)[1] (وهذا هو تقسيم ليزلي أري وجان لانجمان) وقسمها هاميلتن وبويد وموسمان إلى مرحلة النطفة (Fertilized Ovum) ثم مرحلة العلوق (Implantation) ثم مرحلة الحميل ذي الكتل البدنية (المضغة) ثم بعد ذلك مرحلة التخلّق أو مرحلة تكوين الأعضاء (Organo Genesis) ثم تدلف بعد ذاك بنهاية الأسبوع الثامن إلى مرحلة الجنين ، حيث يكون الجنين قد تشكل بشكله الإنساني وتكوّنت معظم الأعضاء والأجهزة بصورتها الشبيهة بما هي عليه عند المولود.

ولا يبقى في مرحلة الجنين (Fetus) ، وهي من نهاية الأسبوع الثامن إلى الولادة ، إلا نمو الأجهزة وتكاملها وأخذها الشكل النهائي . . وهي في الواقع مرحلة نمو أكثر منها مرحلة خلق جديدة . .

ولا شك أن التخليق يستمر حتى بعد الولادة ولكنه تخليق محدود جداً ، وكذلك التخليق في مرحلة الجنين (Fetus) محدود جداً . وأهم ما يميز هذه المرحلة هو النمو والتكامل للأجهزة والأعضاء . . بينما كانت المرحلة السابقة ، والتي تنتهي بنهاية الأسبوع الثامن وتبدأ من نهاية الأسبوع الرابع ، هي مرحلة تكوين الأعضاء والأجهزة وتكوين الجهاز الهيكلي وتكوين الجهاز العضلي ، وتصوير الوجه وشق السمع والبصر وتكوين الجلد واللحم والعظم. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصوَّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال:

---

(١) يقسم علماء الأجنة مكث الجنين في الرحم الى مرحلتين: الأولى ٨ أسابيع وتدعى مرحلة الحميل Embryo، والثانية من نهاية الشهر الثاني الى الولادة وتدعى مرحلة الجنينFetus وهو تقسيم اصطلاحي. وفي اللغة الجنين هو كل ما استجنَّ واختفى.

يا ربّ ذكر أو أنثى فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك » . (أخرجه مسلم)

اختلاف الشبه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «جاء رجل من بني فزارة إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : ولدت امرأتي غلاماً أسود ، وهو حينئذ يعرِّضُ بأن ينفيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لك من إبل ؟ قال: نعم قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر قال : هل فيها من أورق (أسمر أو ما كان لونه كلون الرماد) قال : إن فيها لورقاً . قال فأنّى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق ، قال : فهذا عسى أن يكون نزعة عرق ، ولم يرخص له في الانتفاء منه » رواه الشيخان البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة والدارقطني وأحمد .

وقد دل هذا الحديث على سعة علمه صلى الله عليه وسلم مع قدرته التي لا تدانى في الحوار والإقناع بحيث أرجع السائل ، إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . . وتزيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القاتمة في زوجته التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود . . وفي رواية لأبي داود أن السائل قال : « إن امرأتي ولدت غلاماً أسود وإني أنكره » .

وقد قال أغلب العلماء والأئمة إنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لا يشبه أحد أبويه . . ولذلك لما تنازع سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن وليدة زمعة ورأى النبي صلى الله عليه وسلم فيه شبهاً بيناً بعتبة ألحق الولد بالفراش وترك الشبه .

وقالوا إذا تزوج امرأة ووطئها وأتت بولد لستة أشهر فما زاد من وقت الوطء ، ولم يشاركه أحد في وطئها بشبهة ولم يرها تزني ولا استفاض في الناس زناها . . وكان الولد لا يشبهه لم يحل له قذفها ولا نفي ولدها لقوله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ [النور: ٤] .

رأي العلم الحديث :

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر ، بل قد يكون بعيداًكل البعد عن كلا الأبوين . . وبما أن الصفات الوراثية قد تكون (سائدة) (Dominant) ، وقد تكون (متنحية) (Recessive) فإن الصفات المتنحية (Recessive) لا تكون ظاهرة لا في الأب ولا في الأم . . فإذا اتفق وكان كلا الأب والأم يحمل إحدى هذه الصفات المتنحية فإن ربع أولادهم (تقريباً) ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية بصورة واضحة جلية وذلك لاجتماع الصفتين من كلا الأب والأم .

وهذا ما يجعل الزواج بين الأقارب (Consanguinity) يظهر الصفات والأمراض المتنحية التي كانت مختفية . . إذ أن كلا الأب والأم المتقاربين في النسب يحملان كثيراً من الصفات المشتركة والمتنحية (بحيث أنها لا تظهر عليهم) . . ولذا إذا اقترنا بالزواج فإن احتمال ظهور هذه الصفات المتنحية يصبح كبيراً جداً . . ومثلاً فإن بعض الأمراض الوراثية النادرة في المجتمع يكون احتمال ظهورها في الزوجين البعيدي النسب لا تزيد عن واحد في الألف بينما يرتفع احتمال ظهور ذلك المرض الوراثي النادر إلى ٣٥ بالمائة عندما يكون الزوجان أولاد عم أو خال أو عمة أو خالة . .

زواج الأقارب :

ولذا فإن الأمراض الوراثية ، وخاصة منها ذات الصفات المتنحية ، إنما تظهر بصورة جلية وبنسبة أكبر عند زواج الأقارب ، وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهيه عن زواج الأقارب حتى لا يضعف بنيانهم ويضووا وتكثر فيهم العاهات .

الصبغيات تحمل الصفات الوراثية :

وبما أن كل خلية جسدية تحتوي على ٢٣ زوجاً من الكروموسومات (الصبغيات) منها ٢٢ زوجاً مسؤولة عن الصفات الجسدية وزوج واحد

مسؤول عن الذكورة أو الأنوثة ، فإذا كانت الصبغيات الجنسية XX كـان ذلك دالاً على أن الخلية خلية أنثى وإن كـانت الصبغيات الجنسيـة XY كان ذلـك دليلاً على أن الخلية خلية ذكر .

ويحمل كل زوج من هذه الأزواج العديد من الجينات . . ويسمى موقع الجين (الناسلة) على الكروموسوم : المـوقع (Locus) وبمـا أن لهذا الجين (الناسلة) موقعاً مشابهاً على الكروموسوم المقابل فإن ذلك يسمى « حليـل » (Allele) .

وبما أن الخلايا الجنسية (Gametes) ، أي الحيوان المنوي والبويضة ، لا يحمل أي منها إلا ٢٣ كروموسوماً فقط . . أي نصف عدد الكروموسومات في الخلية الجسدية ، فإن الأب لن يعطي إلا جيناً (ناسلة) واحداً فقط لكل صفة من الصفات . فإذا كانت هذه الصفة موجودة أيضاً في البويضة كان ذلك إيذاناً بتكوين جين مكثف من كلا الأم والأب ويدعى ذلك : (Homozygous) زوجاً متجانساً . . وفي هذه الحالة فقط تظهر الصفـات أو الأمراض المتنحيـة (Recessive) لأن ظهـورهـا يستلزم وجـود نفس الصفـة مـورثـة من كـلا الأب والأم . . وما عدا ذلك فيعتبر حاملاً للصفة فقط دون أن تظهر عليه هذه الصفة (Heterozygdus) أي مختلط التجانس .

مرض الملوك :

وهناك أمراض تحمل على الكروموسوم فقط مثـل مرض الهيمـوفيليا ، وهو أحد أمراض الدم الذي اشتهرت به العائـلات المالكـة في أوروبا ، وفي هذا المرض تكون الأناث حاملات للمـرض دون أن يظهـر عليهن لأن الأنثى تحمل اثنين من كروموسومات (XX) وبما أن هـذا المرض متنـح (Recessive) فـإنه لا يـظهر في الإنـاث رغم أنهن يحملنه ، بينمـا الذكـور ليس لديهم إلا كروموسوم X واحد فقط .

وعلى هذا فإذا تزوجت امرأة حاملة لمرض الهيموفيليا (لا يظهر عليها)

من رجل سليم فإن نصف أولادها الذكـور (تقريبـاً) سيكونـون مصابين بهـذا المرض . . أما نصف بناتها فإنهن سيحملن المرض دون أن يظهر عليهن قط .

وليست الأمـور على ما ظنهـا (مندل) ووضعهـا في قـوانينـه ولا بتلك البساطة فما هو سائد قد يكون كامل التعبير (Fully Expressed) أو ناقص التعبير (Partially Expressed) وكذلك ما يكون متنحياً . . لا يسير كما أورده (مندل) في قوانينه التي شغلت العلماء طوال القرن العشرين .

ورغم ذلك فإن قوانين (مندل) تشكل حجر الزاوية في فهم علم الوراثة والجينات إلا أن الأمر أشد تعقيداً مما كان يـظنه (منـدل) . . ذلك الـراهب الذي اهتم بدراسة الوراثة على نبات الباسلاء (البسلة) ونشر أبحاثه في أواخر القرن التاسع عشر . . ولم تثر الاهتمام الكافي بها إلا بعد أن اكتشفت مورجان الكروموسومات والجينات عام ١٩١٢ .

خلود المخلوقات الدنيا خرافة (*)

ظهرت في الآونة الأخيرة كتابات شبه علمية في المجلات والصحف تتحدث عن خلود الكائنات الدقيقة والمخلوقات الدنيا .

ومن ذلك ما جاء في مجلة إقرأ عدد ٣٥٥ في ١٤٠٢/٣/٢٦هـ حيث يقول الكاتب :

(والكائنات الدنيا من ذوات الخلية الواحدة مثل البكتريا لا تشيخ ولا تموت بل إنها من الناحية العلمية تمضي في الانقسام إلى ما لا نهاية) .

والذين يزعمون أن المخلوقات الدنيا ، والكائنات الدقيقة مثل وحيدات الخلية والبتكريا والفطريات ، خالدة لا تموت يقعون في خطأ علمي من عدة جهات :

اولاً : إن هذه المخلوقات الدنيا من ميكروبات وفطريات ووحيدات خلية مثل الأميبا وبلازموديم الملاريا أو أنواع البكتريا أو أنواع الفطريات ، بل وحتى مختلف أنواع الفيروسات . . تموت مثلما تموت بقية المخلوقات . . إذ أن لها عمراً محدداً قد يطول فيبلغ سنيناً ، وقد يقصر فلا يزيد عن دقائق معدودة . . ويتغذى مثلما تفعل بقية الأحياء .

ولولا أن هذه المخلوقات الدنيا تموت لملأت السهل والجبل ولما تركت لغيرها مكاناً للبقاء . . خذ مثال ذلك أي نوع من البكتريا التي تسبب الأمراض . . فإنها عندما تدخل جسم الإنسان أو الحيوان تتعرف عليها أجهزة مناعته فتقوم بمحاربتها وقتلها . . ومن أهم وسائل الدفاع لدى الجسم هي

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة المنورة (جدة).

كرات الدم البيضاء والخلايا اللمفاوية ومجموعة من أنواع بروتينات الدم المسماة (مضادات الأجسام) (Antibodies).

ولولا أن الجسم يقوم بقتل هذه البكتريا المعتدية لما استطاع الإنسان أو الحيوان أن يعيش لحظة واحدة . . كما أن هناك مجموعة من الطحالب نستخرج منها المضادات الحيوية التي تقوم بقتل الميكروبات .

فإذا ضعفت مقاومة الجسم أو مقاومة جهاز من الأجهزة فإن البكتريا سرعان ما تهاجمه بشراسة . . . وتضعف المقاومة لأسباب كثيرة منها ما نعلمه وأغلبها نجهله، فمما نعلمه أن إدمان الخمور يؤدي إلى ضعف المقاومة في الجسم عامة ، ومنها أن تدخين السجائر يؤدي إلى ضعف المقاومة في الجهاز التنفسي خاصة . . ومنها أن استعمال عقار الكورتيزون يؤدي إلى ضعف المقاومة . . ومنها عيوب خلقية يولد بها الطفل وفي أحد أجهزة مناعته نقص أو عيب يؤدي إلى ضعف المقاومة .

ثانياً : إن هذه المخلوقات الدنيا تتكاثر بطريقتين : أحدها هي طريق التزاوج بين الذكر والأنثى بشكل من الأشكال ، كما يحصل في المخلوقات العليا . . وثانيها أن تتكاثر بطريقة الانقسام إذ تصبح الخلية خليتان والخليتان اربع وهكذا .

وهذا ما يحصل في معظم المخلوقات الدنيا . وبلازموديوم الملاريا مثلاً له طريقتان في التكاثر : أحدها بتزاوج الذكر والأنثى وثانيها بطريق الانقسام المباشر . .

والواقع أن المخلوقات العليا أيضاً تحتفظ بهاتين الطريقتين في البقاء ، فجسم الإنسان أو جسم الحيوان أو جسم النبات تنقسم خلاياه في كل لحظة . . ويخلق الله ويميت في كل لحظة مئات بل آلاف الملايين من الخلايا . . ففي جسم الإنسان مثلاً يخلق الله ويميت في كل يوم مائتي مليار كرة دم حمراء . . وفي كل ثانية يخلق الله ويميت من كرات الدم الحمراء فقط مليونين ونصف المليون . . ومثلها من خلايا الجلد وأكثر منها من خلايا الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجهاز البولي . . وهكذا بقية الأجهزة . . فجسمك اليوم ليس جسمك بالأمس . . فإن معدل عمر كرة الدم الحمراء لا

يـزيد عن مـائة يـوم ، ومعدل بعض أنـواع كرات الـدم البيضاء بضعـة أيام ، وكذلك معدل عمر خلايا الجلد بضعة أيام ـ وكذلك خلايا الجهاز الهضمي . . والتنفسي ـ ويطول عمر بعض الخلايا اللمفاوية إلى عدة سنين . . وحتى خلايا العظام تموت ويأتي غيرها ليحل محلها . .

ولا تقتصرحركة البناء والهدم هذه على الطفل الـذي ينمو وإنمـا تستمر حتى الشيخوخة وإن كانت بصورة أبطأ بطبيعة الحال من الطفولة . .

فأنت أنت قد تغير جسمك مرات عديدة فخلايا دمك الحمراء تتغير في كل مائة يوم ، وبما أن الخلق والإماتة مستمران طـوال الوقت فـإنه لا تمضي لحظة الا ويخلق الله فيها ملايين من كرات الدم الحمراء ويميت مثلها .

وكذلك يفعل ببقية خلايا الجسم إلا خلايا الجهاز العصبي حيث جعل الله فيها الدماغ الذي تفكر به فإنه جعل هذه الخلايا ثابتة فإذا مات منها شيء لم يستبدل بغيره . . .

ولهـذا جعل الله لهـا عمراً مـديداً يمتـد في أغلب الأحيان طـوال حياة الإنسان . .

فـإذا ما أدركنـا هذه الحقـائق اتضح لنـا بـطلان قـول من يقـول بخلود الكائنات الدقيقة . . ذلك لأن هذه المخلوقات تموت كمـا يموت غيـرها . . ولها طريقتان في التكاثر : طريقة بالانقسام الذاتي وطريقة أخرى بالتزاوج . .

وكـذلك في الأحيـاء العليا فـإن خلايـا جسم الإنسان ، أو الحيـوان أو النبات ، تتبدل في كل لحظة وثانية وذلك بواسطة انقسام الخلايا المباشر . . . كما أنها تحافظ على بقائها عن طريق التزاوج . .

فهـل يمكن بعـد هـذا أن نقـول إن الإنسـان أو الحيـوان أو النبـات الخالد . . ؟ إذا كان المقصود من ذلك بقاء النوع فإنه يمكننا أن نقول إن هذه الأنواع لها نوع من الخلود المحدود (إذا صح التعبير) أي إن هذه الأحياء قد وجدت على الأرض منذ مئات الملايين من السنين انقرض بعضها وبقي بعضها الآخر إلى اليوم . . فالحشرات مثلاً قد وجدت على الأرض منذ مئات الملايين من السنين وهي لا تزال باقية إلى اليوم ، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

ومع ذلك فإنه لا يصح أن نقول إنها خالدة . . لأن كل حشرة لا بد ستموت سواء عاشت بضع ساعات ، كما تفعل ذبابة مايو ، أو عاشت سنوات كما تفعل بعض الحشرات . . .

وكذلك في المخلوقات الدنيا ، من وحيدات الخلية والفطريات والبكتريا والفيروسات ، بل إن أغلب هذه المخلوقات الدنيا لا يعيش سوى بضع ساعات وربما أقل .

ومن المغالطة الزعم بأنها خالدة لأنها تنقسم انقساماً متتالياً فتحفظ بذلك نوعها . . ونحن نعلم علم اليقين أن كثيراً منها يموت قبل أن ينقسم ولولا ذلك لما تركت لغيرها من الأحياء مكاناً . .

ولا نريد أن نتوسع في هذا الباب وإلا فقد أثبتت العلوم الحديثة أن كل شيء من المخلوقات يموت ويفنى وأن لكل مخلوق أجلاً مقدراً . . سواء كان ذلك بكتريا أو فيروساً أو أميبا أو دودة أو حشرة أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً . .

بل إن النجوم والكواكب ذاتها لها أعمار محددة . . فقد اكتشف العلم الحديث أن النجوم لها حياة محددة ، وإن كانت تحسب بملايين السنين . . وقد شوهدت نجوم كثيرة وهي تحتضر وتموت .

أليست كل هذه الحقائق توضح أن الله وحده هو المتفرد بالبقاء مهما طال عمر بعض المخلوقات ؟ ! وإننا لنعلم من القرآن الكريم أن إبليس اللعين قد طلب من المولى سبحانه وتعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة فأعطاه الله ذلك **﴿قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾** . ألسنا نعلم من القرآن الكريم أيضاً أن الملائكة المكرمين يعيشون من قبل آدم ويبقون إلى يوم البعث . . حيث يميت الله جميع المخلوقات ولا يبقى سوى الله **﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾** .

وقصة الكائنات المختلفة التي يخلقها الله ثم يميتها في كل لحظة وآونة أليست دليلاً متكاملاً على البعث والإعادة يوم القيامة ؟

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ .

﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنّى تؤفكون﴾ .

﴿ انه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود﴾ .

فليس هناك من شك في أن كل مخلوق في الأرض أو في السماء له عمر محدود سواء طال ذلك العمر أم قصر . . وأن هناك بدء وإعادة لا تتوقف في جميع الكائنات حية كانت أم غير حية . . وهناك دورة كاملة في الوجود للأوكسجين وللنتروجين وللنبات وللحيوان وللبكتريا وللفيروس ولطفيلي الملاريا ولدودة الإسكارس . . ودورة كاملة من الخلق والإماتة في النجوم والكواكب . . وفي النباتات والطحالب . .

فكيف يكون لمخلوق منها خلود وهي محكومة بالفناء . . فناء كل ذات مخلوقة ، ثم بعد ذاك فناء المخلوقات بأجمعها ، ثم يعيد الله خلق ما شاء منها في دورات متتالية . . تراها في جسم البعوضة ، كما تراها في طفيلي الأميبا ، كما تتضح معالمها في كرات الدم الحمراء ، أو البيضاء أو خلايا الجهاز الهضمي أو التنفسي أو . . أو . .

فالقول بخلود المخلوقات الدنيا ، مثل البكتريا والفيروسات ووحيدات الخلية ، قول غير صحيح من الناحية العلمية فهي تتعرض للفناء في كل لحظة ولذا عوضها الله بكثرة تناسلها بالانقسامات المتتالية . . فسبحان من تفرد بالبقاء وحكم على جميع مخلوقاته بالفناء .

حوار حول تدريس الطب باللغة العربية (*)

لقد كتب الأستاذان الفاضلان الدكتور زهير السباعي والدكتور صادق الهلالي عدة مقالات مطالبين بتدريس الطب باللغة العربية . . وكان آخرها مقال نشرته « الشرق الأوسط » بعنوان « لماذا نعلم الطب بلغة أجنبية » للأستاذ الدكتور زهير السباعي في ٢٠ رمضان ١٤٠٧هـ ، ونحن نشكر للأستاذين الفاضلين غيرتهما على لغة الضاد ولغة القرآن . . ونحب أن نلقي الضوء على بعض النقاط التي قد تساعد على الإسراع باتخاذ هذه الخطوة المهمة .

رغم أن جامعة دمشق هي الوحيدة بين جامعات العالم العربي التي تدرس الطب باللغة العربية إلا أنها قطعاً ليست أول جامعة تدرس الطب باللغة العربية ، فقد سبقتها إلى ذلك مصر ، أيام محمد علي باشا ، عندما أنشأ محمد علي باشا مستشفى القصر العيني ، وكان الطب يدرس فيه ، لفترة من الزمن ، باللغة العربية ، واستمر على ذلك ردحاً من الزمن حتى سيطر الانجليز على مقدرات مصر ومعاهدها فحولوا التعليم في كلية الطب إلى اللغة الانجليزية .

ولم تحاول مصر تدريس الطب باللغة العربية مرة أخرى إلا عندما تمت الوحدة مع سورية . ومع قرار الوحدة صدر القرار السياسي بالإسراع بتدريس العلوم كلها ، بما في ذلك الطب ، باللغة العربية . . وتحركت اللجان ونشط الأساتذة في ترجمة كتب الطب وفي خلال سنتين كان كثير من كتب الطب قد ترجم إلى اللغة العربية . .

(*) نشر هذا المقال في صحيفة «الشرق الأوسط» (لندن ـ الرياض ـ جدة . . إلخ) .

وللأسف أعيق تنفيذ القرار بأمر لا علاقة له بالطب . . وهو انفصام الوحدة بين سورية ومصر . . وكرد فعل أهوج من السياسيين وكانتقام ضد الذات تماماً مثلما يحدث في أمراض المناعة الضد ذاتية (Auto Immune Disease) توجه القرار السياسي لإلغاء تدريس الطب باللغة العربية ووضعه على الرف إلى أجل غير مسمى .

ولم يكن هذا القرار مبنياً على مصاعب فنية أو مشاكل في تدريس الطب باللغة العربية بل بني القرار كانتقام ضد الذات التي فصمت عرى الوحدة ومزقت الوطن العربي إلى أشلاء متنافرة متباغضة .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور زهير السباعي تجربة مؤتمر طبي عقد في البحرين وآخر عقد في تبوك في الآونة الأخيرة، وأن الأبحاث قد قدمت باللغة العربية دون عنت وأن المناقشات تمت بيسر وسهولة .

وأذكر بهذه المناسبة أن مؤتمرات الطب الإسلامي المتعددة ، والتي عقدت في الكويت واسطمبول والقاهرة وكراتشي ، كانت تعتمد اللغتين العربية والانجليزية لإلقاء الأبحاث والمداولات ، ولم تكن هناك أي صعوبة تذكر في تقديم هذه الأبحاث باللغة العربية .

كذلك فإن المؤتمر الطبي الأردني الخامس ، الذي انعقد في عمان في الفترة من ٤ ـ ٦ مارس ١٩٨٧م ، استخدم اللغتين الانجليزية والعربية لتقديم الأبحاث والمناقشات . . ولم يجد الذين قدموا أبحاثهم باللغة العربية صعوبة في إيصال أبحاثهم ومعلوماتهم إلى زملائهم .

كما عقدت ندوة كاملة استمرت بضع ساعات لمناقشة موضوع تعريب التعليم الطبي .

ومما لفت انتباهي أن أحد أساتذة التشريح في تونس[1] قام بالفعل بتدريس هذه المادة باللغة العربية بعد أن قام بوضع عدة كتب في علم التشريح باللغة العربية، كما وضع لها الأطالس اللازمة .

---

(١) هو الأستاذ الدكتور أحمد ذياب أستاذ مادة التشريح في كلية الطب ، صفاقس ، تونس.

وعندما واجهته الكلية والجامعة حول قراره ذاك أحالهم إلى الدستور التونسي الذي ينص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية .

وقد نجح الأستاذ الدكتور أحمد ذياب نجاحاً باهراً في تدريس مادته باللغة العربية لدرجة جعلت الطلبة يصرون على أن يتلقوا مادة التشريح باللغة العربية .

ولم تجد إدارة الكلية والجامعة إلا الرضوخ لهذا الاصرار في وقت تدرس فيه معظم العلوم في المدارس الابتدائية باللغة الفرنسية !!

وتنص لوائح الجامعات في الدول العربية بصورة عامة على أن لغة التدريس هي اللغة العربية إلا إذا تعذر ذلك ، وعليه فيستطيع أستاذ أي مادة أن يدرسها باللغة العربية دون انتظار إذن من أحد لأن دساتير البلاد العربية تنص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، وكذلك تنص لوائح الجامعات على أن لغة التدريس هي اللغة العربية . ويبدو أن الصومال هي الوحيدة التي لا تستخدم اللغة العربية ، ولا حتى الحرف العربي ، وذلك منذ أن دخلت إلى جامعة الدول العربية وصارت عضوة فيها!!

ومع اعتزازنا بمبادرة جامعة دمشق وتدريسها الطب وغيره من العلوم باللغة العربية إلا أن الألفاظ أو بعضها على الأقل لا تبدو سهلة ولا مستساغة وربما لم تكن عربية أيضاً .

ولبعض الناس ولع بكل صعب ، فلا يختارون من الألفاظ إلا المبهم الصعب ، رغم وجود السهل المفهوم ، ففي دمشق يستخدمون لفظ المعثكلة بدلاً من البنكرياس ، رغم أن ابن سينا ، وغيره من الأطباء المسلمين ، استخدموا لفظ البنقراس ، وهم يفضلون لفظ العفج على لفظ الاثني عشر ، ولفظ القشع بدلاً من البصاق أو البزاق أو النخامة ، وكلها ألفاظ وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين في موضوع البصاق في المسجد .

وفي الأغلب تجدهم يتنكبون الألفاظ التي استخدمها القرآن ، في علم الأجنة ، مثل النطفة العلقة المضغة ويختارون لها ألفاظاً ما أنزل الله بها من سلطان ، وكذلك تراهم يبتعدون بعداً شاسعاً عن الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة ، وفي كلام أئمة الإسلام ، مع أنها فصيحة ومتداولة وسهلة ،

ويختارون بدلاً منها ألفاظاً ذات اشتقاق سقيم . . فإذا أراد أحدهم أن يصف بعض الخلايا بأنها تبتلع الأجسام الغريبة فبدلاً من أن يقول الخلايا البالعة تجده يسميها الخلايا البلعمية ، أو البلاعم وهكذا . .

وهذا في ظني مما يولد لدى الأطباء خوفاً وفزعاً من هذا التعريب ، الذي يأتيهم بألفاظ واشتقاقات مبهمة عسيرة وربما كانت أيضاً غير صحيحة .

لهذا كله لا بد من استخدام الألفاظ المطروقة وخاصة تلك الألفاظ المعجزة التي استخدمها القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو علماء الأمة ، والبعد عن هذه الاشتقاقات الغريبة والتقعر وركوب كل صعب ، وإلا فإننا سنجد أنفسنا أمام أعداء طبيعيين للتعريب ، لأن عدداً كبيراً من الأطباء والطلبة لا يفقه هذه الألفاظ التي وصفها طه حسين يوماً بقوله : «يوناني فلا يقرأ» .

الترجمة في عصر المأمون والترجمة في العصر الحديث (*)

عندما قامت حركة الترجمة في عهد المأمون الذي رعى العلم أيما رعاية ، وكان المأمون يعطي المترجمين وزن ما كتبوه من الترجمات ذهباً . . . حتى أن كبير المترجمين إسحاق بن حنين كان يقول لكتبته الوراقين : وسِّعوا بين السطور واكتبوا بحروف كبيرة حتى تزداد كمية الأوراق المكتوبة وبالتالي يزداد وزنها ذهباً .

وامتازت حركة الترجمة ، التي شهدت عهدها الذهبي في عصر المأمون ، أنها نقلت عن السريانية واليونانية العلوم والفلسفة ، وكانت انتقائية في نقلها علوم اليونان إذ ركزت على ترجمة أعمال الفلاسفة الإلّهيين ، من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين . . وحظى أرسطو بأكبر اهتمام حتى سمّاه العرب المعلم الأول ، بينما أهملت الأعمال الفلسفية الأخرى مثل مذهب أبيقور ، الذي يبحث عن السعادة في اللذة ، ومذهب ديمغريطس أول من تحدث عن الذرة ، وجميع الفلاسفة الذين كانوا ينكرون الله أو يدعون إلى فلسفات مغايرة ومضادة لعقيدة الإسلام .

واهتم المسلمون بترجمة الفلسفة لأنها كانت تضم إلى جانبها علوم الفلك والحساب والكيمياء والهندسة والطب والنبات والحيوان والمعادن والجغرافيا ، وكانت هذه تدعى العلوم الطبيعية (الفيزيك) ، كما كانت تضم العلوم الإلّهية ، وكانت هذه تدعى ما وراء الطبيعية أو (الميتافيزيك) .

وترجم المسلمون ، وغيرهم من السريان ، إلى العربية أعمال أقليدس

(*) مقال نشرته صحيفة «الشرق الأوسط» (لندن ـ الرياض ـ القاهرة . .) .

في الهندسة ، وبطليموس في الجغرافيا ، وأبقراط وجالينوس في الطب ، وفيثاغورس في الحساب ، وبطليموس في الفلك ، وأرخميدس في الفيزياء وخصائص المادة ، وأفلاطون وأفلوطين وأرسطو في الفلسفة .

وتميزت الترجمات بإهمالها التام للآداب والفنون والميثولوجيا (الأساطير) اليونانية . . ولا نجد ذكراً لهوميروس ولا نسمع شيئاً عن الإلياذة والأوديسا ، (تلك الملاحم الشعرية الرائعة المليئة بالأساطير اليونانية) في الترجمات العربية القديمة . كذلك لم تحظ أعمال سوفوكليس الأدبية وأعماله التراجيدية بأي اهتمام من المترجمين في عصر المأمون الذهبي ولا في غيره من العصور الإسلامية الزاهية .

ولم تحظ حرب طروادة، ولا حروب أجاممنون ولا أساطير هيلين ولا أوديب ولا اليكترا ، بأي اهتمام من المسلمين . ولم يلتفت المسلمون إلى أعمال أرستفانوس المسرحية الكوميدية ولا حتى إلى خطابات ديموستين البليغة ، ولا أنظمة الحكم المختلفة التي جربها اليونان ، وخاصة نظامهم الديمقراطي ، حيث كانت كل مدينة دولة ، وكان الأحرار في تلك المدينة يملكون حق التصويت لانتخاب ممثليهم في مجلس الشعب الذي ينتخب حكومته .

وأُهمل التاريخ اليوناني ، بصورة عامة ، ما عدا شذرات من فتوحات الإسكندر المقدوني وبعض أعمال هيرودتس التاريخية .

أما الميثولوجيا (الأساطير) فقد أهملت إهمالاً تاماً . والسبب في ذلك واضح كل الوضوح إذ أن هذه الأساطير والأعمال الأدبية والفنية وفنون النحت وعبادة الأوثان والأصنام تصطدم مع عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام .

ولم يكن للأدب اليوناني أي قبول لدى المسلمين على عكس نظيره الأدب الفارسي والهندي ، حيث دخلت كثير من هذه الأعمال الأدبية في الأدب العربي ، إذ ترجم ابن المقفع «كليلة ودمنة » ، ودخلت أساطير الهند وفارس في أعمال « ألف ليلة وليلة » .

ورغم الاهمال التام للآداب والميثولوجيا اليونانية ، بل وأنظمة الحكم

والتشريعات اليونانية والرومانية ، من جانب المترجمين إلى اللغة العربية . . . إلا أن العلوم اليونانية والفلسفة الإلهية اليونانية والمنطق اليوناني حظيت جميعاً باهتمام بالغ من المثقفين في ذلك العصر .

إضافات إسلامية :

ولم يكتف المسلمون بترجمة هذه الأعمال وهضمها ، ولكن سرعان ما تمثلوها وأضافوا إليها وصبغوها بالصبغة الإسلامية . وبرز في عالم الفلسفة الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد كأعلام بارزين أسهموا في إثراء الفكر الانساني . ورغم ما حدث من اصطدام بين المدرسة السلفية الدينية ، متمثلة أول الأمر في حجة الإسلام ابو حامد الغزالي ، وبين الفلسفة الاغريقية ، ثم فيما بعد بين الإمام ابن تيمية والمنطق الأرسطي ، إلا أن تيار الفكر العام الإسلامي استطاع أن يتقبل ، دون حرج ، كبير آراء أرسطو في الفلسفة ، كما استطاع ان يتقبل علوم المنطق الإغريقي .

ولم يكن أقطاب العلم الديني يهملون المنطق ، ولا حتى الفلسفة اليونانية ، بل إن أشد خصوم هذه الفلسفة ، وهو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، كان أحد القلائل الذين تمثلوا هذه الفلسفة وفهموا أبعادها وأغراضها رغم ما كتبه ضدها في كتابه المشهور «تهافت الفلسفة» الذي رد عليه ابن رشد بكتابه «تهافت التهافت» .

وكان ابن رشد الحفيد فيلسوفاً عظيماً إلى جانب كونه قاضي القضاة في قرطبة ، وهو مؤلف أحد المراجع الهامة الوجيزة في الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد» الذي لا يزال مرجعاً في الفقه إلى اليوم ، حيث يتميز بوجازته وسهولة عبارته وعدم التزامه بأقوال المذهب المالكي ، الذي ينتمي إليه ، بل كان يذكر أقوال المذاهب الإسلامية المختلفة، وفي كثير من الأحيان يذكر اجتهاده الخاص في المسألة .

ويعتبر ابن رشد بحق أحد معالم الفكر الانساني ، واستطاعت مدرسته في الفلسفة ان تسهم إسهاماً كبيراً في إقامة النهضة الأوروبية الحديثة ، حيث

كان تلاميذه ، من الأسبان وغيرهم ، يترجمون عنه العلوم المختلفة من فلسفة وطب وفلك ورياضيات وفيزياء وأحياء وهندسة ومنطق .

وظهر في عصر المأمون وما بعده مجموعة من العلماء في كافة فروع المعرفة ، وأصبح المسلمون أساطين المعرفة وأساتذة العلوم ، وأصبحت اللغة العربية لغة العلوم والآداب . واتجهت كافة الأمم للأخذ عنها وانتشرت الجامعات في أرجاء العالم الإسلامي ابتداء من بخارى وترمذ ومرو (في التركستان التي يحتلها الروس حالياً) شرقاً إلى أقصى المغرب والمحيط الأطلسي غرباً ، حيث قامت مدارس فاس وقرطبة وغرناطة وإشبيلية والحمراء بنشر الثقافة إلى أوروبا .

وفي مجال الطب لم تعد المعلومات الطبية مقتصرة على ما كتبه ودونه أبقراط وجالينوس ، بل أصبحت ملاحظات وإضافات الرازي وابن سينا والزهراوي وابن زهر وابن النفيس تشكل اتجاهاً جديداً وإثراء ضخماً لما وضعه أبوقراط وجالينوس . وفي مجال الهندسة والرياضيات لم يقتصر المسلمون على ما وضعه أقليدس وفيثاغورس بل أضاف الخوارزمي وجابر بن حيان علوم الجبر والمقابلة وعلم اللوغارثيمات ، كما أن الأرقام الحديثة تعرف إلى الآن في أوروبا باسم الأرقام العربية .

وفي الكيمياء تطورت الكيمياء الأسطورية ، التي تبحث عن تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب ، إلى كيمياء دقيقة على يد جابر بن حيان وأبو بكر الرازي والبيروني .

وفي الجغرافيا لم يكتفِ المسلمون بكتاب المجريطي ، ولا كتابات بطليموس ، بل أضاف ابن رستة والمسعودي والشريف الإدريسي خرائط دقيقة للعالم القديم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) ، كما قاس المسلمون محيط الأرض بدقة متناهية ، وأثبتوا كروية الأرض وكروية الأجرام السماوية .

وفي الفلك ، أسهم البيروني (من خوارزم في الاتحاد السوفياتي حالياً) بإضافات جديدة ، كما أضاف إليها العديد من العلماء والعباقرة ، ولا تزال

أسماء النجوم ومواقعها العربية منتشرة بين كافة اللغات الأوروبية الى اليوم .

وفي كل علم من العلوم أسهم العلماء والفلاسفة المسلمون إسهاماً رائعاً في الحضارة البشرية وأضافوا إضافات جديدة ، هامة وقيّمة إلى التراث اليوناني .

الانحطاط المعاصر :

والغريب حقاً أن طه حسين ولطفي السيد وغيرهما ، من المعجبين المفتونين بالتراث الأدبي الأسطوري الإغريقي ، يعيبون على المسلمين أنهم لم يهتموا بخرافات اليونان وأساطيرهم وآدابهم وفنونهم ، بل اهتموا بالعلوم فقط وبجانب واحد من الفلسفة اليونانية وهو الجانب الإلّهي .

وللأسف الشديد فإن هذا الاتجاه لنقل الآداب والأساطير اليونانية ، بما يصحبها من فنون ونحت ومسرح وأوبرا ، هي التي سيطرت على الترجمة في العصر الحديث ، بينما أهملت ترجمة العلوم والتكنولوجيا إهمالاً تاماً .

وأدى إهمال ترجمة العلوم والتكنولوجيا والطب والفلك . . الخ ، والاهتمام بالآداب والمسرح والفنون والشعر والميثولوجيا ، إلى انحطاط العالم العربي وانهياره منذ بداية النهضة الحديثة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من تمزق وضياع وانحدار .

وقد بدأت النهضة الحديثة في العالم العربي في عصر محمد علي باشا في مصر الذي اتجه اتجاهاً سليماً قوياً حيث بذل جهوداً جبارة في نقل العلوم العسكرية والحربية والبحرية ، مما جعل مصر قوة برية وبحرية تخشاها دول أوروبا ، رغم أن فرنسا ساعدت محمد علي في أول الأمر بسبب معاركه المختلفة مع الدولة العثمانية واقتطاعه أجزاء هامة من أراضي الخلافة .

وعندما وقف محمد علي باشا مع الدولة العثمانية تجمعت الأساطيل الأوروبية ، ممثلة في دول بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ، لتدك الأسطول العثماني المصري في معركة نافارين عام ١٨٢٧ .

وللإنصاف والتاريخ فإن محمد علي باشا لم يهتم فقط بإقامة القوة العسكرية الضاربة وإقامة المصانع الحربية في مصر ، وإنما اهتم أيضاً بإرسال البعثات المختلفة لدراسة العلوم الحديثة ، بل وأشرف بنفسه على إقامة القصر العيني ، أول كلية للطب في العالم العربي ، والتي كانت تدرس الطب باللغة العربية منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان ، بينما لا تزال تتعثر خطاها اليوم في محاولة الترجمة وتدريس الطب باللغة العربية .

كذلك اهتم محمد علي بالهندسة فأقام السدود وأهمها القناطر الخيرية ، ووسع الزراعة ونشر نظام التعليم .

وكانت مصر ، في ذلك الوقت ، إحدى الدول القليلة التي اتجهت بقوة وبسرعة لإقامة نهضة حديثة مبنية على العلوم العصرية الحديثة ودون الالتفات إلى ما يسمى الأدب والفن والمسرح والأوبرا والميثولوجيا .

وكانت اليابان قد بدأت أيضاً نهضتها في نفس الوقت الذي كان فيه محمد علي باشا يوطد أركان دولته الفتية . . بل بلغ الأمر أن اليابان أرسلت عدة وفود إلى مصر للاطلاع على الوسائل التي اتخذها محمد علي لتحذو حذوه .

وبينما استمرت اليابان في ترجمة العلوم والطب والتكنولوجيا الغربية إلى اللغة اليابانية وأهملت إهمالاً تاماً الآداب والفنون والمسرح والموسيقى والرقص الغربي ، تحول احفاد محمد علي باشا ، وخاصة إسماعيل باشا ، الى الاهتمام بالمظاهر الجوفاء وإلى إنشاء الأوبرا والمسارح والفنون والموسيقى والرقص ، الخ .

وبينما كان إسماعيل باشا يفخر بأن القاهرة أصبحت قطعة من أوروبا كانت اليابان تعمل جادة لإقامة نهضة حقيقية مبنية على العلوم والتكنولوجيا . وصرف إسماعيل باشا ملايين الجنيهات الذهبية على إقامة المسارح وصالات الرقص والموسيقى . . وعندما افتتح دار الأوبرا في القاهرة دعا إليها ملوك وأمراء أوروبا لحضور الافتتاح ليشهدوا بأعينهم كيف تحولت القاهرة في عهده

إلى قطعة من باريس أو فيينا أو روما . . واستمتعوا معه بأوبرا «عايدة» كما استمتعوا بالحفلات الراقصة الصاخبة على ضفاف النيل .

وكانت النتيجة أن أصبحت مصر مدينة بأربعة ملايين جنيه ذهباً ، واضطر إسماعيل باشا أن يتنازل عن سيادة مصر على قناة السويس ، وبدأ بذلك عهد الانتداب البريطاني الفرنسي الذي سرعان ما تحول إلى استعمار كامل .

عوامل الانهيار :

وهكذا يتضح بجلاء أن سبب انهيار النهضة الحديثة، التي أرسى دعائمها الأولى محمد علي باشا ، هو إهمال ترجمة العلوم والتكنولوجيا الغربية والاهتمام بالآداب والفنون والمسرح والأوبرا والموسيقى والميثولوجيا ، ولا يزال إلى اليوم سبب هذا الانهيار والانحدار هو بعد الأمة عن دينها ثم عدم اهتمامها بالعلوم والتكنولوجيا وإقامة الصناعات الحربية والمدنية .

ولذا نرى البون شاسعاً والفرق هائلاً بين اليابان وبين البلاد العربية رغم ان مصر كانت قد سبقت اليابان في مضمار النهضة إبان عهد محمد علي باشا ، إلا أن الانحراف في عهد خلفاء محمد علي واهتمامهم الأجوف بجعل مصر قطعة من أوروبا ، وتقليدهم الأخلاق الأوروبية ، وخروجهم عن دينهم وظنهم أن الرقي هو في معاقرة الخمر وحضور الأوبرات وحفلات الرقص والموسيقى والخروج عرايا إلى البلاجات وحمامات السباحة . . . هو الذي أدى في النهاية إلى وقوع مصر في براثن الاستعمار الأنجلو فرنسي ، وبالتالي إلى استمرار الضياع والشتات الفكري والعقائدي .

ولا تزال آثار مدرسة إسماعيل باشا ومن بعده لطفي السيد وطه حسين وتوفيق الحكيم ، التي تنادي بالاهتمام بالآداب الأوروبية والتركيز عليها ، قائمة إلى اليوم ، وكما يقول طه حسين في مستقبل الثقافة في مصر (بما معناه): «إن علينا أن نأخذ الحياة الأوروبية بخيرها وشرها، حلوها ومرها. . وأن نقلدهم في كافة مناحي الحياة وأن نحذو حذوهم في كل صغيرة وكبيرة،

وأن نحول الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني مثلهم». بل ذهب طه حسين إلى الزعم بأن مصر قطعة من أوروبا لا صلة لها بالعالم العربي والإسلامي، وعلى مصر إذا أرادت النهضة أن تدير وجهتها نحو أوروبا وتنسى صلتها بالعرب والمسلمين قاطبة.

وهكذا استمرت رحلة الانحدار من سيء إلى أسوأ منذ عهد إسماعيل باشا إلى اليوم . . ولا نجاة للأمة إلا بنبذ الفلسفات الأوروبية والآداب الغربية والفنون والأساطير اليونانية والقوانين الرومانية والعودة إلى شريعة الله وإلى لغة القرآن ، وإلى ترجمة العلوم الحديثة فنأخذ من الغرب مثل ما أخذ أجدادنا العلوم والطب والفلك والهندسة والتكنولوجيا ، وندع مثلهم الآداب والفنون والميثولوجيا والرقص والموسيقى والنحت والعقائد الزائفة والشرائع والقوانين الباطلة .

وأقرب مثل لنا هو اليابان حيث بدأت نهضتها متزامنة مع النهضة في مصر في عهد محمد علي باشا ، ولكن سرعان ما انحدرت مصر بسبب اتجاه الحكام فيها إلى التقليد الأجوف لمظاهر الحضارة والاهمال التام للعلوم بينما استمرت اليابان في التركيز على ترجمة العلوم والتكنولوجيا إلى اللغة اليابانية . . وبينما كانت اليابان تعطي كل اهتمامها للعلوم والتكنولوجيا كان العرب يركزون على الآداب الإغريقية والآداب الأوروبية الحديثة وعلى الميثولوجيا والفنون والمسرح والرقص والموسيقى .

وكانت النتيجة هي التي نعاني منها اليوم حيث تتقدم اليابان وتحتل مكان الصدارة بين الأمم في الازدهار بينما تعاني البلاد العربية والإسلامية من التخلف والفقر وتواجه عبء ديون خارجية تبلغ مئات الآلاف من الملايين (بلغت ديون مصر وحدها ٣٣ ألف مليون دولار) .

إجراء العملية بدون علم المريض عمل غير أخلاقي ويعاقب عليه القانون (*)

نشرت جريدة المدينة في عددها ٥٤٩٥ الصادر في ١٤٠٢/٦/١٠ هـ من مراسلها في الدمام أن مريضاً قد أجريت له عملية في مستشفى الخبر التعليمي دون علم المريض . . وذلك في معرض الإشادة بهذا المستشفى وبهذه الطريقة في إجراء العمليات . .

ولست أدري أولاً مدى صحة هذا الخبر ، لكن الذي أزعجني هو طريقة عرضه والإشادة به وكأنه إنجاز هام بينما هو لا يتفق مع أبسط حقوق الإنسان ويعرض مرتكبه لطائلة القانون إذا اشتكى المريض ذلك .

ومن المعلوم لدى أكثر الناس ، ولدى الأطباء بصورة خاصة ، أنهم لا يستطيعون إجراء عمليات وإعطاء المخدر إلا بعد موافقة المريض أو ولي أمره إذا كان قاصراً . . ولا يكتفى بالموافقة الشفوية بل عليهم أخذ الموافقة كتابياً .

والحالة الوحيدة التي يمكن فيها إجراء عملية دون موافقة المريض هو عندما يكون المريض فاقداً للوعي ومصاباً إصابة خطيرة تعرض حياته للخطر ، ولا يوجد أحد من أولياء أمر المصاب ليوافق على إجراء العملية .

ويمنع القانون إعطاء المريض نقل دم حتى في حاجته الشديدة لذلك إلا بعد موافقته . والحالة الوحيدة التي يسمح بها لإعطاء نقل الدم بدون موافقة هو أن يكون المريض المحتاج لنقل الدم صغيراً قاصراً ، ويرفض ولي أمره الموافقة على إعطائه نقل الدم . . فعند ذلك يستطيع الطبيب إعطاء الطفل المحتاج إلى نقل الدم . . وما يحتاج إليه دون موافقة ولي الأمر.

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة (جدة).

ولهذا فإننا نستهجن عادة أخذ المريض إلى غرفة العمليات وتخديره وإجراء العملية له دون موافقة مسبقة منه .

ويحق للمريض أن يشكو هؤلاء الأطباء والمستشفى الذي أجرى العملية دون موافقته ، حتى ولو كانت العملية ناجحة تماماً . . ومن حقه أن يقاضيهم ، وله الحق في تعويض مالي ضخم . .

وقد عرفتُ من قبل حالات أجرى فيها الجراحون عمليات لمرضاهم دون علمهم بحجة أن ذلك يخفف من قلق المريض ، ولكن هذه الحجة داحضة لأن في ذلك اعتداء على جسد المريض دون إذنه .

ومهما كانت الدوافع حسنة فإن ذلك لا يغير من مسؤولية الجراح وطبيب التخدير والمستشفى ووقوعهم تحت طائلة القانون لإجرائهم عملية لمريض دون موافقته أو موافقة ولي أمره كتابة .

والحالة الوحيدة التي يسمح فيها بإجراء العملية دون موافقة مسبقة هو أن يكون المريض أو المصاب في حالة إغماء ، وفي حالة تعرض حياته للخطر ، فعندئذ يجب الإسراع بإنقاذه ، ولو بدون الحصول على موافقة منه أو من ولي أمره . . أما إذا كان المريض بالغاً عاقلاً وفي وعيه التام ، فإن القوانين تمنع إجراء أي عملية له دون موافقته المسبقة كتابياً . . بل وتمنع نقل دم إليه مهما كان محتاجاً له إذا كان رافضاً لهذه الطريقة في العلاج .

وللأسف هناك نوع تجاهل لحقوق المريض ، فإن من حقه أن يرفض العلاج بطريقة من الطرق ، ومن حق الطبيب أيضاً أن يوضح له المخاطر التي سيتعرض لها إذا رفض إجراء العملية مثلاً ، وباستطاعته أن يحمي نفسه من تهمة التقصير بأن يجعل الشخص الرافض للعلاج أن يذكر ذلك كتابة . .

ورغم أن العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة إنسانية قبل كل شيء . . ودافعها الحرص على مصلحة المريض ومحاولة لبقائه . . إلا أن العلاج لا يكون بالإكراه لشخص بالغ عاقل مهما كانت نية الطبيب حسنة .

وبطبيعة الحال إذا كان المريض قاصراً أو مجنوناً أو فاقداً لوعيه فإن هذا

الحق ينتقل إلى وليه . . إلا أن الطبيب يستطيع ، في هذه الحالة ، أن يقدر مدى الخطورة على حياة المريض . . ومن حقه ، بل من واجبه ، القيام بإجراء عملية تنقذ حياة المريض من خطر يودي بحياته حتى ولو لم يوافق ولي الأمر على ذلك . .

وإذا كان الله يقول : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ وهو إنقاذ للإنسان من خزي الدنيا وعذاب الآخرة لأن الإنسان قد كرّمه الله بالإرادة ، فإننا نقول أيضاً لا إكراه في الطب . . فمن شاء أن يتطبب فله ذلك ، ومن أراد غير ذلك فهو المسؤول عن نفسه . .

والله الهادي إلى سواء السبيل . .

على هامش المؤتمر الطبي السعودي الثامن
المراكز الطبية المتقدمة أم الوقاية(*)؟

إلتهاب الكبد الفيروسي هو أحد أكثر الأمراض انتشاراً في المملكة العربية السعودية ، وفي البلاد العربية ، بل وفي كثير من البلاد النامية .

وسبب هذا المرض فيروس صغير جداً وهو من فصيلة ال (R.N.A.) (أي الحامض النووي الريبوزي) وهو أنواع ثلاثة : نوع (أ) ، ونوع (ب) ، ونوع لا الف ولا باء وإنما يشمل فيما يشمل فيروسات الأنفلونزا .

وينتقل الفيروس بعدة طرق: أهمها انتقاله من البول والغائط بواسطة المجاري الطافحة إلى الماء والأكل بواسطة الذباب وغيره من الحشرات ، أو بواسطة تلوّث مياه الشرب بمياه المجاري نتيجة تسربها .

والطريقة الثانية الهامة هي بواسطة نقل الدم من شخص يحمل الميكروب إلى شخص لا يحمله فيصاب ذلك المسكين نتيجة لذلك .

أخطر هذه الأنواع الثلاثة هي نوع (ب) إذ وجد أنه قد يتحول إلى :

١ ـ التهاب الكبد المزمن النشط .

٢ ـ تليّف الكبد .

٣ ـ سرطان الكبد .

وأكثر الأنواع انتشاراً في المملكة هو من نوع «ب» الخطير . . ولكي يدرك القارىء فداحة هذا المرض ، ومدى انتشاره في مجتمعاتنا ، فإن ما يقرب من ٨٠ بالمائة من السكان قد أخذوا هذا الميكروب في حياتهم نتيجة تلوث مياه الشرب وطفح المجاري في الشوارع .

(*) مقال نشرته صحيفة المدينة (جدة).

وبما أن ما بين خمسة إلى عشرة بالمئة من هؤلاء سيصابون بأحد المضاعفات الخطيرة لهذا المرض فإن ذلك يعني أن هناك عشرات الآلاف ممن يتعرضون لمضاعفات هذا المرض من بين سكان المملكة .

لهذا جاء خبر إنشاء مركز متقدم لأبحاث الكبد في الرياض بمثابة نبأ سار لمتابعة هذا المرض وتجميع المعلومات عنه ، ثم بعد ذلك تصميم طريق لمقاومته .

وللأسف فقد لاحظنا ، في أثناء انعقاد المؤتمر الطبي السعودي الثامن ، أن هناك اتجاهاً إلى إنشاء مركز لزرع الكبد المريضة التالفة بكبد سليمة لشخص توفي حديثاً في حادث سيارة مثلاً .

ولا شك أن زرع الكبد ونقلها من شخص مات حديثاً إلى شخص يعاني من مرض مزمن وخطير هو عمل تقني بارع في حد ذاته . . ولكنه محفوف بعدة محاذير :

أولها : إن أخذ الكبد من شخص مات حديثاً يستوجب موافقة الشخص قبيل موته أو موافقة ورثته . .

وثانيها : أن يوافق العلماء الأجلاء على مثل هذا الإجراء .

وثالثها : وهو الأهم في رأينا . . أنه لا يمكن إجرا عمليات ناجحة ، في هذا المضمار ، إلا بعدد محدود جداً ونتائجه طويلة المدى سيئة . . إذ أن الذين أجريت لهم مثل هذه العمليات لم يعيشوا سوى بضعة أشهر وفي أحسن الحالات بضع سنين .

وبما أنه لا يمكن إجراء عمليات ناجحة ، من هذا القبيل ، إلا فيما ندر ، وبما أن هذه المراكز تكلف مئات الملايين من الدولارات . . وبما أنها تستنزف أحسن الكفاءات العلمية فإننا نعتقد أن هذا الحل ليس هو الحل الأمثل ، وإنما يكمن الحل أساساً في إيجاد شبكة مجاري حديثة لا تطفح في الشوارع ، ولا تتسرب إلى مياه الشرب . . ولا تنقل بالتالي مرض الكبد الفيروسي ، والتيفود ، والأميبا ، والجيارديا ، والكوليرا ، ومئات الميكروبات الأخرى المنتشرة في بلادنا وفي البلاد النامية .

كذلك لا نعتقد أن الحل الأمثل هو إيجاد مصل واق . . لغلاء ثمنه ، وصعوبة تحضيره ، ولبعض مضاعفاته . . رغم أن المصل قد يكون حلاً ملائماً لبعض الفئات المعرضة لخطر انتقال الميكروب إليها مثل أولئك الذين يعملون في وحدات الكلى الصناعية ، أو أولئك الذين يستخدمون هذه الكلى الصناعية وذلك لتكرر نقل الدم إليهم . . وكذلك المرضى الذين يعانون من الأنيميا الانحلالية (Haemolytic Anaemia) مثل الأنيميا المنجلية وغيرها الذين يتكرر نقل الدم لهم .

على أية حال الحل الأمثل والأسهل هو الوقاية ، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج . . ووضع شبكة مجاري حديثة ومتينة لا تتسرب منها محتوياتها ، ولا تطفح على الشوارع ، كما هو مشاهد الآن ، هو الحل الصحيح لمواجهة مئات الأمراض المعدية .

وليس الحل هو إنشاء أحدث المستشفيات ولا وحدات زرع الكبد .

وكذلك بالنسبة لأمراض القلب وانتشارها الذريع فليس الحل فيها هو إيجاد مراكز متقدمة جداً لإجراء عمليات باهرة لتبديل شرايين القلب التالفة واستبدالها بأوعية صالحة . . ولا يتضمن الحل إجراء عمليات بارعة في نقل القلوب الميتة وزرعها في الأجسام الحية والتي تعيش بقلوب مريضة . . واستبدال التالف منها . . كما أن الحل الأمثل ليس هو القلب الصناعي ، ولكن الحل الأمثل ، في رأينا ، هو معالجة سبب زيادة أمراض القلب وشرايينه التي تتلخص فيما يأتي :

أولاً : التدخين .

ثانياً : السمنة وعدم الرياضة والحركة .

ثالثاً : مرض السكر وهو أيضاً مرتبط بالسمنة وكثرة الأكل وقلة الحركة .

رابعاً : ضغط الدم وهو متعلق إلى حد ما بحياة القلق .

خامساً : القلق واللهاث وراء المادة .

سادساً : شرب الخمور .

وفي رأينا إن محاربة حياة الدعة والترف والتدخين والقلق واللهاث وراء المادة هو الحل الأمثل لذلك . . والتوجيه الديني هو الذي يستطيع القضاء على هذه المشاكل والالتجاء إلى الله وإلى الصلاة وإلى الصيام وإلى الصدقة هي التي تكسب الإنسان الهدوء والطمأنينة .

وإذا علم المسلم أن التدخين ضار ، وأن علماء المسلمين قد اجتمعوا في مؤتمر مكافحة المسكرات والمخدرات بالمدينة المنورة ، وأنهم قد أفتوا بالإجماع بحرمة التدخين فإن المؤمن سينفر من التدخين كما ينفر من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير .

إذن الحل الأمثل ليس هو إنشاء هذه المراكز البارعة المتقدمة وإنما الحل هو حملات مكثفة لتوعية الجماهير المسكينة بأسباب هذه الأمراض وكيفية مقاومتها .

يزعمون أن : لحم الهر يشفي من السل وملعقة سبرتو علاج للسكر (*)

تنشر في الأسواق كتب تلقى رواجاً كبيراً لأنها تشيع رغبات مكبوتة لدى كثير من القراء ، أو لأنها تدغدغ نزعات كامنة فتفصح عنها وتطلق مكنونها تحت رداء العلم ومسوح المعرفة .

وأول كتاب أحب أن أعرض له هو كتاب « أسرار الطب العربي » القديم والحديث لمؤلفه سعيد جرجس كوبلي ، الذي يعترف بأنه لم يدخل مدرسة ولا جامعة ولكنه مارس الطب في سوريا ولبنان لأكثر من نصف قرن من الزمان .

وعنوان الكتاب مشوق للقارىء ، وقد طبع أكثر من عشر طبعات متواليات ، مما يدل على إقبال القراء عليه ونجاحه في مجال التسويق . . وهو منتشر في مكتبات العالم العربي ، بما في ذلك المكتبات التي تبيع الكتب في الحرمين الشريفين .

ومع هذا فالكتاب مليىء بالشعوذات والدجل ومثال ذلك مايلي :

١ ـ لحم الهر يشفي من مرض السل :

ذكر المؤلف في ص ٧١ تحت عنوان علاج السل ، الآتي : « يربى هرٌّ ذكر على أكل اللحم حتى يسمن ثم يذبح ويعمل قسم من لحمه شوربة ويقدم

(*) نشر هذا المقال في صحيفة الشرق الأوسط، وقد نشر مقال سابق في صحيفة المدينة حول كتاب سعيد جرجس كوبلي أسرار الطب العربي . . وللأسف لا يزال هذا الكتاب (ومثله كثير في المكتبات) يباع في الحرمين الشريفين وفي غيرها من المدن.

للمريض . واللحم الباقي يوضع في البراد (الثلاجة) قيد الاستعمال ، يعمل يومياً أكلة شوربة من هذا اللحم لمدة عشرة أيام أخر ، يستفيد من هذا العلاج أيضاً المصابون بالضعف العام المستفحل إذا أخذوا (الشوربا) » .

ولست أدري من أين أتى المؤلف بهذه المعلومات ونسبها إلى الطب العربي ، ولعله سبق الأحداث وعرف ماسيعانيه الفلسطينيون في المخيمات في لبنان فأراد أن يخفف عنهم مسبقاً ، وأوصاهم بأكل القطط . . ونسي أن يوصيهم بأكل الفئران !!

٢ ـ دهن الخنزير علاج للربو وضيق النفس (ص ٧٤) :

« يذوب ١٠٠ غرام دهن الخنزير على النار ويضاف إلى هذا المغلي ملعقة كاكاو ويؤخذ على الريق لمدة ١٥ يوماً . . ويؤخذ راحة لمدة أسبوع ثم يكرر العلاج حتى يزول الربو » . ويصف المؤلف أيضاً دهن الخنزير كعلاج هام للبواسير.

٣ ـ السبرتو والويسكي علاج لمرض البول السكري :

زعم المؤلف في صفحة ٦٥ ، من الكتاب المذكور ، أن ملعقة كبيرة من الويسكي مع دبس الرمان ، تؤخذ بعد العشاء لمدة ١٥ يوماً كفيلة بالقضاء على مرض البول السكري . وفي الصفحة التالية (٦٦) يغير المنهج فيدعو إلى أخذ ملعقة من السبيرتو الأبيض على الريق مع ملعقة من دبس الرمان لمدة ١٥ يوماً لمعالجة البول السكري .

والسبيرتو من السموم الناقعة المحتوية على الكحول الأثيلي والكحول الميثلي المسبب للوفيات المفاجئة بسبب تسمم عضلة القلب والعمى بسبب إصابة عصب الإبصار.

وقد حدثت كثير من الوفيات نتيجة اتباع نصائح سعيد جرجس كوبلي ، كما حدثت كثير من حوادث العمى الذي لا علاج له ، بسبب إصابة العصب البصري . . وذلك بفضل نصائح كوبلي .

٤ ـ البصاق على قطعة من الفخار علاج لوجع الرأس :

جاء في الصفحة ٧٥ من الكتاب المذكور الآتي : «يبصق على قطعة من الفخار وتفرك البصقة بواسطة قطعة من الزنجبيل حيث تحصل على رغوة قليلة ترفع هذه الرغوة بواسطة الأصبع وتدهن على الجبين ، كرر هذه العملية لمدة أربعة أيام» .

والكتاب مليىء بالجوانب المسلية والمضحكة والخرافات . . وللأسف يأخذها العامة مأخذ الجد وينفذونها بدقة ، وتحصل مآسي كبيرة . . كذلك فإن هذا الكوبلي يسيىء إلى الطب العربي وإلى أسراره ، ولعلها من الأسرار التي لا يعرفها سواه فقرر أن يذيعها على العالم لإنقاذه من مشاكله الاجتماعية والطبية التي فشل الطب الحديث حسب تعبيره في علاجها !!

وإذا تركنا هذا الكتاب التافه لمؤلف جاهل ، لم يدخل مدرسة ولا جامعة ولم يوجع دماغه بطلب العلم . . وإنما مارس مهنة الطب لمدة نصف قرن من الزمان وكسب المبالغ الطائلة بعد أن قتل مجموعة كبيرة من البشر بوصفاته الرهيبة ، إذا تركنا ذلك بما يحمله من مآسي مفجعة مضحكة ، « وشر البلايا ما يضحك » فإننا نقف أمام ظاهرة أخرى لطبيب انتشرت كتبه في الأسواق ونجحت نجاحاً منقطع النظير ، وهو الدكتور صبري قباني صاحب كتاب « حياتنا الجنسية » ، الذي طبع منه أكثر من ثلاثين طبعة . . وكتاب أطفال تحت الطلب الذي طبع منه أكثر من ٢٥ طبعة ، وكتاب الغذاء لا الدواء ، الذي دخل طبعته السابعة عشر عام ١٩٨٤ م .

إن هذا الطبيب يستخدم المعلومات الطبية وكثير منها مغلوط ، أو أكل الدهر عليه وشرب ، ومن ذلك ما ذكره في علاج الزكام والأنفلونزا ، في كتابه الغذاء لا الدواء صفحة ٤٨ ، من استخدام عصير البرتقال مع الكونياك أو الروم وتمزج بماء حار وتشرب حارة بقدر الإمكان ، رغم أنه يعترف في موضع آخر بضرر الخمور على الصحة .

ويستخدم الدكتور القباني معلوماته الطبية في المجال الجنسي بطريقة

الإثارة الجنسية ، وبمعلومات مغلوطة ، وبما أن السوق تفتقر تماماً إلى كتب جنسية علمية دون إثارة ، فإن هذه الكتب لاقت رواجاً كبيراً .

ويبدأ الدكتور القباني كتابه « أطفال تحت الطلب » بالدعوة إلى نشر الثقافة الجنسية على نطاق واسع ، والتخلص من التقاليد ، وما تركته في النفوس من رواسب التزمت والتعنت وبقايا الفزع والجزع في هذه المشكلة الاجتماعية المعقدة ، وهناك أدعياء الدين والأخلاق والعرف والعادة ومن ينهج مناهجهم ويسلك مسالكهم من الجهلة وأهل الغفلة الذين يراؤون ويداجون في حقائق حياتهم ، فكيف السبيل إلى تخطي هذه العوائق واجتياز هذه العقبات كلها لاستئصال المشكلة من جذورها ورد الشباب إلى أمان الراحة وثقة المعرفة بعد قلق الجهل وحيرة الغفلة ؟

ويبدأ كتابه بصور فاضحة عن غشاء البكارة السليم وغشاء البكارة المتهتك بعد أول جماع ، وكيف أنه من العار على الفتاة أن تتزوج وهي لم تعرف الجنس ولم تجرب في حياتها النوم مع الرجال!!؟ إنه يدعو بصراحة مذهلة إلى الزنا ، ويقول : وكما أن الجوع البطني لا يتصل بعلم الأخلاق وعلم الاجتماع فالجوع الجنسي يجب أن لا نعيره كل هذا الاهتمام فنخفيه ونكبته . بل علينا ، كما يزعم ، أن نشبع هذه الجوعة بأي طريق وأي سبيل . . وينحو باللائمة على أولئك المتزمتين الذين يرفضون أن يستمعوا إلى نداءات الحب التي تنبثق في الطبيعة بين الزهور والبلابل . . فكيف يمكن للإنسان أن يعيش بغير حياة جنسية طليقة . . إن الاتصال الجنسي هو مطلب الحياة الأول لبقاء النوع . . ومع ذلك يضع نصف كتابه لمنع الحمل ووسائل منع الحمل حتى يتم الاستمتاع بالجنس دون خوف أو وجل من عوائق الحمل وتبعاته في مجتمعاتنا المريضة بالتزمت والانغلاق !!

وهذا الكلام يذكرني بما كتبه محرر جريدة النهار البيروتية (نقلاً عن كتاب سعد جمعة مجتمع الكراهية) تحت عنوان « إمرأة بلادي للعشق والجنس » قال :

« لنتحدث عن حرية المرأة ، دعوني أعترف لكم فوراً إن حرية المرأة

ليس لها غير معنى واحد إنه المعنى الجنسي ، المرأة في نظري هي معبد الأشواق والشهوات ، هي مخلوقة غرامية لا معنى لها خارج الوجد والعشق والجنس . . ما هي حرية المرأة ؟ حريتها الحقيقية هي حرية العلاقة الجنسية مع الجنس الآخر أو حتى مع بنات جنسها أو مع الجنسين معاً . والرجل ما هو دوره ؟ عليه أن يحرّض المرأة على الحرية ، إنني أطلب لامرأة بلادي الحق بأن تصادق رجلاً فجأة ، فإذا اشتهته حققت شهوتها !! إنني أطلب لامرأة بلادي كسر طوق الاضطهاد العائلي والديني والأخلاقي !! وحريتها في أن تكون حرة بلا حدود ، حرة في إقامة علاقة جنسية قبل الزواج ، حرة في تغيير حبيبها متى ضجرت منه ، حرة التصرف بجسدها دون قيد أو شرط » .

نعم هذه هي الحرية التي يطلبونها لامرأة بلادي . . حرية الجنس . . والمرأة في نظرهم لا تعدو مخرجاً للاستمتاع .

لقد نسوا أو تناسوا المرأة كإنسان ، ونسوا أو تناسوا دور المرأة كأم تقع الجنة تحت أقدامها . . ونسوا دور المرأة كزوجة التي جعلها الله مودة وسكناً .

ولم يعرفوا من حرية المرأة ودورها في المجتمع سوى أن تكون فرجاً . . فرجاً فقط .

وتتخذ في ذلك وسائل متعددة فتارة يأتي الحديث باسم العلم والثقافة الجنسية ، وتارة باسم الحرية ، وتارة باسم خروج المرأة وعمل المرأة . . وأخرى باسم التقدم والحياة العصرية . .

وهدفها جميعاً واحد . . فرج المرأة .

ونحن نقول لهم ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

ما يجب أن تعرفه عن مرض السكر وعلاجه(*)

نشرت مجلة الإرشاد الغراء ، في عددها الصادر جمادى الأولى ١٣٩٩ ، تحقيقاً صحفياً عن « اكتشاف يمني لعلاج مرضى السكر » ، وجعلت له العناوين البارزة مثل طبيب يمني ، وبالطب القديم يتوصل إلى ما عجز عنه الطب الحديث . . ومثل الطب الحديث بوسائله العلمية يثبت صحة ما توصل إليه . . وقد كتب المقدم الطبيب محمد حسن السراجي بحثه هذا باللغتين العربية والانجليزية ونشرته مجلة الإرشاد . .

وقبل أن نبدأ باستعراض ما كتبه الزميل نود أن يعرف القارىء شيئاً موجزاً عن مرض السكر : عرف مرض البول السكري منذ أيام الإغريق ، ووصفه أبقراط وأسماه «البول الحالي» (Diabetes) . بعد أن ذاق طعم بول هؤلاء المرضى فوجده حالياً وكأنه سكر . .

وفي أوائل القرن العشرين توصل الباحثان بست وبانتنج وغيرهما إلى معرفة سبب هذا المرض ، وهو نقص في إفراز الأنسولين من غدة البنكرياس التي تقع خلف المعدة . .

وبعد عدة محاولات نجح بست وبانتنج في استخلاص الأنسولين من بنكرياس الأبقار المذبوحة . . وكذلك استخلص من بنكرياس الخنازير . . ولا يزال هذان الصنفان من الأنسولين يستعملان في شتى أنحاء العالم .

(*) نشرت هذا المقال مجلة الارشاد (صنعاء) . . وقد علمت عندما اتصلت مباشرة برئيس تحرير الارشاد أن محمد حسن السراجي لم يدخل في حياته كلية الطب، حتى في قريته من أجل الزيارة . . وهو رجل عسكري له ولع ببعض الأعشاب التي سمع عنها .

ومع تقدم الأبحاث الطبية تبين أن هناك نوعين أساسيين من مرض البول السكري :

النوع الأول : ويصيب الأطفال واليافعين (Juevenile Diabetes) وسببه نقص شديد في الأنسولين . . ولا يمكن إصلاح هذا النقص إلا بإعطاء المريض جرعات من الأنسولين على هيئة حقن تحت الجلد .

النوع الثاني من البول السكري: ويصيب البالغين (Adults) ، وعادة ما يكون هؤلاء المصابون بديني الأجسام ومصابين بالسمنة على نقيض النوع الأول. . وتكون الأعراض أحياناً غير واضحة. فقد يأتي المريض يشكو للطبيب من العنة (الضعف الجنسي) . . وقد تأتي المرأة تشتكي من حكة شديدة وخاصة في المهبل والفرج . . وقد يأتي المريض يشكو من أحد مضاعفات مرض البول السكري العديدة . . مثل مضاعفاته في الجهاز البولي أو في الجهاز التناسلي أو في الجهاز العصبي . . أو في العينين . .

وهذا النوع الثاني من البول السكري ، والذي يصيب البالغين ، لا يحتاج في أغلب حالاته إلى الأنسولين . . وإنما يحتاج إلى الحمية، أي نظام الأكل والابتعاد عن السكريات والنشويات ، « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » كما قال صيفي ابن أكثم حكيم العرب . .

وربما احتاج بعض هؤلاء المرضى إلى أنواع من الأدوية تؤخذ على هيئة أقراص ، وتقوم هذه الحبوب باستثارة البنكرياس وزيادة إفرازها من الأنسولين . .

ومن النادر جداً أن يحتاج شخص بالغ مصاب بالبول السكري إلى الأنسولين . . إلا في أثناء الحمل أو العمليات الجراحية مما يستدعي عندئذ استعمال الأنسولين لفترة مؤقتة . .

والأقراص المستخدمة في معالجة مرض السكر كثيرة جداً، وهي أنواع مختلفة ، ولكنها جميعاً تندرج تحت فصيلتين من المواد الكيماوية .

الأولى : أحد مشتقات السلفا (السلفونايل يوريا) ومنها تشتق معظم أدوية السكر المصنعة على هيئة أقراص .

الثانية : مشتقات البايجوانيد : وهذه تعمل بطريقة مغايرة للمجموعة الأولى ، التي تزيد من إفراز الأنسولين من البنكرياس . . بينما تقوم هذه المجموعة بالتأثير على تحولات المواد السكرية في الجسم بحيث إنها لا تؤثر على البنكرياس ولا تزيد من إفراز الأنسولين . .

وحتى نعطي القارىء فكرة مبسطة عن عمل هذه الأدوية والعقاقير في معالجة السكر فإن علينا أن نعطيه فكرة موجزة عن السكر في الدم . .

إن وجود السكر (الجلوكوز) في الدم أمر ضروري جداً لأنه الغذاء الوحيد للمخ . . والجهاز العصبي . . وهو الغذاء المفضل للقلب والعضلات وأنسجة الجسم المختلفة ، لذا فإن الله ، سبحانه وتعالى ، قد جعل للسكر ميزاناً في دم الإنسان إذا قلّت نسبته سارعت أجهزة الجسم إلى إفراز السكر المختزن في الكبد وفي العضلات وحولته إلى سكر جلوكوز . . كما تقوم خلايا الجسم وأنزيماتها بتحويل الدهن المختزن إلى سكر ، وهذه عملية دائبة لا تنقطع . . إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يمضي يومه كله في الأكل فقط . .

ويبقى مستوى السكر ما بين ثمانين ومائة وثمانين مليجراماً . . حتى ولو أكل الشخص السليم كمية كبيرة من المواد السكرية فإن السكر في الدم لن يزيد عن ١٨٠ مليجراماً، وكذلك إذا صام فترة طويلة (يوماً كاملاً) فإن سكر الدم سيبقى ثابتاً حول الثمانين . .

هذا في الشخص الطبيعي . . أما مريض البول السكري فإنه عندما يأكل وجبة سكرية نشوية فإن سكر الدم سرعان ما يرتفع إلى مستويات عالية . . وقد يبقى هذا المستوى عالياً نسبياً حتى مع فترة صيام تدوم لنهار كامل . .

ولهذا فإن علاج مريض السكر يهدف إلى خفض نسبة سكر الدم ، وذلك بالإقلال من المواد السكرية والنشوية في الطعام ، ثم باستعمال الأدوية بعد ذلك . .

والآن لنعد إلى ما كتبته الإرشاد فإننا سنجده بعيد كل البعد عن الدقة العلمية ، ويتسم تماماً بالصفة الصحفية والدعائية التي لا تثبت من الحقيقة . .

والله يقول : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾ .

فقد زعمت الإرشاد أن هذا الطبيب قد توصل إلى علاج حاسم لمرضى السكر، وأنه يقضي على المرض تماماً ويعود بـه إلى حالتـه الطبيعيـة . . **وأن** المريض لن يحتاج إلى الأنسولين . .

وسنبدأ في تفصيل هذه الدعاوى . .

١ ـ إن المـريض لن يحتاج إلى الأنسـولين . . قد أوضحنـا أن مريض السكـر البالغ لا يحتاج عادة إلى الأنسولين ، وإنما يحتاج إلى الحمية وربما احتاج لبعض الأقراص . .

٢ ـ إنه يقضي على المرض تماماً ويعود به إلى حالته الطبيعية . . وهذه دعوى عريضة لم تقدم المجلة ولا الدكتور محمد حسن السراجي[1] عليها دليلاً . . والـدليل الـذي اعتمده الـدكتور وهـو نسبة سكر الدم في المريض قبـل المعالجة ثم بعد المعالجة . . ليست بدليل ، لأنه لم يعيّن الـوقت الذي أخـذ فيه تحليـل الدم في الحـالتين . . إذ يمكن أن تأخـذ تحليـل الـدم لشخص بعد وجبة سكرية فيكون سكر الدم مرتفعاً ، ثم تأخذ التحليل في يوم آخر على الريق ، وقبل أن يفطر ذلك الشخص ، فيكـون سكر الـدم منخفضاً . . وهذا يمكن تطبيقه على أي شخص سواء كان مصاباً بـالبول السكري أم غير مصاب . .

٣ ـ لم يذكر الطبيب مستوى الأنسولين في الدم عندما زعم أن عشبـه ، الذي عالج به المرضى ، يزيد من كمية الأنسولين التي يفرزها البنكرياس . .

** ولولا أن للإرشاد في قلوبنا مكانة خاصة لما تجشمنا عناء الرد والله الهادي إلى سواء السبيل .

(*) اكتشفت أن هذا الشخص لم يدرس الطب مطلقاً.

التدخين في العالم الثالث(*)

إنتاج التبغ :

لقد ازداد إنتاج التبغ في العالم . . ويقدر عدد السجائر المنتجة سنوياً بأربعة آلاف بليون سيجارة ، أو ما يوازي سيجارتين لكل شخص في العالم يومياً . . ويبلغ ثمنها مائة بليون دولار أمريكي سنوياً . .

ويسيطر على الانتاج العالمي للسجائر ست شركات عالمية، مع بعض الشركات التي تملكها أو تتحكم فيها الدولة مثل اليابان والاتحاد السوفيتي والصين الشعبية . . ورغم أن الدول النامية تنتج ٦٣٪ من جملة الانتاج العالمي للتبغ إلا أن الشركات الاحتكارية الست العظمى تتحكم في هذا الانتاج بقدرتها على شرائه وصناعته وتسويقه . . بينما لا تملك الدول المنتجة من العالم الثالث أي تأثير يذكر على انتاجها من التبغ . وتملك الشركات الكبرى وسائلها التي لا تحد في التحكم في انتاج التبغ في العالم الثالث بواسطة نفوذها على الحكومات ، وبمجموعة من الشركات التي يساهم فيها بنسبة بسيطة بعض من لهم النفوذ في أقطار العالم الثالث . . ويكفي أن نذكر أن شركة واحدة هي فيليب موريس تنتج وتبيع أكثر من ١٧٥ نوعاً من السجائر في ١٦٠ دولة ، وتتحكم في ٢٥ شركة من ١٧٥ نوعاً من السجائر في ١٦٠ دولة ، وتتحكم في ٢٥ شركة مصنعة للسجائر ، ومجموعة من الشركات المتخصصة بتسويقها . . وقد نمت هذه الشركات نمواً هائلاً في السنوات

(*) نشر هذا المقال في مجلة الفيصل الطبية (الدمام) . . وألقي في المؤتمر الطبي الاسلامي الدولي عن الشريعة الاسلامية والقضايا الطبية المعاصرة بالقاهرة (٢ ـ ٥ فبراير ١٩٨٧).

الأخيرة في العالم الثالث . وللأسف تقوم حكومات الدول الغربية الكبرى بتشجيع هذه الشركات الاحتكارية ، والتي نجحت في تحقيق مكاسب خيالية من جراء بيع السجائر للعالم الثالث . وقد قامت الملكة إليزابيث الثانية ، ملكة المملكة المتحدة ، بإعطاء جائزة التصدير الأولى لشركات التبغ ، مما حدا بمجلة اللانست (LANCET) الطبية المحترمة أن تكتب مقالاً في عددها الصادر ٧ يناير ١٩٨٤ بعنوان « تدخين العالم الثالث تجارة الرقيق الجديدة» .

واعتبرت المجلة قيام الملكة بتقليد شركات التدخين (شركة روثمان بالذات) وسام التصدير عام ١٩٨٣ كارثة أخلاقية حيث تقوم بريطانيا بتشجيع شركات التبغ على تسميم العالم الثالث ونشر الموت فيه . . وهو يشبه حرب الأفيون التي شنتها بريطانيا العظمى على الصين في عهد الملكة فيكتوريا . . والتي اضطرت الصين ، بعد هزيمتها ، إلى السماح لبريطانيا بنشر الأفيون والاتجار فيه في الصين . وقد استمرت حرب الأفيون من عام ١٨٣٩ إلى عام ١٨٤٢ . . ولكن وقف جلادستون في مجلس العموم البريطاني في عشية الحرب قائلاً : أنا لا أعرف حرباً أكثر ظلماً من أصول هذه الحرب . . ولا أكثر قابلية لرمي بلدنا بالخزي والعار» .

وكان جلادستون هو الوحيد ، الذي وقف ضد هذه الحرب المخزية ، بينما كان مجلس العموم ، ومجلس اللوردات ، يصوتون بالإجماع بالموافقة على هذه الحرب من أجل تسميم الشعب الصيني بالأفيون . وقامت بريطانيا ، بالتحالف مع فرنسا ، لحرب الصين مرة أخرى من أجل نشر الأفيون في جميع الأراضي الصينية بعد أن حددته المعاهدة السابقة ببعض الموانىء فقط ، ودامت هذه الحرب من عام ١٨٥٦ حتى عام ١٨٦٠ وانتهت بإحراق قصر أمبراطور الصين ومعاهدة تينسين المهينة للصين .

وفي مصر كان لبريطانيا دور فعال في نشر الحشيش والأفيون ، وعندما حاولت الحكومات المصرية ، في عهد الانتداب ، إقامة حرس الحدود جعلت بريطانيا قائد هذا الحرس أحد جنودها ، وكان ذلك القائد يسمح دوماً بتهريب الحشيش والأفيون إلى مصر .

وقامت بريطانيا بنشر زرع الأفيون والحشيش في الهند ، وما يعرف اليوم بباكستان ، وفي فلسطين أيام الانتداب البريطاني ، كما قامت فرنسا بنشر زراعة الحشيش في سوريا ولبنان ودول المغرب العربي .

وليس مستغرباً إذن أن تشجع ملكة بريطانيا الحالية شركات السجائر البريطانية على تصدير سمومها للعالم الثالث ، إذ أن هذه الشركات حققت مبيعات بآلاف الملايين من الجنيهات ، وبلغ صافي الربح لعام ١٩٨٢م ٧٤٣ مليون جنيه استرليني .

ويقول تقرير الكلية الملكية للأطباء « الصحة أو التدخين» لعام ١٩٨٣م : «إن الولايات المتحدة أدخلت التبغ في برنامجها المسمى « الطعام من أجل السلام » ، وبموجبه قامت بتكثيف مبيعاتها من التبغ والسجائر إلى العالم الثالث».. وتصدر الولايات المتحدة اكثر من ٤٠٠ بليون سيجارة سنوياً، يذهب معظمها الى دول العالم الثالث ويبلغ دخلها آلاف الملايين من الدولارات.

وهكذا حتى عندما تقدم الولايات المتحدة ما يسمى ببرنامج الغذاء من أجل السلام تهتم أولاً بنشر سموم التدخين على العالم الثالث ، كما تهتم بتسويق منتجاتها من القمح وغيره من الأطعمة .

وقطعاً ليس الغرض إنسانياً حتى عندما توزع الولايات المتحدة القمح على دول العالم الثالث وإنما الغرض سياسي وتجاري .. وتضمن فيه الولايات المتحدة مزيداً من السيطرة على مقدرات العالم الثالث .

وتملك الشركة الأمريكية البريطانية (British American Tobaco Co.) أكثر من ١١٩ مصنعاً للسجاير في ٥٢ دولة .. ويكفي أن تعلم أنها تحتكر ٨١ بالمئة من أسواق البرازيل و ٣٩,٨ من أسواق اندونيسيا في مجال التبغ .

وتقول منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (FAO) إن التبغ يزرع حالياً في ٢٠ قطراً .. وأهم الدول المنتجة للتبغ هي : الاتحاد السوفييتي ، الصين ، الولايات المتحدة الأمريكية ، الهند ، البرازيل ، اليونان ، تركيا ، اليابان ، بلغاريا ، كندا ، كوريا (الجنوبية) وزيمبابوي .

والجدول التالي يوضح إنتاج ١٩٧٦م :

الصين	١,٠٠٠,٠٠٠	طن[1]
الولايات المتحدة الامريكية	٩٦٠,٠٠٠	طن
الهند	٣٧٠,٠٠٠	طن
الاتحاد السوفييتي	٣١٨,٠٠٠	طن
تركيا	٣٠٠,٠٠٠	طن
البرازيل	٢٥٣,٠٠٠	طن
بلغاريا	١٦٥,٠٠٠	طن
اليابان	١٦٥,٠٠٠	طن
اليونان	١٢٧,٠٠٠	طن
إيطاليا	١٠٠,٠٠٠	طن
بولندا	١٠٠,٠٠٠	طن

وفي الشرق الأوسط زاد إنتاج السجائر محلياً ، كما زادت الكمية المستوردة من السجائر .

وقد تضاعف إنتاج السجائر محلياً أربع مرات ، في الفترة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٧٠ ، ولا تزال الزيادة مستمرة . . وتقدر الكمية المستهلكة من السجائر سنوياً في الشرق الأوسط بما يقدر بـ ٨٠ بليون سيجارة ، وهذا يعني استهلاك ٦٠٠ سيجارة لكل شخص فوق سن الخامسة عشرة . وفي المملكة العربية السعودية كانت كمية التبغ المستوردة عام ١٩٧٢ (وهي أول إحصائية تذكرها الغرفة التجارية) ٤,٥٧٥,٠٠٠ كيلوجرام .وفي عام ١٩٨١ بلغت هذه الكمية المستوردة من التبغ ٣٦,٧٢٢,٥٠٠ كيلوجراماً ، أي أنها تضاعفت تسع مرات تقريباً في أقل من عشر سنوات . . وهي زيادة رهيبة ومرعبة لا مثيل لها في العالم . . وقد بلغ الثمن الرسمي لهه الكمية قرابة ألف

---

(١) تستهلك الصين ١٣٥٠ بليون سيجارة سنوياً، وهو ما يمثل قرابة ٣٠ بالمئة من الاستهلاك العالمي السنوي للسجائر. . ويبلغ عدد الأشخاص المدخنين في الصين ٣٥٠ مليون شخص (نقلاً عن صحيفة عرب نيوز، ٢ مارس ١٩٨٨، ص ١٤).

مليون ريال . . أي بواقع ٤,٥ كيلو جرامات من التبغ لكل فرد من السكان في العام .

وفي عام ١٩٧٦ احتلت سوريا المرتبة الخامسة في قائمة الدول النامية من حيث استهلاك التبغ للفرد .

كوبا	٢,٤ كيلو جراماً من التبغ للفرد .
الأرجنتين	٢,٣٤ كيلو جراماً من التبغ للفرد
روديسيا	٢,١٩ كيلو جراماً من التبغ للفرد .
بورما	٢,١١ كيلو جراماً من التبغ للفرد .
سوريا	٢,٠١ كيلو جراماً من التبغ للفرد .

ويحتل التبغ المرتبة السابعة في العالم من حيث الأراضي المزروعة ، ويأتي القمح والأرز والذرة والصويا والقطن والقهوة .

وهناك قرابة مائة بلد نام تزرع التبغ . . وتقوم الشركات الكبرى العالمية لصناعة التبغ (ثلاث منها في المملكة المتحدة وثلاث في الولايات المتحدة وواحدة في فرنسا) بالسيطرة على إنتاج دول العالم الثالث سيطرة تامة بواسطة مجموعة كبيرة من الشركات التابعة لها .

ولـلأسف فإن بعض البـلاد الناميـة تعتمـد على التبـغ كمصـدر للعملة الصعبة . . وفي زيمبابوي يعتبر التبغ المصدر الرئيسي للعملات الصعبة . . كما أن زراعة التبغ هناك تحتـل قائمـة الصدارة في عـدد العمال والمـزارعين الذين يعملون في هذه المهنـة . وبما أن زراعـة التبغ سهلة نسبيـاً ، وبما أن محصوله وثمنه جيد نسبياً فإن زراعتـه تعتبر بـالنسبة للكثيـر من البلاد النـامية مصدر رزق لمجموعة من العمال والرأسماليين ، وتقرر منظمة فاو التابعة للأمم المتحدة أن التبغ يشكل عائداً اقتصادياً سريعاً. وتعتبر الهند وماليزيا والفيليبين وأندونيسيا وتركيا من البلاد التي تعتمد في اقتصادياتها الى حد كبير على عائدات التبغ.

وبما أن استبدال التبغ بمحصولات أخرى ، مثل الفواكه أو الحبـوب ،

يستغرق وقتاً وجهداً ومالاً فإن كثيراً من دول العالم الثالث لا تحاول محاولة جادة في تغيير منهجها في زراعة التبغ .

ولذا فإن على المنظمات الدولية والدول المتقدمة أن تقدم المساعدات السخية في هذا المضمار .

وللأسف ، كما تقول اللانست ، فإن الدول المتقدمة تقدم الأموال لزيادة زراعة التبغ الذي تسيطر عليه شركاتها ، وقد قدمت بريطانيا ٣,٥ مليون جنيه استرليني لأربع دول من الكومنولث لزيادة مزروعاتها من التبغ وتحسين نوعيته ، وذلك فيما بين عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٩ . وعلى العكس من ذلك كان موقف النرويج والسويد إيجابياً حيث قامت هاتان الدولتان بمساعدة المنظمات الدولية ، مثل الفاو ومنظمة الصحة العالمية ، في برامجها الرامية إلى مكافحة التدخين في العالم الثالث .

الدعاية للتسويق :

وقد قامت شركات التبغ العالمية بصرف مئات الملايين من الدولارات من أجل تسويق مبيعاتها ، وإذا كانت الدول الغربية قد فرضت قيوداً مشددة على الإعلان عن التدخين في الإذاعة والتليفزيون والصحافة . . إلا أن شركات التبغ لا تزال تقوم بدعايتها ، بواسطة إعلاناتها الضخمة ، وتكفلها بمصاريف المباريات الرياضية والحفلات الموسيقية ورعاية الفنون والمسرح .

أما في كثير من بلاد العالم الثالث فلا تكاد توجد أي قيود على وسائل الإعلان لشركات التبغ . . وتستخدم في كثير من بلاد العالم الثالث جميع وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة ، بل إن الاعلانات على الطرقات مليئة بالدعاية للتدخين . .

وتقوم الشركات باختيار أسماء مغرية لبعض أنواع سجائرها ، ففي أفريقيا هناك نوع منتشر من السجائر يدعى « الحياة » ، وفي مصر هناك « نفرتيتي » و « كليوباترة » ، وفي ماليزيا وبنجلاديش ويوغندا « الحياة الطويلة » و «الجنة الجديدة » و « البطل » و « الرياضي » ، كما يقول كتاب الكلية

الملكية للأطباء « الصحة أو التدخين» .

وتربط شركات التبغ التدخين بالتقدم والذكاء والحياة الدافقة . . وفي كينيا يزداد سوق التبغ بمعدل ٨٪ سنوياً . . وأكثر مجال للتسويق هو لدى الطبقة المثقفة (نسبياً) والذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٥ إلى ٣٥ عاماً .

وتتولى شركات التبغ الصرف على المباريات الرياضية الهامة كي يتسنى لها الإعلان عن منتجاتها . . فسباق السافاري للسيارات في شرق أفريقيا ، والذي يشاهده أكثر من أربعمائة مليون في إفريقيا ، تتولى شركة مارلبورو الانفاق عليه . . حتى الصين الشيوعية تتولى شركات التبغ الغربية الانفاق على المباريات الرياضية الكبرى فيها . ولا تسعى الشركات الكبرى للابقاء على مبيعاتها في العالم الثالث ، بل إنها قد نجحت بالفعل في زيادة هذه المبيعات وإغراء الأطفال والقصر على اتخاذ عادة التدخين .

وحتى هذه اللحظة لا توجد دولة واحدة في العالم الثالث تحظر بيع السجائر للأطفال والقصر .

وفي المملكة المتحدة (بريطانيا وشمال إيرلندة) تنفق شركات التدخين أكثر من ١٠٠ مليون جنيه إسترليني على الدعاية سنوياً للتدخين . وقد بلغت مصاريف الإعلان عن التدخين في العالم أكثر من ٢٠٠٠ مليون دولار سنوياً ، وأدى هذا إلى زيادة عدد المدخنين في العالم الثالث زيادة كبيرة ، ففي إفريقيا زادت نسبة المدخنين بـ ٣٣٪ ما بين عام ١٩٦٥ و ١٩٧٥ . . وفي نفس الفترة زادت نسبة المدخنين في الولايات المتحدة بـ ٣٪ فقط . .

ومنذ عام ١٩٨٠ زادت نسبة المدخنين في آسيا بنسبة ٢٣٪ وفي أمريكا اللاتينية بنسبة ٢٤٪ وفي أفريقيا بنسبة ٣٣٪.

بينما كانت شركات التبغ تواجه هبوطاً في مبيعاتها ، في معظم البلاد الغربية ، يتراوح ما بين ٢ إلى ٥ بالمئة[1].

---

(١) نشرت مجلة اللانست الطبية (١٤ نوفمبر ١٩٨٧) أن شركات التبغ في أستراليا أعلنت أنها ستتوقف عن الاعلان عن السجائر لأن السجائر تؤدي الى قتل ٢٣,٠٠٠ مواطن استرالي سنوياً . . وذكرت الصحف والمجلات ومنها صحيفة عرب نيوز (٢ مارس ١٩٨٨) أن الاتحاد =

وفي البلاد الغربية توقف أكثر من خمسة ملايين أمريكي (في الولايات المتحدة) عن التدخين ، وفي بريطانيا وصل العدد إلى مليون . . وقد أقلع واحد من كل أربعة مدخنين عن التدخين في الدول الغربية . . وأصبح اثنان من كل ثلاثة بالغين لا يدخنون في معظم الدول الغربية . . أي أن ٦٦٪ من السكان البالغين لا يدخنون ، وقد انخفض التدخين بشكل واضح وكبير لدى الأطباء البريطانيين الذين قاموا بالإقلاع عن التدخين منذ وقت مبكر أي منذ عام ١٩٥٤ واستمر ذلك في الزيادة إلى يومنا هذا.

وتقول الإحصائيات الحديثة إن انخفاض التدخين بين الرجال هو أشد من انخفاضه بين النساء .

ويوضح الرسم البياني ، الذي أصدرته الكلية الملكية للأطباء في المملكة المتحدة في كتابها « الصحة أو التدخين» ، مسار تدخين التبغ لدى الرجال والنساء البالغات منذ ظهور السجائر . . ويوضح الرسم أن قمة الاستهلاك وصلت في نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ، حيث بلغ ١٢ سيجارة لكل رجل ، وبقي متأرجحاً حول هذا الرقم حتى عام ١٩٧٥ عندما بدأ انخفاض حاد جعله يبلغ ٨ سجائر عام ١٩٨٣ .

أما بالنسبة للنساء فإن المرأة بدأت التدخين عام ١٩٢٥ ، أي بعد تدخين الرجل بأكثر من ثلاثين عاماً . . واستمرت نسبة التدخين تزداد حتى عام ١٩٧٩ عندما وصلت إلى ٧ سجائر لكل امرأة بالغة في بريطانيا . ومنذ ذلك الحين بدأ الانخفاض التدريجي .

إن الحملة على التدخين قد أخذت بعداً جديداً بعد أن أصدرت الهيئات الطبية في العالم الغربي العديد من القرارات التي تدين التدخين ، وتتهمه بقتل

= السوفياتي يمنع منعاً باتاً التدخين في جميع الطائرات على الرحلات الداخلية والتي تبلغ ثمان ساعات في بعض الرحلات. كما أن كثيراً من شركات الطيران في الولايات المتحدة تمنع التدخين منعاً باتاً في رحلاتها، وكذلك المطاعم ومحال العمل والمستشفيات وحتى المسارح ودور السينما اصبحت تمنع التدخين.

أكثر من مليون شخص سنوياً في العالم ، وتسبب الأمراض والآلام لملايين البشر سنوياً . .

ورغم نفوذ شركات التدخين، حتى في العالم الغربي ، واستطاعتها إقصاء عدد من وزراء الصحة المتشددين في محاربة التدخين من مناصبهم ، إلا أن الحملة على التدخين في الدول الغربية قد أدت إلى انحسار مبيعات شركات التدخين العالمية وفقدانها ٢٠ إلى ٤٥ بالمئة من أسواقها في الدول الغربية . وتقول الديلي أكسبريس (في ٨٤/٢/٢٥) إن شركة أمبريال توباكو فقدت من أسواقها في الدول الغربية ، واضطرت لتسريح ١٥٪ من عمالها وموظفيها . . وقد خسرت الشركة البريطانية الأمريكية للتبغ ٢٠٪ من أسواقها ، وقدرت خسارتها في السوق البريطانية وحدها بـ ٥٣ مليون جنيه إسترليني عام ١٩٨٣ ، وأدى ذلك إلى طرد ١٨٤٠ من عمالها وموظفيها .

إزاء هذا كله قامت شركات التبغ بحملاتها الشرسة لزيادة مبيعاتها في دول العالم الثالث وحققت نجاحاً كبيراً مما حدا بالدكتور كورت ومجارتنر أمين عام المؤتمر الدولي الخامس حول التدخين والصحة إلى أن يصرح بالآتي :

« يعتبر العالم الثالث الحدود الأخيرة لصناعة التبغ الذي انتقل من الرجال إلى النساء ثم إلى المراهقين . والآن لم يعد هناك أي مكان آخر أمام هذه الصناعة إلا بلدان العالم الثالث» .

وارتفعت مبيعات شركات التدخين في العالم الثالث بنسبة تتراوح ما بين ٤٪ ، كما هو في البرازيل وماليزيا إلى ٥,٦٪ في الهند وفنزويلا الى ٦,١٪ في باكستان . .

أما في المملكة العربية السعودية فقد زادت كمية التبغ ، من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٨١ ، بنسبة ٩٠٠٪(بلغت كمية التبغ المستوردة عام ١٩٧٢م ٤,٥٧٥,٠٠٠ كيلو جراماً ارتفعت إلى ٣٦,٧٢٢,٥٠٠ كيلو جراماً عام ١٩٨١) .

وكنتيجة حتمية لشركات التبغ في توسيع مبيعاتها في العالم الثالث نرى

هذه النتائج المرعبة ، نقلاً عن تقرير الكلية الملكية للأطباء ، «الصحة أو التدخين» ، ففي مصر مثلاً بلغ عدد المدخنين ٣٩,٩٪ من الرجال البالغين ، وفي السنغال وصلت النسبة في المدن إلى ٨٠٪ من الرجال البالغين . . وفي بنجلاديش وصلت النسبة بين الرجال البالغين ٦٧٪ في الأرياف ، أما في المدن فالنسبة أعلى بكثير . وفي البرازيل وصلت النسبة بين الرجال ٦٢,٨٪ . . أما في لاجوس فالمصيبة الكبرى أن التدخين بين طلبة كليات الطب قد وصل إلى ٧٢٪ من مجموع الطلبة الذكور و ٢٢٪ من الطالبات الإناث.

وبالمقارنة نجد أن التدخين في بريطانيا قد بلغ ذروته بعد الحرب العالمية الثانية بالنسبة للذكور ، وبقي على نفس المستوى حتى عام ١٩٦٠ عندما بدأ في الانخفاض التدريجي ثم الانخفاض السريع منذ عام ١٩٧٥ . . فنجد أن نسبة المدخنين من الذكور البالغين عام ١٩٦٠ هي ٧٥٪ وفي عام ١٩٨٠ انخفضت النسبة إلى ٥٠٪ ، تقريباً . . وتشير التقارير التي تنشرها الصحف أن النسبة الآن قد وصلت إلى حوالي ٣٥٪ .

أما بالنسبة إلى الإناث البالغات فإن التدخين لم ينخفض منذ الستينات كما بين الذكور بل زاد قليلاً حتى عام ١٩٧٦ ، ثم بدأ في الانخفاض ولا يزال يوالي انحداره ، فقد كانت ٤٥٪ من الأناث البالغات يدخن عام ١٩٧٥ وفي عام ١٩٨١ انخفضت النسبة إلى ٣٥٪.

وقد وصلت المبيعات عام ١٩٦٠ في بريطانيا ٢٧٠ مليون رطل من التبغ المصنع ، بينما انخفضت هذه الكمية إلى ٢٢٦ مليون رطل من التبغ المصنع عام ١٩٨١ . . وفي السنوات الأخيرة زادت نسبة الانخفاض .

ويذكر تقرير الكلية الملكية للأطباء أن هذا الانخفاض الملحوظ سببه زيادة الوعي لدى الجمهور بمخاطر التدخين الصحية .

ورغم أن كثيراً من الأطفال واليافعين يستدرجون إلى عادة التدخين السيئة إلا أن الملاحظ أن هذه النسبة قد قلّت كثيراً في البلاد الغربية ، بينما لا تزال النسبة تزداد في بلاد العالم الثالث الذي يشكل المسلمون أغلبيته .

وأدى هذا بالتالي إلى انخفاض المبيعات من السجائر في الغرب. . ففي عـام ١٩٧٤ بلغ عدد السجـائر ، التي أستهلكت في بـريطانيـا ، ١٣٧ بليون سيجارة وانخفضت هذه الكمية إلى مائة بليون عـام ١٩٨٣ (نقلاً عن الـديلي أكسبرس في ١٩٨٤/٢/٢٥) .

ولـلأسف فإن سـوق التبغ قـد زادت في العـالم الثـالث . ففي الهنـد وفينزويلا زادت السوق بنسبة ٦ , ٥٪ ، وفي باكستان زادت بنسبة ٦٠١٪ وذلك في الفترة ما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٠ .

أمـا في دول الخليج فـإن زيادة استهـلاك التبـغ قـد وصلت إلى أرقـام خيالية . ولا يزال سعر السجائر في دول الخليج يمثل أرخص سعـر في العالم حيث لا تفرض الحكومات هناك سوى ضرائب تافهة جداً. . ويبلغ ثمن علبة السجائر في الخليج ربع ثمنها في بريطانيا أو أوروبا أو أقل.

كمية القطران والنيكوتين في السجائر الموجودة في البلاد النامية :

تقول المصادر الطبية إن كميـة القطران (Tar) والنيكـوتين في السجائـر الموجودة في الدول الغربية قد خُفضَت بموجب قوانين أصدرتها تلك الدول ، ولم يعد يسمح لأي شركة بأن تنتج سجائر تحتوي على أكثر من واحد ميلجرام من النكوتين ، و ١٥ مليجراماً من القطران . . ومعـظم الشركـات في الغرب تنتج سجائر بها كمية أقل من هذه الكمية المحددة .

وتقوم هذه الشركات نفسها ، وبنفس الاسم ، بتصديـر سجائـر تحتوي على اثنين لثـلاثـة ميلجـرامـات من النيكـوتين و ٢٠ إلى ٣٠ مليجـرامـاً من القطران . .

ويـذكر تقـرير الكليـة الملكية « الصحـة أو التدخين» ، عـام ١٩٨٣ ، جـدولاً بأسمـاء بعض أنواع السجـائر التي تحتـوي على كميات مختلفـة من القطران في بريطانيا مقارنة بالفلبين . فمثلاً سجائر « كنت » تحتوي على ١٣ مليجراماً من القطران في بريطانيا بينما تحتوي سجائر كنت (Kent) في الفلبين على ٣٣ مليجراماً وتحتوي سجائر مارلبورو على ١٥ مليجراماً من القطران في المملكة المتحدة (بريطانيا) ، بينما تحتوي مثيلاتها من نوع مارلبورو على ٢٥

مليجراماً من القطران في الفلبين ، وقسْ على ذلك مختلف أنواع السجائر الشهيرة .

إن أضرار التدخين تتركز في ثلاثة مواد رئيسية هي :

- القطران : وهو المسؤول عن أمراض الرئة وأنواع السرطان المختلفة .
- النيكوتين : وهو المسؤول أساساً عن إدمان السجائر وعن أمراض القلب والشرايين .
- غاز أول أوكسيد الكربون : وهو المسؤول مع النيكوتين عن أمراض القلب والشرايين .

وقد استطاعت شركات السجائر التحكم في كمية القطران وكمية النيكوتين الموجودة في السجائر ، وأمكن تخفيض هذه الكمية إلى نصف أو ثلث ما كانت عليه في السابق ، إلا أن كمية أول أوكسيد الكربون من الصعب التحكم فيها ، وتتراوح ما بين ١ إلى ٥ بالمئة من السيجارة .

وتبع انخفاض كمية القطران انخفاض في احتمال الإصابة بأمراض الرئة والسرطان . ولم تنخفض أمراض القلب رغم انخفاض كمية النيكوتين، ربما لأن المدخن يشفط كمية أكبر من الدخان فيؤدي إلى أخذ كمية مساوية لما كان يأخذه من قبل من النيكوتين .

موقف شركات التدخين من منظمة الصحة العالمية :

ولـلأسف نرى شركات السجائر تضطر للرضوخ للقوانين في البلاد الغربية ، بينما لا تتورع عن بيع كميات مضاعفة من السموم لدول العالم الثالث لعدم وجود رقابة قوية من تلك الدول ، وهو موقف لا أخلاقي اتصفت به على الدوام الشركات الغربية .

ومما يبرز هذا الموقف اللاأخلاقي لهذه الشركات ما ذكره تقرير الكلية الملكية للأطباء « الصحة أو التدخين» عام ١٩٨٣ (صفحة ٩٢) من أن شركات السجائر اجتمعت للحيلولة دون تنفيذ توصيات المؤتمر العالمي الرابع عن التدخين والصحة ، والمنعقد عام ١٩٧٩ بإشراف منظمة الصحة العالمية ، وقد جاء في اجتماع شركات السجائر العالمية ، الأهداف التالية .

- يجب أن نـوقف المحـاولات الهـادفـة إلى محـاربـة التـدخين في العـالم الثالث .
- يجب أن ندفع حكومات دول العالم الثالث بوسائلنا الخاصة على اتخـاذ مواقف تسمح لنا بالتوسع في تجارة التبغ ومواجهة كل ما يقف عائقاً ضـد أهدافنا .
- ينبغي أن نحاول التأثيـر على رجال منـظمات الأمم المتحـدة مثل منـظمة الزراعة والتغذية العالمية (F.A.O) لتقف في صف التبغ لا ضده .
- يجب زحزحة موقف منظمة الصحة العـالمية (WHO) من مـوقفها الحـالي والمعادي للتبغ إلى موقف مرن وحيادي .

وهذه الأهداف التي حددتها شركات التبغ العالمية ، كما ينقلهـا تقريـر الكلية الملكية للأطباء « الصحة أو التدخين» لعام ١٩٨٣ توضح إلى أي مدى انحدرت إليه شـركات التبـغ الغربيـة في سعيها لنشـر سموم التبـغ في العالم الثـالث جريـاً وراء تحقيق مزيـد من الأرباح واستخـدامها لتحقيق ذلـك كـل الوسائل الغير أخلاقية .

ولا يستغرب ذلك فأساس النظام الرأسمالي الغربي ، الذي يسيطر عليه اليهود ، هو تحقيق الربح بأي وسيلة كانت . وإذا كانت بريطانيا العـظمى قد خاضت حرباً شرسة ضد شعب الصين (عـام ١٨٣٩ إلى ١٨٤٢م) من أجل نشر الأفيون وبموافقة مجلس العمد اللوردات بالإجماع ما عـدا صوت واحـد معارض هو صوت جلادستون . . فإن قيام ملكة بريطانيا الحالية إليزابيث الثانية بإعطاء جـائزة التصـدير إلى شـركة روثمـان للسجائـر عام ١٩٨٣ يمثـل نفس الاتجاه السائد في الغرب . . وهو تحقيق أكبر قدر من الأرباح ولـو أدى ذلك إلى وفاة الملايين وتعاستهم وشقائهم . .

رغم أن العالم الثالث بدأ تقليد الغرب في التدخين ، في فترة متأخـرة نسبياً ، إلا أن أضرار التبغ بدأت في الظهور في الفترة الأخيرة بصـورة مرعبـة حقاً . ويقول تقرير منظمة الصحة العالمية كما تنقله عنه الكلية الملكية للأطباء في كتـابها « الصحـة أو التدخين» إن التقـارير الحـديثة في الهنـد توضـح أن المدخنين يواجهون خطر الإصابة بسرطان الرئة بنسبة ٨٦٠٪ ، بالمقـارنة مـع

غير المدخنين ، أما في هونج كونج فإن نسبة الإصابة بسرطان الرئة زادت زيادة مريعة لدى الرجال والنساء . . بحيث أصبحت الإصابة بسرطان الرئة في النساء في هونج كونج هي الأولى في العالم . . وتضاعف حدوث سرطان الرئة في الصين بين الرجال والنساء ، فيما بين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٧٥ ، نتيجة التدخين . وفي قبائل البانتو في جنوب أفريقيا ارتفعت نسبة سرطان الرئة بين الذكور بحيث وصلت إلى أن جعلتها تأتي مباشرة بعد الولايات المتحدة الأمريكية وتتفوق في ذلك على بريطانيا نفسها .

أما سرطان المريء فهو أكثر انتشاراً في العالم الثالث عنه في الغرب . . ويعزى ذلك إلى أسباب عدة أهمها مضغ التبغ . وقد ثبتت هذه العلاقة بين التبغ وسرطان المريء في كل من الهند وسريلانكا (سيلان سابقاً) وجنوب أفريقيا . . ويعتبر سرطان المريء في السود ، في مدينة دوبان في جنوب أفريقيا وفي زيمبابوي ، يمثل أعلى نسبة في العالم بعد التركستان الغربية في الاتحاد السوفييتي .

وتقول الأبحاث من مصر إن سرطان المثانة ، وهو أكثر السرطانات انتشاراً في مصر ، يرجع سببه إلى البلهارسيا والتدخين . . وقد وجد أن التدخين يزيد كثيراً من احتمال التحول السرطاني في المثانة المصابة بالبلهارسيا .

وقد زادت الأمراض الناتجة عن التدخين في الجهاز التنفسي (من غير السرطان) زيادة كبيرة وتوضح ذلك تقارير طبية قادمة من الهند وسنغافورة ونيبال .

أما أمراض القلب فقد زادت في بلاد العالم الثالث زيادة كبيرة بسبب التدخين حسبما تؤكد التقارير الطبية من الهند والصين .

وكذلك ازدادت مضاعفات التدخين مع الحمل ويؤكد ذلك التقارير الطبية من العالم الثالث عن ولادة أطفال ناقصي الوزن ومصابين بالتشوهات الخلقية .

وتقول التقارير إن البيري أو البيدي الذي يستخدم في الهند بصورة خاصة (هو عبارة عن تبغ محلي ملفوف بأوراق الاشجار) يحتوي على كمية

أكبر من القطران والنيكوتين وغاز أول أوكسيد الكربون . . وخاصة أنه يتطلب لإبقاء السيجارة مشتعلة أن يشفطها المدخن كل دقيقة أو دقيقتين (كتاب الصحة أو التدخين) .

أما عادة استخدام الشوتا (CHUTTA) وهي عادة غريبة ، حيث يدخل الجزء المشتعل من التبغ إلى داخل الفم فيؤدي إلى مزيد من سرطانات الفم والبلعوم والمريء (كتاب الصحة أو التدخين) .

وأما مضغ التبغ مع إضافة العطرون (حجر يحتوي على بيكربونات الصوديوم) ، أو إضافة الرماد ، أو إضافة الجير ، فكل ذلك يؤدي إلى زيادة امتصاص النيكوتين من الغشاء المخاطي للفم بحيث يصل إلى نسبة امتصاص عالية جداً تتراوح ما بين ٩٠ إلى ١٠٠٪ (الدكتور كمال الدين حسين الطاهر في كتابه السجائر والتمباك والصحة) ، ويؤدي استخدام التبغ بطريقة المضغ (الشمة أو المضغة أو السعوط) إلى زيادة الإصابة بسرطان الفم واللسان والشفة والبلعوم والمريء (كتاب الصحة أو التدخين وكتاب جراحة الرأس والعنق تأليف الدكاترة فؤاد زهران ، عدنان جمجوم ومحمد عيد) .

ولا يواجه العالم الثالث خطر التدخين فحسب وإنما يضاف هذا الخطر لمخاطر الأمراض الوبائية وسوء التغذية ، ولا شك أن ذلك سيزيد من الأعباء الملقاة على عاتق دول العالم الثالث ويواجهها بخطر ماحق لم تستطع الدول الغنية والمتقدمة تكنولوجياً في الغرب التغلب عليه رغم إمكانياتها الهائلة .

إن خطر التدخين في العالم الثالث هو أعظم الأخطار الصحية التي عليه أن يواجهها . . من هذه اللحظة . . لأن كل يوم يزداد فيه عدد الذين سيلاقون حتفهم نتيجة التدخين كما سيزداد فيه عدد الذين سيصابون بأمراض وبيلة زيادة مرعبة .

ويقول الدكتور فيمي بيرس (Femi Pearse) في المؤتمر العالمي الخامس لمكافحة التدخين ، والمنعقد في كندا في وينيبج : «إن استهلاك خمس سجائر فقط في بنجلاديش يحرم أسرة متوسطة الدخل هناك من ١٥٪ من ثمن الغذاء ، أو ما يعادل ٣٠٠ كالوري ، وإذا علمنا أن معظم الأسر هناك لا يزيد

نصيب الفرد فيها عن ٢٠٠٠ كالوري فقط لعلمنا أن تدخين خمس سجائر فقط يؤدي إلى سوء التغذية فكيف بتدخين عشرين سيجارة يومياً » .

أما الدكتورة ماري آشلي فقد ذكرت أن خطر احتمال الإصابة بسرطان الرئة لدى النساء يتضاعف ٣٩ ضعفاً إذا كانت المرأة تدخن بشراهة (أكثر من ٢٥ سيجارة يومياً) وتستعمل حبوب منع الحمل في آن واحد .

وإذا كان تدخين السجائر يقتل في كل عام أكثر من مائة ألف شخص في بريطانيا ، وأكثر من ١٤٠,٠٠٠ شخص في ألمانيا الغربية ، وقرابة ٣٥٠,٠٠٠ شخص في الولايات المتحدة ، فإننا لا نستغرب بعد ذلك أن تقرر منظمة الصحة العالمية أن الوفيات الناتجة عن التدخين تزيد عن المليون في العالم .

وإذا كان السناتور روبرت كندي قد صرح عام ١٩٦٧ ، كما تنقله عند اللانست (٧ يناير ١٩٨٣) بأن شركات السجائر تنشر الموت في العالم من أجل مكاسبها المادية البحتة . . فإن الموقف الآن أشد خطورة عما كان عام ١٩٦٧ ، بالنسبة للعالم الثالث ، حيث تضاعفت مبيعات السجائر منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا .

إن أصحاب شركات السجائر كما تقول اللانست (LANCET) (٧ يناير ١٩٨٣) يقومون بإعادة تجارة الرق في صورة جديدة ، وذلك باستعبادهم شعوب العالم الثالث بمادة النيكوتين ، وجني مئات الملايين من الدولارات سنوياً كأرباح صافية من وراء هذه التجارة (الدنيئة) .

المراجع

- كتاب الصحة أو التدخين ـ الكلية الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة عام ١٩٨٣ .
- المسكرات بين الشرائع السماوية والقوانين الجنائية ـ تأليف إسماعيل الخطيب.
- دائرة المعارف البريطانية (ميكروبين) المجلد ٨/٥٥٢ ، ١٩٨٢م.
- السجائر والتمباك والصحة ـ د. كمال الدين حسين الطاهر.
- رسالة د. عبد الحسين طابا المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية .
(عن مجلة الأمة عدد ربيع الأول ١٤٠٤هـ).

- إحصائيات الغرف التجارية بالمملكة العربية السعودية.
- التدخين وأثره على الصحة ـ د. محمد علي البار (الطبعة الرابعة).
- مجلة الصحة العالمية (عدد فبراير/ مارس ١٩٨٠م).
- مجلة الأمة (عدد فبراير/ مارس ١٩٨٠م).
- مجلسة اللانست (LANCET) ـ مجلد/ ٢٣ يناير ١٩٨٤م.
- جريدة المدينة « عالم بلا حدود » ـ العدد ٥٩٩٣ في ١٤٠٣/١١/١٥هـ.
- الديلي أكسبرس ـ ١٩٨٤/٢/٢٥م.
- مجلة مديسن دايجست (Medicine Digest) (عدد أكتوبر ١٩٨٣م).
- صحيفة عرب نيوز (نقلاً عن وكالات الأنباء) في ١٩٨٤/٢/٢٥م.
- صحيفة عرب نيوز ٢ مارس ١٩٨٨.
- مجلة اللانست LANCET الطبية عدد ١٤ نوفمبر ١٩٨٧.

وقفة مع التدخين والمدخنين

وقفت في طابور المسافرين ، فلما انتهيت من وزن العفش قلت لموظف الخطوط السعودية : مقاعد غير المدخنين لو سمحت .

فأجاب : آسف مقاعد غير المدخنين جميعها محجوزة .

قلت : إن معي أسرة وطفلاً رضيعاً ، ولعلك تعلم أضرار الدخان على الرضع بصورة خاصة .

فقال : سمعت بذلك . ولكن جميع مقاعد غير المدخنين محجوزة .

قلت : هل الإقبال على مقاعد غير المدخنين مستمر هكذا ؟

قال : نعم . .

قلت : هذا خبر سار ، ولماذا لم تزيدوا مقاعد غير المدخنين ؟

قال : أرجو أن تتصلوا بالمسؤولين ، أو تكتبوا إليهم بذلك فالأمر ليس بيدي .

هذه الظاهرة الجيدة . . وهذا الخبر السار ينبغي أن تهتم له الخطوط السعودية فتسارع إلى زيادة مقاعد غير المدخنين . . ريثما يتم منع التدخين كلية على خطوط الطائرات .

وإذا كانت معظم أنواع المواصلات في العالم ، من أتوبيس الى قطار إلى مترو ، تمنع اليوم التدخين مطلقاً ، أثناء صعود المركبات ، فلماذا لا تمنع الخطوط الجوية التدخين في الطائرات ؟؟ ولماذا لا تكون السعودية رائدة في هذا المجال ؟ خاصة وأن الإقبال من الجمهور على مقاعد غير المدخنين يتزايد يوماً بعد يوم . .

ولعل بعضهم سيقول إن هذا الإجراء ربما خفض من عدد الركاب ،

فأقول إن هذا غير صحيح . . فإن كثيراً من خطوط الطيران في البلاد العربية والإسلامية تقدم الخمور لركابها بحجة أن ذلك يجلب الزبائن . . ومع هذا فإن معظم هذه الخطوط تعاني من خسارة مادية كبيرة . . وعدد ركابها أقل بكثير من ركاب الخطوط السعودية التي تمنع الخمور منعاً باتاً على متن طائراتها .

وإذا علمنا أن المسارح وصالات السينما ، وحتى قاعات الموسيقى ، تمنع في الغرب التدخين مع أن التدخين في هذه الأوقات للمدخنين هو ألذ شيء لهم . . ومع هذا فإن منع التدخين ، في هذه الأماكن وهي أماكن لهو ، لم يقلل من الزبائن . . فإننا نستطيع أن نقول بكل ثقة : إن منع التدخين على الخطوط الجوية السعودية لن يقلل من عدد الركاب بل ربما زاد من عددهم .

ومن الجدير بالذكر أن جميع المستشفيات والعيادات الطبية تمنع التدخين للمرضى والأطباء والعاملين في هذه المستشفيات والعيادات على السواء، وقد نجح قرار المنع هذا في معظم أرجاء العالم . . ويسمح للعاملين بالتدخين في ساعة الراحة فقط . . أو وقت شرب الشاي في منتصف وقت العمل حيث يسمح بربع ساعة لشرب الشاي والتدخين لمن يريد في غرفة خاصة بعيدة عن المرضى .

وإنه لمن المشين حقاً أن نجد الطبيب يفحص المريض وبيده سيجارة ، أو يتحدث وهو ينفخ الدخان في وجه مريضه .

ورغم أن هذه العادة القبيحة تكاد تتلاشى اليوم إلا أنها لا تزال للأسف موجودة من حين لآخر . .

وإذا كان الطبيب وهو أعرف الناس بمضار التدخين لا يدخن فحسب وإنما يدخن أيضاً في وجه مريضه فإنها كارثة . .

ومما يثلج الصدر حقاً أن نجد نسبة المدخنين بين الأطباء الشباب ، الذين تخرجوا حديثاً ، تقل كثيراً عما كانت قبل ربع قرن من الزمان ، وذلك يعني أن هؤلاء الأطباء الشباب يدركون دورهم الاجتماعي الهام في كونهم قدوة ومثلاً أعلى لمن حولهم ويدركون أن دورهم القيادي في المجتمع يفرض عليهم أن ينشروا المعلومات الصحية الصحيحة للجمهور ، وليس عليهم فقط أن يعالجوا أمراضه .

وأخيراً نتوجه بهذه النصيحة إلى المدخنين ، الذين عرفوا عن كثب مضار التدخين ، والذين وقعوا أسرى في براثنه . . إن شهر رمضان هو شهر الصبر . . وشهر الإرادة . . فالذي يصوم عن الأكل والشراب والتدخين ثماني عشرة ساعة يومياً . . يستطيع بقليل من الحزم والصبر أن يصبر عن التدخين طوال الأربعة والعشرين ساعة(*) .

إنها لفرصة عظيمة يتيحها هذا الشهر الكريم ، لجميع المدخنين ، كي يقلعوا عن عادة التدخين الضارة والسيئة . . ولن يكلفهم ذلك سوى أخذ بضعة حبات من الأسبرين لمعالجة الصداع الناتج عن ترك التدخين . . وهو أمر يعاني منه كثير من الصائمين في اليوم الأول والثاني من الصوم . . ثم يذهب الصداع ويبقى الأجر . . إن شاء الله .

(*) قامت الخطوط السعودية بعد فترة من نشر هذا المقال بمنع التدخين في خطوطها الداخلية القصيرة . . ونحن إذ نشكر للمسؤولين في الخطوط السعودية هذه الخطوة المباركة نرجو أن تتبعها خطوات من ضمنها منع التدخين مطلقاً على رحلات الخطوط السعودية سواء كانت رحلات داخلية أم خارجية . . وسواء كانت رحلات قصيرة أم طويلة .

وبما أن الخطوط السعودية تمنع الخمور بأنواعها على خطوطها منذ إنشائها ، ورغم ذلك فإن ركاب السعودية يفوقون عدد ركاب مثيلاتها من الخطوط الجوية ، وتجد اقبالاً متزايداً ، فإن منع التدخين مطلقاً سيزيد من عدد الركاب على متن الخطوط السعودية لا كما يظن المخدوعون ، الذين يعتقدون أن منع التدخين سيُقلل من الركاب الى حد كبير .

وليست الخطوط السعودية هي الوحيدة التي تمنع التدخين في رحلاتها الداخلية ، فهناك شركات طيران في الولايات المتحدة تمنع التدخين مطلقاً على متن جميع رحلاتها . كما أن الرحلات الداخلية في الاتحاد السوفياتي (وهو قارة تقريباً) يمنع فيها التدخين مطلقاً . . وتتجه كثير من الدول حالياً الى منع التدخين مطلقاً في الأماكن العامة ، وأماكن العمل والمستشفيات ، كما أن بعض المطاعم والمسارح ودور السينما تمنع التدخين منعاً باتاً .

شركات التدخين خسرت في أمريكا وهي تركز الآن على العالم النامي[1]:

لقد عانت شركات السجائر الغربية خسائر كبيرة في أسواقها في أمريكا وأوربا نتيجة زيادة الوعي ضد مخاطر التدخين ، فقد استطاع ثلاثون مليون مدخن في الولايات المتحدة أن يقلعوا عن التدخين في الخمسة عشر عاماً الماضية . . كما أن نسبة المدخنين بين الرجال البالغين قد انخفضت من ٧٠٪ إلى حوالي ٣٠٪ فقط . . ولهذا فقد عملت شركات التدخين العالمية ، التي تبيع كل يوم ٨ بلايين سيجارة ، على تعويض هذه الخسارة بزيادة بعاتها في ما يسمى العالم الثالث الذي يشكل المسلمون أغلبية سكانه . .

ويبدو للأسف أن هذه الشركات قد نجحت إلى حد بعيد في زيادة مبيعاتها من المواد السامة المسماة السجائر إلى سائر أقطار المسلمين ، وإلى

---

(١) نشرت مجلة اللانست الطبية المشهورة في عددها الصادر ١٤ نوفمبر ١٩٨٧ تقريراً أصدرته شركات التبغ في أستراليا ووجهته الى الجمهور وحملة الأسهم. وقد جاء في التقرير ما يلي: «لمدة ربع قرن من الزمان ونحن نحاول أن نخفي الحقيقة. . وقد عملنا بشتى الوسائل الخفية والعلنية للتقليل من أضرار التدخين الصحية. إننا نعترف الآن أننا نقوم بقتل ٢٣,٠٠٠ مواطن أسترالي سنوياً. ومنذ عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٨٤ قمنا نحن، أصحاب شركات التبغ، بقتل ٤٧٠,٠٠٠ مواطن من سكان أستراليا. . . . ونحن نوجّه خطابنا الآن إلى حاملي الأسهم ونقول لهم بكل صراحة: نحن لا نستطيع أن نروّج بضاعة تقتل عشرات الألوف من مواطني أستراليا. وتسبب الأسقام لمئات الألوف سنوياً. لقد حان الوقت لنعلن بكل شجاعة مسؤوليتنا الكاملة عن هذه المأساة». . . وللأسف الشديد فإن شركات التبغ لا تزال توجه حملات دعايتها لنشر التدخين في العالم الثالث.

الآن لا يبدو على الدول الإسلامية ، وبقية دول العالم الثالث ، اهتمام حقيقي بهذه الكارثة . . إلا أننا نشعر بالارتياح للاهتمام ، الذي ظهر مؤخراً لدى دول الخليج ، نتيجة انعقاد مؤتمرات لوزراء الصحة اهتموا فيها بصورة جيدة بخطورة هذا الغول المفزع الذي يهدد حياة الملايين .

وقد استجابت دول الخليج لمقررات وزراء الصحة ، وكان من أولهم استجابة المملكة العربية السعودية ، التي منعت الإعلان والهدايا التي توزع بقصد الترويج للتدخين ، كما أنها قامت برفع أسعار السجائر وأنواع التبغ الأخرى مؤخراً .

ونحن نحمد لها هذا الإجراء الذي طالبنا به عدة مرات ، منذ أكثر من ثلاثة أعوام ، في مقالاتنا حول التدخين ، وفي كتابنا (التدخين وأثره على الصحة) .

ورغم أن إجراء رفع الأسعار لا يؤدي لوحده للتوقف عن التدخين فإننا نعتقد أن هذا الاجراء سيقلل من كمية استهلاك السجائر . . وقد لاحظنا أن كثيراً من العمال المغتربين قاموا بمضاعفة كميات استهلاكهم من السجائر عما كانوا يفعلونه في بلادهم ، وذلك بعد قدومهم للمملكة وذلك لعدة عوامل أهمها : رخص السجائر هنا . . ولكننا شاهدنا ما يدل على تخفيض كمية الاستهلاك بعد زيادة الأسعار . ونحن نتفق مع الأستاذ مقبل الصالح الذكير في قوله إن رفع الأسعار لن يحل مشكلة التدخين ، ولكننا نختلف معه في التقليل من أهمية هذه الخطوة لأننا نعتقد أنها إحدى الخطوات الهامة التي ينبغي أن تصحبها خطوات أخرى هامة هي :

١ ـ وضع رقابة على الصحف والمجلات ، التي تأتينا من الخارج ، وفيها إعلان عن السجائر . . ونحن نعلم أن المملكة تمنع الإعلان عن التدخين في صحفها ومجلاتها وفي إذاعتها وتليفزيونها ، وهو إجراء جيد تشكر عليه . . ونريد أن يمتد هذا الإجراء إلى المسلسلات التلفزيونية التي تعرض لأبطال هذه المسلسلات وهم لا يكفون عن التدخين .

٢ ـ تكثيف الحملة ضد التدخين ، وخاصة في المدارس والجامعات ، ووضع

برامج حديثة تستخدم فيها الأفلام والشرائح والمحاضرات لتوضيح أضرار التدخين وخطورته وذلك لحماية الأجيال القادمة ومنعها من الوقوع في براثن التدخين . ويمنع المدرسون والمربون من التدخين أمام طلبتهم منعاً باتاً . . لأنهم يشكلون القدوة .

٣ ـ حملة إعلامية منظّمة في الإذاعة والتليفزيون والصحافة توضح أخطار التدخين بالصورة والكلمة .

٤ ـ منع التدخين في الأماكن العامة ووسائل المواصلات والطائرات منعاً باتاً .

٥ ـ القيام بحملة في المساجد لتوضيح أضرار التدخين ، وبيان رأي علماء الإسلام في هذه المشكلة . . ونحن نعلم أن معظم علماء الإسلام قد أفتوا بحرمة التدخين نذكر منهم الشيخ محمد بن إبراهيم ، مفتي المملكة العربية السعودية السابق وعالمها ، ومنهم رئيس دائرة الإفتاء والدعوة والإرشاد الحالي سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ومنهم الشيخ محمد العيني ، وأبو الحسن المصري وهما من علماء الأحناف . . ومن فقهاء الشافعية الشيخ النجم الغزي الشافعي ، والإمام عبد الله الحداد، والإمام الحسين ابن الشيخ أبي بكر بن سالم ، والعلامة أحمد الهندوان ، والعلّامة عبد الله باسودان ، ومفتي حضرموت السابق العلّامة السيد عبد الرحمن بن محمد المشهور .

ومن علماء تركيا الشيخ محمد الخواجة ، والشيخ عيسى الشهاوي الحنفي . . ومن علماء المدينة المنورة السيد سعد البلخي المدني ومحمد البرزنجي المدني .

ونحن نكرر مطالبتنا باجتماع العلماء في رابطة العالم الإسلامي ليتدارسوا هذا الموضوع الهام ويصدروا فيه فتواهم بعد دراسة لكافة جوانب هذا الموضوع[1] . .

---

(١) عقد بعد نشر هذا المقال المؤتمر العالمي الإسلامي لمكافحة المسكرات والمخدرات بالمدينة المنورة (الجامعة الاسلامية)، وأجمع علماء المسلمين من كافة الأقطار على أن استخدام التبغ محرم لضرره البالغ على الصحة ولضياع الأموال الطائلة هدراً، والمسلمون في أشد الحاجة لهذه الأموال لمواجهة المجاعات والحروب، وقد صدر هذا القرار في ١٤٠٢/٥/٣٠هـ .

ونحن نعتقد أن هذا الجانب هو أهم وسيلة لمحاربة أضرار التدخين . وقد لاحظنا أن الشباب المتدين هم الوحيدون الذين نجوا من براثن التدخين ، كما نجوا من شرور الخمور والمخدرات والزنا .

وبدأت تجربة جديدة في مصر ، وهي أن يتحدث خطيب الجمعة ، وخاصة التي تنقل في الإذاعة والتليفزيون ، عن التدخين بكلمة موجزة في خطبته . . وقد لوحظ أن لهذه الكلمات أثرا طيباً في نفوس المستمعين ، وأن بعض المدخنين أقلعوا عن التدخين بعد سماعهم لهذه المواعظ .

ولهذا نطلب من علماء الإسلام وخطباء المساجد المشاركة في حل هذه المشكلة .

والله ولي التوفيق .

الشمة خطر يهدد المدمنين بالأمراض الخبيثة(*)

هذا التحذير تطلقه « المدينة » عبر صفحاتها لكافة المواطنين والمقيمين الذين يتعاملون مع « الشمة » . . لقد ثبت علمياً بما لا يعد مجالاً للشك أن مضغ « الشمة » يسبب أمراضاً مخيفة ومرعبة . . فقد قام أساتذة كلية الطب ، بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، بإعداد بحث شامل مع الذين يتعاطون هذه المادة الخبيثة . . ودلت دراساتهم المبدئية على أن « الشمة » سبب رئيسي للالتهابات المزمنة في الفم . . وأنها تسبب أمراضاً سرطانية خطيرة . . كما أنها مصدر أساسي لالتهابات المريء وقرحة المعدة . . وفي كثير من الأحيان تسبب أمراضاً خبيثة لكافة هذه المناطق .

لقد كانت هذه الأمراض التي تفتك بماضغي « الشمة » أو « الصعوط » بلهجة السودانيين ، أو النشوق بلهجة تهامة اليمن ، والدقدقة بلهجة جنوب تهامة الحجاز ، والمضغة بلهجة الحضارم ، وراء قرار وزير الصحة الدكتور غازي القصيبي بمنع استيرادها من الخارج[1] . .

ولقد كان القرار حكيماً في منع خطر محدق بمتعاطي هذه المادة . وبقي أن يستشعر كل مواطن ومقيم مقدار الخطر الذي يحيط به ، ويمتنع فوراً عن استخدام هذه المادة أو محاولة تخزينها عن طريق شرائها من الباعة الذين ينتشرون في الأسواق . .

إن « الشمة » تفوق في خطرها كافة ألوان تعاطي التبغ بكل صوره . .

(*) مقابلة أجراها عبد الرحمن الزهراني مع المؤلف ونشرتها صحيفة المدينة المنورة (جدة).

(١) للأسف أعيد السماح باستخدام الشمة واستيرادها بعد قرار المنع هذا.

فخطرها سريع ، وضررها مباشر . . ولسنا بأقل من غيرنا في الحفاظ على صحتنا العامة، ومنع أنفسنا من الانتحار البطيء. . فحينما قامت حملة ضد التدخين في الولايات المتحدة الأمريكية ، وما يسببه من أمراض خبيثة ، امتنع حوالي عشرين مليون مواطن أمريكي عن التدخين . . لقد أقلعوا عنه بعد معرفتهم اليقينية بخطره على صحتهم . . وإننا على ثقة بوعي المواطنين والمقيمين ممن أدمنوا هذه المادة الخبيثة . . ولا نشك إطلاقاً في قدرتهم على الإقلاع عن تناولها . .

خطر قاتل

وحتى لا يكون هناك أدنى شك في ما تسببه الشمة من مضار قاتلة ، فإننا هنا نورد رأي طبيب خبير بمضارها . .

يقول الدكتور محمد علي البار ، أخصائي الأمراض الباطنية :

الشمة مكونة من التبغ (التنباك) ، وتستخدم في كثير من المناطق ، وخاصة في تهامة الحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، وفي السودان . وكثيراً ما يضاف إلى التبغ المسحوق ، في كثير من المناطق ، مادة الرماد وهذه المواد الحارقة توضع في الفم تحت الشفة السفلى ثم تمتص من خلال الأغشية المخاطيةالموجودة في الفم ، وتصل الى الدم فتسبب الإدمان عليها ، مثلها مثل التبغ بكل صور استعمالاته المعروفة ، سواء كانت بصورة تدخين أو نشوق أو « شمة » . والحقيقة أن اسم « شمة » ليس مضبوطاً تماماً لأنه اسم مشتق من الشم ، والأصح في تسميتها مثلما يسميها الحضارم (المضغة) لأنها شبه شيء ممضوع ، يوضع تحت الشفة بين جذور الأسنان وبين الشفة ، وهذا يؤدي إلى امتصاص المواد الموجودة في التبغ ، مما يؤدي إلى تلوث الأسنان ، وإلى التهابات مزمنة بالفم . . وعندما تزمن تصبح أحياناً أوراماً سرطانية ، ولدينا عدة صور تثبت ذلك . . وقد قام أساتذة كلية الطب ، بجامعة الملك عبد العزيز ، بإجراء دراسات وأبحاث طويلة على مجموعة من الأشخاص الذين أصيبوا بسرطان في الفم واللسان ، وقد ثبت ، من كافة التحاليل المخبرية والفحوصات العلمية، أن هؤلاء قد أصيبوا بالسرطان نتيجة لتعاطيهم

« الشمة » . . وتؤكد هذه الحقيقة مجموعة الأمراض التي تصيب الفم والأسنان ، مثل أمراض « البايوريا » والتي يرجع سببها الأساسي إلى مضغ « الشمة » . . وليس هذا فحسب ، بل تمتد الإصابة إلى الباطن . . فقد لاحظنا على هؤلاء الناس وجود التهاب للمريء بصورة مزعجة ، وربما كانت « الشمة » سبباً في انتشار سرطان المريء عند مستخدميها ، يضاف إلى ذلك وجود التهابات أخرى في المعدة . . مثل الالتهاب الضموري وغير الضموري ، إلى جانب قرحة المعدة . . ولقد وجدنا كثيراً ممن يتعاطون « الشمة » ، الذين يعانون من التهابات المريء والمعدة ، يذهبون إلى الأطباء القادمين من خارج المملكة ، مثل مصر وغيرها ، فيعطونهم علاجاً سليماً ونافعاً ١٠٠٪ ، ولكن يفاجأ الطبيب بأن العلاج لا ينفع ولم يشف المريض لأنه يستعمل « الشمة » .

وقد يلجأ الطبيب لإجراء عملية جراحية على اعتبار أن القرحة لم تشف بالعلاج الطبي .

وطبعاً العملية ينصح بها الطبيب عندما لا ينفع العلاج . وفي كثير من الحالات يكتشف الطبيب أن السبب هو الشمة ، وبمجرد إقلاع المريض عن استعمال الشمة يشفى المريض بعد أسبوعين أو ثلاثة ، حيث تختفي الأعراض تماماً ، وتتحسن حالة المريض ، حتى بدون استخدام الدواء .

بمجرد أن يترك المريض الشمة ويستخدم اللبن (الحليب) تتحسن حالته بصورة عجيبة جداً ، وقد حدث هذا مع معظم الذين يعانون من التهابات المعدة أو المريء نتيجة استخدام الشمة .

أسلوب العلاج

و « الشمة » مثلها مثل التبغ عندما تمتص تذهب إلى الدماغ ، والمدمن على استعمالها يصعب عليه ترك « الشمة » مثل المدخن ، ويتركها بصعوبة ، ولذلك فإنه يعطى المدمن على استعمالها فيتامينات بكميات وافرة . يعطى كميات من الحليب يشربها ويضاف له العسل مع الحليب فإنّ لهما فائدة كبيرة في معالجة هذه الأمراض ، وخاصة للذين لا يعانون من أمراض السكر . بهذا

يستطيع أن يتغلب الشخص على مضار « الشمة » ويتوقف عنها . طبعاً ستحدث له نوبات صداع و « دوخة » نتيجة لتوقفه لأن الدماغ متعود على كثير من النيكوتين ، وهي المادة الموجودة في السجائر أو التبغ بأنواعه المختلفة ، ولذلك فمستخدم « الشمة » يجد بعض المضايقات النفسية البسيطة لمدة أسبوع أو أسبوعين عند تركها ، وباستخدام العلاج المساعد والمهدئات التي يصفها له الطبيب ، في الفترة هذه ، يمكنه أن يتغلب على إدمانه الشديد « للشمة » . وليس من الصعب ترك هذه المادة عندما تعرف أضرارها . ولا بد من أشياء مساعدة لتركها وهي : أولاً : الامتناع ، وثانياً : وضوح المضار ، وثالثاً: علاج التوتر العصبي الذي يكون لدى البعض منهم، وذلك بإعطائهم المهدئات وبعض السوائل . وأنصح باستخدام السواك لإزالة الأثار ، ولأنه يوضع كشيء مسلٍّ بدلاً من استخدام المسحوق . وأهم شيء الاقتناع لأنه إذا اقتنع الشخص بتركها فمن السهل جداً أن يتركها بدون أشياء مساعدة .

٣٠ مادة خطرة :

وعن المادة المسببة بالذات لسرطان الفم أجاب الدكتور محمد البار بأنه لا يوجد لديه بحث في ذلك لكنه قال : من المعروف أن أوراق السجائر (أوراق التبغ) فيها مواد مسببة للسرطان ، وتم اكتشاف (٣٠) مادة موجودة في التبغ بأنواعه تسبب السرطان ، ولما وضعوا التبغ في تجربة على جلد الفئران والأرانب تحول الجلد هذا إلى سرطان بعد فترة ، وربما يكون الرماد أيضاً عاملاً مساعداً للسرطان ، وبهذا تكون « الشمة » سبباً من أسباب السرطان . والجهاز التنفسي عند مستخدمي الشمة يصاب بإصابات أقل منها لدى المدخنين، ولكن الفرق لديهم في الجهاز الهضمي، الذي تكون إصابته بالغة عند ماضغي « الشمة » ، لأن تأثيرها على الجهاز الهضمي مباشر ، فهي من الفم إلى البلعوم إلى المريء إلى المعدة وتأثيرها واضح على الجهاز الهضمي . فالشمة لا تصل الجهاز التنفسي إلا عن طريق الدم بعكس التدخين ، و « الشمة » لها تأثير كبير على المتزوجين . وعندما يستعمل الشخص «الشمة» والدخان ، وإذا زادت معها ثالثة الأثافي (الخمر) ، فإنها

جميعاً تقضي على الشخص في وقت قياسي عن طريق أول أكسيد الكربون ، وعن طريق النيكوتين والخمر ، عن طريق ترسيب الكولسترول . والشمة مع الخمر تعملان على ترسيب صفائح الدم التي تسبب الجلطة ، والشمة لها مادة سامة مباشرة تؤثر على القدرات الجنسية لدى المتزوجين .

دراسات أخرى :

■ ما هي الآثار التي تسببها (الشمة) على النساء اللاتي يستخدمنها وبخاصة الحوامل ؟

ـ للأسف فإن النساء اللاتي يستخدمن الشمة موجودات ، ولها نفس التأثير مثل تدخين التبغ ولكنها تعمل من جهتين . فمن جهة تؤثر على الجهاز الهضمي ابتداء من الأسنان الكالحة الصفراء والشفائف والتهابات الفم المزمنة والرائحة التي تنتج عنها ، وكذلك التهابات المريء والمعدة ومنظر المرأة موصوف بالجمال والرقة ، وتكون المرأة المستخدمة للشمة في أبشع صورة فتؤثر عليها من الناحية النفسية . ثم إن هذه المادة تمتص ثم تذهب مع الدم الى الجنين . فإذا كان التدخين يسبب أولاً زيادة الإجهاض ، وثانياً ضعف نمو الجنين ، وثالثاً إصابة الطفل بالعيوب الخلقية مثل العيوب الخلقية الموجودة في جدار القلب وما بين البطين الأيسر والبطين الأيمن ، فكيف بالشمة حيث يمتص النيكوتين والمواد المضرة الأخرى ، ويذهب هذا كله الى الجهاز الهضمي والى الدم ، بل ومن الفم الى الدم ، ثم إلى «المشيمة» ، ثم إلى الجنين فيؤثر على المشيمة ، ثم على نمو الجنين وتكون «الشمة» هي السبب في ذلك . وتقوم الآن جامعة الملك عبد العزيز بدراسة حول الشمة وسرطان الفم ، وسوف تكشف هذه الدراسة الكثير والكثير عن أضرار الشمة ، لا سيما وأن هذه الدراسة الوحيدة من نوعها في العالم حسب علمي .

■ يصاب مستخدمو الشمة بالرعشة في سن مبكرة من أعمارهم وهذا ما اعترف به بعضهم ، كما أن أعمار مدمني الشمة أقل ، فما هو السبب في هذا من الناحية الطبية ؟

ـ من المعروف أن المدخنين يفقدون معدل أربع دقائق من أعمارهم في

كل سيجارة يتناولونها ، وهذا معدل ، وطبعاً الأعمار بيد الله ، فإن المدخن يفقد جزءاً من حياته ، ومعنى ذلك فإن مستخدم الشمة يعاني من نفس المشاكل « ويشيخ » بسرعة ، مثل المدخن ، ويعاني من أمراض معروفة مثل السرطان وإذا لم يتعرض للسرطان فإنه يتعرض لأمراض أخرى مثل أعراض الشمة أو التبغ في الجسم التي تؤثر على القلب والأغشية وتؤثر على كل خلايا الجسم ، وليس لدي إحصائية علمية بهذا ، وإنما الواقع يثبت هذا والمشاهدة واعتراف جماعة « الشمة » بهذا .

نقل العدوى :

■ دكتور ، ما هي وجهة نظرك الأخلاقية والطبية للمخلفات التي يخلفها أصحاب الشمة (البصاق) وخاصة في الطرقات والشوارع ؟

ـ طبعاً منظر سيء وقلة ذوق بالإضافة إلى أن البصاق ينقل الأمراض أياً كان نوعها في الجسم مثل السل مثلاً وغيره ، وكذلك الأمراض التي تنتقل عن طريق الرذاذ والتنفس ، ولذلك فإن الشمة عندما تبصق على الأرض تجف وتتطاير مع الغبار فينتشقها الآخرون ، وتنقل إليهم الأمراض .

■ فما رأيكم في قرار معالي وزير الصحة بمنع استيراد الشمة ؟

ـ سمعت بالقرار الحكيم الذي أصدرته وزارة الصحة ووزارة التجارة بمنع استيراد الشمة ، وبالتالي سوف تنتهي الشمة الموجودة ويقفل باب من أبواب الشر ، وعلماء المملكة أفتوا جميعهم بتحريم التدخين والتبغ بأنواعه ، بما فيه الشمة وغيرها . كذلك المؤتمر الذي عقد في المدينة قبل عامين لمكافحة المسكرات والمخدرات انتهى بالإجماع بحرمة استخدام التدخين سواء كان سجائر أو صعوطاً أو شمة وإن شاء الله تعالى نتوقع أن تكون هذه خطوة أولى في محاربة أنواع التبغ المختلفة وليس فقط الشمة لأن الذين يستخدمونها أقل من المدخنين .

وكان لقاؤنا الثاني مع بائعي الشمة . . أحدهم حسن محمد حسن بباب مكة . . إنه يملك دكاناً ، وكان مخصصاً لبيع الشمة . وما زالت عنده كميات منها . . والطريف أنه لم يعرف حتى الآن بقرار وقف استيراد الشمة . . وقد

أسهب في الحديث عن أنواع الشمة قال : هناك شمة بيضاء ، وأخرى سوداء . والبيضاء تصنع من التبغ ، وهي جافة ، أما السوداء فإنه يضاف إليها الماء بعد سحقها . . وقال إنه يبيع في اليوم ما قيمته ١٠٠ ريال . . أما إذا باع غيرها مثل الدخان والجراك فإن دخله في اليوم يصل إلى ٥٠٠ ريال .

وأثناء الحديث معه جاءه أحد الأخوة اليمنيين واسمه محمد أحمد ، واشترى كيساً صغيراً من الشمة اليمانية . وقال عن سبب تناوله لها : إنني تعودت عليها منذ فترة طويلة . . ولا أعرف شيئاً عن ضررها على الصحة العامة . .

ثم التقينا مع البائع محمد علي عبد الرحمن ، اليمني الجنسية ، فقال: إنني أبيع الشمة بسعر الكيس ريال واحد . وقال إنها مثل التدخين ، وقال إن ضررها على الأسنان والفم لا يستهان به ، ولا أعرف إن كانت لها أضرار أخرى . . أما معدل ما يبيعه يومياً فهو ما بين ٢٠ إلى ٥٠ كيساً .

وقد لاحظنا أن محمد عبد الرحمن يفترش أحد الطرق الفرعية في الكارنتينة ، فليس له مكان مخصص لبيع سلعته .

وتركناه لنلتقي مع مواطن سوداني ، اسمه بدر الدين حسين . ولديه إلمام كاف « بالصعوط » السوداني قال : إن الصعوط ليس له أي ميزة ، فهو مثل الدخان تماماً ، بل بالعكس فإن ضرره كبير على اللثة والفم ، إلى جانب أنه يتسبب في تشوه الأسنان . وقال إنه بعد استخدام المرء للصعوط فترة طويلة يشعر برعشة في جسمه ، وهي في الغالب نتيجة لإرهاق الأعصاب . وقال إن الصعوط يصنع في السودان من التبغ ومادة «العطرون»[1]، وهي مادة تشبه الخميرة . . ويتم سحق المادتين مع بعضهما ، مع إضافة بعض الماء . . وتترك لفترة حتى تجف ثم تباع . .

---

(١) مادة العطرون تحتوي على بيكربونات الصودا . . وهي تساعد على سرعة امتصاص النيكوتين من الغشاء المخاطي المبطن للفم.

التدخين في المملكة العربية السعودية (*)

يعتبر التدخين واستخدامات التبغ الأخرى طارئة في المملكة العربية ، وخاصة في نجد والبوادي . أما في مدن المنطقة الغربية ، وفي جيزان ونجران وتهامة ، فإن التدخين واستخدام التبغ بكافة طرقه قديم منذ عهد الأتراك العثمانيين .

ومنذ أن توحدت الجزيرة العربية ، بقيادة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ، واجه التبغ ، بكافة طرق استعمالاته ، حرباً سافرة من علماء الدين ، ومن المسؤولين مما أدى إلى تقلص انتشاره ، وخاصة في منطقة نجد وما حولها . . أما في المنطقة الغربية وتهامة فقد كان استخدام التبغ مستمراً ولو بطرق شبه سرية .

وفي العهود القريبة الماضية تبدَّلت النظرة الاجتماعيةوالرسمية لاستخدام التبغ بكافة طرق استعمالاته . وانتشر التدخين انتشاراً ذريعاً ، وخاصة بين الشباب ، حتى أن المرأة التي كانت في الغالب بعيدة عن التدخين انجرفت في هذا التيار أيضاً . . وأصبح التدخين وباءاً شديد الخطورة . . وهو كما تقول هيئة الصحة العالمية في تقريرها ، الذي نشرته عام ١٩٧٥ ، أشد خطراً على صحة الإنسان من جميع الأوبئة مجتمعة ، وتزيد خطورة التدخين عن خطورة السل والجذام والطاعون والكوليرا وكافة الأوبئة الخطيرة .

معلومات إحصائية :

وأول إحصائية عن استهلاك التبغ في المملكة أعلنتها الغرفة التجارية

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة (جدة).

ترجع إلى عام ١٣٩٢ هـ /١٩٧٢ م ، وآخر إحصائية ظهرت إحصائية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، وقد جاء في إحصاء عام ١٩٧٢ أن المملكة استوردت في ذلك العام ٤,٥٧٥,٠٠٠ كجم من التبغ ، وفي عام ١٩٧٥ زادت الكمية المستوردة إلى ٥,٣٨٠,٠٠٠ كجم ، وفي عام ١٩٧٧ تضاعفت الكمية المستوردة ست مرات ، أي بزيادة قدرها ستمائة في المئة ، وبلغت كمية التبغ المستوردة ٢٧ مليون كجم ، وهي أكبر زيادة في استهلاك التبغ في العالم أجمع إذ لا يوجد في جميع أنحاء العالم زيادة مماثلة ولا قريبة من هذه الزيادة المريعة المرعبة .

وفي إحصاء عام ١٩٨١ بلغت الكمية المستوردة من التبغ ، بكافة أشكاله وأنواعه ، ٣٦,٧٣٢,٥٠٠ كجم . . أي بزيادة عشرة ملايين كيلو جرام تقريباً . . وهي أيضاً زيادة كبيرة جداً . . وإن كانت الزيادة لم تبلغ نسبة الزيادة في عام ١٩٧٧ التي لا يوجد لها نظير في جميع أرجاء العالم .

وقد ذكرت الأرقام أسعار التبغ المستورد ، ففي عام ١٩٧٢ كانت قيمة ٤,٥٧٥,٠٠٠ كجم من التبغ ١١٧ مليوناً من الريالات ، وفي عام ١٩٧٥ كانت قيمة ٥ مليون كجم من التبغ ١٥١ مليوناً من الريالات ، وفي عام ١٩٧٧ بلغت قيمة ٢٧ مليون كجم من التبغ ٣٦٥ مليوناً من الريالات ، وفي عام ١٩٨١ بلغت قيمة التبغ المستورد وهو قرابة ٣٧ مليون كجم من التبغ والجراك ٩٧٩ مليوناً من الريالات . وإذا صرفنا النظر عما يقال عن القيمة الحقيقية للتبغ وإنها أضعاف ما هو مذكور في هذه الأحصائيات فإننا نقف مذهولين أمام هذه الأرقام إذ ينفق سكان المملكة ، الذين لا يزيد تعدادهم عن ثمانية ملايين شخص ، قرابة ألف مليون ريال سنوياً . .

وهو مبلغ ضخم يكفي لانقاذ المجاهدين الأفغان ومدهم بالسلاح الذي يستطيعون به أن يحرروا أرضهم من الاستعمار الشيوعي الروسي .

والجدير بالذكر أن المؤتمر العالمي لمكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين المنعقد بالمدينة المنورة في الفترة ٢٧ ـ ١٤٠٢/٥/٣٠ قد قرر بإجماع الآراء حرمة استعمال التبغ بصوره المختلفة تدخيناً وسعوطاً ومضغاً . . واستند أولئك العلماء في تحريمه إلى ثلاثة نقاط أساسية هي :

الأولى : إنه ضار بالصحة ، وقد أجمعت الهيئات الطبية على ضرر التدخين والتبغ بكافة طرق استعمالاته ، وعلاقة استخدامات التبغ بمختلف أنواع السرطانات، وخاصة سرطان الرئة وعلاقته بالتدخين . . وعلاقة الغليون ومضغ التبغ بسرطان الفم والشفة واللسان والبلعوم والحنجرة . . وعلاقة التدخين بأمراض القلب وأمراض الجهاز الهضمي وغيرها من الأجهزة مما هو معروف ومتداول حتى بين العامة ، وتأثير التدخين على الحوامل وعلى الأجنة وزيادة الأمراض الخلقية لدى الأمهات المدخنات ونقص وزن المواليد لدى الأمهات المدخنات ، ومجموعة كبيرة من الأمراض التي تصيب المدخنين مما يشير إلى وجود علاقة أكيدة بين التدخين وهذه الأمراض .

والنقطة الثانية : هو أن استخدام التبغ بكافة طرق استعمالاته إسراف وتبذير نهى عنه القرآن الكريم ، واعتبر المبذرين إخوان الشياطين . . والإحصائيات توضح أن المملكة العربية السعودية وحدها تنفق قرابة ألف مليون ريال على التبغ . . وغيرها من البلاد العربية والإسلامية تنفق أضعاف هذه المبالغ ، وخاصة تلك البلاد التي بها وفرة سكانية .

والنقطة الثالثة : هو أنه خبيث والله ورسوله قد نهيا عن كل خبيث .

وأصدر المؤتمر توصياته بمحاربة التدخين وكافة استعمالات التبغ ومنعه في جميع الأماكن العامة ودوائر الدولة والمدارس والمواصلات والطائرات كخطوة أولى لمنع استيراده وزراعته في الدول التي تقوم بزراعته .

كما حثّ المؤتمر الدول التي تزرع التبغ باستبداله بزراعات أخرى ، مثل القمح أو الفواكه أو غيرها من المزروعات المفيدة .

مما تقدم يتضح مدى الخسائر المادية التي يسببها التدخين بالإضافة إلى خسائره الصحية التي لا تقدر بثمن .

تدخين الرضع(*)

يبدو أن هناك هواية لدى أحد محرري جريدة المدينة الغراء وهي أخذ صور الأطفال الرضع وهم يمسكون بأيديهم الغضّة البريئة على (قصبة) الشيشة ، ويأخذون منها نفساً !! فقد نشرت صحيفتنا المدينة ، في عددها الصادر في ١٣٩٩/٥/١٧هـ ، صورة طفل رضيع ممسك بمبسم الشيشة في فمه وكتب الصحفي البارع هذا التعليق : يعني الواحد ما يقدر ياخدلو نفسين !!

وكتبتُ بعدها مقالاً بعنوان « اللعب بالنار » معلقاً على خطورة نشر مثل هذه الصورة وذلك في ١٣٩٩/٦/٣هـ .

وفوجئت مرة أخرى بصورة طفل رضيع وهو يمسك بلي الشيشة ، في العدد الأسبوعي الصادر في ١٤٠٣/٢/٢ هـ . . وكانت صورة ملفتة للنظر ومثيرة للحس الصحفي الذي يبحث عن الإثارة .

ورغم أن نشر مثل هذه الصورة لا يقابل في العادة إلا بالابتسام فإننا نحذّر من مغبة نشر مثل هذه الصور التي تعتبر دعاية غير مباشرة للتدخين . . ولعل بعض جهلة الآباء والأمهات سيتبارون في أخذ صور لأطفالهم الرضع وهم ممسكون بمبسم الشيشة .

وبما أن الأمر يبدأ أول الأمر بصورة هزلية إلا أنه ينقلب فيما بعد إلى مأساة مدمرة .

ولعل القارىء الكريم سيدهش إذا قلت له إن الإحصائيات في بريطانيا وأمريكا (حسب ما أصدرته الكلية الملكية للأطباء بلندن ، ووزارة الصحة في

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة (جدة).

الولايات المتحدة) تفيد أن بعض الأطفال يبدأون التدخين قبل سن الخامسة ، وأن واحداً من كل ثلاثة مدخنين قد أشعل أول سيجارة قبل سن التاسعة . . وأن في الولايات المتحدة قرابة ستة ملايين طفل يدخنون . . وأن عدد المدخنين تحت سن ١٨ عاماً في الولايات المتحدة يبلغ سبعة ملايين ونصف المليون .

ومن تجربتي الشخصية فقد قمت بعلاج شابة في الخامسة والعشرين نتيجة إصابتها بجلطة القلب . . وبما أن جلطات القلب نادرة في هذا السن ، وخاصة في النساء ، فإنني دهشت لإصابتها بالجلطة في هذه السن الغضة المبكرة . .

وأخبرتني المسكينة أن أباها الذي كان يحبها بشغف مدمر قد علمها التدخين قبل سن الخامسة وأنها أصبحت مدمنة على الشيشة في سن الخامسة !! ثم تعودت تدخين السجائر ، وكانت قبل دخولها المستشفى تدخن أكثر من أربعين سيجارة يومياً !!

نعم هكذا بدأت رحلة العذاب الخطيرة مع التدخين بمزاح ثقيل من أب يدلل ابنته وانتهت بمأساة في سن الزهور وريعان الشباب .

إن تأثير التدخين على الأطفال أشد خطراً منه على الكبار . . ولا يقتصر تأثير التبغ على الأطفال المدخنين بل إن تأثيره يمتد إلى الأجنّة، في أرحام الأمهات المدخنات . ودلت الأبحاث الأخيرة أن الأم الحامل ، التي لا تدخن ، وتعاشر زوجاً مدمناً على التدخين ، فإن جنينها يتأثر بتدخين والده رغم أن والدته لا تدخن !!

ونلخص ها هنا آثار التدخين المدمرة على الأجنة في أرحام الأمهات المدخنات :

١ ـ زيادة في حالات الإجهاض بين المدخنات .

٢ ـ نقص في موازين المواليد: وقد وجد أن أوزان المواليد لأمهات مدخنات يقل في المعدل عن أمثالهم من المواليد من أمهات غير مدخنات بمقدار مائتي جرام ، أي بمعدل ثمانية إلى تسعة جرامات عن كل سيجارة تدخن يومياً .

ويكون تأثير التدخين على الجنين على أشده بعد الشهر الرابع من الحمل . . ويرجع السبب ، في نقص الموازين للمواليد ، إلى قلة نمو الأجنة في أرحام الأمهات المدخنات ، وذلك نتيجة تأثير النيكوتين على الدورة الدموية في المشيمة ، التي يتغذى منها الجنين ، حيث أن النيكوتين يصيب هذه الشرايين بالتقلصات . كما أن دم الحامل المدخنة يحمل كمية من أول أوكسيد الكربون الذي يتحد بالهيموجلوبين (خضاب الدم) ويمنع بالتالي تروية الدم بالأوكسيجين بالدرجة المطلوبة .

وهكذا نجد المشيمة ، في الحوامل المدخنات ، أصغر حجماً من غير المدخنات ، كما أن أوعيتها الدموية أضيق وأتخن عنها في غير المدخنات .

وبما أن التدخين أيضاً يقلل الشهية فإن الحوامل المدخنات يعانين ، في الغالب ، من سوء التغذية وينعكس ذلك على الأجنة في أرحامهن .

٣ ـ زيادة ولادة الأطفال الموتى ، ووفيات الأطفال بعد الولادة :

لقد لاحظ الباحثون زيادة في ولادة الأطفال الموتى (Still Births) لدى المدخنات مقارنة بغيرهن من غير المدخنات ، وكذلك لاحظ الباحثون زيادة في وفيات الأطفال في الأسبوع الأول بعد الولادة .

وتبلغ الزيادة في الوفيات ١٣٣ بالمائة بالمقارنة مع أطفال غير المدخنات ، وقد أثبتت الدراسات أن عدد الحوامل المدخنات قد قلّ ، بصورة جلية ، في الولايات المتحدة وأوروبا بعد نشر هذه الأبحاث مما يدل على الاستجابة الطيبة من الجمهور للتوعية الصحية التي توضح مخاطر التدخين وخاصة لدى الحوامل .

٤ ـ زيادة كبيرة في الأمراض الخلقية ، وخاصة عيوب القلب الخلقية ، مثل وجود فتحات في الجدار الفاصل بين الأذينين أو البطينين أو غيرهما من العيوب .

٥ ـ بطء نمو الأطفال بعد خروجهم من ظلمة الأرحام . . ويستمر بطء النمو العقلي والجسمي حتى سن الحادية عشرة . . وبالتالي فإن أولاد

المدخنات ، أثناء الحمل ، هم أضعف بنية وأقل ذكاء من أطفال غير المدخنات .

٦ ـ زيادة ضربات قلب الجنين في الأمهات المدخنات وتعتبر زيادة ضربات قلب الجنين دلالة هامة على نقص الأوكسيجين في دمه ، كما يدل على أن الجنين يعاني من بعض المصاعب التي تهدد حياته .

وقد أوضح تقرير الكلية الملكية للأطباء بلندن أن خمسين في المائة من الحوامل يتعرض لزيادة ضربات قلوب أجنتهن إذا هن قمن بالتدخين .

هذا هو موجز ما يصيب أجنة الأمهات المدخنات . . أما الأطفال الرضع ، الذين يدخن أحد أبويهما أو كلاهما أو زوارهم ، فإنهم يتعرّضون للإصابة بالنزلات الشعبية والرئوية المتكررة . . ويرجع السبب إلى عاملين أساسيين :

أولهما : إن استنشاق الرضيع هواء ملبداً بدخان السجائر أو الشيشة يؤثر على جهازه التنفسي ، ويجعله أكثر استعداداً للإصابة بالالتهابات الشعبية والرئوية .

وثانيهما : إن والديه المدخنين ، أو أحدهما ، أكثر تعرضاً للإصابة بالتهابات الجهاز التنفسي ، وكثيراً ما يصاب المدخن بما يعرف بـ « كحة المدخن » ، ونتيجة لهذه « الكحة » فإن الميكروبات تنتقل إلى الرضيع الضعيف نتيجة تنفسه هواء ملبداً بدخان التبع ، فتكثر لذلك لديه الإصابة بالتهاب الجهاز التنفسي .

أما تأثير التدخين على الأطفال الصغار فهو أشد وأعتى من تأثيره على البالغين ، وقد ذكرنا أن واحداً ، من كل ثلاثة مدخنين ، قد أشعل أول سيجارة قبل سن التاسعة وأن بعضهم قد بدأ من سن الخامسة . . كما يقول تقرير الكلية الملكية للأطباء . . وفي الولايات المتحدة يبلغ عدد المدخنين ، ممن هم تحت سن الثامنة عشرة ، سبعة ملايين ونصف المليون يافع .

ولذا فإننا نجد أن من بدأ التدخين في سن المراهقة أو قبلها يتعرض للأمراض الخطيرة مثل جلطات القلب وسرطان الرئة والتهابات الرئتين

المزمنة . . وانتفاخ الرئتين (الأمفيزيما) والتهابات الجهاز الهضمي وهم لما يجاوزوا ريعان الشباب .

وتقول الدراسات الطبية ، التي أجريت في الولايات المتحدة إن من ابتدأوا التدخين في سن الخامسة عشرة واستمروا يدخنون ما بين عشر إلى عشرين سيجارة يومياً فإن معدل الوفيات فيهم هي ضعف ما عليه عند غير المدخنين . . أما أولئك الذين ابتدأوا التدخين قبل سن المراهقة فإنهم يتعرضون لمخاطر مضاعفة ومعدل الوفيات بينهم عدة أضعاف أولئك الذين لا يدخنون .

نمو الأطفال :

وقد ذكرنا أن نمو الأطفال لأمهات مدخنات يتأثر حتى سن الحادية عشرة ، أما الأطفال المدخنون فإنهم لا شك يتأثر نموهم تأثراً بالغاً نتيجة تدخينهم . وبما أن التدخين يقلل الشهية ويسبب التهابات الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي المتكررة فإن ذلك يؤثر على نمو الطفل . . وللتدخين تأثير مباشر على مركز الشهية في الدماغ في منطقة تحت المهاد مما يؤدي الى فقدان الشهية .

ويقول تقرير الكلية الملكية للأطباء بلندن : وفي الغالب فإن المدخنين أقصر وأقل وزناً من غير المدخنين ، حتى بين البالغين .

ومن المشاهد أن كل من يترك التدخين يتعرض لزيادة وزنه ، وقد بلغت الزيادة في العمال ، الذين تركوا التدخين ، عشرة أرطال . . ولذا فإن على المدخنين الذين يعانون من السمنة أن ينتبهوا لهذه النقطة عندما يتركون التدخين .

اللياقة الجسمية :

لا شك أن اللياقة الجسمية تتأثر بالتدخين ، وخاصة لدى المراهقين والصغار .

ولذا فإن الأطفال والمراهقين الذين يدخنون سرعان ما يفقدون لياقتهم الجسمية .

ويبدو الطفل أو المراهق وكأنه شيخ هرم لا يستطيع أن يمارس الرياضة كما يمارسها أترابه ولداته .

لذا فإن تدخين الصغار هو أكبر مشكلة تواجه المسؤولين عن الصحة في أي بلد كان .

وينبغي أن تبذل كافة الجهود لتوعية الجماهير العريضة بمخاطر التدخين وخاصة على صغار السن .

وليس من الطرافة في شيء أن ننشر صور الأطفال الرضع وهم يمسكون بمبسم الشيشة فإن ذلك يخلق في نفوس الأطفال الآخرين حب التدخين وتقليد الكبار . .

بل إننا نعتبر نشر مثل هذه الصور كارثة لأن ذلك يشكل نوعاً من الدعاية للتدخين في سن الطفولة المبكرة ونكرر عتبنا على صحيفة المدينة الموقرة لنشرها مثل هذه الصور .

وبما أن العالم بأجمعه يحارب التدخين اليوم فإننا نطالب بحملات مكثفة ضد التدخين بدلاً من الدعاية له ، ولو بصورة غير مباشرة .

ومن الأنباء السارة ، التي نشرت مؤخراً ، أن حوالي ٣٤ مليون أمريكي قد أقلعوا عن التدخين في السنوات الماضية .

وفي يوم الخميس ٣ صفر ١٤٠٢ هـ الموافق ١٨ نوفمبر ١٩٨٢ م استجاب ثمانية عشر مليوناً من الأمريكان المدخنين لنداء جمعية السرطان الأمريكية بالامتناع عن التدخين لمدة ٢٤ ساعة ، كتجربة وبداية للتوقف نهائياً عن التدخين .

وإذا كنا قد قلدنا الغرب في مساوئه ومنها عادة التدخين فإنه لا أقل أن نقلده أيضاً في محاسنه ومنها ترك التدخين .

التلقيح الصناعي مباح شرعاً بشروط (*)

نشرت جريدة (المدينة المنورة) في عددها ٥٧٠٢ ،في الصفحة الإسلامية ، مقالاً بقلم الأستاذ سعد حسن لطفي يعلق فيه على فتوى صدرت من فضيلة مفتي تونس جاء فيها أن التلقيح الصناعي جائز شرعاً إذا كان بماء الزوج .

وقد انفعل الأستاذ سعد حسن لطفي انفعالاً شديداً لهذه الفتوى التي قال عنها إنها مخالفة للعقل والشرع معاً. وقال ما نصه، فيا لهول ما أفتى به مفتي تونس حيث أصدر فتواه بدون أن يدرس وقائع الحالة ، ثم ذكر نص الفتوى وهي :

« فإذا كان علاج حالة العقم يستدعي تلقيحاً صناعياً وذلك بحقن رحم المرأة بماء الرجل ذاته (أعني زوجها) فإن هذا التصرف مقبول شرعاً وقانوناً ، مشروع لا إثم فيه ولا حرج منه » .

وقال المفتي الموقر إن « البنوك المنوية جريمة منكرة وإن التلقيح بماء غير ماء الزوج هو زنا واستبضاع » .

وحمل الأستاذ سعد لطفي حملة شعواء على مفتي تونس ومفتي مصر وكل من تجرأ بإباحة هذا التلقيح الصناعي واتهمهم بالجهل الفاضح للطب والدين معاً .

ونحن نستغرب جرأة الأستاذ سعد حسن لطفي إذ أنه ليس طبيباً حتى

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة منذ ما يقرب من عشر سنوات. . وقد كتبت بعد ذلك بمدة كتابين عن أطفال الأنابيب والتلقيح الاصطناعي ، الأول بهذا العنوان ونشرته دار العلم (جدة) والثاني بعنوان «اخلاقيات التلقيح الاصطناعي . . نظرة الى الجذور» وقد نشرته الدار السعودية (جدة)، كما نشرت اكثر من عشر مقالات في الشرق الأوسط حول هذا الموضوع . . وشاركت في مؤتمرات فقهية وطبية متعددة حوله.

يعرف ما هو التلقيح الصناعي ، وليس فقيهاً حتى ينتقد علماء الإسلام هذا النقد الشديد .

وفتوى العلماء الأجلاء صحيحة لا غبار عليها .

فالتلقيح الصناعي هو أحد وسائل معالجة العقم وذلك في الحالات التالية :

١) قلة الحيوانات المنوية في مني الزوج ، ويعتبر عشرون مليوناً من الحيوانات المنوية في كل ملليتر من المني هو الحد الأدنى للتلقيح . فإذا كان مني الزوج يحتوي على كمية أقل من هذه فحينئذ يمكن أخذ مني الزوج وإدخاله في رحم زوجته .

٢) أن يكون الزوج سريع الإنزال بحيث لا يتم القذف في المكان المطلوب .

٣) أن يكون الزوج سليماً وتعاني الزوجة من إفرازات مهبلية حامضية شديدة وقاتلة للحيوانات المنوية ، أو أن إفرازات عنق الرحم أيضاً كثيفة وتسبب موت الحيوانات المنوية ، فعندئذٍ يمكن أن يؤخذ مني الزوج ويحقن في رحم الزوجة .

٤) أن يكون هناك تضاد بين الحيوانات المنوية للزوج ، بواسطة مضادات الأجسام ، التي يفرزها مهبل المرأة أو عنق الرحم .

وقد شنع الكاتب على العلماء الأجلاء وتحدث عن استحالة استخدام التلقيح الصناعي بين الزوجين مما يدل على عدم معرفته بهذا الموضوع .

ونحن نعتب على صديقنا الكريم محرر الصفحة الإسلامية الشيخ إبراهيم سرسيق على نشره مثل هذا المقال الذي يتهجم فيه كاتبه هجوماً عنيفاً بغير علم على علماء الإسلام الأفاضل، ودون أن يكلّف الكاتب نفسه مشقة السؤال حول إمكانية التلقيح الصناعي بين الزوجين .

والواقع أن التلقيح الصناعي بين الزوجين ليس إلا أخذ ماء الرجل وحقنه في رحم زوجته .

ولا شك أن هذا إجراء قد تتطلبه الحالة الصحية للزوج أو الزوجة كما أوضحنا

ولا عتب على العلماء الأجلاء إن هم أباحوه بالشروط التي ذكروها وهي

أن يكون ذلك بماء الزوج في رحم الزوجة كعلاج لحالة العقم التي يعانون منها.

وما عدا ذلك فقد أسموه نوعاً من نكاح الاستبضاع الذي نهى عنه الإسلام ، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب النكاح قول عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها :

« إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء . . فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ، إذا طهرت من طمثها ، ارسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع عن ذلك . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن . . ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة (وهو . . خبير الوراثة لديهم) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك » .

وهكذا أوضحت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، ببلاغتها الرائعة أنواع نكاح الجاهلية ، وهو ما نراه اليوم في المجتمعات الغربية ، بل إن هذه المجتمعات لم تصل بعد إلى مستوى الجاهلية القديمة ولو وصلوا لذلك لاعتبروه انتصاراً ضخماً للمرأة !!

وعلى كل حال فالتلقيح الصناعي بماء غير ماء الزوج هو نوع من نكاح الاستبضاع وحالة من حالات الزنا التي تعج بها المجتمعات الغربية ، ولو فرض جدلاً حصولها في بلد إسلامي فهل يقام فيها الحد ؟ ذكر العلماء أن حد الزنا لا يقام إلا أن للحاكم أن يعزرهم تعزيراً شديداً .

المشروبات الغازية والكحول(*)

لعل كثيراً من القراء لا يعلمون أن المشروبات الغازية مثل البيبسي كولا والكوكاكولا والسفن آب وغيرها ، قد أذيبت موادها الأولية بشيء من الكحول . . فما هو يا ترى حكم هذه المشروبات ، وهي تحتوي على الكحول ؟ والكحول هي روح الخمر أو سبيرتو كما يسميها العامة . .

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » ؟ بلى لقد قال ذلك . . ولكن لو شرب إنسان ما كثيراً من هذه المشروبات مثل البيبسي كولا أو السفن آب فهل يسكر ؟ من المعلوم والمتفق عليه أنه لا يسكر ولو شرب فرقاً ، فعلّة التحريم وهي الإسكار مفقودة . . وعليه فإن حديث : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » أو حديث « ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام » لا ينطبق مطلقاً على هذه المشروبات إذ لو شرب شخص ما هذه المشروبات بأي كمية كانت فإنه لا يسكر .

وعليه فإن هذه المشروبات لا يمكن أن تكون إلا حلالاً ، لأن علة التحريم مفقودة أصلاً . . وهي الإسكار . . ولأنه لا ينطبق عليها اسم الخمر ، لا لغة ولا شرعاً ولا حكماً ، ولأنها لم تخالط مادة الخمر (وهي النيء من عصير العنب الذي علا واشتد وقذف بالزبد) .

ورغم كل هذا فإن أغلب الفقهاء متفقون على أن الخمر لو أضيفت إلى سائل أو مادة استهلكت فيها الخمر استهلاكاً تاماً بحيث لم تعد تلك المادة مسكرة ، ولو شرب منها الكثير ، فإن تلك المادة تصبح حلالاً وما فيها من الخمر معفو عنه لأنه داخل في حكم المستهلك . وقد استدل الفقهاء على ذلك بفعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما أوتي بجبن من الشام وأخبر بأنه

(*) نشر هذا المقال في صحيفة المدينة (جدة).

يعقد بأنفحة نجسة فجوز صلى الله عليه وسلم أكله ولم ينه عنه . نص على ذلك (كتاب الأطعمة بالموسوعة الفقهية ، إصدار الكويت) ، وذكره السيد مطهر الغرباني في فتواه عن الكحول والكولونيا والعطور ، وذكر في التحفة لابن حجر الهيثمي على المنهاج : (وجبن شامي اشتهر عمله بأنفحة الخنزير ، وقد جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم جبن من عندهم فأكل منها ولم يسأل عن ذلك) .

وعن ابن عمر : أُتي النبي صلى الله عليه وسلم بجبنة في تبوك من عمل النصارى فدعا بسكين فسمى وقطع وأكل . (أخرجه أبو داود ورزين) .

وأخرج أحمد والبزار عن ابن عباس : «أُتي النبي صلى الله عليه وسلم بجبنة في غزاة فقال : (أين صنعت هذه ؟ فقالوا بفارس ، ونحن نرى أنه تجعل فيها ميتة . فقال : اصنعوا فيها بالسكين واذكروا اسم الله وكلوا)» .

وعليه فإن جميع هذه المشروبات الغازية مثل البيبسي كولا والسفن آب والكوكاكولا وغيرها . . هي من المشروبات الطيبة التي أباحها الله لنا رغم أن موادها الأولية قد أذيبت بشيء يسير من الكحول ، والله أعلم .

وفي كتاب الأطعمة من الموسوعة الفقهية ، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ، تحت عنوان الغازوزة ما يلي :

هي شراب حلو فيه قليل من الزيوت العطرية مشبع بغاز ثاني أوكسيد الكربون تحت ضغط أعلى من الضغط الجوي ، وقد تضاف إليه مواد أخرى تكسبه لوناً أو طعماً خاصاً . .

والزيوت العطرية الداخلة في صناعتها لا تمتزج بباقي موادها إلا إذا حلّت بإضافة جزء من الغول (الكحول) إليها . . والغول مسكر ، بل هو روح المسكرت كلها، فهو نجس عند الجمهور، وبه يتنجس الزيت والغازوزة فيحرم شربها .

هذا ما يبدو ، ولأول وهلة ، لكن إذا أمعنا النظر أمكننا أن نقول : إن إضافة الغول إنما هي للإصلاح ، فشأنها شأن إضافة الأنفحة النجسة إلى اللبن ليصير جبناً ، وقد قالوا إن الأنفحة لا تنجس اللبن بل يعفى عنها . هذا إذا قلنا إن الغول نجس ، فإن قلنا إنه طاهر ، كما قال الشوكاني ، وكما اختارته لجنة الفتوى في الأزهر ، فلا إشكال ، والله أعلم . . .

موت الدماغ(*)

إن موت الإنسان كموت أي كائن حي هو أمر طبيعي فرضه الله على كل نفس ، قال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ .

ولم تكن هناك صعوبات شتى في تشخيص الموت إلاَّ فيما ندر، فملايين الملايين من البشر أتوا إلى هذه الدنيا دون شهادة طبيب ، وغادروها دون الحاجة إلى معاينة طبيب وشهادته .

وفي العصور الحديثة ، نتيجة لحصول بعض الأخطاء ، أُوْكِلَ تحديد الحياة بدءاً ونهاية إلى الأطباء ، ولم يعد من المقبول دخول إنسان إلى الحياة دون إثبات وشهادة ميلاد يصدرها طبيب . . وكذلك لا يسمح له بالمواراة في جوف الأرض ما لم يحصل على شهادة طبيب تثبت الوفاة .

وفي ذلك خير كثير . . فلا بد أن تكون الوفاة طبيعية ، وأن يشهد بذلك الطبيب وإلا فكم من جريمة قتل بصورة من الصور (تسميم مثلاً ، وهو أمر كان شائعاً عند القدماء ، وخاصة لدى الطبقات الحاكمة) يمكن أن تتم دون أن تكتشف إذا لم يكن هناك هذا الإجراء المتشدد ، كما أن ذلك يحدّ من الوقوع في خطأ تشخيص الوفاة بينما الشخص مغمى عليه وهو لا يزال حياً .

(*) لقد نشرنا كتاباً باسم موت القلب أو موت الدماغ حول هذا الموضوع . ولكن هذا البحث يلخص القرائن الهامة التي يبني عليها الطبيب تشخيص موت الدماغ . ومن أراد التوسع فليرجع إلى الكتاب المذكور، الدار السعودية ١٩٨٦ جدة. وقد قدم هذا البحث المختصر والبحث المطول المنشور في كتاب موت الكبد أو موت الدماغ إلى مجمع الفقه الإسلامي في دورته الثانية ١٩٨٥ (جدة) ودورته الثالثة (عمان ١٩٨٦)، كما نشر هذا المقال في المجلة العربية (الرياض).

وكان تشخيص الوفاة أمراً غير عسير على الأطباء ، في الأغلبية الغالبة من الوفيات ، فلا بد أن يتوقف القلب والدورة الدموية والتنفس وما يصحبها من علامات لإعلان الوفاة ، وإذا شك الطبيب في سبب الوفاةأحال ذلك إلى الطبيب الشرعي ، أما إذا شك في بقاء الحياة استخدم وسائل أخرى للتأكد من حصول الوفاة.

ومع التقدم الطبي ، في العشرين عاماً الماضية ، بدأ استخدام أجهزة الانعاش يتطور بسرعة مذهلة ، وأمكن إيقاف القلب لعدة ساعات أثناء عمليات القلب المفتوح ، وأن يُستبدل القلب والرئتان في هذه المرحلة بمضخة ، فإذا ما تمت العملية أعاد الأطباء القلب إلى وظيفته السابقة ، بعد أن تعاد درجة حرارته بالتدريج (يثلج القلب أثناء العملية حتى يقل استهلاك الطاقة إلى أدنى درجة) ، كما تمكن الأطباء من إخراج القلب واستبداله بقلب إنسان أو قلب قرد أو قلب صناعي .

ولأول مرة في التاريخ تمكن الإنسان أن يعيش بدون قلب لعدة ساعات ، وبقلب إنسان آخر قد لاقى حتفه لعدة سنين ، ولقلب صناعي لعدة أشهر .

ولم يعد مفهوم الموت مرتبطاً بالقلب في كثير من الحالات ، وخاصة الحالات التي يصاب فيها الدماغ إصابات بالغة نتيجة الحوادث ، أو نزف داخلي في الدماغ ، أو وجود ورم بالدماغ ، ومع هذا فإن مفهوم موت الدماغ لم يشكل في بريطانيا حتى عام ١٩٨١ سوى ٨ بالألف من مجموع الوفيات. ولا يزال توقف القلب والدورة الدموية هو الأساس في تشخيص ٩٩,٢٪ من جميع الوفيات في بريطانيا ، ومثلها ، أو ما يقاربها ، في دول أوروبا والولايات المتحدة وكندا . . الخ .

موت الدماغ أو جذع الدماغ :

يموت الدماغ إذا انقطع عنه الدم لمدة أربع دقائق ، ولذلك فإن موت القلب يتبعه موت الدماغ ، ولهذا فإنه إذا لم يمكن إنقاذ القلب وإعادته إلى

العمل فإن الدماغ سيموت خلال أربع دقائق من توقف عمل القلب ، وبالتالي يعتبر مثل ذلك الشخص في عداد الموتى .

ولكن المشكلة تأتي حين يصاب الدماغ إصابات بالغة نتيجة الحوادث (سيارات ، ارتطام ، إطلاق نار ، الخ) ، أو نتيجة نزف في الدماغ أو نتيجة ورم بالدماغ ، وفي هذه الحالات قد يموت الدماغ وتقوم الأجهزة الحديثة بإنعاش القلب والتنفس وجعلهما يستمران في وظيفتهما .

وبما أن جذع الدماغ هو المتحكم في جهازي التنفس والقلب والدورة الدموية فإن توقف جذع الدماغ وموته يؤدي ، لا محالة ، إلى توقف القلب والدورة الدموية والتنفس ولو بعد حين .

وفي كثير من الحالات عندما توضع أجهزة الانعاش لا يكون الطبيب متيقناً من أن جذع الدماغ قد مات حيث تتميز تلك الحالات بالاغماء التام ، وتوقف التنفس ، وتحتاج إلى سرعة كبيرة لمحاولة الانقاذ ، وبالتالي يبقى المصاب تحت المنفسة (Ventilator) .

ولكي يشخّص الطبيب موت جذع الدماغ لا بد من مواصفات نجملها فيما يلي :

١) **الإغماء الكامل** وعدم الاستجابة لأي مؤثرات لتنبيه المصاب مهما كانت وسائل التنبيه قوية ومؤلمة ، ولو ظهرت من المصاب حركة ولو بسيطة ، أو صوت ، ولو حشرجة ، دلّ ذلك على حياة المصاب ولا يمكن بالتالي إعلان موت الدماغ .

٢) **عدم التنفس لمدة ثلاث دقائق** (شروط مجموعة هارفارد) أو أربع دقائق (مجموعة مينوسوتا) أو ١٠ دقائق (المدرسة البريطانية) بعد إبعاد المنفسة ، ويشترط لإيقاف المنفسة أن يتنفس المصاب أوكسجين ٩٥ بالمائة مع ٥٪ ثاني أكسيد الكربون لمدة ١٠ دقائق بواسطة قثطرة (Catheter) تدخل إلى القصبة الهوائية ، ويتم التنفس بواسطة المنفسة ، وذلك يؤدي إلى رفع ضغط ثاني أوكسيد الكربون في الدم إلى ٤٠ مم زئبق أو فوقها ، وهو مسؤول عن تنبيه مركز التنفس في جذع الدماغ .

فإذا لم يتنفس المصاب ، بعد كل هـذه التنبيهات لمـركز التنفس في جذع الدماغ ، يعتبر ذلك دلالة قوية على موت جذع الدماغ .

٣) **عدم وجود الأفعال المنعكسة من جذع الدماغ** وهي تتمثل في الآتي :

أ) عدم حركة بؤبؤ العين للضوء الشديد .

ب) لا يرمش المصاب رغم وضع قطعة من القطن على قرنية العين .

ج) لا تتحرك مقلة العين رغم إدخال ماء بارد في الأذن .

د) لا يقطب المصاب جبينه رغم الضغط على الجبين بالإبهام .

هـ) عدم التكعم أو الكحة عند لمس الحنك وباطن الحلق بملعقة .

٤) **عدم وجود حركة الدمية** عند تحريك الرأس (No Dolling) .

إعادة فحص وظائف الدماغ من فريق آخر ، بعد مرور عدة ساعات (٦ ساعات المدرسة البريطانية ـ ٢٤ ساعة مجموعة هارفارد) .

٥) **لا يعتبر رسم الدماغ أساسياً** في تشخيص موت الدماغ ، وإذا تـوفر كـان دليلاً إضافياً مفيداً من الناحية القانونية ، وخاصة في الولايات المتحدة .

ولا تكفي هذه الشروط لإعلان موت الدماغ ، بل لا بد أن يكون توقف وظائف جذع الدماغ مصحوباً بإصابة باثـوليجية وتشـريحية وليس فقط إصـابة وظيفية (فسيوليجية) . وهناك مجموعة من الإصابات الوظيفية التي تؤدي إلى توقف جذع الدماغ ، وبالتالي إلى توقف التنفس مع وجود الإغماء وعدم وجود الأفعال المنعكسة ، ورغم هذا كله لا تعتبر هذه الأسباب كافية لإعـلان موت الدماغ . ولا بد من إزالة الأسباب المؤقتة لتوقف وظيفة جذع الدماغ قبل إعلان موت الدماغ . وهذه الأسباب المؤقتة أو الأسباب الوظيفية التي تؤدي إلى توقف وظائف جذع الدماغ تتمثل في الآتي :

١) **العقاقير** :

وقائمتها طويلة جداً ، وتشمل الكحول والمنومات ، مثل الباربيتورات ، والمهـدئـات مثـل الفـاليـوم والليبيـريم ، والمخـدرات مثـل المـورفين والهروين ، وأدوية الصرع مثل الفيناتورين ، والأدوية المضادة للكآبة مثل

التربتلين ، والمعقلات مثل الستيلازين والكلوبرومزين ، والمسكنات مثل الأسبرين .

وقد يحدث أن يتناول الشخص كمية من أحد هذه العقاقير ، أو ما يقاربها ، كوسيلة للانتحار فيؤدي إلى حدوث توقف وظائف جذع الدماغ . . ولهذا لا بد من التريث في إعلان موت الدماغ في هذه الحالات ، حتى يزول كل أثر من آثار العقار من الجسم ويمكن أن يتبين ذلك بفحص الدم وفحص البول ، فإذا كان الدم خالياً من العقار المتهم فإن ذلك يعني زوال تأثيره من الجسم ومن الدماغ خلال بضع ساعات .

٢) برودة الجسم :

كما يحدث في الجو القارس حيث تحدث نوبة إغماء ويتوقف التنفس وتنخفض حرارة الجسم ، ولا بد في هذه الحالات من استمرار أجهزة الانعاش حتى يتم رفع حرارة الجسم إلى درجتها الطبيعية ، ولا يعلن موت الدماغ إلا بعد ذلك .

٣) التسمم نتيجة الغازات السامة وغاز أول أوكسيد الكربون :

قد يؤدي التسمم إلى توقف وظائف جذع الدماغ ، ولهذا لا بد من إزالة السموم من الجسم أولاً والاستمرار في الانعاش حتى يتّضح أن تأثير المواد والغازات السامة قد انتهى من الجسم ، ثم يمكن بعد ذلك إعلان موت الدماغ .

٤) زيادة البولينا في الدم :

قد يؤدي فشل الكلى إلى الغيبوبة التامة وإلى توقف وظائف جذع الدماغ ، ولهذا لا بد من خفض البولينا في الدم بواسطة الديلزة (الكلى الصناعية) قبل إعلان موت الدماغ .

٥) نقص السكر أو زيادته في الدم :

قد يؤديا إلى الغيبوبة التامة وإلى توقف وظائف جذع الدماغ ، ولا بد من إعادة توازن السكر في الدم إلى وضعه الطبيعي قبل إعلان موت الدماغ .

٦) نقص الهرمونات أو زيادتها في الدم :

قد يؤديا إلى توقف وظائف جذع الدماغ مؤقتاً ، ولا بدّ من إعادة هذه الهرمونات إلى وضعها الطبيعي قبل إعلان موت الدماغ .

٧) حالات الغرق وتوقف القلب الفجائي :

التي يتم إنعاشها بالوسائل الحديثة ، وفي نفس الوقت يظهر للأطباء ، من الفحوصات الخاصة بجذع الدماغ ، أن هذا الجذع قد توقف عن وظيفته مما أدى إلى الإغماء وتوقف التنفس ، وفي هذه الحالات لا يتم إعلان موت جذع الدماغ إلا بعد رفع الأوكسجين في الدم لفترة لا تقل عن ٢٤ ساعة .

٨) الحالات التي أجري لها عمليات كبيرة في الدماغ :

مثل ورم في الدماغ أو نزف تحت الأم العنكبوتية (Subarchnoid hoemorrhage) أو وجود أم الدم (Aneurysm) في الدماغ ، وفي هذه الحالات قد يحدث توقف لوظائف جذع الدماغ من إغماء تام وتوقف عن التنفس ، ولهذا لا يمكن إعلان موت جذع الدماغ قبل مرور ٢٤ ساعة على الأقل .

٩) أخماج (إنتانات) ميكروبية (فيروسية وبكترية) تصيب جذع الدماغ :

بالإضافة إلى إصابة مناطق أخرى من الدماغ ، وقد يؤدي ذلك إلى توقف لوظائف جذع الدماغ ، ولا بدّ ، في هذه الحالات ، من الاستمرار في أجهزة الانعاش رغم توقف وظائف جذع الدماغ حتى يتبين بوضوح وجلاء تام عدم وجود توقف وظيفي (فسيولوجي) مؤقت لجذع الدماغ ، وأن هناك إصابة دائمة نتيجة هذا الغزو الميكروبي .

١٠) في حالات الشك ، وخاصة في الأطفال ، تُجرى فحوص إضافية وهي :

أ) **حقن شرايين الدماغ الأربعة** ، فإذا لم توجد دورة دموية في الدماغ كان ذلك دليلاً قاطعاً على موت الدماغ .

ب) **إجراء الفحص السابق بواسطة المواد المشعة** (Radionuclide) ، وميزة هذا الفحص سهولته النسبية ، وأنه يمكن إجراؤه دون الحاجة لنقل المريض من غرفة الانعاش إلى غرفة الأشعة .

إعلان الوفاة وأجهزة الانعاش :

عند ثبوت تشخيص موت جذع الدماغ وعدم وجود أي من الأسباب المؤقتة لتوقف وظائف الجذع يكتب الأطباء المختصون شهادة بوفاة ذلك الشخص .

أما بالنسبة لأجهزة الانعاش فإنها توقف إلا إذا كان المصاب، أو ذووه، قد وافقوا على التبرع بأعضائه ، وفي هذه الحالة تستمر أجهزة الانعاش حتى تستمر الدورة الدموية وبالتالي تكون الأعضاء التي ستنتزع في أفضل حالاتها .

وبما أن القلب بالذات سريع التلف ، ولا فائدة من نقل قلب تالف إلى شخص آخر لإنقاذه ، فإن الحاجة تبدو واضحة لاستمرار أجهزة الانعاش لبضع ساعات حتى يتم نزع القلب والأعضاء الأخرى المتبرع بها وهي في حالة جيدة يمكن أن تعمل في شخص آخر .

في هذه الحالات المحدودة يتم إعلان موت الشخص بينما القلب لا يزال ينبض والتنفس لا يزال مستمراً وإن كان بواسطة الأجهزة.

وهذا هو الذي جعل كثيراً من الفقهاء ، ورجال القانون ، يترددون في إعلان الوفاة لمثل هذا الشخص .

ولكن إذا اتضحت الصورة بجلاء ، وهو أن تشخيص جذع الدماغ يعني أساساً توقف التنفس التلقائي توقفاً تاماً لا رجعة فيه ، أدركنا أن الفروق الجوهرية محدودة جداً ، وبالتالي يجعل تشخيص موت الدماغ ، أو جذع الدماغ ، مقبول من الناحية الشرعية إذا اتخذت كافة الاحتياطات اللازمة في تشخيص جذع الدماغ كما أسلفنا ، وذلك بعدم تشخيص موت جذع الدماغ في الحالات التي تتوقف فيها وظائف جذع الدماغ مؤقتاً ، وبالتالي لا يمكن تشخيص موت جذع الدماغ إلا بعد التيقن من توقف تام لا رجعة فيه لوظائف جذع الدماغ مع وجود إصابة مرضية (باثوليجية) وتشريحية .

ولا غضاضة في استمرار أجهزة الانعاش بعد إعلان الوفاة ، من أجل

الحصول على أعضاء في حالة جيدة ، إذ أن الشخص قد مات فعلا ، وهـذه التروية بأجهزة الانعاش ليست إلا إحدى الوسائل المتعددة التي تستخدم لحفظ الأعضاء في حالة تصلح للاستخدام ، ومن المعلوم أن الأعضاء بعد انتزاعهـا من الجثة تحفظ في سائل معين ، وفي درجة بـرودة معينة ، ويمكن أن تبقى محفـوظة لفتـرة من الزمن كمـا يمكن نقلهـا بـالـطائـرة من بلد إلى بلد آخـر واستخدامها لانقاذ شخص آخر يوشك أن يحتضر .

وعليه فإن الاحتفاظ بهذه الأعضاء بواسطة أجهزة الانعاش لبضع ساعات أمر لا غبار عليه ولا يغير من حقيقة الوفاة شيئاً .

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
هل هناك طب نبوي(١)	٩
هل هناك طب نبوي (٢)	٢٤
هل هناك طب نبوي (٣)	٣٣
قبسات من الطب النبوي [١]: العلم الحديث يكشف عن حكمة صيام الأيام البيض	٥٢
قبسات من الطب النبوي [٢]: الإعجاز الطبي في أحاديث العدوى	٥٧
قبسات من الطب النبوي [٣]: الإعجاز الطبي في أحاديث الجذام	٧٧
قبسات من الطب النبوي [٤]: لا تداوِ أحداً حتى تعرف داءه	٨٩
قبسات من الطب النبوي [٥]: موت الفجأة	٩٣
قبسات من الطب النبوي [٦]: التداوي بالخمر	١٠٩
مراحل خلق الانسان في الأحاديث النبوية	١٢٠
الحكمة من تحريم الجماع أثناء الحيض	١٤٧
الرعاية الصحية للطفولة والأمومة في الاسلام	١٥٥
هل للمرأة دور في جنس الجنين	١٦٤
العلم الحديث يكشف سراً من أسرار الطواف	١٦٩
متى تنفخ الروح في الجنين	١٧٣
الروح التي بها حياة البدن	١٧٧

تمريض ومداواة النساء للرجال . . والعكس ١٩٠
نصائح من أبي بكر الرازي للمريض والطبيب ١٩٦
استعمال حبوب منع الحمل دون إرشاد الطبيب ٢٠٠
منع الحمل وحكمه في الاسلام ٢٠٤
مدة الحمل وأقله وأكثره في الطب والشرع والقانون ٢١٨

وقائع من العيادة: (١) منع الحمل عند بداية الزواج ٢٣١
(٢) حبوب منع الحمل ٢٣٣
(٣) نصائح مجانية ٢٣٤
(٤) قلة الشهية نعمة ٢٣٦
(٥) هل يجوز إسقاط الحمل؟ ٢٣٧
(٦) الكورتيزون لفتح الشهية ٢٣٩
(٧) وصفة طبية بريالين ٢٤٠

رحلة الأيام : الاحتفال بأكل الهلال والتركي ٢٤٢
بلى إن هناك حكمة ٢٤٤
تطور العقيدة عند العقاد ومصطفى محمود ٢٥٢
الأسرار الإلهية في علم الوراثة ٢٦٢
خلود المخلوقات الدنيا خرافة ٢٦٩
حوار حول تدريس الطب باللغة العربية ٢٧٤
الترجمة في عصر المأمون والترجمة في العصر الحديث ٢٧٨
إجراء العملية بدون علم المريض عمل غير أخلاقي ٢٨٦
المراكز الطبية المتقدمة أم الوقاية ؟ ٢٨٩
كتب تزعم أن لحم الهر يشفي من السل وملعقة سبرتو
علاج السكر ٢٩٣
ما يجب أن تعرفه عن مرض السكر ٢٩٨
التدخين في العالم الثالث ٣٠٢
وقفة مع التدخين والمدخنين ٢١٩

مشكلة التدخين مرة أخرى ٣٢٢
الشمة خطر يهدد المدمنين بالأمراض الخبيثة ٣٢٦
التدخين في المملكة العربية السعودية : معلومات إحصائية ٣٣٣
تدخين الرضع ٣٣٨
التلقيح الصناعي مباح شرعاً بشروط ٣٤٢
المشروبات الغازية والكحول ٣٤٥
موت الدماغ ٣٤٧
الفهرس ٣٥٥

كتب للمؤلف

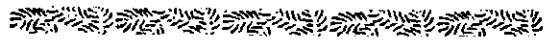

١) الخمر بين الطب والفقه .
٢) العدوى بين الطب وحديث المصطفى .
٣) التدخين وأثره على الصحة .
٤) خلق الانسان بين الطب والقرآن .
٥) دورة الأرحام .
٦) عمل المرأة في الميزان .
٧) المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ .
٨) الصوم وأمراض السمنة .
٩) الوجيز في علم الاجنة القرآني .
١٠) الأمراض الجنسية اسبابها وعلاجها .
١١) افغانستان من الفتح الاسلامي الى الغزو الروسي .

وله باللغة الانجليزية

1) Human Development As Revealed in the Holy Quran and Hadith